كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان

المقدسي الدمشقي الشافعي

المعروف بأبي شامة

المتوفى سنة ٦٦٥هـ

وضع حواشيه وعلق عليه

إبراهيم شمس الدين

٣ـ٤

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3329-2
9782745133298 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

[امتناع ابن المقدم عن المجيء إلى دمشق خوفاً من انتزاع بعلبك منه، وسير صلاح الدين إلى حمص وعزمه على الجهاد]

ثمّ دَخَلَتْ سنةُ أَرْبَعٍ وسَبْعِين وخَمْسِمائَةٍ

قال العمادُ[1]: وكان شمسُ الدِّين بن المُقَدَّم[2] من أكابر الأمراء، وهو السَّابق إلى مكاتبة السُّلْطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشَّام، وتدارك أمر الإسلام، وكان السُّلْطان عند تسلُّم بَعْلَبَك أَنْعَمَ بها عليه، ورَدَّ أمورها إليه، فأقام بها مستقراً، ولأخلاف[3] أعمالها مستدرّاً. ولما وصل السلطان في هذه النَّوْبة إلى الشَّام لم يَحْضُر - كما جَرَتِ العادَةُ - للخدمَةِ والسَّلام، فإنه كان نَمَى إليه أن الملك المُعَظَّم فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طَلَبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرَّدُّ، فخاف من الحضور أن تتمَّ الأمور، ورُوجِعَ في ذلك مراراً سِرًّا وجِهاراً، والتزم له أن يُعوَّض عنها ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإباء، وشارفَ السُّلْطان منه ومن أخيه الحياءَ. وشمس الدولة لا يقبَلُ عُذْراً ولا يرى عما طلبه صبراً. ثم استأذن أخاه في التوجُّه إليها، فأذِنَ له، وتوجَّه عِزُّ الدين فَرُّخْشاه إلى حَوْران لحفظ الثُّغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازماً على الجهاد.

[كتب من القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين]

ووردَتْ من الفاضل كتبٌ، من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شُرِعَ فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدِّية إلى

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٢ - ٩٣: ذكر الأمير شمس الدين بن المقدم وهو محمد بن عبد الملك.

(٢) هو محمد بن عبد الملك، من كبار أمراء الدولة الزنكية والأيوبية، وهو الذي ساعد صلاح الدين في البداية في السيطرة على دمشق وبلاد الشام. وأخباره متناثرة في مصادر تاريخ هذه الفترة.

(٣) الأخلاف: جمع خلف، وهو ضرع الناقة، وكل ذات خف وظلف.

السَّاحل بالمقسم[١]، والله يُعمِّر المولى إلى أن يراه نِطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سِوَاراً يكونُ به الإسلام مُحلَّى اليدين، مُحَلاً الضِّدَّين. والأمير بهاء الدين قَرَاقوش ملازمٌ الاستحثاثَ بنفسه ورجاله، لازمٌ لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله[٢].

ومنها في حَقِّ نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عَصْرُون لما ذهب بصرُه إلى ولده[٣]: لن يخلو الأمر من قسمين ـ والله يختار للمولى خِيرَةَ الأقسام، ولا ينسى له هذا التحرُّج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام ـ إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته، وفتياه وبركته، ويتولَّى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوَّل زلَّة، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حبُّ المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصَّالحة. وإما أن يُفَوَّض الأمر إلى الإمام قُطْب الدين، فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدَّم عليه في بلد إلا مَنْ هو أرفعُ طبقةً في العِلْم منه.

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد[٤]: وأما تأسُّف المولى على أوقاتٍ تنقضي عاطلةً من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها[٥]، وتجدُّد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نيَّةُ رُشْده، وأليس[٦] اللَّهُ العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسألُ الفاعل عن تَمام فعله، لأنه غير مقدورٍ له، ولكن عن النيَّةِ لأنها محلُّ تكليف الطَّاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة. وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد[٧]، وتنظيف[٨] الطُّرُقِ إلى المُراد، فهو في طاعةٍ قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أملٍ في نُجْح موعدها، والثَّواب على قدر مشقَّته، وإنما عَظُمَ الحجُّ لأجل جُهده وبُعْدِ شُقَّته، ولو أنَّ المولى فتح الفتوحَ العِظام في أقلِّ الأيَّام، وفَصَلَ القضيَّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت

(١) المقسم: قال في حاشية رقم ٢ من صفحة ٥٢ ـ ٥٣، من كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»: المقسم مرادف للمقس والمكس، ويدل على قرية كانت واقعة على شاطئ النيل.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٧ ـ ٩٨: فصل من كتاب في معنى السور.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٨: فصل من كتاب آخر في حق نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عصرون إلى ولده لما ذهب بصره.
(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ٩٩ ـ ١٠٠: فصل منه في إقامة عذر التأخر عن الجهاد.
(٥) في البرق الشامي: التي خرج من بيته مهاجراً لأجلها.
(٦) في البرق الشامي: أو ليس.
(٧) في البرق الشامي: وإذا كان المولى يسبب الأسباب إلى الجهاد.
(٨) في البرق الشامي: وينظف.

تكاليفُ الجهاد قد قضيت، وصحائفُ البرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت.

ومنها في ذكر أولاد السُّلْطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنبشِّر بما جرت العادَةُ به، لا قطع اللَّهُ تلك العادة، من سلامةٍ وصحَّةٍ وعافيةٍ شَمَلتْ موالينا أولاده السَّادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولي وإلى المولى عنهم، وعجَّل لقاءه لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم بل كلٌّ منهم ملكٌ دَسْتُه برجُه، وفارسٌ مهده سَرْجُه، فهم ـ بحمد الله ـ بهجةُ الدُّنيا وزينَتُها، وريحان الحياة وزهرتها، وإنَّ فؤاداً وسعَ فراقَهم لواسعٌ، وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانع، وإنَّ طَرْفاً نام على البُعْد عنهم لهاجع، وإن ملكاً مَلَكَ تصبُّرَه عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمةٌ بها العيشُ ناعم، أما يشتاقُ جِيدُ المولى أن يتطوَّق بِدُرَرِهم؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروَّى بنظرهم؟ أما يحنُّ فيه على قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه؟ وللمولى ـ أبقاه الله تعالى ـ أن يقول: [الطويل]

وما مِثْلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةٌ ... ولكنَّ قلبي في الهوى بقلوبِ

وفي أخرى[(١)]: والمملوك الأولاد في كَفَالة العافية لا رَفَعَتْ عنهم كفالتها، وعليهم جلالةُ السلطنة لا فارَقَتْهم جَلالَتُها، وكلٌّ من الموالي السَّادة الأمراء الأولاد، والقِلادة كلُّها جوهر، وكلُّها المقدَّم، وليس فيهم ـ بحمد الله ـ من يؤخَّر، على ما عوَّد الله من صحَّةٍ وسلامةٍ وكفايةٍ ووقاية، ولزوم المستقلِّ منهم لمشهد الكُتَّاب ولموقف الآماج[(٢)]، ومخايل الخَفَرِ[(٣)] فيهم من تحت ليل الصِّبا أنورُ دلالةً من ضوء السِّراج، والله تعالى يمدُّ في عُمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جَدُّهم ـ رحمه الله ـ في أهل بيته من البطن الرَّابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرةٌ وتبابعة: [الكامل]

وكافيهم[(٤)] عِنْدَ العلاءِ صغيرُ ... وصِغَارُ أبناءِ الكِبارِ كِبارُ

نجومُ الأرض، وذُرِّيَّة بعضُها من بعض، والخلف الصَّالح المحض[(٥)]، وهم في الدُّنيا والآخرة فُرْسان القوَّة والتُّقى يوم الحرب ويوم العَرْض.

ومنها في ذمِّ ماء دمشق ووخمها[(٦)]: عرف المملوك من الكتب الواصلة

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠٠ ـ ١٠١: فصل في ذكر أولاد السلطان.

(٢) الآماج: جمع أمج، وهو شدة الحر والعطش.

(٣) في البرق الشامي: الخير.

(٤) وكافيهم: كذا بالأصل، وفي البرق الشامي: ما فيهم.

(٥) في البرق الشامي: والخلف الصالح المحض من الخلف الصالح المحض.

(٦) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠١: فصل في ذم ماء دمشق ووخمها.

التياث جسم المولى الأمير عثمان[١]، والحقير مما ينالُ ذلك الجسمَ الكريم، يوقدُ في قلوب الأولياء الأثر العظيم. و: [الطويل]

قـليـلُ قَـذَاةِ الـعَـيْـنِ غَـيْـرُ قـلـيـلِ

وماذا يقول في بلدٍ لو صحَّت الحِمْيةُ من مائه لكانت من أكبر أسباب صحَّةِ المحتمي[٢] وشفائه، فإنه ماءٌ يؤكل، وبقيَّةُ المياه تُشْرَب، ويجدُ وخامَتَه من ينصف ولا يتعصَّب.

ومنها[٣]: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظَّاهرة، وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتةٍ[٤] من عصمة، وتطهير كل موسومة بوصمة، فاللَّهُ يثيب المولى ثوابَ من غَضِبَ ليُرْضِيَه بغضبه، وحَمَلَ الخَلْقَ على مِنْهاج شَرْعه وأدبه.

ثم أورد العماد فصولاً كثيرةً، وقال: إنما أوردتُ الفصول الفاضلية، لأنَّ في كل فصلٍ منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة[٥].

فَـصْـلٌ

[ذكر ما أسقطه السلطان صلاح الدين من مكس مكة عن الحاج]

قال العماد[٦]: ومن جُملة ما أغفلتُه ذِكْر ما أسقطه السلطان من مَكْس مكة ـ شَرَّفها الله تعالى ـ عن الحاجِّ، وتعويض أميرها بجلاب غَلَّة تُحمل إليه في كُلِّ سنةٍ، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضَّرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌّ حُبِسَ حتى يؤديَ مَكْسَه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيراً لا يملك، فهو يحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفة ولا

(١) هو الملك العزيز عثمان بن يوسف بن شاذي، عماد الدين، ولد سنة ٥٦٧هـ. وتوفي سنة ٥٩٥هـ. تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.
(٢) في البرق الشامي: المحميّ.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠٣: فصل من كتاب آخر في المنكرات وإزالتها.
(٤) المبتوتة: المرأة المطلقة طلاقاً باتاً.
(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠٥.
(٦) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠٥.

تُدْرَك. فقال السُّلْطان: نريد أن نُعوِّض أميرَ مكَّة عن هذا المكس بمالٍ، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعاً استوعبها ارتفاعاً وانتفاعاً، فلا يكونُ لأهل مكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ قمح إلى ساحل جُدَّة، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدَّوْلة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومَنْ هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفاً، وخلَّد بها إلى قيام السَّاعة معروفاً، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البِشْرُ وزال العُبوس، واستمرتِ النُّعمى وزال[(١)] البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين[(٢)].

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه[(٣)]: من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عَهْدَ لملكٍ من ملوك الدِّيار المِصْرية بالحُصول على فخرها وأَجْرها، انقطاع المكَّاسين عن جُدَّة وعن بقية السَّواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة، مقيم بحجة الله في الحجِّ؛ فقد كانت الفُتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه أن يتوخَّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَرَ فيهما على خيرٍ فأضاع فُرْصَتَه بترك البِدَار. وغير خافٍ عن مولانا همَّة الفرنج بالقدس بَرًّا وبحراً، ومركباً وظَهْراً، وسِلْماً، وحَرْباً، وبُعْداً وقُرْباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنفٌ في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نُصْرة أهليه بالأرواح والأموال على مَرِّ الأيام. ومعاذ الله أن يستبصروا في الضَّلال، ونصرف نحن عن الحقِّ وتضيق بنا في التوسعة على أهله سَعَة المجال[(٤)].

المملوك في مستهل رجبٍ بمشيئة الله تعالى يُعَوِّل على السَّفَر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسَّائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفُسْحَة وضع المكس خَلْقٌ لا يحصى، والمولى شريكٌ في أجرهم، فليَهْنه أن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وأنَّ المولى عَمَرَ بيت الله، فمن كرمه ـ سبحانه ـ أن يَعْمُرَ

(١) في البرق الشامي: ومرّ.
(٢) في البرق الشامي إضافة وهي: وكان الله في هذه الخيرات الموفق المعين.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/١٠٦: فصل من الإنشاء الكريم الفاضلي في خبر الجلّاب ووصولها إلى برّ الحجاز.
(٤) في البرق الشامي إضافة وهي: ولا يذكّر المملوك من المولى إلا ذاكراً، ولا يستنصر من عزمه إلا من جعله الله لدينه ولدولة دينه ناصراً.

بيت المولى، وما أشدَّ خجل الملوك[١] من النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا وصَّى للمطيع[٢]، ولكن للغائب حُجَّته[٣].

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاجّ يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير الأندلسي[٤] من قصيدةٍ له يمدح بها صلاح الدين ـ وستأتي فيما بَعْدُ ـ أخبرني بها ثِقَةٌ نقلها من خطِّه: [المتقارب]

رَفَعْتَ مغارِمَ مَكْسِ الحجاز ... بإنعامك الشَّامل الغامِرِ
وأمَّنْتَ أكنافَ تلكَ البلاد ... فهانَ السَّبيلُ على العابِرِ
وسُحْبُ أياديكَ فَيَّاضَةٌ ... على واردٍ وعلى صَادِرِ
فكَمْ لك بالشَّرْق من حامِدٍ ... وكم لك بالغَرْبِ من شاكر
وكم بالدُّعاء لكُمْ كلَّ عام ... بمكَّةَ من مُعْلنٍ جاهرِ
وقد بقِيَتْ حسبةٌ في فلانٍ ... وتلكَ الذَّخيرَةُ للذَّاخِرِ
يُعَنِّفُ حُجَّاجَ بيتَ الإلٰهِ ... ويسطو بهمْ سَطْوَةَ الجائرِ
ويكْشِفُ عَمَّا بأيديهِمُ ... وناهِيكَ من موقفٍ صاغِرِ
وقد وَقَفُوا بعدما كُشِفُوا ... كأنهمُ في يَدِ الآسِرِ
وَيُلْزِمُهُمْ حَلِفاً باطلاً ... وَعُقْبى اليمينِ على الفاجرِ
وإنْ عَرَضَتْ بينَهُمْ حُرْمَةٌ ... فليس لها عنه من ساتِرِ

---

(١) في البرق الشامي: المملوك.
(٢) في البرق الشامي: ابن اللمطي.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٠٧: فصل من الإنشاء الكريم الفاضلي عند عزمه على الحج في هذه السنة.
(٤) ابن جبير الكناني: هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني، أبو عبد الله (كذا في كشف الظنون) البلنسي الشاطبي الأندلسي المالكي، صاحب الرحلة المشهورة، كان مولعاً بالترحل والتنقل، ولد سنة ٥٤٠هـ في بلنسية، وزار المشرق ثلاث مرات: الأولى ٥٧٨ ـ ٥٨١هـ. وهي التي ألف فيها رحلته، والثانية ٥٨٥ ـ ٥٨٧هـ، وكان فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ من أقوى أسبابها، إذ أراد أن يجمع زيارة المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، والمسجد الحرام، والرحلة الثالثة سنة ٦٠١هـ، ووصل مكة سنة ٦٠٢هـ. فجاور فيها طويلاً، ثم جاور ببيت المقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام فيها حتى وفاته سنة ٦١٤هـ، له من المؤلفات: «رحلة ابن جبير الكناني» مشهور ومطبوع، «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح»، «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان». (كشف الظنون ٦/ ١٠٩، نفح الطيب ٣/ ١٣٨ ـ ١٤٥، ٢٣٤ ـ ٢٤٢، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٤٥ ـ ٤٧).

أليس يخافُ غداً عَرْضَهُ على الملكِ القادرِ القاهرِ
أليس على حُرَمِ المسلمين بتلك المشاهِدِ من غائرِ
ألا حاضِرٌ نافعٌ زَجْرُهُ فيا ذِلَّةَ الشاهد الحاضرِ
ألا ناصِحٌ مُبْلِغٌ نُصْحَهُ إلى الملك الناصر الظافرِ
ظلومٌ تَضَمَّنَ مالَ الزكاةِ لقد تَعِسَتْ صَفْقَةُ الخاسرِ
يُسِرُّ الخيانةَ في باطنٍ وَيُبْدِي النَّصيحَةَ في الظَّاهِرِ
فأوْقِعْ به حادثاً إنه يُقَبِّحُ أُحْدُوثَةَ الذَّاكرِ
فما للمناكِرِ من زاجرٍ سِوَاك وبالعُرْفِ من آمرِ
وحاشاكَ إنْ لم تُزِلْ رَسْمَها فما لك في النَّاس من عاذِرِ
وَرَفْعُك أمثالَها موسِعٌ رداءَ فَخَارِكَ للنَّاشِرِ
وآثارُكَ الغُرُّ تبقى بها وتلكَ المآثر للآثِرِ
نَذَرْتُ النَّصيحةَ في حَقِّكُمْ وَحُقَّ الوَفاء على النَّاذِرِ
وَحُبُّكَ أنطقني بالقريض وما أبتغي صِلَةَ الشَّاعِرِ
ولا كان فيما مضى مكسبي وبِئْسَ البِضَاعَةُ للتَّاجِرِ
إذا الشِّعْرُ صار شِعَار الفتى فَنَاهِيكَ مِنْ لَقَبٍ شاهِرِ
وإنْ كان نَظْمِي له نادراً فقد قيل لا حُكْمَ للنَّادِرِ
ولكنَّما خَطَراتُ الهوى تَعِنُّ فَتَلْعَبُ بالخاطِرِ
أما وقد زَانَ تلك العُلا فقد فازَ بالشَّرَفِ الباهِرِ
وإن كان منك قَبُولٌ له فتلك الكَرَامَةُ للزَّائرِ
ويكفيه سَمْعُكَ من سامعٍ ويكفيه لَحْظُكَ من ناظِرِ
وَيُزْهَى على الرَّوْضِ غِبَّ الحيا بما حازَ مِنْ ذِكْرِكَ العاطِرِ

[وفاة مهذب الدين ابن النقاش]

قال العمادُ: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي الحكيم مهذَّبُ الدين أبو الحسن علي ابن عيسى المعروف بابن النَّقَّاش البغدادي[1] بدمشق، وكان كنعته

(١) ولد ببغداد، وتعلم بها، واشتغل بصناعة الطب على رئيس أطباء بغداد أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠، قدم الشام ودخل في خدمة نور الدين محمود بن زنكي حتى توفي نور الدين، ثم خدم طبيباً لصلاح الدين بعد ملكه دمشق، توفي =

مهذَّباً، ومن الملوك لتفرُّده بفضله مُقَرَّباً، وهو مُبَرِّزٌ في فَنِّه حتى أن من شدا شيئاً من الطبِّ تبجَّح بأنه قرأ عليه، وتردَّد لاستفادته إليه، وقد راضته العلومُ الرِّياضية، وأحكمت أخلاقَهُ المعارفُ الحكميَّة.

[وفاة نجم الدين بن مصال]

وفي الثَّاني عشر من جُمادى الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مَصَال[١] بمصر، وجاءنا نعيه ونحن بحمص، فجاوز اغتمامُ السُّلْطان بِرُزْئه حَدَّه، وجلس في بيت الخشب مستوحشاً وَحْدَه، وقال: لا يخلفُ الدَّهْرُ لي صديقاً مثلَه بعده. وأجرى ما كان له جميعه لولده، وحفظ عهدَه، وكان لجماعةٍ من الأعيان والشُّعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزقٌ بَقَّاه عليهم، كأنه عليه مستحق.

[إغارة الفرنج على حماة وانهزامهم]

وفي العَشْر الأوَّل من ربيع الآخر أغارت طائفةٌ من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورَسْ بن خُمارْتِكِين صاحب حصن بو قُبَيْس[٢]، فأسر المقدَّمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السُّلْطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السُّلْطان بضرب أعناقهم، وأن يتولَّى ذلك أهلُ التُّقى والدِّين من الحاضرين. فتقدَّم إمامه الضِّياء الطَّبَري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي[٣]، ثم الأمير ايطُغان بن ياروق[٤]، واستدعيَ العمادُ وأُمِرَ بذلك، فلم يفعل، وطلب أنْ يملِّكه السلطان منهم صغيراً، فعوَّض عنه[٥].

= يوم السبت ١٢ محرم سنة ٥٧٤هـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ص٦٣٥ ـ ٦٣٦).

(١) نجم الدين بن مصال: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وكان والي الإسكندرية عندما حوصر بها صلاح الدين سنة ٥٦٢هـ في حملة شيركوه الثانية على مصر. وانظر البرق الشامي ٣/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) كان ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقبيس قد قتل سنة ٥٧٠هـ، عندما قفز الإسماعيلية على صلاح الدين بتآمر من الحلبية، ويبدو أن ولده تولى مكانه. انظر الكامل في التاريخ ١٠/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) في البرق الشامي ٣/ ١٣٠: سليمان الربوي المغربي.

(٤) في البرق الشامي: آقطغان بن ياروق، وكان من الأمراء الياروقية التركمان الذين دخلوا في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، وكان لذلك أثره في تغيير موازين القوى في الصراع بينه وبين باقي الإمارات الإسلامية الأخرى وفي حرب الفرنجة، ويبدو أنهم دخلوا في خدمة صلاح الدين.

(٥) انظر البرق الشامي ٣/ ١٢٨ ـ ١٣١: ذكر الظفر بخيل ورجل للفرنج أغارت على بلد حماة في العشر الأول من شهر ربيع الآخر.

[رحيل صلاح الدين إلى بعلبك ثم دمشق]

ثم رحل السُّلْطان على طريق الزراعة إلى بَعْلَبَك، فنازلها محاصراً من غير قتالٍ، فطال أمرها، ولم يسمح بها صاحِبُها، ودخل فَصلُ الشِّتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكَّل بها من يحصُرُها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طُغْرُل الجاندار، ودخل إلى دمشق في العَشْر الأواخر من رجب، وتمادى الأمرُ إلى أن رضي ابنُ المقدَّم بحصن بعرين وأعماله، وببلد كفرطاب وأعيان نواحٍ وقرًى من بلد المعرَّة، وسَلِمَ بتسليم بَعْلَبك من المَضَرَّة والمَعَرَّة. وكان الذي أخذه أكثر وأنفع من الذي خلّاه، وما خطر بباله ما حصل له ولا ترجّاه ولا تمنّاه[1].

فَصْل

كالذي قبله في حوادث متفرِّقة

قال العماد[2]: وكتب النوَّاب بدمشق إلى السُّلْطان أن الأموالَ ضائِعةٌ، وأن الأطماعَ فيها راتعة، وأنَّ في أرباب الصَّدَقات أغنياء لا يستحقونها، وما لهم رِقْبَةٌ من الله يتقونها، وأنَّ أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وأنَّ المصلحة تقتضي إفراد جهات لما يسنَحُ من مهمات. وكانت الصدقاتُ مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولا تكدِّر على ذوي الآمال مواردَ العطاء. فقلتُ: أما أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لا، بل نَزِّهْني عن هذه الأشياء. فبقيت تلك الرُّسوم دارَّة، والآمال بها سارَّة.

[وفاة متولي القياس بمصر، ونبذة عن المقياس وتاريخه]

قال[3]: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولِّي المقياس بمصر، ففوَّض السُّلْطان منصبه إلى أخيه.

قال: وهذا المقياس موضعٌ مبنيٌّ من عهد خلفاء بني العَبَّاس لتعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود في الماء مقسومٌ بالأذرع، والأذرع مقسومةٌ

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ١٣٤ ـ ١٤٠: ذكر الرحيل إلى بعلبك.
(٢) البرق الشامي ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨: ذكر مكرمة للسلطان.
(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٤٤: ذكر المقياس بمصر ووفاة متوليه عبد السلام بن أبي الرداد ليلة الاثنين السادس من شعبان.

بالأصابع، في مسجدٍ ينوب في الجزيرة عن الجامع، تُصَلَّى فيه الجماعات والجُمَع، ويتولَّاه من العهد القديم متولٍ من ولد أبي الرَّدَّاد[١] ممن هو معروفٌ بالنَّزاهة والعِلْم والسَّداد، وله راتبٌ دارٌّ، ورسمٌ وقرار.

قلت: بلغني أن أبا الرَّدَّاد هذا كان معلِّماً من أهل الصِّدْق والصَّلاح، رتَّبه جعفرُ المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده، وقرأت في «تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر» لأبي سعيد بن يونس[٢] قال: عبد الله بن عبد السَّلام بن الرَّدَّاد العَمِّي[٣]، بصريٌّ قَدِمَ مصر، وحدَّث بها، وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ستٍّ وستين ومائتين[٤]. وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضاً، وقال فيه: وُلِدَ هو وأبوه بمصر.

[وقوع القحط والغلاء والوباء]

قال ابن الأثير[٥]: وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة اشتدَّ الغلاء، وعمَّ أكثر البلاد: العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشَّام، وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى أكثر سنة خمس وسبعين، وخرج النَّاس في البلاد يستسقون، فلم يُسْقَوا، ثم إن الله تعالى رَحِمَ عباده، ولَطَفَ بهم، وأنزل عليهم الغيثَ، وأرخص الأسعار. ومن عجيب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل إنسانٌ تركماني قد أثَّر فيه الجوع، وكأنه قد أُخرج من قبرٍ، فبكى وشكا الجوع، فأرسلتُ من اشترى له خُبْزاً، فتأخَّر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرَّغ على الأرض، فتغيمت السماء، وجاءت نقط مطرٍ متفرِّقة، وضجَّ الناس، ثم جاء الخبزُ، فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشى، واشتدَّ المطر، ودام من تلك السَّاعة،

---

(١) في البرق الشامي: من بني الرداد.

(٢) قال حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٣٠٤: هناك تاريخان لابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصدفي المتوفى سنة ٣٤٧هـ. أحدهما: وهو كبير لأهل مصر. والآخر: وهو صغير للغرباء الواردين إليها. ثم قال في تراجم المؤلفين ٥/ ٥١٤: عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف بن عبد الأعلى الصدفي الحافظ، أبو سعيد المصري، ولد سنة ٢٨١، وتوفي سنة ٣٤٧هـ، له: «تاريخ الصعيد»، «طبقات العلماء المصريين». وفي سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩: أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، مؤرخ محدّث توفي سنة ٣٤٧هـ، له كتابان: «كتاب مصر»، «كتاب الغرباء».

(٣) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٣/ ١١٢، خطط المقريزي ١/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٢/ ٣١١، حسن المحاضرة ٢/ ٢٢١، الولاة والقضاة للكندي ص٥٠٧ ـ ٥٠٨.

(٤) في الولاة والقضاة للكندي ص٥٠٨: توفي سنة ٢٨٠هـ، وفي وفيات الأعيان ٣/ ١١٢: توفي سنة ٢٧٩هـ، وقيل: سنة ٢٦٦هـ.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ١٠/ ٩٢.

فَرَخُصَتِ الأسعار، وَوُجِدَتِ الأقوات بعد أن كانت معدومةً. ثم تعقَّب الغلاء وباءٌ شديد كثير، وكان مرضُ النَّاس شيئاً واحداً هو سِرْسام، فمات فيه من كلِّ بلدٍ أُمَمٌ لا يُحصون كثرةً، ولقي النَّاس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رَفَعَه في سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقد ضَعْضَعَ العالم.

فَــصْــلٌ

في عمارة حِصْن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد[1]: وفي مُدَّة مقام السلطان على بَعْلَبَك، واشتغاله به، انتهز الفرنجُ الفرصةَ، فبنوا حِصْناً على مخاضَةِ بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان: متى أُحْكم هذا الحصن تحكَّم مِنَ الثَّغْر الإسلامي الوَهْنُ، وغَلِقَ الرَّهْن[2]. فيقول: إذا أتموه نزلنا عليه، وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرُّسوم الأدراس. فكان الأمر بعد سنةٍ، على ما جرى على لفظه من عِدَةٍ حسنة.

فلما انقضى أمر بعلبك، وصل السلطانُ دمشق، فأقام بها، وأَمْرُ الحِصْنِ من هَمِّه، وقَصْدُ حصاره من عَزْمه، وكان العام مجدباً، والجَدْبُ عاماً، وقيل للسُّلْطان: ليس هذه سنةَ جهادٍ، فإن استمنحوك السَّلامة فامنح، وإنْ جَنَحوا للسَّلم فاجْنَحْ. فقال السُّلْطان: إن الله أمَرَ بالجهاد، وكَفَلَ بالرِّزق، فأمره واجب الامتثال، ووعدُه ضامن الصدق، فنأتي بما كلَّفنا لنفوز بما كَفَلَه، ومن أغفل أمره أغفله.

قال[3]: ووصل في هذه السنة رسولُ دار الخلافة، وهو الخادِمُ فاضل، وكان من أفضل الخَدَم، نُدِبَ بأفضل الخِدَم. وفرح السلطان به، واستصحبه معه إلى الغَزَاة، ووقف به على الحصن الذي استجدَّه الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطَّفَ من حوله من الفرنج جماعةً، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطَّاعَة، وعاد وقد عرف ما يعزمُ عليه من أمر فتحه.

قال[4]: وفي مستهل ذي القعدة كانت وقعة هنفري ومقتله؛ وذلك أن

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ١٤٤ ـ ١٤٦: حديث حصن بيت الأحزان وبنائه وفتحه وخرابه، وما تم من متجددات النصرة التي كانت من أسبابه قبل ذلك.

(٢) غَلِقَ الرهن، كفَرِحَ: استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت المشروط.

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨: ذكر وصول رسل الخلافة.

(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ١٤٩ ـ ١٥٢.

الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمَّعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج إلى المسلمين على غِرَّة. فقدَّم السُّلطانُ ابنَ أخيه فَرُّخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثَّغر، ففعل، وأمره إن علم بخروجهم أن ينفذ إلى السُّلْطان يعلمه بذلك، ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسَّطوا البلاد. فلم تشعر طلائع فَرُّخشاه إلا وقد خالطوهم على غِرَّة، فوقعت الوقعة، فَقُتِلَ صاحبُ النَّاصرة وجماعة من مُقَدَّميهم، وطُلِبَ الملك، فَطُرِحَ حصانُه وجرح فرسانه، وجاء الهنفري ليحميه، فوقعت فيه جراحات؛ أحدها نُشَّابة وقعت في مارنه(١) فَجَدَعَتْه، ونفذت إلى فِيه، ومرَّت بضرسه فقلعته، وخرجت من تحت فكه، ووقعت أخرى في مشط رِجْله، فنفذت إلى أخمصه، وأخرى في ركبته، وضرب بلَتٍّ(٢) في جَنْبه، فكسر له ضلعين. وقُتِلَتْ عِدَّةٌ من الرَّجَّالة والخيَّالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم، ليس فيهم إلا مجروح، وكل يوم تَرِدُ بُشْرى بموت مُقَدَّم من جراحةٍ أصابته. ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق، فخرج السُّلْطانُ، فما وصل إلى الكُسْوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جيء بها، فرجع مظفَّراً منصوراً، وذلَّت الفرنج بعدها، وانكسرت لموت الهنفري.

ثم سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه، فأزعجهم وذَعَرَهُمْ، وعاد على عَزْمِ العَوْد إليه.

قال(٣): ثم وَجَّه السُّلْطَان أخاه الأمير تورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضَعُفَ من الأجناد لأجل مَحْلِ البلاد. فرتَّب في بعلبك نوَّابه، وودَّعه السلطان من مرج الصُّفَّر، وذلك في أواخر ذي القعدة، ومَرَّ على بُصْرى، ومنها إلى الأزرق، ومنه إلى الجَفْر إلى أَيْلَة إلى صَدْر، ووصل معه خَلْقٌ كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال.

فَصْلٌ

[سفر القاضي الفاضل إلى الحج]

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحَجِّ في هذه السَّنة، وركب البحر، فكتبتُ

---

(١) المارن: ما لان من الأنف، وقيل: طرف الأنف، وقيل: هو الأنف كله.

(٢) اللتّ: هو القدّوم والفأس العظيمة، وهي فارسية معربة (التعريف بمصطلحات الصبح ص٢٩٢).

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٥٣ ـ ١٥٥: ذكر مسير شمس الدولة أخي السلطان إلى مصر وتشييع السلطان له.

إليه كتاباً فيه: طوبى للحِجْر والحَجُون من ذي الحِجْر والحِجا، منيل الجَدَا[1]، ومنير الدُّجى، ولنديِّ الكعبة من كَعْب النَّدى، وللهدايا المُشْعَرات من مَشْعَر الهُدَى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فِقار الفَقْرِ للحطيم، ومتى رُئي هَرِم في الحَرَم، وحاتم ماتح زمزم؟ ومتى ركب البحرَ البحرُ، وسلك البَرَّ البَرُّ؟ لقد عاد قُسٌّ إلى عُكَاظه، وعاد قيس لحِفاظه، ويا عجباً لكعبةٍ تقصدها كعبةُ الفَضْلِ والإفضال، ولقبلة تستقبلها قِبْلَةُ القَبُول والإقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذَّرَوي[2] عند عوده من الحج بقصيدةٍ حسنةٍ، منها: [الخفيف]

عَلِمَ البَحْرُ أَنَّك الخَلْقُ وافا ... ه فأمسى حَشَاه يَخْفُقُ رُعْبا
وغدا دُرُّهُ لَدَيْهِ حقيراً ... إذ رأى الدُّرَّ منك يُنْشِئُ سُحْبا
ولو احتاز قطرةً منك يا بَحْـ ... ـرُ لأضحى أُجاجُه المِلْحُ عَذْبا
هائجٌ لم يَزَلْ دعاؤك حتى ... هَوَّن اللَّهُ منه ما كانَ صَعْبا
ولقد نام إذ رَكِبْتَ وللريْـ ... ـحِ هُبُوبٌ وحيثُ أَرْسَيْتَ هَبَّا
حبَّذا ما صَنَعْتَهُ من أيادٍ ... عادَ جَدْبُ الحجازِ منهنَّ خِصْبا
رُمْتَ كِتمانَها فَذَاعَتْ وهل يَقْـ ... ـدِرُ غَيْثٌ يخفي عن الأرض سَكْبا
قد رَأَتْ منك كَعْبَةُ اللَّهِ لما ... جِئْتَها حاتِماً وإن شِئْتَ كَعْبا[3]
بل رأى منك بَيْتُهُ بيتَ مَجْدٍ ... أَحْرَمَ الجُودُ حَوْلَهُ ثُمَّ لَبَّى
ورأى الرُّكْنُ من يمينِك رُكْناً ... جاءَ لِلَّثْم أبيض اللَّوْنِ رَطْبا
وَزَهَتْ زَمْزَمٌ بِشُرْبِكَ منها ... وعَجيبٌ أَنْ يُظْهِرَ الماءُ عُجْبا
وَتَوَجَّهْتَ للمدينة عن مكَّـ ... ـة لما تشاركا فيك حُبَّا (م)
وأَتَيْتَ الشَّآمَ تِلْوَ فُتوحٍ ... سارَ شَرْقاً بها الهَنَاءُ وغَرْبا
إنْ تَكُنْ غِبْتَ عنه واللَّهُ يُبْقِيـ ... ـكَ لأَمْثَالِهِ فما غِبْتَ قَلْبا

(١) الجدا: المطر، ومنه أخذ الجدا بمعنى العطية.

(٢) ابن الذروي: هو أبو الحسن علي بن يحيى المصري، ستأتي ترجمته في خبر وفاته سنة ٥٧٧هـ.

(٣) حاتم: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي، يضرب المثل بجوده وكرمه، شعره كثير، ضاع معظمه، توفي سنة ٤٦ قبل الهجرة (الأعلام ٢/ ١٥١). وكعب: هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد، جاهلي، كريم، يضرب به المثل في حسن الجوار: «جار كجار أبي دؤاد» ويضرب به المثل أيضاً في الجود والكرم: «أجود من كعب بن مامة» (الأعلام ٥/ ٢٢٩).

سِـرْتَ والـرَّأيُ فـيـه مـنـك مُـقِـيـمٌ وَبَـعَـثْـتَ الـدُّعـاءَ فـي الـلَّـيْـلِ كُـتْـبـا

وقد وقفتُ على الرُّقعة التي كتبها القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ بخطِّه إلى السُّلطان يلتمس منه الإذن له في سفر الحج، فأحببتُ نقلها هنا، وما كتب السلطان ـ رحمه الله ـ عليها، وما كتب بسببها إلى بعض نوَّابه. نقلتُ من خَطِّ الفاضل رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم، كتب المملوك هذه الرُّقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه السَّاعة، وهو ينهي أنه قد شارف الأربعين، وما يدري لعلها عقبة اللِّقاء، وفَرْضُ اللَّهِ في الحَجِّ قد تعيَّن، وَوَعْدُ المولى به قد سبق عند أَيْلَة، ومدَّة الغيبة قصيرة، والنائب يُنَفِّذُ ما يحتاج إليه في السَّفَر والحَضَر، والثِّقة به حاصلة في المرادين من الكاتب؛ وهما الكِتْمان والمعرفة، وحَظُّ المولى في حجّه والله أضعافُ حَظِّه في مقامه، لأنه إن كان ينفع هنا في الدُّنيا، فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن أهلاً لأَن يستجاب منه، فالله أهلٌ لأن يجيب في المولى، والمملوك فما ثقل قطُّ في سؤالٍ، وليس لأن المولى لا يقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال فيها، وهذه حاجةُ الدُّنيا والآخرة، وبعدها ينشد[1]: [الطويل]

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً لِـنَـفْـسِـيَ إلا قـد قَـضَـيْـتُ قَـضَـاءهـا

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، وما يريد إلا دستوراً عن نفس طيِّبة، ورضًى ظاهر وباطن، ولا يريد خلاف الفرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته، الحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمدٍ وآله وسلامه.

وعلى رأس الرُّقعة في سطر البسملة بخط السُّلْطان رحمه الله ما صورته: على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنتُ مَعَكم فأفوز فوزاً عظيماً. نقلته من خَطِّه.

ونقلتُ من خَطِّ بعض الكُتَّاب ما نقلَهُ من خطِّ السُّلْطان رحمه الله إلى بعض النوَّاب.

---

(١) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص٤٩، وخزانة الأدب ٧/ ٣٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٨٦، والمقاصد النحوية ٣/ ٢٢٢، وهو بلا نسبة في شرح الأشموني ص٢٥٩، ويروى صدر البيت:

مـتـى يـأتِ هـذا الـموت لا تَـبْـقَ حَـاجَـةٌ

فصل

من كتابٍ كريم بالخَطِّ العالي النَّاصري أعلاه الله، ورد بتاريخ السَّابع والعشرين من جُمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمِّمٌ على الحَجِّ، اللَّهُ يجعله مباركاً ميموناً، ولكن لا أفسح له فيه إلا بعد ثنتين؛ واحدة: أنه لا يركب بحر، يسير من العسكر إلى أيلة، ومنها يتوجّه، ويقيم العسكر على أيلة ليلة، وعلى إرَم ليلة، ودون إرَم ليلة، وقاطع إرَم ليلة، فيكون هو قد بَعُدَ، وما يبقى عليه خوفٌ إن شاء الله تعالى. وثانية: تأخذ يده، وتحلفه برأسي أنه لا يجاور. وثالثة: تُعطيه من مال الجوالي ثلاثة آلاف دينار، وتقول له: لا بُدَّ ما تُخْرج هذا عني لا عنك في المجاورين بمكة والمدينة، وفي أهلها، هذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فإنَّ النَّاس لا بُدَّ لهم من الطَّلب، ولا بُدَّ لك من العطاء، وإن قال: إن الشيء قليل. فأنت تقرضني هذا المبلغ من مالك، وتعطيه إياه، فلا بُدَّ، وإلا فلا إذن له في الرَّوَاح إلى الحَجِّ إلا على هذه الشروط التي قد شَرَطْتُها، وأما مجيئه فيجيء إلى الشَّام، فأنا ما بقي لي دار إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكَّة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز وحيًّا كَعْبَتَهُ، ويا طُولَ مَا تَرْشُقُني سهامُ الشَّوْق الذي أصبح الذِّكْرُ جَعْبَتَهُ، آهاً على تلك المواقف، وتَبّاً لمن رَضِيَ أن يكون مع الخوالف، فَرَغْياً ونُعْمى، وحَسَنَةً وحُسْنى، لمجاوري ذاك الحرم، ولعامِري أيامه التي هي الأيام لا أيام ذي سَلَم. فيَالَهْفَ الصُّدورِ وطُول غَلِيلها إلى وُرودِ ماءِ زَمْزَمِهِ. وطُوبى لمن استضاء في مَضَالِّ الظُّلَم بِعَلَمِهِ، ومهما نسيتُ فلا أنسى بَرْدَ الكَبِدِ بحرِّ صَيْفها، وموسمَ الأُنس بثلاث مِنَاها وخَيْفها: [البسيط]

آهاً عليها ليالٍ ما تَرَكْنَ لنا ... إلا الأسى وعُلالاتٍ من الحُلُم

عسى الرِّياحُ إذا سارت مبلِّغة ... توفي فقد غَدَرَ الأَحْبَابُ بالذِّمَمِ

ثم قال: فأما الطريقُ المباركة فقد جرى فيها خطوبٌ وشؤون، وأحاديث كلّها شجون، وكانت العُقْبى إلى سلامة، ولما قاربنا الكَرَك نهض العدوُّ، فلم تمكن الرجعة ولا التعريج جانباً، ثم مَنَّ الله تعالى بانجلاء النَّوْبة، ووصلنا إلى بلاد السُّلْطان، ولقينا ذلك الوجه، فلا عَدِمْنا بِشْرَه، وذلك الفضل، فلا فارقت أعيُنُنا فجرَه، ووجدناه في الغَزَاة جاهداً، وللعدو مُجاهداً، أوقاته مستغرقة، وعزماته محققة.

فصل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السَّنة، وأول الأُخرى ووقعة مرج عيون

قال ابنُ أبي طي: كانت الفرنجُ قد عَمَرَتْ بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضررٌ عظيمٌ، فراسل السلطانُ الفرنجَ في هَدْمه، فأجابوا أنه لا سبيل إلى هَدْمه إلا أن يعطينا ما غَرِمنا عليه. فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار، فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار ـ وكان هذا الحصن للدَّاوية، وكانوا يقوّون مَنْ فيه بالأموال والنَّفقات لقطع الطُّرقات على قوافل المسلمين ـ فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ونخرج بهم إلى الحِصْن ونهدمه. ففعل ذلك كما سنذكره.

قال العماد[١]: ولما ودَّع السُّلطان أخاه ورجع، أغار في طريقه على بلاد الفرنج، وقصد الحصن الذي بنوه، ورجع بالأسرى والغنائم، وخَيَّم السُّلْطان بمروج الشَّعراء[٢]، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدودِ بلاد الكَفَرة، وأضرم عليهم لهب النِّيران المُسْتعرة، وكان كل يوم يركب بحُجَّة الصَّيد، وينزل على النهر، ويجرِّدُ فرسان الجِلادِ والقَهْر، ويُسيِّرُ قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غَلَّات العَدو، ولا يبرحُ مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها، حتى خفَّ زَرْعُ الكفَّار.

قال[٣]: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يُرعبوا المسلمين في كل ناحيةٍ خوفاً من اجتماعهم على جهةٍ واحدة، فغدر إبرنسُ أنطاكية، وأغار على شَيْزَر[٤]، وغدر القومص بطرابلس بجماعةٍ من التركمان بعد الأمان. فرتَّب السُّلْطانُ ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين بن المقدَّم، وسيف الدين علي المَشْطُوب. ورتَّب ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في

---

(١) انظر البرق الشامي ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨: ذكر ما عوّل عليه السلطان بعد توديع أخيه شمس الدولة.

(٢) الشَّعْراء: الغابات الكثيفة، والأرض الكثيرة الشجرا.

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٤) في البرق الشامي: وأغار على جشير شيزر. والجشير: قطعان الخيل والبقر التي تلازم المرعى ولا ترجع إلى الحظيرة بالليل.

مقابلة القومص، وكتب السُّلْطانُ إلى أخيه العادل ـ وهو نائبه بمصر ـ أن ينتخب له من عسكر مصر ألفاً وخمسمائة فارس يتقوَّى بهم مع عسكر الشَّام على العدو.

[وقعة مرج عيون]

ثُمَّ دَخَلَتْ سنةُ خَمْسٍ وسبعين[١]

والسلطان نازلٌ على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكُفَّار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغَلَّات في يوم واحد، ثم يرجعوا فيرحلوا صوبَ البقاع. فنهضوا تلك الليلة ـ وهي ليلة الأحدَ ثاني مُحَرَّم ـ فلما أصبح السُّلْطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وأَسَرَ فُرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجَّالتهم في أول اللِّقاء؛ فكان من جُملة الأسرى مُقدَّم الدَّاوية، ومقدَّم الاسبتارية[٢]، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جُبَيْل، وابن القومصية، وابن بارزان صاحب الرَّمْلة، وصاحب جِينِين، وقَسْطِلان يافا، وابن صاحب مَرَقِيَّة، وعِدَّة كثيرة من خيَّالة القدس وعكا من البارونيَّة وغيرهم من المقدَّمين الأكابر ما زاد على مائتين ونيف وسبعين، سوى غيرهم. ثم قُدِّمَتِ الأسارى وهم يتهادَوْن كأنَّهم سُكارى.

قال العماد[٣]: وأنا جالسٌ بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله تعالى أنَّا وخواصُّه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السَّكينة، وخصَّهم بالذِلَّة المستكينة وطلع الصَّباح، ورُفع المِصْباحُ، وقمنا وصلَّينا بالوضوء الذي صلَّينا به العِشاء، ثم عُرِضَ الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق، فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية[٤]، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرَّملة عندهم من المأسورين، فالتزم إدراكه، وأن يؤدي من قطيعة المذكور[٥] القطيعة التي قرَّر بها فكاكه. وأما ابن القومصية فإنه استفكته

(١) وخمسمائة.

(٢) الداوية والاسبتارية: هم الرهبان المحاربون، وسموا بفرسان المعبد، تقدّم التعريف بهم في الجزأين الأول والثاني.

(٣) انظر البرق الشامي: ٣/ ١٦١ ـ ١٦٦.

(٤) في البرق الشامي: بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار، ولم يذكر صورية. والدينار الصورية: أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٥) في البرق الشامي: من قطيعته المذكورة.

أُمه بخمسة وخمسين ألفاً من الدَّنانير الصُّورية. وأما أود مقدَّم الدَّاوية فإنه انتقل من سجنه إلى سجِّين[١]، فطُلبت جيفته، فأخذوها بإطلاق أسيرٍ من مقدَّمي المؤمنين، وطال أسرُ الباقين، فمنهم من هلك وهو عانٍ، ومنهم من خرج بقطيعةٍ وأمان.

وهذه هي وقعةُ مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل، وانهزم ملكهم مجروحاً. وكان لعز الدين فَرُّخْشاه في هذه الوقعة بلاءٌ حسنٌ[٢].

حكى حسام الدين تميرك بن يونس ـ وكان مع عِزِّ الدين ـ قال: كُنَّا في أقل من ثلاثين فارساً، قد تقدَّمنا العسكر، فشاهدنا خيلَ الفرنج في سُتِّمائة فارس واقفين على جَبَلٍ، وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين أن نعبر النهر إليهم، ففعلنا، ولحقنا عسكر السُّلْطان، فهزمناهم.

ومن أحسن ما اتَّفق أنَّ اليوم الذي كُسِرَتْ فيه الفرنج بمرج عيون ظَفِرَ الأُسْطول المِصْري ببطسةٍ[٣] كبيرة، فاستولى عليها وعلى أُخرى، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السَّبْي. فما أقرب ما بين النصرين في المِصْرين، وما أعذب عذاب الفئتين، وتجريعهما الأمرين الأمرَّين، لقد عمَّ النصر، وتساوى فيه البَرُّ والبَحْرُ[٤].

ومما مُدِحَ به السلطان في هذا الفتح مِدْحة سيَّرها من مصر إليه فخر الكُتَّاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجُوَيْني[٥]، أوَّلها[٦]: [الخفيف]

لـك رَبُّ الـسَّـمـاءِ خَـيْـرُ مُـعـيـنِ ... وكـفـيـلٌ بـمـا تُـحِـبُّ ضَـمِـيـنِ
فَـلَـهُ الـحَـمْـدُ أيُّ نَـصْـرٍ عـزيـزٍ ... قـد حَـبـانـا بـهِ وفـتـحٍ مُـبـيـن
أَدْرَكَ الـثَّـأْرَ حـيـن نـازَلَـهُ الـمِـغْـ ... ـوارُ حَـتْـفُ الـكُـفَّـارِ لَـيْـثُ الـعـريـنِ

(١) سجّين: واد في جهنم، وهو إشارة إلى أنه مات بالأسر.
(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ١٧١ ـ ١٧٢: ذكر منقبة للملك عز الدين فرخشاه في وقعة مرج عيون.
(٣) البطسة: هي السفينة الكبير التي كانت تستخدم للحرب، ويمكن استخدامها أيضاً للتجارة، ويرد ذكر هذا النوع من السفن كثيراً في هذه الفترة، وكذلك: الشينية والمسطحة والحمّالة: وهي سفن حربية أيضاً (صبح الأعشى ٣/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).
(٤) انظر البرق الشامي ٣/ ١٧١.
(٥) في البرق الشامي: الجوني. كان من ندماء أتابك زنكي، ثم اتصل بخدمة ابنه نور الدين محمود، ثم توطن القاهرة حتى وفاته سنة ٥٨٦هـ. (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢، معجم الأدباء ٩/ ٤٣ ـ ٤٦، الوافي بالوفيات ١٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨، «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٢/ ٥٨ ـ ٦٣، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٦) انظر الأبيات في البرق الشامي ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣. والقصيدة في البرق الشامي من ٣٠ بيتاً.

الـهُـمَـامُ الـغَـضَـنْـفَـرُ الـمَـلِـكُ الـنَّـا صِـرُ مَـوْلـى الـوَرَى صـلاحُ الـدِّيـنِ
يـا مـليـكـاً أضحـى الزَّمـانُ يـنـاجيـ ـه بِـلَـفْـظِ الـمُـذَلَّـلِ الـمُـسْـتَـكِـيـنِ
قَـذَفَـتْ أهـلَـهـا الـحـصـونُ إلـى بَـأْ سِـكَ حتى عَـوَّضْـتَـهُـمْ بـالـسُّـجُـونِ
وأَراهُـمْ رَبُّ الـسَّـمـاء بـأَسْـيـا فِـكَ مـا لـم يَـجُـلْ لـهـم فـي ظُـنـونِ
لـك قـلـبٌ عـنـد الـلِّـقـاء مـكـيـنٌ ولـه مـن تُـقـاه ألـفُ كـمـيـنِ
يا مـليـكـاً يَلْقَـى الحروبَ بحول الـ ـلَّـه مُـسْـتَـعْـصِـمـاً وصِـدْقِ الـيـقـيـنِ
إن هـذا الـفَـتْـحَ الـمـبـيـن شِـفَـاءٌ لِـصُـدُورٍ وقُـرَّةٌ لـعـيـونِ
هـو يـومٌ أضـحـى كـيـومِ حُـنَـيْـنِ سَـهَّـل الله نَـصْـرَه فـي الـحُـزُونِ[١]

قال العماد[٢]: وكان تقي الدين غائباً عن هذه الوقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سُلْطانَ الرُّوم قليج أرسلان طلب حِصن رَعْبَان، وادَّعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين ـ رحمه الله ـ على خلافِ مراده، وأن الملك الصَّالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه. فلم يفعل السلطان. وكان هذا الحصن مع ابن المقدَّم، فأرسل قليج أرسلان عسكراً مجمعاً في عشرين ألفاً لحصار الحِصْن، فلقيهم تقي الدين ومعه سيف الدين علي المَشْطُوب في ألف مقاتلٍ، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يَدِلُّ بهذه النُّصْرة، فإنه هَزَمَ بآحادِ ألوفاً، وأرغم بأعدادٍ من الأعداء أُنوفاً.

وقال ابنُ أبي طيّ: واتَّصل بالسُّلْطان أن قليج أرسلان قد طَمعَ في أَخْذ رَعْبَان وكيسون، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه، ويدَّعي أن نور الدين بن زَنْكي اغتصبهما منه، وأنَّ الملك الصَّالح قد أَنْعَمَ عليه بهما. فاغتاظ السُّلْطانُ، وزَبَرَ[٣] الرسول، وتوعَّد صاحبه، فعاد الرَّسول، وأخبر قليج أرسلان، فغضب، وسيَّر عَسْكراً إلى رَعْبان فحاصرها، وسَمعَ السلطان، فندب تقيَّ الدين عمر في ثماني مائة فارسٍ، فسار، فلما قارب رَعْبان أخذ معه جماعةً من أصحابه مقدار مائتي فارس، وتقدَّم عسكرَهُ، وسار حتى أشرف على عَسْكر قليج أرسلان

---

(١) الحزون: جمع الحزن، بفتح الحاء، وسكون الزاي المعجمة: وهو ما غلظ من الأرض وخشن.

(٢) انظر البرق الشامي ٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤: ذكر سبب غيبة الملك المظفر تقي الدين بن أبي السلطان عن هذه النوبة.

(٣) زبره: انتهره، وأغلظ له في القول والرد.

ليلاً، فرآهم قد سدُّوا الفضاء، وهم قارُون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ما تَرَوْنَ من الطُّمأنينة والأمن والغَفْلَة، وقد رأيتُ أن نحمل فيهم بعد أن نتفرَّق في جوانب عسكرهم، ونصيح فيهم، فإنهم لا يثبتون لنا. فأجابوه إلى ذلك، فأنفذ واحداً من أصحابه إلى باقي عسكره، وأمرهم أن يتفرَّقوا أطلاباً، وأن يُجعل في كل طِلْب قطعةٌ من الكوسات[1] والبوقات[2]، فإذا سمعوا الضجَّة ضربوا بكُوساتهم وبوقاتهم، وجدُّوا في السَّيْرِ حتى يلحقوا به. ففعلوا ما أمرهم.

ثم إنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابُهُ في جوانبه، وكان عِدَّة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس. فلما سمعوا الضَّجَّة، وحِسَّ الكُوسات والبوقات، وشِدَّةَ وَقْعِ حوافر الخيل، وجَلَبَةَ الرِّجال، واصطكاكَ أجرام الحديد، هالهم ذلك، وظنوا أنهم قد فوجئوا بعالم عظيم، فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب[3] خيولهم عُرياً[4]، وطلبوا النَّجاة، وأَخَذَتْهُمُ السُّيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدِّين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ما تركوه. فلما أصبح جَمَعَ المأسورين ومَنَّ عليهم بأموالهم وكُرَاعهم، وَسَرَّحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السُّلْطان في اليوم الذي كَسَرَ فيه السُّلْطانُ الفرنجَ على مرج عيون، فتوافَتِ البِشَارتان إلى البلاد.

قال: وقد مَدَح ابنُ التَّعاويذي[5] السُّلْطان الملك النَّاصر بقصيدةٍ أنفذها إليه من بغداد، يذكُر فيها وقعة مرج عيون، يقول فيها: [الكامل]

كادَ الأعادِي أَنْ يُصِيبَكَ كيدُها ... لو لم تَكِدْكَ بِرَأْيِها المَأْفُونِ

---

(١) الكوسات: هي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك «الكوسي» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٩٠).

(٢) البوقات: وهي الطبول، ويقال لها الدبادب، والزمر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها، وهي المعبر عنها بالطبلخاناه، وهي من شعار الملك القديم (صبح الأعشى ٢/ ١٤٢).

(٣) الكواثب من الفرس: مجتمع كتفيه قدام السراج.

(٤) الخيول العري: التي لا سرج عليها.

(٥) ابن التعاويذي: هو محمد بن عبد الله، أبو الفتح الكاتب البغدادي، المعروف بسبط ابن التعاويذي الشاعر المتوفى سنة ٥٨٤، له من المصنفات: «الحجبة والحجاب»، «ديوان شعره» في أربعة فصول (كشف الظنون ٦/ ١٠١).

تُـخْـفـي عَـدَاوَتَـهـا وراءَ بَـشَـاشَـةٍ ... فَـتَـشِـفُّ عـن نَـظَـرٍ لـهـا مَـشْـفُـونِ(١)
دَفَـنَـتْ حَـبـائِـلَ مَـكْـرِهـا فَـرَدَدْتَـهـا ... تَـدْوَى بـغـيـظِ صُـدُورِها الـمَـدْفُونِ(٢)
وَعَـلِـمْـتَ مـا أَخْـفَـوْا كـأَنَّ قُـلُـوبَـهُـمْ ... أَفْـضَـتْ إلـيـك بِـسِـرِّهـا الـمَـخْـزُونِ
كَـمَـنُـوا وكَـمْ لـك مـن كَـمِـيـنِ سَـعَـادَةٍ ... فـي الـغَـيْـبِ يَـظْـهَـرُ من وراءِ كَـمِـيـنِ
فَـهَـوَتْ نُـجُـومُ سُـعُـودِهِـمْ وقَـضَـى لَـهُـمْ ... بـالـنَّـحْـسِ طـائِـرُهُـمْ بِـمَـرْجِ عُـيُـونِ

قلت: هكذا أنشده، وهو حَسَنٌ، وقد كَشَفْتُهُ من نسخة من «ديوان ابن التَّعاويذي» فوجدت آخر هذا البيت:

طـائِـرُ جَـدِّكَ الـمَـيْـمُـونِ

وأول هذه القصيدة: [الكامل]

إنْ كـانَ دِيـنُـكَ فـي الـصَّـبَـابَـةِ دِيـنِـي ... فَـقِـفِ الـمَـطِـيَّ بِـرَمْـلَـتَـيْ يَـبْـرِيـنِ

ثم قال بعد تمام الغَزَل: [الكامل]

لَـيْـتَ الـضَّـنِـينَ على الـمُـحِـبِّ بِـوَصْـلِـهِ ... لَـقِـنَ الـسَّـمَـاحَـةَ مـن صلاحِ الـدِّيـنِ
مَـلِـكٌ إذا عَـلِـقَـتْ يَـدٌ بِـذِمَـامِـهِ ... عَـلِـقَـتْ بِـحَـبْـلٍ فـي الـحِـفَـاظِ مَـتِـيـنِ
قـادَ الـجِـيـادَ مَـعَـاقِـلاً وإنِ اكْـتَـفَـى ... بِـمَـعَـاقِـلٍ مِـنْ رَأْيِـهِ وحُـصُـونِ
سَـهِـرَتْ جُـفُـونُ عِـدَاه خِـيـفَـةَ مـاجِـدٍ ... خُـلِـقَـتْ صَـوَارِمُـهُ بـغـيـر جُـفُـونِ
لَـوْ أَنَّ لِـلَّـيْـثِ الـهِـزَبْـرِ سُـطَـاه لـم ... يَـلْـجَـأْ إلـى غـابٍ لـه وعَـرِيـنِ
أَضْـحَـتْ دمشقُ وقد حَـلَـلْـتَ بِـجَـوِّهـا ... مـأوى الـطَّـرِيـدِ وَمَـوْئِـلَ الـمِـسْـكِـيـنِ
لـك عِـفَّـةٌ فـي قُـدْرَةٍ وتَـواضُـعٌ ... فـي عِـزَّةٍ وشَـراسَـةٌ فـي لِـيـنِ
وَأَرَيْـتَـنَـا بـجـمـيـلِ صُـنْـعِـكَ مـا رَوَى ... الـرَّاوون عـن أُمَـمٍ خَـلَـتْ وقُـرُونِ
وَضَـمِـنْـتَ أَنْ تُـحْـيِـي لـنـا أَيَّـامَـهُـمْ ... بـالـمَـكْـرُمـاتِ فَـكُـنْـتَ خَـيْـرَ ضـمـيـنِ

قال ابن أبي طي: نزل السُّلْطان على تل القاضي ببانياس على المَرْج الذي يُعرف بمرج عُيون، وأنفذ في ثاني المحرَّم قطعةً من عَسْكره مع عز الدين فَرُّخْشاه لشَنِّ الغارة على بلاد الفرنج. فلما أصبح ركب يستوكف أخبار فَرُّخْشاه، فما هو إلا أن خَرَجَ من الخِيَم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعي هاجَّةً على وجوهها من الغياض والأودية. فقال: هذه غارة. فأمر بلبس السِّلاح والاستعداد

(١) المشفون: من الشفن، وهو أن يرفع الإنسان طرفه ناظراً إلى الشيء كالكاره له أو المبغض.
(٢) تدوى: دوي يدوى دوًى، فهو دوٍ: إذا هلك بمرض باطن، وقال الليث: الدَّوى، داء باطن في الصدر، وقال ابن سيده: الدَّوى: المرض والسل.

للحرب، فوصل بعضُ الرُّعاة فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رُمح، فأخذتهم السُّيوفُ والدَّبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعةٌ منهم سلاحهم، وسلَّموا أنفسهم أسارى، ونجا ملك الفرنج هنفري هارباً. ويقال: إنه وقف به فرسه، فحمله أحد خَيَّالته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره، وسيفه يقطر دماً، وجلس لاستعراض الأسارى. فذكر نحو ما سبق.

وفي كتاب الفاضل إلى صاحبٍ له بمكَّة، وقد سبق بعضُه، قال: وجَرَتْ نُوَبٌ، منها نوبة قتل الهنفري ـ لعنه الله ـ وتمام سبعين فارساً من كبار الخَيَّالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته، وتحامله بآخر رمق مع بَقِيَّة من نجا من خَيَّالته.

ومنها: نوبة وادي الحريق، وقد جمع الله العدوَّ فارسه وراجله.

ومنها: نصر الله الذي ما كان قبله لملكٍ من ملوك الأرض قتل ابن بارزان، ومقدَّم الدَّاوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صُور، وصاحب جُبيل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعو الأقاليم والضِّياع، وحصل تحت اليد النَّاصرية ـ أعلاها الله ـ مائة وستون كلُّهم تُثْنَى عليهم الخناصر، وتُقْطَرُ بهم العساكر.

ومنها: دخول العساكر إلى عمل بيروت وصور، وغارتها على غِرَّة من أهلها، وقَطْع كلِّ شجرةٍ مُثمرةٍ من أصلها.

قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عِدَّتُها إلى أن بلغت ستين شينيًّا[١]، وعشرين طريدة[٢]، فسارَتِ الشَّواني خاصَّةً، فدخلت البلاد الرُّومية، ودوَّخت السَّواحل الفرنجية، وأسرت ألف عِلْج أحضرتهم أسرى في قيد الإسار، وقتلت الرِّفاق الكبار، وغَنِمَتْ من هذه الغَزْوة أقوامٌ كانت أعينهم لا تعرفُ عين الدِّرْهم، ولا وَجْهَ الدِّينار.

فــصــل

في تخريب حِصْن بيت الأحزان وذلك فـي شـهـر ربـيـع الأول

قال العماد[٣]: جمع السُّلْطان جموعاً كثيرة من الخَيَّالة والرجَّالة، وسار،

---

(١) الشينية: المركب المعد للجهاد في البحر (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

(٢) الطريدة: من السفن الحربية (انظر المرجع السابق).

(٣) انظر البرق الشامي ٣/ ١٧٥ ـ ١٨١: ذكر النزول على حصن بيت الأحزان وتيسير فتحه في =

فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبنيٌّ دونها من الغَرْب، فخيَّم منها بالقُرْب، وضاق ذلك المَرْجُ عن العَسْكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بُكْرة الأحد إلى ضياع صَفَد، وكانت قلعة صفد يومئذٍ للدَّاوية، وهو عُشُّ البلية. وأمر بقطع كُرومها، وحَمْلِ أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه، ورجع بعد الظهر، وزحفوا إلى الحِصْن بعد العَصْر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة، وانتقلوا بكلِّيتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا أن تفتحَ الفرنجُ الأبواب، ويُغيروا عليهم على غِرَّة، وإذا الفرنج قد أوقدوا خَلْفَ كل بابٍ ناراً؛ ليأمنوا من المسلمين اغتراراً. فاطمأن المسلمون، وقالوا: ما بقي إلا نَقْبُ البُرْج. ففرَّقه السلطان على الأُمراء، فأخذ فَرُّخْشاه الجانب القِبْلي، وأخذ السُّلْطان الجانب الشَّمالي، وقصد ناصر الدين بن شِيْركُوه بِقُرْبة نقباً، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جَعَلَ له قِسْماً، وكان البُرْجُ مُحْكَمَ البناء، فَصَعُبَ نقبه، لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تَمَّ نَقْبُ السُّلطان وعُلِّقَ، وحُشي بالحَطَب ليلة الاثنين وحُرِّقَ، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسع أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السُّلْطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النِّيران ليتمَّ نَقْبُه، وقال: من جاء بقُرْبة ماءٍ فله دينار.

قال العماد: فرأيتُ النَّاس للقِرَب حاملين، ولأَوْعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك النُّقوب فَخَمَدَتْ، فعاد نقَّابوها وقد بَرَدَتْ، فخرَّقوه وعمَّقوه، وفتحوه وفتقوه، وشَقُّوا حَجَره وفلقوه، ثم حشوه وعلَّقوه، واستظهروا فيه يومي الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه. واشتدَّ الحرصُ عليه لأنَّ الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيعٍ الأول، وتعالى النهار، انقضَّ الجدار، وتباشرتِ الأبرار.

وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطباً، فلما وقع الجدارُ دخلت الرِّياحُ، فرَّدتِ النَّارَ عليهم، وأحرقت بيوتهم وطائفةً منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار، وطلبوا الأمان. فلما خمدت النيرانُ دخل الناسُ، وقتلوا وأسروا، وغَنِمُوا مائة ألف قطعةٍ من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السُّلْطان، فمن كان مُرْتداً أو رامياً ضُرِبَتْ عنقه، وأكثرُ من أُسِرَ قَتَلَه في الطريق الغُزاة المطَّوعة، وكان عِدَّة الأسارى نحو سبعمائة، وخَلَّصَ من الأسر أكثر من مائة مُسْلم، وسيَّر باقي الأسارى إلى دمشق.

= أقرب زمان وذلك في شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين. وانظر أيضاً الكامل في التاريخ ١٠/ ٩٥ ـ ٩٧: ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخافة الأحزان.

وأقام السُّلْطان بمنزلته حتى هدّوا الحصن إلى الأساس، وطَمَّ جُبَّ ماءٍ مَعِينٍ كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القَتْلى. وكان عند السُّلْطان رسول القومص معافى وهو يشاهد بلية أهل مِلَّته.

وقد كان السلطانُ بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار، فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف، فأبَوْا. وكان مُدَّة المقام على الحِصْن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً.

وبعد ذلك سار السُّلْطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها، فأغار عليها، وأَرْجَفَ قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السُّلْطان إلى دمشق يوم الأربعاء، ومَرِضَ جماعةٌ من ذلك الوباء؛ لأن الحرَّ كان شديداً، وأنتنت جِيَفُ القتلى. وطوَّل السُّلْطان المقامَ عليه بعد فتحه لأجل تتميم هَدْمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كان مزوراً، وبتكبير المسلمين وصلاتهم معموراً.

وهنَّأَ الشعراءُ السُّلْطان بفتح هذا الحصن، فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نفاذة الدِّمَشْقي[1] من جُملة مدائحه[2]: [المتقارب]

هلاكُ الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تَكْسِيرُ صُلْبانِها
ولو لم يكن قد دَنا حَتْفُها ... لما عَمَّرت بَيْتَ أَحْزَانِها

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رُسْتُم السَّاعاتي الخُرَاساني، ثم الدِّمَشْقي[3] من قصيدةٍ، أولها: [الطويل]

بجدِّك أَعْطافُ القَنا تَتَعَطَّفُ ... وطَرْفُ الأعادي دونَ مَجْدِك يَطْرِفُ

(١) هو أحمد بن عبد الرحمن بن علي، نشو الدولة، بدر الدين السلمي الدمشقي، المعروف بابن نفاذة. ولد بدمشق سنة ٥٤١هـ، كان عند صلاح الدين في عداد رؤساء الأجناد الذين يسمونهم بالأمراء، وكان شاعراً، له مدائح في صلاح الدين وأولاد أخيه وغيرهم من رجالات الدولة، توفي سنة ٦٠١هـ («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٤، فوات الوفيات ١/ ٨٤ ـ ٨٦، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٩ ـ ٤٤).

(٢) البيتان في الكامل في التاريخ ١٠/ ٩٦.

(٣) ابن الساعاتي: هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، بهاء الدين، أبو الحسن الدمشقي، ثم المصري المعروف بابن الساعاتي، الأديب الشاعر، ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ، وله إحدى وخمسون سنة، وكان أبوه محمد بن رستم بن هردوز، من خراسان، ثم انتقل إلى دمشق، وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أوحد عصره في معرفة الساعات وعلم النجوم، وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، صنعها في أيام الملك العادل نور الدين (كشف الظنون ٥/ ٧٠٤، التكملة للمنذري ٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣، وفيه: توفي وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وفيات الأعيان ٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص٦٦١ ـ ٦٦٢، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧١ ـ ٤٧٢، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٧ ـ ٢٩).

شِهابُ هدًى في ظُلْمةِ الشَّكِّ ثاقِبٌ وسَيْفٌ إذا ما هزَّه الله مُرْهَفُ
وَقَفْتَ على حِضْنِ المخاضِ وإنَّهُ لَمَوْقِفُ حقٌّ لا يوازيه مَوْقِفُ
فلم يَبْدُ وَجْهُ الأَرْضِ بل حَالَ دُونَهُ رجالٌ كآسادِ الشَّرى وهْي تَزْحَفُ
وجَرْداءُ سَلْهوب ودِرْعٌ مُضاعَفٌ وأبيضُ هِنْدِيٌّ وَلَدْنٌ مُثَقَّفُ[1]
ومَا رَجَعَتْ أعلامُكَ الصُّفْرُ ساعةً إلى أنْ غَدَتْ أكبادُها السُّودُ تَرْجُفُ
كبا من أعاليه صليبٌ وبِيعَةٌ وشادَ به دينٌ حنيفٌ ومُصْحَفُ
صليبةُ عُبَّادِ الصَّليب ومنزل الـ ـنزال لقد غادَرْتَهُ وهْو صَفْصَفُ
أَيَسْكُنُ أَوْطَانَ النَّبِيِّين عُصْبَةٌ تَمينُ لدى أيمانها وهي تَحْلِفُ
نَصَحْتُكُمُ والدين في النصح واجب ذَرُوا بيت يَعْقُوبِ فقد جاء يوسُفُ

ومن قصيدةٍ لسعادة الضَّرير الحِمْصي[2]: [الطويل]

حَلَلْتَ فَكُنْتَ الأَلْمَعِيَّ المُسَدَّدا وسِرْتَ فَكُنْتَ الشُّمَّرِيَّ المُؤَيَّدا[3]
وَقُمْتَ بأَعْباء الممالك ناهِضاً فَأَقْعَدْتَ أعداءً ولم تَخْشَ مُقْعِدا
تَعَوَّدْتَ ضَرْبَ السَّيْفِ والطَّعْنَ بالقَنَا وكلُّ امرئٍ مُغْرًى بما قد تَعَوَّدا
نَصَرْتَ الهُدَى لمَّا تخاذَلَ حِزْبُهُ فَنَادَاك حِزْبُ اللَّهِ يا ناصِرَ الهُدَى
غَضِبْتَ لِدِينٍ أنتَ حقاً صلاحُهُ فأَرْضَيْتَ ـ لمَّا أنْ غَضِبْتَ ـ محمَّدا
فيا يُوسُفَ الخَيْرِ الذي في يَمِينِهِ مِنَ الخَيْرِ ما قد غارَ فينا وأَنْجدا
وَصَلْتَ لذي سِلْم وَصُلْتَ لذي وغًى فَفُقْتَ جميعَ النَّاسِ بالبَأْسِ والنَّدَى
وَقُدْتَ إلى الأعداء جيشاً عَرَمْرَماً إذا أَبْرَقَتْ فيه الصَّوارِمُ أَرْعَدا
فلم تُبْقِ للطُّغْيان شَمْلاً مجمَّعاً ولم تُبْقِ للإيمان شَمْلاً مبدَّدا
فَنَاهِيكَ من جيشٍ نَهَضْتَ بِعِبْئِهِ فأَقعَدْتَ لمَّا أَنْ نَهَضْتَ به العِدَى
حَمَلْتَ ذُبالاً في ذَوابِلِ سُمْرِهِ فلما دَجَا لَيلُ العَجَاجِ تَوَقَّدا[4]
وَزُرْتَ به الحِصْنَ الذي لو تحصَّنتْ فَوَارِسُهُ بالنَّجْمِ أَوْرَدْتَهُ الرَّدَى

---

(١) جرداء سلهوب: الفرس السباقة الماضية، ودرعٌ مضاعفٌ: هي الدرع التي ضوعف حلقها، ونسجت حلقتين حلقتين.

(٢) سعادة الضرير الحمصي: توفي سنة ٥٩١هـ، وكان له من العمر ٦٢ سنة (انظر: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/٤٠٦ ـ ٤٣٢، بغية الطلب ٩/ ٤٢٣٠ ـ ٤٢٣٢).

(٣) الشُمَّريّ، بتشديد الشين والميم: الرجل المجرب والماضي في الأمور والحوائج.

(٤) الذبال: جمع ذبالة، وهي الفتيلة التي تسرج والذابل من القنا: الرقيق اللاصق باللِّيط، أي القشر، جمعها ذوابل وذُبُل وذُبَّل. والسمرة في ألوان الرماح محمودة.

قَصَمْتَ به صُلْبَ الصَّليب وَرُعْتَهُ وسَهَّدْتَهُ لمَّا غفَا فتَسهَّدا
وفَضَّ بما قد فَضَّه من سِهامِهِ نواجِذَ ثَغْرِ الهنفري وقدَّدا
هَبَبْتَ إليه هَبَّةً يُوسُفِيَّةً تعيدُ هَباءً كلَّ ما كانَ جَلْمَدا

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العِراقي من أهل الحِلَّة المَزْيَدِيَّة، كان حاضراً في نوبة ابن بارزان، له من قصيدةٍ أولها: [الطويل]

هنيئاً صلاحَ الدِّينِ بالفَتْحِ والنَّصْرِ وَنَيْلِ الأماني الغُرِّ والفَتْكَةِ البِكْرِ
وما حُزْتَ فيها من فَخارٍ ومن عُلاً وحُسْنِ ثناً يبقى إلى آخرِ الدَّهْرِ
سَمَوْتَ لها بالمَشْرَفِيَّةِ والقَنا سُمُوَّ أَبِيٍّ لا ينامُ على وِتْرِ
وَصَلْتَ بها حَبْلَ المَفاخِرِ مِثْلَما قَطَعْتَ بها يومَ الوَغَى دابِرَ الكُفْرِ
سَلَلْتَ بياضَ الصُّبْحِ وهو صَوارِمٌ وخُضتَ سوادَ اللَّيْلِ وَهْوَ دَمٌ يَجْرِي
وقد عَرَفَ الإِفْرَنْجُ بَأْسَكَ في الوَغى وَجَرَّعْتَهُمْ منهُ أَمَرَّ من الصَّبْرِ
وَظَنُّوا بناءَ الحِصْنِ صَوْناً لِمُلْكِهِمْ فأَصْبَحَ بالشَّعْراء مُنْهَتِكَ السِّتْرِ
فما قَبَضَتْ منهم يَدُ الغَدْرِ ـ قُطِّعَتْ أناملُها ـ إلا على صَفْقَةِ الخُسْرِ
هي الفَتْكَةُ الغَرَّاء لا زِلْتَ قائماً بأمثالها للدِّينِ في السِّرِّ والجَهْرِ
وأَصْبَحَ في أَقْصَى خُراسانَ ذِكْرُها وفي كلِّ قَلْبٍ منه جيشٌ من الذُّعْرِ
فلا تَرْضَ منهمْ بَعْدَها بَذْلَ طاعةٍ فما خُلقوا إلا على شِيمَةِ الغَدْرِ
وَسِرْ واملكِ الأَرْضَ التي لو تَرَكْتَها لأَغْضَتْ عيونُ المَجْدِ منها على أَمْرِ
فيا آل أيوبٍ حَوَيْتُمْ مناقباً بأَخْمَصِها تعلُو على الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
إذا عُدَّ أربابُ الفَخَار فأنتمُ ذوو الفَعَلات الغُرِّ والنائل الغَمْرِ
وأنتَ الذي أَصْبَحْتَ بالبَأْس والتُّقى وبَذْلِ اللُّهى عالي السَّنا عَطِرَ الذِّكْرِ(١)

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد في وَصْفِ الحِصْن: وقد عُرِّض حائِطُه إلى أن زاد على عَشرة أَذرع، وقُطِعَتْ له عِظامُ الحجارة؛ كل فَصٍّ منها من سبع أذرع إلى ما فوقَها وما دونها، وعِدَّتُها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقرُّ الحجرُ في مكانه، ولا يستقلُّ في بُنْيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حَشْوٌ من الحجارة الصُّمِّ، المُرْغم بها أُنوف الجبالِ الشُّمِّ، وقد جُعلت تسقيتُه بالكِلْس الذي إذا أحاطت قَبْضَتُهُ بالحجر مازَجَه بمثل جِسْمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جِرْمِهِ، وأوعَزَ إلى خَصْمه من الحديد بألا يتعرَّضَ لِهَدْمه.

(١) اللُّهى: العطية والمنحة.

ومنه في وصف النَّار، قال: وباتَ النَّاسُ في ليلة الجُمُعة مُطيفين بالحِصْن والنَّار به مُطيفة، وعليه مُشْتَمِلة، وعَذَباتُ ألسنتها على تاجه مُنْسَدِلة، وعلى خَلْفِهِ مُسْبَلة، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة، ومَنَعَتُهُمْ قد أذهبها الله بتلك الأبرجة السَّاجدة، وَبَنَفْسَجُ الظَّلْماء قد استحالَ جُلَّناراً، والشَّفَقُ قد عمَّ الليلة فلم يختصَّ آصالاً ولا أسحاراً. ونفحاتها حميميَّة وَقُودُها النَّاس والحجارة، والبلاء ينادي بلسان مُصابها: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. فولجت النَّارُ موالجَ تضيق منها الفِكَر، وتعجَزُ عنها الإِبَرُ، ونَقَلتِ النبأَ من العين إلى الأَثَر، وقال الكُفْر: إنها لإحدى الكُبَر. وخُولف المَثَل: إنَّ السَّعادَةَ لتلحظُ الحجر. وأغنى ضوؤها لسانَ كلِّ إمَّعة أن يسألَ هذا وهذا: ما الخَبَر، وَقَذَفَتْ بِشَرَرٍ كالجِمالاتِ الصُّفْرِ. وزَفَرَت بغيظٍ تعَفَّر له خدودُ الجبال الصُّعْر، وتلحقها بالكُثُبِ العُفْر. وبات الليل والنَّهار يشُلُّه[١]، وكلما أغمده الخمودُ جعل الوقود يَسُلُّه، إلى أن بدا الصَّباح كأنَّه منها امتار الأنوار، وانشقَّ الشَّرْقُ ومن عُصْفُرها صَبَغَ الإزار، فحينئذٍ تقدَّم الخادم، فاقتلع شَدُّه الأحجارَ من أُسِّها، ومحا حروفَ البُنْيان من طِرْسِها، وتَبِعَهُ الجيشُ ورفاقه، وكافَّة من اشتمل عليه نِطاقُه.

وفي كتابٍ آخر: وكان مبنياً على تلٍّ، وفيه صِهْريج[٢]، لما فتح المسلمون الحِصْن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل، ودابَّة محرقة بالنَّار، فما سدَّت عَرْصَتَه ولا ملأت حُفْرَتَهُ، وكان فيه نحو ألف زَرَدِيَّة، والمقاتلة ثمانون فارساً بغِلْمانهم، وخمسة عشر مقدَّماً للرِّجال، مع كل مقدَّم خمسون رجلاً، هذا إلى الصُّنَّاع ما بين بنَّاء ومعمار وحدَّاد ونجار وصَيْقَل وسيوفي، وصُنَّاع أنواع الأسلحة. وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مائة رجل، نُزِعَتِ القيود من أرجلهم وَجُعلت في أرجل الفرنج. وكانت فيه أقواتٌ لِعدَّة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغٌ ومَتَاعٌ إلى حينٍ. ولما قوتل أول يوم هُجِمَ حَوْشُه وفيه جماعةٌ من المقاتلة، فَضُرِبَتْ رِقابُهم، وأُخذت دوابُّهم، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات، وَحُشِيَتْ بالنِّيران، وتأخَّر وقوع الجدران لفرط عَرْض البُنْيان، ولم تزل النَّار توقَد، ثم تخرج، ثم تُشْعل، ثم تُخْمد إلى أن تمكَّنَتِ النقوبُ، وحُشيت بالأحطاب، وأُطلقت فيها النِّيران في يوم الخميس، فيومئذٍ وَقَعَتِ الواقعة، وانشقَّت الأَبْرجة فهي يومئذٍ واهية، وملك المسلمون الحِصْنَ بما فيه ومَنْ فيه، واشتعلت النِّيران في أرجائه ونواحيه.

---

(١) الشل والشلل: الطرد، شلّه يشلّه شلّاً فانشلّ، وكذلك شل البعير أُتُنَه والسائق إبله.

(٢) الصهريج: حوض يجتمع فيه الماء.

وكان الطاغية مُقَدَّم الحصن يشاهد ما حَلَّ بِبُنْيانه، وما نَزَلَ من البلاء بأصحابه وأعوانه. ولما وصلت النَّار إلى جهته ألقى نَفْسَه في خندقِ نارٍ صابراً على حَرِّها، ففي الحال نقلته هذه النَّار إلى تلك النَّار. ولما أُخذ أسارى الإفرنج، وهم عِدَّةٌ تزيد على سبعمائة بعد المقتولين، وما تقصر عِدَّتُهم عن مثلها، توفَّرتِ الهِمَّة على هَدْم هذا الحصن، وتعفية أثَره، وإزالة ضَرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أثَراً بعد عَيْنٍ في عَيْنِ مُشاهده، هذا، والفرنج مجتمعون في طَبَريَّة يشاهدون الأمر عِياناً، وينظرون إلى الحِصْن قد مُلئ نيراناً، وارتفع دُخَّاناً. وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانْثَنَتْ مُغيرة، فاستثارت كُلَّ غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن منها إلا كل قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا مَنْ نَفْسُه لشدَّة الخوف معتقلة في نَفْسه أو مشحونة.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى وزير بغداد: تأخَّر فلانٌ لضروراتٍ، منها أمراضٌ كانت قد عمَّت بها البَلْوى، وكَثُرَتْ بها الشَّكْوى، وكان أكثرها خاصاً بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن. وكان خادما المجلس السَّامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهدا وأُثخنا، وبلغا حدَّ اليأس وامتُحنا، وكادا يَسْقُطان من ضمير المَنَى، فَمَنَّ الله تعالى بالشِّفا، وهذه البُشْرى بفتح الحِصْن، وإن كانت شريفةً مواقعها، عامَّةً منافِعُها، فقد تجدَّدت بعدها بشارةٌ طلعت بِشَارَةٍ رائقةٍ، وجاءت في مكان الرَّديف لأُخرى، لا فَرْقَ بينهما إلا أَنَّ تلك سابقة وهذه لاحقة؛ وذلك أن الأسطول المِصْري غزا غزوةً أخرى غير الأُولى، وتوجَّه عن السَّواحِل الإسلامية مرة أُخرى، مَنَّ الله فيها مِنَّةً أخرى. وكانت عِدَّته في هذه السنة قد أُضعفت وقُوِّيت، واستفرغت فيها عزائم الجهاد واستقصيت، واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروفٌ من المغاربة لغزو بلاد الكُفْر، فسارت على سوارٍ هي كنائن، إلا أنها تمرق مروقَ السِّهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمرُّ مَرَّ السحابِ غيرِ الجَهَام[1]، فلا أعجب منها تسمَّى غرباناً، وتنشُرُ من ضُلوعها أجنحة الحَمَام، وتُسمَّى جواري وكم مُبشِّر مُجْريها من النَّصْر بِغُلام. وطرقت في الأحد حادي عشر جُمادى الأُولى ميناء عَكَّا، وهي قُسْطنطينية الفرنج، ودار كُفْرهم، أبدلها الله من الكُفْر إسلاماً، وخلَعَ عنها الشِّرْك البالي، وخَلَعَ عليها من التوحيد أعلاماً. وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة، وباتت جميع الفرنج محترسة وغدت مترسة، فما هي إلا أن حُذفت

---

(١) الجهام، بالفتح: السحاب الذي لا ماء فيه.

والجةً على المينا، وفيه المراكبُ والبضائع، فاستولت على عِدَّةٍ من المراكب تحطيماً وتكسيراً، ونطاحاً يُقَلْقِلُ ولو كان ثَبِيراً، وأخلَتْ ساحل الفرنج بقتالها، وباشرت مثل الماء بنزولها ونِزَالها، وهذا مما لم يُعهد من الأُسطول الإسلامي مثلُه في سالف الدَّهر، لا في حالة قوَّةِ إسلامٍ ولا ضُعْفِ كُفْرٍ، ومما سبيله أن تُطَرَّزَ السِّيَرُ الكريمة بفخره، كما طرَّز الله الصحيفةَ الشَّريفة بأَجْره. وقُتل على قلعة عكا ثلاثة نفرٍ بأليم السِّهام، أبعد ما كانوا وقفوا عنها، وآمن ما كانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخرُّوا سُجَّداً على الجباه، سجوداً لا يرفعون منه الرُّؤوس، ولا ينتقلون منه إلى حالةِ الجلوس، ولا يرفع فيما يرفع لهم من عمل، ولا لهم فيه من قِبْلَةٍ ولا لهم به من قِبَل. وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتُناضلها.

فـصـل

في باقي حوادث هذه السنة

[حجة القاضي الفاضل الثانية ووفاة المستضيء بالله]

منها حجة الفاضل الثَّانية، ووفاة الخليفة المستضيء بالله[١] وغير ذلك.

قال العماد: وفي العَشْر الأخير من شوَّال خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكَّة.

قلت: وقفت على نسخةِ كتاب الفاضل إلى الصَّفي بن القابض[٢] يصفُ له ما لقي في طريقه إلى مصر وركوب البحر، وكانت جمالُه ذهبت بمكَّة في خامس عشر ذي الحِجَّة، فقال: خرجنا من مكَّة ـ شَرَّفها الله ـ يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسُّطُ المفسدين، وإسراف المُسْرفين، وظَهَرَ من هَوَان أمير الحاجّ العراقي ومن ضَعْف نَفْسه وانخفاض جَنَاحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح. ووصلنا إلى جُدَّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة،

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٩٧ ـ ٩٨. والمستضيء بالله هو الخليفة العباسي الإمام أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، تولّى الخلافة سنة ٥٦٦هـ، بعد موت أبيه الإمام المستنجد بالله، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر، (وفيات الأعيان ٤/ ٤٧٠، ٧/ ١٥٧).

(٢) توفي في الثالث والعشرين من رجب سنة ٥٨٧هـ، وكان نائب السلطان بدمشق، وكان قد خدم السلطان في أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر حكّمه في أعمالها. ستَرِد ترجمته في الجزء الرابع.

وركبنا البحر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الرِّيحُ إلى جزيرةٍ بالقُرْب من بلاد اليمن تُسمَّى دبادب. وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أُقسم لقد شاب بعضُ رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وأيسوا من الأنفس، وتمنّوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أُحيط بهم، وعاتبوا أنفسهم، ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لا حيلة فيها. وصبرنا إلى أن فَرَّج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لا ماء يُشرب ولا جملٍ يُركب، ونُفِّذ إلى البُجاة النَّازلين على ساحل البحر، فأحضروا جمالاً ضعيفةً، أُجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله، فركبنا ووصلنا إلى عَيْذاب بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفاً وتعباً وجُوعاً وعطشاً، لأنَّ الخَلْقَ كانوا كثيراً، والزَّاد يسيراً. وركبنا البريَّة من عَيْذَاب إلى أُسوان، فكانت أشق من كلِّ طريقٍ سلكناها، ومن كل مسافةٍ قطعناها لأنا وردنا الماء في إحدى عشرة ليلة مرَّتين، وكانت الهِمَّة قاصرة في المزاد، وكانت البلوى عظيمةً في العطش. فأما الحزون والوَعْرُ فهي تزيدُ على ما في بريَّة الشَّام بكونها طريقاً بين جبلين كالدَّرْب المتضايق، والزُّقاق المتقارب، وحَرُّ الشمس شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولَطَفَ اللّهُ إلى أن وصلنا مِصْر في السَّابع عشر من صَفَر.

قلت: وللوجيه ابن الذَّرَوي[1] في الفاضل: [الطويل]

لكَ اللّهُ إمَّا حِجَّةٌ أو وِفَادَةٌ ... فمن مَشْهَدٍ يُرضي الإله ومَوْسِمِ
تُرى تارةً بين الصَّوارِمِ والقَنَا ... وطَوْراً تُرى بين الحَطِيم وزَمْزَمِ
وكم لك يا عبدَ الرَّحيم مآثِرٌ ... لها في سماءِ الفَخْرِ إشْرَاقُ أَنْجُمِ
كأنَّكَ لم تُخْلَقْ لغيرِ عِبَادَةٍ ... وإظهارِ فَضْلٍ في الوَرَى وتَكَرُّمِ

[ختان الملك العزيز]

قال العماد: وفي هذه السَّنة طُهِّر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين بن السُّلْطان[2]، وكان أحبّ أولاده إليه، وهو الذي قام بتدبير الملك بعدَه، وولد بمصر ثامن جُمادى الأُولى سنة سبع وستين وخمسمائة كما سبق ذكره.

وكان السُّلْطان لما قدم الشَّام زاد شوقه إليه، فاستقدمه، فقدم عليه عاشر رجب

(١) ابن الذروي: هو وجيه الدين أبو الحسن علي بن يحيى المصري، ستأتي ترجمته في خبر وفاته سنة ٥٧٧هـ.
(٢) تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

سنة إحدى وسبعين، وأنشد العمادُ السُّلْطانَ عند قدومه قصيدةً، منها: [السريع]

يـا أسـداً يـحـمـي عَـرِيـنَ الـعُـلا هُـنِّـيـتَ جَـمْـعَ الشَّـمْـلِ بـالـشِّـبْـلِ
عـثـمـانَ ذي الـنـوريـن بـيـن الـوَرَى مـن سُـؤْدَدٍ سـام ومِـنْ فَـضْـلِ
يَـحـكـيـكَ إقـدامـاً وبَـأسـاً فـمـا أَشْـبَـهَ هـذا الـفَـرْعَ بـالأَصْـلِ
مَـخَـايِـلُ الـرُّشْـدِ عـلـى بِـشْـرِهِ شـاهـدةٌ بـالـفَـضْـلِ والـنُّـبْـلِ
مَـلْـك قَـضَـى الـلَّـهُ لَـهُ أنَّـهُ عـلـى مُـلُـوكِ الأَرْضِ يَـسْـتَـعْـلِـي
بـالـمَـلِـكِ الـنَّـاصِـرِ سُـلْـطـانِـنـا طـالَـتْ يَـدُ الإحـسـانِ والـعَـدْلِ

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مِصْر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شَوَّال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلماً من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور[1]، فحصَّل من صحبته رِزْقاً واسعاً لا سيما في عام الطهور، فإنَّه عَمَّ فيه السُّرور والحبور، وكان متولي الإنفاق في الطهور صفي الدين بن القابض؛ لأنه كان متولي الخزانة والديوان والأعمال بدمشق.

قال: وحجَّ ـ يعني ابن القابض ـ سنة أربع وسبعين، وفيها حجَّ الفاضل من مِصْر ـ يعني حجته الأُولى ـ وعاد إلى الشَّام، ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معاً في حجة الفاضل الأولى إلى الشَّام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانياً من العام المقبل، وهو سنة خمس وسبعين، وتَمَّ له في رجوعه ما تَمَّ كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره، يصف له ما لقي في رجوعه. وكانت حجة الفاضل الأُولى من مصر ورجع إلى الشَّام، وكانت الثَّانية من الشَّام ورجع إلى مِصْر.

[وفاة الملك المنصور حسن بن صلاح الدين]

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن بن السُّلْطان صلاح الدين، وقبره القبر القِبْلي من القُبور الأربعة بالقُبّة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النَّجمية بالعوينة ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بَعْلَبَكَّ لتسليمها إلى عز الدين فَرُّخْشاه، فسلكوا طريق الرَّواديف؛ وهي طريقٌ شاقَّة.

---

(١) ولد سنة ٥٤٩هـ، وكان قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، وقد أنس به العزيز بن صلاح الدين، حتى أنه استوزره في نيابته عن أبيه بمصر، ثم لما مات صلاح الدين فوض العزيز إليه جميع أمور دولته، توفي بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (التكملة للمنذري ٢/ ٣٠ ـ ٣١).

[إغارة عز الدين على صفد]

وفيها أغار عز الدين على صَفَد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها، ورجع غانماً سالماً.

[وفاة المستضيء بالله وولاية ابنه الناصر لدين الله]

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين، واسْتُخْلِفَ ولده النَّاصر لدين الله أبو العباس أحمد[١]. وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري[٢] حاضراً، فحضر وبايع، وأخبر بجليَّة الحال، فبادر السُّلْطان إلى الخطبة له في جميع البلاد، ومضى صَدْرُ الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل[٣]، من بغداد رسولاً إلى بهلوان[٤]، وألزمه حتى خَطَبَ بهمَذَان وأَصْفَهان، وعمَّت الدعوة الهادية في جميع بلاد خُراسان. ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولاً في سنة ستٍّ وسبعين، وأخذه السُّلْطان معه إلى مصر، وحجَّ منها وركب البحر كما سيأتي ذِكْرُه.

وللعماد في مدح الإمام النَّاصر قصائد، منها قصيدةٌ بائية مدحه بها سنة فتح القُدْس، وسيأتي منها أبياتٌ عند ذكر فتحه، ومنها: [البسيط]

الدَّهْرُ يَنْصُرُني ما دَامَ يَنْسُبُني ... لِخِدْمَةِ النَّاصِرِ المَنْصُورِ نَسَّابُ

بطاعَةِ النَّاصر بن المستضيء أبي الـ ... ـعَبَّاس أحمد للأَيَّام إصْحابُ

وقال محمد بن القادِسي[٥] في تذييل تاريخ أبي الفَرَج بن الجَوْزِي[٦]: مولد

---

(١) بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستضيء، وتوفي أول شوّال سنة ٦٢٢هـ (صبح الأعشى ٣/ ٢٧٦).

(٢) تقدّمت ترجمته.

(٣) هو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، صدر الدين، شيخ الشيوخ، ولد سنة ٥٠٨هـ، وتوفي في رجب سنة ٥٨٠هـ. سترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٠هـ، في هذا الجزء.

(٤) بهلوان: هو أتابك شمس الدين محمد بن أتابك الدكز، المعروف بالبهلوان، كان صاحب الجبل والري وأصفهان واذربيجان، ولي سنة ٥٦٨هـ، وتوفي سنة ٥٨٢هـ، وسترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٢هـ، من هذا الجزء.

(٥) محمد بن القادسي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، نسبة إلى القادسية، وهي قرية بين سامراء وبغداد، وليست قادسية الكوفة التي كانت فيها الوقعة الشهيرة، توفي سنة ٦٣٢هـ، له من المصنفات: «ذيل المنتظم»، «أخبار الوزراء». (وفيات الأعيان ١/ ٣٢٩، التكملة للمنذري ٣/ ١٣١، الوافي بالوفيات ٢/ ١١٧).

(٦) أبو الفرج ابن الجوزي: هو عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي بن عبد الله القرشي =

المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريماً رحوماً، باراً بالرَّعية، يعفو عن الجرائم الكبار، عادلاً. ظَهَرَ يوم مبايعته من رَدِّ المظالم والأملاك المقبوضة، والإفراج عن المسجونين، وإسقاط الضَّرائب والمكوس ما شاع واشتهر.

قال: وتقدّم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وإلى عبد الرحمن بن الجَوْزي فَصَلَّيا عليه. ثم بايع النَّاصِرَ أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصُّه، ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان، والوافدون للحجِّ من بلاد خُرَاسان وغَيْرُهم. وكان والده المستضيء قد عهد إليه قبل وفاته بيوم واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد بأسبوع واحد، فسبق به قلمه، فإن ابن الدُّبيثي ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال.

[القبض على ظهير الدين بن العطار وقتله]

ثم قال ابنُ القادِسي: وفي سابع ذي القَعْدَة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العَطَّار[1]، ووكّل به، وتتبع أصحابه ومن يتعلّق به.

وقُتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي، قد نُزِعت الرَّحمةُ من قلبه، فقطِّع قِطَعاً، ورُبِطَ في رِجْله حَبْلٌ، وسحبته العامَّةُ في الدُّروب، ثم أُحرق بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حُمل ابنُ العَطَّار مَيْتاً، وعَلِمَ به العامَّةُ، فرجموا تابوته بالآجُرِّ، فألقاه الحمَّالون وهربوا، فأخذه العامَّة، وشدُّوا في رِجْله شريطاً، وسُحِبَ في جميع بغداد ومنافذها ودُروبها ومَحَالِّها، وقُطِّع لحمه قِطَعاً.

قال: وتوجَّه شيخُ الشُّيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن إيلدِكِز[2] شِحْنة هَمَذَان لأجل الخُطْبة، فتوقَّف عن ذلك، فهاجت العامَّةُ عليه، ووثَبَ أهل

= التميمي الحافظ، جمال الدين، أبو الفرج البكري البغدادي، المعروف بابن الجوزي الفقيه الحنبلي، ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي ببغداد في رمضان من سنة ٥٩٧هـ، له أكثر من ٢٥٠ كتاباً ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ٥/ ٥٢٠ ـ ٥٢٣. منها المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الذي ذيل عليه ابن القادسي.

(١) هو ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار، صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدناً مصافياً، وكان ابن العطار هذا مدبراً لمقتل الوزير عضد الدين (انظر ترجمته في مرآة الزمان ٨/ ٢٢٨، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٨٤ ـ ٨٥).

(٢) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

المذكور وخطبوا. وجاء كتاب شيخ الشُّيوخ إلى الدِّيوان سَطَّرها فلانٌ: والحالُ في الجنوح كقِصَّة نوح، من قرأ السُّورة عَرَفَ الصُّورة.

[الغلاء والوباء ببغداد]

قال: وفي هذه السَّنة اشتدَّ الغلاء، وكَثُرَ الوباء ببغداد وغيرِها من البلاد، وذُكر أنَّ رجلاً بواسط ذبح بنتاً له وأكلها، وآخر بَقَرَ بَطْنَ صبيٍّ، وأخذ كَبِدَه وشَوَاها وأكلها.

[وقوع زلزلة في إربل]

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العَتَمَة فوق بلاد إرْبل، فلما أصبح النَّاس عادت الزلزلَةُ في الجبال، فتصادمت، ووقع منها الحجارة، وسقطت قِلاعٌ كثيرة، وهلكت قُرًى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعاً، فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الإسماعيلية أسواقَ حلب، وافتقر أهلُها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

[خروج قراقوش إلى طرابلس الغرب]

قال: وفيها خرج قَرَاقُوش التَّقوي[1] إلى طَرَابُلُس المغرب، ففتح بلاداً، وصَلَى حروباً مع إبراهيم السلاح دار الذي دخل بلاد المغرب أيضاً من أصحاب تقي الدِّين؛ لأن نَفْسَه أطمعته أن يفعل فِعْل قَرَاقُوش في تملُّك البلاد، ثم أصلح بينهما.

[وفاة أبي طاهر السلفي]

ثم دخلت سنة ستٍّ وسبعين[2]

وفيها توفي الحافِظُ أبو طاهر السِّلَفي[3] رحمه الله بالإسكندرية، وقد زُرْتُ قبرَه بها داخل الباب الأخضر.

---

(١) هو قراقوش، غلام تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.
(٢) وخمسمائة.
(٣) أبو طاهر السلفي: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة السلفي، الحافظ أبو طاهر، صدر الدين الأصفهاني الشافعي، ولد سنة ٥٧٦هـ، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

[الهدنة بين صلاح الدين والفرنج]

قال العماد: وفيها هادن السُّلْطانُ صلاحُ الدين الفرنجَ، وتوجَّه إلى بلد الرُّوم، فأصلح بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أَرْتُق صاحب حصن كيفا، وبين زوج ابنته السُّلْطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهرٍ يُقال له كوك سُو، وكَثُرَتْ ثَمَّ الهدايا والدَّعوات والأفراح والهِبَات.

[دخول صلاح الدين بلاد الأرمن]

وفيها دخل السُّلْطان بلاد الأرمن لقمع ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان، ثم صبَّحهم بغَدْره، وحَصَلوا بأَسْرِهم في أَسْرِه. فدخل السُّلْطانُ بلاده، وأذلَّ أعوانه وأجناده، ونصر اللَّهُ المسلمين بالرُّعْب، فأحرق من الخوف قلعةً شامخةً تُعرف بالمانقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغَلَّات، فتقوَّوْا بها، وتمموا هَدْمَها إلى الأساس.

قال ابنُ أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً آلات نحاس وفِضَّة وذَهَب لها زمنٌ طويل.

[الصلح بين صلاح الدين والأرمن]

قال: وبَذَلَ للسُّلْطان جُمْلَةً من المال، وأنَّه يُطلق من عنده من الأسارى. فلم يَرْضَ السُّلْطان بما بذله، فزاد في المال، وأنَّه يشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان، وأخذ منهم رهينةً على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذَلَّ، وأطلق ما بيده من الأسارى، ورجع السُّلْطان مؤيَّداً منصوراً، ووصل إلى حماة في أواخر جُمادى الآخرة وكان الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سُلْطان بن الخطاب المُقْرئ(١) شاهداً هذه الغَزَاة، فنظم قصيدةً في السُّلْطان، منها: [المتقارب]

لـقـد جَـمَّـل الـلَّـهُ مـنـك الـورى   بـأَوْفَـى مـلـيـكٍ وفـيٍّ هِـجَـانِ(٢)

---

(١) لم تذكر المراجع سنة ولادته ووفاته، وهو محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ، جمال الدين الواسطي، قرأ في بغداد الأدب على ابن الخشاب وأبي البركات الأنباري، وأبي محمد الجواليقي، وسكن دمشق، (الوافي بالوفيات ٣/ ١١٨، معجم البلدان ٥/ ٣٣٤، بغية الوعاة ١/ ١١٥).

(٢) الرجل الهجان: الرجل الكريم الحسب والنسب، نقيُّه.

تَـهَـشُّ إلـى نَـغَـمـاتِ الـسُّـيـو فِ فـي الـهـامِ لا نَـغَـمَـاتِ الِـقـيـانِ
أَزَرْتَ ابـــــن لاونَ لأَوَاءَه فـأضْـحَـى بـه خَـبَـراً عـن عِـيَـانِ
ودانَ مِـــنَ الـــذُّلِّ لا يَــزْعَــوي حِـذاراً مــن الـرَّاعِـفـاتِ الـلِّـدانِ
فــلا قَــدَمٌ عِـنْـدَه لـلـثَّـبـاتِ ولـيـس لـه بِـسُـطـاكـمْ يَـدَانِ
وأخـلـى لـهـيـبـتـك الـمـانـقـيـر وغـادَرَ لـلـهَـدْمِ تـلـكَ الـمَـبَـانـي
وأَرْسَـلَ بـالأُسَـراءِ الـعُـنَـا ةِ يَـسْـأَلُ إطـلاقَـهُ فـهْـو عـانـي
رَتَـقْـتَ بِـعَـزْمِـك والـمَـكْـرُمـاتِ فُـتُـوقـاً مـن الأرْتـقـيِّ الـهِـجـانِ
ورُعْـتَ ابـنَ سَـلْـجُـقَ فـي مُـلْـكِـهِ فـقـعـقـع مـن رُعْـبِـهِ بـالـشِّـنـان[١]

قال: ولما وصل السُّلْطَانُ إلى حمص، وخيَّم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد المَوْصِلي[٢]، وأنشده، وله في السُّلْطان مدائح منها قصيدةٌ غرَّاء، مطلعها: [الوافر]

أَمَا وَجُفُونِك الـمَرْضَى الـصِّحاح وَسَـكْـرَةِ مُـقْـلَـتَـيْـكَ وَأَنْـتَ صَـاحِـي
لـقـد أَصْـبَـحْـتُ فـي الـعُـشَّـاق فَـرْداً كـمـا أَصْـبَـحْـتَ فَـرْداً فـي الـمِـلاحِ
يَـهُـزُّ الـغُـصْـنَ فَـوْقَ نـقًـى ويَـرْنُـو بـحـدِّ ظُـبًـى ويَـبْـسِـمُ عـن أَقَـاحِ
وقـد غَـرَسَ الـقَـضِـيـبَ عـلـى كَـثِـيـبٍ فَـأَثْـمَـرَ بـالـظَّـلامِ وبـالـصَّـبـاحِ
ومـالَ مـع الـوشـاةِ ولا عَـجِـيـبٌ لِـغُـصْـنٍ أن يَـمِـيـلَ مـع الـرِّيـاحِ
قَـطَـعْـنـا الـلَّـيْـلَ فـي عَـتْـبٍ وشَـكْـوَى إلـى أَنْ قـيـلَ حَـيَّ عـلـى الـفَـلَاحِ
ولاحَ الـصُّـبْـحُ يـحـكـي فـي سَـنَـاه صـلاحَ الـدِّيـن يُـوسُـفَ ذا الـصَّـلاحِ
ولـمـا ضَـاقَ حَـدٌّ عـن مَـدَاه لَـقِـيـنـاه بـآمـالٍ فِـسَـاحِ
فَـمَـنْ هَـرِمٌ وَكَـعْـبٌ وابـن سُـعْـدَى رِعَـاءُ الـشَّـاءِ والـنَّـعَـمِ الـمِـرَاحِ[٣]

(١) عجز البيت مأخوذ من المثل المأثور: لا يقعقع له بالشنان، يضرب للرجل الشرس الصعب، أي لا يفزع ولا يهدد. والشنان: جمع الشن: وهي القربة الخلقة، المصنوعة من جلد.
(٢) هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).
(٣) هرم: هو هرم بن قطبة بن سنان الفزاري، من أجواد العرب المشهورين في الجاهلية، ومن قضاة العرب في الجاهلية، أدرك الإسلام، وأسلم، وثبت حين ارتدّ قومه عن الإسلام وعاتب عيينة بن حصن وله في ذلك شعر (الأعلام ٨/ ٧٣، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين ص٥١١).
=

جَـوَادٌ بـالـبـلادِ ومـا حَـوَتْـهُ إذا جـادوا بـأَلْـبـانِ الـلِّـقـاحِ
لِـيَـفْـدِ حـيـاءَ وَجْـهِـك كـلُّ وَجْـهٍ إذا سُـئِـلَ الـنَّـدى جَـهْـمٍ وَقَـاحِ
مـلـوكٌ جُـلُّـهـم مُـغْـرًى بـظُـلْـمٍ ومـشـغـولٌ بـلـهـوٍ أوْ مُـزَاحِ
إذا مـا جَـالَـتِ الأبـطـالُ وَلَّـى وَيَـقْـدُمُ نـحـو حـائِـلَـةِ الـوِشَـاحِ
وبَـوْنٌ بـيـن مـالـكِ بَـيْـتِ مـالٍ ومـالـكِ رِقِّ أمـلاكِ الـنَّـواحـي
هُـمُ جَـمَـعُـوا وقـد فَـرَّقْـتَ لـكـنْ جَـمَـعْـتَ بـه الـرِّجـال مع الـسِّـلاحِ
ومـا خَـضَـعَ الـفـرنـج لـديـك حَـتَّـى رأَوْا مـا لا يُـطـاق مـن الـكِـفَـاحِ
ومـا سـألـوك عَـقْـدَ الـصُّـلْـح وِدًّا ولـكـنْ خَـوْفَ مُـعْـلِـمَـةٍ رَدَاحِ[1]
مَـلأْتَ بـلادَهُـمْ سَـهْـلاً وحَـزْنـاً أُسُـوداً تـحـت غـابـاتِ الـرِّمـاحِ

وقال ابن شداد: لما عاد السُّلْطان بعد الكسرة ـ يعني كسرة الرَّمْلة[2] ـ إلى الدِّيار المِصْرية، وأقام فيها ريثما لَمَّ النَّاسُ شَعَثَهُمْ، وعَلِمَ تَخَبُّطَ الشَّام، عَزَم على العَوْد إليه، وكان عَوْدُه للغَزَاة، فوصله رُسُل قليج أرسلان[3] يلتَمسون منه الموافقة، ويستغيث إليه من الأَرْمن. فاشتمل نحو بلاد ابن لاون لِنُصْرة قليج أرسلان عليه، ونزل بقراحِصار، وأخذ عسكر حلب في خدمته، لأنه كان قد اشترط في الصُّلْح ذلك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بَهَسْنَى وحِصْن منصور، وعبر منه إلى النَّهْر الأسود طَرَفَ بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حِصْناً وأخربه، وبذلوا له أسارى، والتمسوا منه الصُّلْح، وعاد عنهم. ثم راسله قليج أرسلان في صُلْح

= وكعب: هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد، جاهلي، كريم، يضرب به المثل في حسن الجوار: «جار كجار أبي دؤاد»، ويضرب به المثل في الجود والكرم: «أجود من كعب بن مامة» (الأعلام ٥/ ٢٢٩).

وابن سعدى: هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي، من الحكماء في الجاهلية، عاصر بشر بن أبي خازم الأسدي ما بين ٥٠٥م ـ ٥٩٠م، وكان أكبر منه، هجاه بشر أوّل الأمر كما هجا أسرته طيء ولما عفا عنه أوس، مدحه بست قصائد، له وصايا ونصائح لابنه (معجم الشعراء الجاهليين ص٤٢).

(١) المعلم: الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها مكانه، وهي علامة يضعها الشجعان، والرداح: الكتيبة الكثيرة الفرسان، ثقيلة السير لكثرتها.

(٢) كسرة الرملة: تقدّم ذكرها في الجزء الثاني.

(٣) هو الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقي، توفي في منتصف شعبان سنة ٥٨٨هـ بمدينة قونية، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة، ولما كبر فرّق بلاده على أولاده، فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه، وحجر عليه ولده قطب الدين (انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٩٧ ـ ٩٨، ١٠١ ـ ١٠٢، ٢١٩ ـ ٢٢٠).

الشَّرْقيِّين بأسرهم، واستقرَّ الصُّلْح في عاشر جُمادى الأولى سنة ستٍّ وسبعين، ودخل في الصُّلْح قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك على نهر شيخه[١]؛ وهو نهر يرمي إلى الفُرَات، وسار السُّلْطان نحو دمشق.

فـصـل

في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي[٢]، والسُّلْطان مخيم على كوك سو من حدود بلاد الرّوم، وجلس مكانه أخوه عِزُّ الدين مسعود بن مودود. وجاء رسول مجاهد الدين قايماز، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدَّهَّان البَغْدَادي[٣] إلى السُّلْطان يطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سَرُوج والرُّها والرَّقَّة وحَرَّان والخابور ونَصِيبين في يده، فلم يفعلِ السُّلْطان.

وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشَّفاعة على شرط أن يُقَوِّي السُّلْطانَ بالعساكر. فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة النَّاصر يعلمه بذلك، وأن هذه البلاد لم يزل يتقوَّى بها ثَغْرُ الشَّام. فَفُوِّضت إليه على ما أراد.

وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ[٤] من إنشاء العماد،

---

(١) نهر شيخه: كذا في الأصل، ولم أجده في معجم البلدان، وفي معجم البلدان ٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥: سنجة: نهر عظيم يجري بين حصن منصور وكيسوم، ويروى: صنجة، بالصاد.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٠٠ ـ ١٠١: ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده.

(٣) ابن الدهان البغدادي: هو محمد بن علي بن شعيب، المعروف بابن الدهان، فخر الدين، أبو شجاع الحاسب الفرضي البغدادي، أقام مدة بالموصل، ثم بدمشق، فأكرمه صلاح الدين، توفي راجعاً عن الحج بالحلة في صفر من سنة ٥٩٠هـ له من الكتب: «تاريخ»، «تفسير المجرد»، «تقويم النظر في الخلاف»، «مجدول على وضع تقويم الصحة»، «الزيج المشهور»، «غريب الحديث» في ستة عشر مجلداً، «المائدة والفائدة في النوادر والفرائد» «المنير في الفرائض»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ١٠٣).

وقد ذكره أبو شامة في وفيات سنة ٥٩٢هـ، وقال: وفيها توفي أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان الفرضي الحاسب ببغداد، وكان فاضلاً وصنف تاريخاً من سنة عشر وخمسمائة إلى هذه السنة، وكانت وفاته بالحلة السيفية.

(٤) هو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، صدر الدين، شيخ =

وفيه: قد عُرِفَ اختصاصُنا من الطَّاعة والعبودية للدَّار العزيزة النَّبوية بما لم يختص به أحد، وامتدَّتِ اليد مِنَّا في إقامة الدَّعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتدَّ إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعيا، وخلَّفناهم للرَّدى، حيث دُعوا بلسان الغَوَاية خُلَفا. ولا خَفَاء أنَّ مِصْرَ إقليمٌ عظيم، وبلد كريمٌ، بقيت مائتين وخمسين سنة مَضِيمة، وعانَتْ كل هَضِيمة، وعاينت كُلَّ عَظِيمة، حتى أنقذها اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بنا من عَبيد بني عُبيد، وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عَنَاء كلِّ قَيْد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشَّرِّ إلى اليوم. وطوائفُ أقاليم الرُّوم والفرنج من البَرِّ والبحر بها مطيفة، فمن حَقِّها أن يتوفَّر عسكرها، فلو حصل ـ والعياذُ بالله ـ فَتْقٌ لأَعْضَلَ رَتْقُه، واتَّسع على الرَّاقع خَرْقُه. واحتجنا لحفظ بلاد الشَّام، وثغور الإسلام، إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله مُدَّة خمس سنين في بيكارها(١)، مُنْتقماً من كُفَّارها، متحمِّلاً لمشاقها على غلاء أسعارها. وإنما أحوج إلى ذلك أنَّ بلاد هذا الثَّغْر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أُخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله. ثم ذكرها كما سبق، ففوضت إليه كما سيأتي.

وقال ابنُ الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنةَ ستٍّ وسبعين، وكان مَرَضُه السل، وطال به(٢).

قال(٣): ومن العجائب أنَّ الناس لما خرجوا يستسقون بالمَوْصِل سنةَ خمسٍ وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خَرَجَ سيف الدين في موكبه، فثار النَّاس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك. فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخَمَّارين، وخرَّبوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمور، وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحِلُّ. فاستغاث أصحابُ الدُّور إلى نُوَّاب السلطان، وخصُّوا بالشكوى رجلاً من الصَّالحين يقال له أبو الفرج الدَّقَّاق، ولم يكن له في الذي فَعَله النَّاسُ من النَّهْب فِعْلٌ،

= الشيوخ، ولد سنة ٥٠٨هـ، وتوفي في رجب سنة ٥٨٠هـ، سترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٠هـ في هذا الجزء.

(١) البيكار الفظٌ فارسي معناه الحرب عامة، (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٧٠).

(٢) لفظ ابن الأثير «الكامل» ١٠/ ١٠٠: وكان مرضه السل، وطال به ثم أدركه في آخره برسام ومات.

(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٠٠ ـ ١٠١.

إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامَّة نهاهم، فلم يسمعوا منه.

فلما شُكي أُحضر بالقلعة، وضُرِبَ على رأسه، فسقطت عِمامَتُه، فلما أطلق لينزل من القلعة نَزَل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعِمامته، فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقمَ الله لي ممن ظلمني. فلم يمضِ غير قليل حتى توفي الدُّزْدار المباشر لأذاه، ثم بعقبه مَرِضَ سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي. وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً. وكان من أحسن الناس صورةً، تام القامة، مليح الشمائل، أبيض اللَّوْن، مُستدير اللحية، متوسط البدن بين السَّمين والدقيق. وكان عاقلاً، وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جَلَس، عفيفاً، لم يُذْكر عنه شيءٌ من الأسباب التي تنافي العِفَّة. وكان غيوراً شديد الغيرة؛ لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر، إنما يدخل عليهن الخَدَم الصِّغار. وكان لا يحبُّ سفك الدماء، ولا أخذ الأموال مع شُحٍّ فيه.

قال: ولما اشتدَّ مَرَضُه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه[(١)]، فخاف من ذلك، لأنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكَّن بالشَّام، وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأُمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل المُلْك بعده لأخيه؛ لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النَّفْس، وحُسْنِ سياسة الملك، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عَمِّهما عز الدين، ليبقى لهما ذلك. ففعل ذلك، وحلف النَّاس لأخيه. فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المُدَبِّر للدولة، والنائب فيها، والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العِزِّية وعَزَّاه، وركَّبه إلى دار المملكة، ومشى في ركابه راجلاً، فدخلها، وجلس للعزاء. وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجرأته وحِدَّةٍ كانت فيه، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمراً، فلما تولَّى تَغَيَّرت أخلاقه، وصار رفيقاً بالرَّعية، محسناً إليهم، قريباً منهم.

قال ابنُ شَدَّاد: وفي عاشر المحرَّم سنة ستٍّ وسبعين بَلَغَ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد، فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاةُ ابنِ عمه صاحب الموصل ثالث صَفَر.

---

(١) في «الكامل» ١٠/ ١٠١: وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشر سنة.

فَـصْــلٌ

في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر(١) وقدوم رُسُل الدِّيوان بالتفويض إلى السلطان ما طلبَه

قال ابن أبي طي: كان السُّلْطان قد أنفذ أخاه شمس الدَّوْلة إلى الإسكندرية، وجعل إليه وِلايتها، فلما حَصَلَ بها لم توافِقْه، وكان يعتادُه القُولَنْج، فهلكَ به، ودفن بقصر الإسكندرية. وكان أحد الأجواد، الكرماء الأفراد، شُجاعاً باسلاً، عظيم الهيبة، كبير النَّفْس، واسع الصَّدْر، مُمَدَّحاً، فيه يقول ابن سَعْدَان الحلبي(٢) من قصيدةٍ: [الطويل]

هو المَلْكُ إنْ تَسْمَعْ بِكِسْرى وقَيْصَرٍ ... فإنَّهما في الجُودِ والبَأْسِ عَبْدَاه
وما حاتِمٌ ممَّن يُقاس بِمِثْلِهِ ... فَخُذْ مَا رَأَيْناه وَدَعْ ما رَوَيْناه
وَلُذْ بِذَراه مُسْتَجيراً فإنَّه ... يُجيرُك من جَوْرِ الزَّمان وعَدْواه
فلا تتحمَّلْ للسَّحائب مِنَّةً ... إذا هَطَلَتْ جُوداً سحائِبُ جَدْوَاه
وَيُرْسِلُ كَفَّيْهِ بما اشتقَّ منهما ... فلليُمْنِ يُمناه ولليُسْرِ يُسْراه

قال العماد: وفيها في المُحَرَّم(٣) توفي بثغر الإسكندرية تُورَانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازلٌ بظاهر حمص، فَحَزِنَ عليه حُزْناً شديداً، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب «الحماسة» من حِفْظه،

---

(١) هو الملك المعظم توران شاه (ومعناه ملك الشرق) ابن أيوب بن شاذي، شقيق صلاح الدين، وأكبر إخوته، وكان السلطان يحترمه ويرجحه على نفسه، وكان في نفسه من الملك، ويرى أنه أحق من أخيه، أغزاه أخوه النوبة في جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ، ليفتحها فوجدها لا تساوي التعب، فرجع منها بغنائم كثيرة، والسبب في ذلك أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرجه نور الدين من مصر، فأراد أن يحصل بلداً يلتجئ إليه عند الخوف، فلم تعجبهم النوبة، فسيّره إلى اليمن بعد أن استأذن نور الدين توفي توران شاه بالإسكندرية في صفر سنة ٥٧٦هـ (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٥٠ ـ ٥٥، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٣٦٢، وفيات الأعيان ١/ ٢٧٣، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٧، تاريخ أبي الفداء ٥/ ٨٤، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ١٠٤).

(٢) ابن سعدان الحلبي: هو عيسى بن سعدان الحلبي، ولم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي، وأورد له ياقوت الحموي أشعاراً في معجم البلدان: جبل السماق، باب الجنان، فامية، ليلون، دابق، الدارين.

(٣) في شفاء القلوب: توفي في صفر. انظر الحاشية ما قبل السابقة.

وكان صلاح الدين لما ملك مِصْرَ أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استناب فيها، وقَدِمَ الشَّام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تيماء جاء منه كتابٌ، وفيه أبياتٌ لشاعره ابن المُنَجِّم[١]، منها[٢]: [الطويل]

فَهَلْ لأَخي بل مالكي عِلْمُ أنني … إليه وإنْ طالَ التردُّدُ راجعُ
وإني بيومٍ واحدٍ مِنْ لقائه … لِمُلْكي على عُظْمِ المَزِيَّة بائِعُ
ولم يبقَ إلاّ دونَ عشرين ليلةً … وتَجْني المُنَى أبصارُنا والمسامعُ
لدى مَلِكٍ تَعْنُو الملوكُ إذا بدا … وتَخْشَعُ إعظاماً له وَهْوَ خاشِعُ
كَتَبْتُ وَأَشْوَاقي إليك ببعضها … تَعَلَّمَتِ النَّوْحَ الحَمَامُ السَّوَاجِعُ
وما المُلْكُ إلا راحَةٌ أنتَ زَنْدُها … تَضُمُّ على الدُّنيا ونحن الأَصابعُ

قلت: وقبر تُورانشاه الآن بالتُّرْبة الحُسَامية بالعوينة ظاهر دمشق، نَقَلَتْه إليها أُخته سِتُّ الشَّام بنت أيوب[٣]، وبنت القُبَّة عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شِيرْكُوه[٤]، وهو ابنُ عمها، وعلى قَبْرِها وقبر ابنها حُسام الدين عمر بن

---

(١) ابن المنجم: هو نشو الدولة، أبو الحسن علي بن مفرج المنجم، (وعند ابن خلكان في وفيات الأعيان: نشو الملك)، شاعر مصري الأصل، مصري الولادة والوفاة، من طبقة ابن الذروي وابن قلاقس، ولد سنة ٥٤٩هـ، وتوفي سنة ٦٣٠هـ (انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/١٦٨ ـ ١٦٩، حسن المحاضرة ١/٢٢٦، وفيات الأعيان ١/١٩٧).

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/١٦٩.

(٣) هي ست الشام بنت أيوب بن شاذي، شقيقة شمس الدولة، عاقلة كثيرة البر والصلاة والإحسان، وكان يعمل في دارها كل سنة من الأشربة والعقاقير بألوف الدنانير وتفرقها على الناس، وهي أم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وتزوجها ناصر الدين ابن عمها أسد الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، وبنت له مدرسة وتربة على الشرف الشمالي من دمشق، توفيت في ذي الحجة سنة ٦١٦هـ، ودفنت بتربتها، واجتمع لها، ولأختها ربيعة خاتون، من الملوك ما لم يجتمع لأحد، لأن فاطمة بنت عبد الملك كان لها ثلاثة عشر خليفة، وست الشام كان لها نيف وثلاثون محرماً من الملوك سوى أولادهم (شفاء القلوب ص٢٢٩ ـ ٢٣٠، وانظر ترجمتها أيضاً في: مرآة الزمان ٨/٦٠٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٦هـ، البداية والنهاية ١٣/٨٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/٢٧٧، كنز الدرر ٢٠٤، النجوم الزاهرة ٦/٢٤٦، شذرات الذهب ٥/٦٧).

(٤) هو محمد بن شيركوه بن شاذي، الملك القاهر، ابن المنصور، ناصر الدين صاحب حمص، وكان ابن عمه السلطان صلاح الدين يعظمه ويهابه، وكان يدّعي أنه أحق بالسلطنة منه، وكان يبلغ السلطان ذلك فيحتمله، وكان عنده بحران سنة ٥٨١هـ، لما كان السلطان ضعيفاً ففارقه وسار إلى حمص، واجتاز حلب، ووعد أهلها وأعطاهم مالاً، وأرسل الدماشقة في تسليم البلد إليه عند موت صلاح الدين، وأقام بحمص ينتظر موته، فبقي =

لاجين ـ وسيأتي ذكره ـ وإليه تنسب التُّرْبة، فهي ثلاثة قبور: القِبْلي لتُورانشاه، والأوسط لابن شِيركُوه، والشَّامي لستِّ الشَّام وابنها[١]، رحمهم الله.

قال العماد: وفيها في رجب وَصَلَتْ رُسُلُ الدِّيوان العزيز النَّاصري صدر الدين شيخ الشُّيوخ أبو القاسم عبد الرَّحيم[٢]، ومعه شهاب الدِّين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتَّشريف الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد، وركب السُّلْطانُ للتلقي، وعلى صَفَحاته بشائِرُ التَّرقي، فلما تراءى له الرُّسُل الكِرام، ووجب له الإِجلالُ والإِعظام، نزل وترجَّل، وأبدى الخضوع وتوجَّل، ونَزَلَ الرُّسُلُ إليه، وسلَّموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبَّل الفَرْض، وَقَبَّلَ الأَرض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة.

قال ابن أبي طي: وكانت هذه أولَ خِلْعَةٍ قَدِمَتْ من الإمام النَّاصر على الملك النَّاصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكُمِّ مُذْهَب، وَبَقْيار[٣] أسود مذهب، وطَيْلَسان أسود مذهب، ومشدّة سوداء مذهبة، وطوق وتخت[٤]، وسَرْفسار[٥]، وجواد كُمَيْت من مراكب الخليفة عليه سَرْجُ أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب، وعلم أسود، وعِدَّة خيول، وبُقَج[٦]، وركب السُّلْطانُ بالخِلْعة، وزينت له دمشق، وكان يوماً عظيماً.

= السلطان ومات هو عن قليل، وقيل: إن السلطان اغتاله بسم، وقيل: مات فجأة يوم عرفة سنة ٥٨١هـ، وقال ابن واصل: شرب خمراً كثيراً فأصبح ميتاً، فنقلته زوجته ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بدمشق، وأبقى السلطان على ولده شيركوه إقطاع والده وهي حمص والرحبة وتدمر وسلمية. (شفاء القلوب ص٤٨ ـ ٤٩، وانظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ١٧٥، الوافي بالوفيات ٣/ ١٥٤، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٧، النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٠، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢١٧، تاريخ أبي الفداء ٥/ ٩٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٧٣، كنز الدرر ص٨٠، ترويح القلوب ص٣٩).

(١) أي أنها دفنت وابنها في قبر واحد.

(٢) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء، وسترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٠هـ، من هذا الجزء.

(٣) البقيار: فارسية، وهي العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة.

(٤) التخت: ويقال له: السرير، وهو ما يجلس عليه الملوك في المواكب، ولم يزل من رسوم الملوك قديماً وحديثاً، رفعةً لمكان الملك في الجلوس عن غيره حتى لا يساويه غيره من جلسائه (صبح الأعشى ٢/ ١٤٠).

(٥) سرفسار: كلمة فارسية، مركبة من كلمتين: سر: أي رأس، وفسار: أي اللجام (المعجم الفارسي ص٣٥٨).

(٦) بقج: جمع بقجة، كلمة فارسية، أصلها بغجة، بضم الباء، وهي قطعه قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صرّة (صبح الأعشى ٤/ ٦٣).

قال العماد: وظَفِرَ السُّلْطان من صدر الدِّين بصديقٍ صَدُويقٍ، وكان قد عَزَمَ على قَصْدِ الدِّيار المِصْرية، وسلوك طريق أيلة والبرِيَّة، فَحَسَّن لشيخ الشيوخ مُصَاحَبَتَه، ورغَّبه في زيارة قبر الشَّافعي رضي الله عنه، فقال: قد عَزَمْتُ في هذه السنة على الحج، فأَصِلُ معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخلُهَا، وإنما أسكن بالتربة الشَّافعية، وأسير منها إلى بحر عَيْذَاب، فلعلي أُدرك صومَ رمضان بمكَّة. فالتزمَ له ذلك، وأعاد أصحابَه ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته، ومعه رسوله ضياء الدين الشَّهْرُزُوري، وأنشأ العمادُ كتاباً في الجواب إلى الدِّيوان وفيه: وقد توجَّه الخادِمُ إلى الدِّيار المصرية لتجديد النَّظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه.

فَصْلٌ

في رجوع السُّلْطان إلى مِصْر مرَّة ثانية

قال العماد: ولمَّا عَزَم السُّلْطان على الرَّحيل استناب بالشَّام ابن أخيه عِزّ الدين فَرُّخْشاه[1]، وكان عزيز المِثْلِ، غزيرَ الفَضْلِ.

وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة، منها: [الخفيف]

أسألُ اللَّهَ ذا العُلا أنْ تعيشا ... ألفَ عامٍ لِنَصْرِهِ مُسْتَجيشا

لست أُكَدِّي شيئاً سوى فَرْوَةٍ منـ ... ـك وأبغي لِسَفْرَتي إكديشا

كيف يخلو من دِفْء ظَهْرٍ وظَهْرٍ ... سالكٌ طُرْقَ أَيْلَةَ والعَرِيشا

ووقفتُ على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن يُعْلمهم أَنَّ ملوك الشَّرْق قد دخلوا في طاعة السُّلْطان، وأنه عازِمٌ على القُدوم إلى مِصْر، وصَوْمِ رمضان بها، والحَجِّ إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحملَ لأجله إلى مكَّة من المال والأزواد والخِلَع مما تشتمل عليه تلك الأعمال.

(١) هو فرّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، عز الدين، أبو سعد، صاحب بعلبك، أقطعة عمه صلاح الدين إياها سنة ٥٧٥هـ، وناب بدمشق عنه سنة ٥٧٦هـ، وفي سنة ٥٧٧هـ، سار إلى الكرك، فنهب وقتل، وفتح الشقيف، وكان شاعراً فصيحاً وشعره مدوّن، مات بدمشق في جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ، (شفاء القلوب ص٢٣٢ ـ ٢٣٤، مرآة الزمان ٨/ ٣٧٢، تاريخ أبي الفداء ٣/ ٦٥، السلوك ١/ ٧٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١١، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٦١، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٩).

ووقفت على كتابين أُخريين، أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير يَنْبُع يعلمهما بذلك ليتأهَّبا لقدومه.

ووقفتُ على كتابٍ سادس للفاضل إلى السُّلْطان في ذلك يقول فيه: جعل الله الملوكَ ذِمَّة لسيفه، وشَرَّد منام الأعداء منهم بطَيفه، وأَمَّنَ أهلَ الإسلام بِعَدْله من جَوْر الدَّهْر وحَيْفه، وأشهدَه موقف الحجِّ الأكبر، وزان بمحضره مشهدَ خَيْفِه، وجعل وَفْدَه الأكرم وضيفَ بيته منتظمين في هذه السنة في وَفْدِه وضَيْفِهِ.

ثم هَنَّأه بما فتح الله عليه من مَحَبَّةِ الجهاد، وما أَثَّرَه في بلاد الأَرْمن وغيرها من البلاد، وما تَبِعَ ذلك من نِيَّةِ الحج، بلَّغه الله منه المُرَاد.

ودخول السُّلْطان بلادَ الأرمن كان في هذه السنة كما سبق، فلعلَّه سَنَحَ له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له ما منعه منه.

قال العماد: ورحل السُّلْطان إلى مِصْر يوم الاثنين ثامن عشر رجب، ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ، فأقام يومين كما ذَكَرَ، وتوجَّه منها إلى مكَّة على البحر، فأدرك الصَّوْم.

قال العماد: وَوَصَلْنا إلى القاهرة على طريق أيلة ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلُها، ولَقِيَنا الأكابرُ والأعيان، والملك العادل أخو السُّلْطان حينئذٍ بها نائِبُه، وتلقَّتْنا مواكِبُه، ومَوَاهِبُه، وخَدَمْتُه بقصيدةٍ ذكرتُ فيها المنازل والمناهل من يومِ الرَّحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة، منها: [الطويل]

أَحِبَّةَ قلبي طال ليليَ بَعْدَكُمْ ... أَسًى فمتى أَلْقى بوجهكمُ الفَجْرا
فَقَدْتُ حياتي مُذْ فَقَدْتُ لقاءَكُمْ ... فهل لحياتي منكُمُ نشأَةٌ أُخْرى
أجيرانَ جَيْرُونَ المُجيرينَ جارَهُمْ ... مِنَ الجَوْرِ حُوزوا في مَشُوقِكُمُ الأَجْرا
مُحِبُّكُمُ قد خانَهُ الصَّبْرُ فاطْلُبوا ... مُحِبًّا سِوَاه عنكُمُ يُحْسِنُ الصَّبْرا
وَمُذْ غِبْتُ عن مُقْرَى مَقَرِّيَ قد نبا ... سَقَى ورَعَى رَبِّي مَقَرِّيَ في مُقْرَى
أَحِنُّ إلى عَذْرا وعُذْرِيَ واضحٌ ... لأَنَّ الهَوَى العُذْرِيَّ مِنِّيَ في عَذْرا
إِنِ القَدَرُ المَحْتُومُ مِن جِلَّقٍ بنا ... إلى مِصْرَ أَسْرَى فالقُلُوبُ بها أَسْرَى(١)
رَحَلْنا فما باحتْ بأسرارنا سِوَى ... عبارةُ عَيْنٍ خَوْفَ يَوْم النَّوى عَبْرَى
تَرَكْنا دِمَشْقاً والجِنَانَ وراءنا ... وقُدَّامنا بالكُسْوَةِ الرِّفْقَةُ السَّفْرا
وَجِئْنا إلى المَرْجِ الذي طاب نَشْرُه ... فلا زَالَ مِنْ أحبابنا طَيِّباً نَشْرا

(١) أَسْرَى الأولى: أي سار ليلاً، وأسرى الثانية: جمع أسير.

رَحَلْنا بمرج الصُفَّر العِيسَ غُدْوَةً فسارَتْ وحَطَّتْ في مَحَجَّتها ظُهْرا
وقد قَطَعَتْ تُبنى إلى الدَّيْرِ بعدها وما عَرَّست حتى أَناخَتْ على بُصْرَى
نَزَلْنا الدِّناح والجلاعبَ بعدَها وبعدهما غُدرَ البشامِيَّة الغُزْرا
ورأسَ الحسا والقريتين وكلُّها مواردُ فيها السُّحْبُ قد غادَرَتْ غُدْرا
وَرَدْنا من الزَّيتون حِسْمَى وأَيْلَة وجزنا عُقاباً كان مَسْلَكُها وَعْرا
إلى قُلْتَةِ الرَّاعي إلى نابع إلى جراوِلَ فالنَّخْلِ الذي لم يزل قَفْرَا
إلى مَنْزِلٍ في رَوْضَةِ الجَمَلِ اغْتَدَتْ به عِيسُنا في صَدْر شارحِهِ صَدْرا
ودون حَشَا لما حَشَتْنا ركابَنَا عيونٌ لموسى لم يَزَلْ ماؤها مُرَّا
هناك تَلَقَّاها الوفُودُ بِبِرِّهِمْ فَسُرُّوا بنا نَفْساً وزادوا بنا بِشْرا
قَطَعْنا إلى بَحْرِ النَّدى بَحْرَ قُلْزُم وَمَنْ قَصْدُه بَحْرَ النَّدى يَقْطَعُ البَحْرا
عَبَرْنا إلى مَنْ كاثَرَ الرَّمْلَ جُودُه وجزنا إليه ذلك الرَّمْلَ والجِسْرا
ولم يُرونا ماءُ الثِّمادِ بِعَجْرَدٍ ولم يَقْتَنعْ بالقُلِّ من يَأْمُلُ الكُثْرا
وَجِئْنا البُوَيْبَ والمصانِعَ قَبْلَهُ إلى بِرْكَةِ الجُبِّ التي قَرُبَتْ مِصْرا
إلى عَزْمةٍ في المَجْدِ غيرِ قصيرةٍ وكان قُصَارى أَمْرِنا أَنْ نَرَى القَصْرَا
وَلَمَّا نَزَلْنا مِصْر في شَهْرِ طُوْبَةٍ وَرَدْنا بكَفِّ العادِلِ النِّيلَ في مُسْرى[^(١)]
غدا قاصِراً عن قَصْرِهِ قَصْرُ قَيْصَرٍ وإيوانُ كِسْرَى عند إيوانه كِسْرا

[تعريب العماد كتاب كيمياء السعادة للغزالي]

قال العماد: وفي هذه السَّنة بمصر عَرَّبْتُ كتابَ «كيمياء السَّعادة» تصنيف الإمام أبي حامد الغزَّالي[^(٢)] في مجلدَّين، وفُزْتُ من تعريبه وعِلْمِ ما فيه بسعادَتَيْن، وذلك بأمرِ فاضليّ لَزِمني امتثالُه، وشَمِلَني في إتمامِهِ إقبالُه.

---

(١) طوبه هو الشهر الخامس: من شهور القبط، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثاني منها صبح الأعشى ٢/ ٤١٢. ومسرى: الشهر الثاني عشر من شهور القبط، ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهور السريان. وآخره السابع والعشرون من آب منها (صبح الأعشى ٢/ ٤١٦).

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد الإمام، حجة الإسلام، أبو حامد الغزالي الطوسي الشافعي، ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ، من مصنفاته «الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة»، «إحياء علوم الدين»، «مقاصد الفلاسفة»، «كيمياء السعادة» فارسي، «تهافت الفلاسفة»، «التبر المسبوك في نصائح الملوك»، «جواهر القرآن»، «السر المصون والجوهر المكنون»، «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»، «المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال»، وغير ذلك الكثير (كشف الظنون ٦/ ٧٩ ـ ٨٠).

[وفاة المعتمد إبراهيم صاحب العماد الكاتب]

قال: وفيها في خامس عَشَر شوَّال توفيَ صاحبي المعتمد إبراهيم بدمشق وأنا بمصر.

قلتُ: وهذا غير والي دمشق المعروف بالمُبارز إبراهيم بن موسى، ويلقَّب أيضاً بالمُعْتَمد.

ورثى العمادُ صاحِبَه بقصيدةٍ، منها: [الطويل]

أَرَى الحُزْنَ لا يُجْدي على مَنْ فَقَدْتُه ... وَلَوْ كانَ في حُزْني مزيدٌ لَزِدْتُهُ
تَغَيَّرتِ الأَحْوالُ بعدَكَ كلُّها ... فَلَسْتُ أَرَى الدُّنيا على ما عَهِدْتُهُ
عَقَدْتُ بك الآمالَ بالنُّجْحِ واثقاً ... فَحَلَّت يدُ الأَقْدارِ ما قد عَقَدْتُهُ
وكان اعتقادِي أَنَّك الدَّهْرَ مُسْعِدِي ... فخانَتْنِيَ الأَيامُ فيما اعْتَقَدْتُهُ
أَرَدْتُ لك العُمْرَ الطَّويلَ فلم يَكُنْ ... سِوَى ما أرادَ اللَّهُ لا ما أَرَدْتُهُ
وداعٍ دعاني باسْمِهِ ذاكراً له ... فأَطْرَبَنِي ذِكْرُ اسْمِهِ فاسْتَعَدْتُهُ
فَقَدْتُ أَحَبَّ النَّاسِ عندي وخَيْرَهُمْ ... فَمَنْ لائمي فيه إذا ما نَشَدْتُهُ

قال: وَرَثَيْتُهُ ببيتين، وذكَرْتُ العناصِرَ الأربعة في واحدٍ منهما: [الكامل]

لَهفِي على مَنْ كانَ صُبْحِيَ وَجْهُهُ ... فَعَدِمْتُ حين عَدِمْتُه أنوارَهُ
سَكَنَ التُّرَابَ وغاض ماءُ حياتِهِ ... مُذْ أَطْفَأَتْ رِيحُ المَنِيَّةِ نارَه

[سفر قراقوش إلى قابس]

قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السَّنة سافر قَرَاقُوش إلى قابس. فذكر محاصرتَه لجملةٍ من القلاع، وقَتْلَه جماعةً من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعةً على حِصْنٍ، وأمر بقتلهم، وفيهم صبيٌّ أَمْرَد، فبذَلَ فيه أهلُ القَلْعة عشرة آلاف دينار على أن لا يقتله. فأبى، فزادوه إلى مائة ألف، فأبى وقتله، فما استتمَّ قتله حتى نزل شيخٌ من القلعة، ومعه مفاتيحها، وقدَّمها لقَرَاقُوش، فسأله عن الخبر، فقال: هذا الصَّبي الذي قَتَلْتَه ولدي، ولم يكن لي سواه، ولأجله كنتُ أحفظ هذه القلعة، فلما قَتَلْتَه عَلِمْتُ إن بقيتْ هذه القلعة بيدي ومتُّ صارت إلى أولاد أخي، وأنا أُبغضهم. فردَّه إلى القلعة، وأخذ منه أموالاً.

[سماع صلاح الدين الأحاديث النبوية]

ثم دخلت سنة سبع وسبعين[(١)]

قال العماد: والسُّلطانُ مقيمٌ بالقاهرة، وقد عَيَّنَ لسماعِ الأحاديث النبويَّة ـ

(١) وخمسمائة.

بقراءة الإمام تاج الدين البَنْدَهي المَسْعُودي(١) ـ ميقاتاً، وجَمَعَ به من العِلْم والعُلماء عنده أشتاتاً.

وورد كتابُ عِزِّ الدين فَرُّخْشاه من الشَّام يذكر ما مَنَّ الله به على الأنام من الإنعام بكثرة ولادة التَّوْأَم في ذلك العام، وجَبَرَ الله به ما كان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخِصْبِ بعد الجَدْبِ والغَلاء.

قال: ودَخَلْتُ الحَمَّام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الواعظ(٢) في داره خارج باب زُوَيْلَة بالقاهرة في ذي القَعْدَة، فقلتُ: [المجتث]

مـا مَـنْـزِلٌ مَـنْ يُـرَى فـيـ ـه غَـيْـرُ عـارٍ فَـعَـارُ
بِـهِ تُـمَـاطُ الأذايـا وَتُـرْحَـضُ الأَوْضَـارُ(٣)
والـعَـيْـشُ فـيـه قَـرَارٌ والـطَّـيْـشُ فـيـه وَقَـارُ
والـسَّـبْـتُ فـي كـلِّ يَـوْمٍ لـمـن يُـرى مُـخْـتَـارُ
نـارٌ تَـطِـيـبُ ألا اعْـجَـبْ لـلـجَـنَّـةِ هـي نـارُ

وله فيه: [مجزوء الرجز]

وَمَـنْـزِلٍ يَـدْخُـلُـه لِـشُـغْـلِـهِ كـلُّ أَحَـدْ
يـوجَـدُ فـيـه الـسَّـبْـتُ فـي كـلِّ خَـمِـيـسٍ وَأَحَـدْ

---

(١) البندهي المسعودي: هو البنجديهي، نسبة إلى بنج ديه من أعمال مرو الروذ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن أحمد المسعودي تاج الدين أبو عبد الله البنجديهي الخراساني، المحدث الشافعي، ولد سنة ٥٢١هـ (كذا في كشف الظنون، وفي المراجع الأخرى ولد سنة ٥٢٢هـ). كان مؤدباً للملك الأفضل بن صلاح الدين، وحصل بسببه على كتب نفيسة استعان بها على شرح مقامات الحريري شرحاً مستوعباً، وكان معروفاً أيضاً بطلب الحديث، سمع من السلفي، وكتب عن ابن عساكر، مؤرخ دمشق، وكتب عنه ابن عساكر. توفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ، ودفن بسفح قاسيون، صنف: «الإيضاح في جمع المغرب»، «الأوضاح» في شرح المقامات، «مغاني المقامات في معاني المقامات» في شرح المقامات للحريري، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠١، وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٠ ـ ٣٩٢، معجم البلدان ١/ ٤٩٨، العبر للذهبي ٤/ ٢٥٣، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٣٣، لسان الميزان ٥/ ٢٥٦).

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا، زين الدين الواعظ، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ، بمصر (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٣) تُرحض: أي تُغسل، ورحض الثوب رحضاً: غسله، والأوضار: جمع وضر، وهو الوسخ.

فَصْلٌ

في ذكر وفاة الملك الصَّالح إسماعيل بن نور الدين رحمهما الله[١] وما تَمَّ في بلاده بعده، وذلك بحلب

قال ابنُ شَدَّاد: وكان مرضُه بالقُولَنج. وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثَّالث والعشرين منه أُغلق بابُ قلعة حلب لشدَّة مرضه، واستدعى الأمراءَ واحداً واحداً، واستحلفوا لعزِّ الدين صاحب المَوْصل. وفي الخامس والعشرين منه توفِّي رحمه الله، وكان لموته وَقْعٌ عظيم في قلوب النَّاس.

وقال ابنُ أبي طي: كان سببُ مَوْته أن عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر[٢] سقاه سُمّاً في عنقود عِنَب، وهو في الصَّيْد. وقيل: الذي سقاه ياقوت الأَسَدي في شرابٍ. وقيل: إنه أطعمه خُشْكُنانكة[٣]، وهو في الصَّيْد.

قال: ودُفِنَ بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحَزِنَ النَّاس له حُزْناً عظيماً، وكان من أحسن النَّاس صورةً، وألبقهم أعطافاً.

قلتُ: وبلغني أنَّه كان يقال: إنَّ موتَ الملك الصَّالح صغيراً كان من كرامات نور الدين، رحمه الله؛ فإنَّه سأل الله تعالى ألا يُعَذِّبَ شيئاً من أجزائه بالنَّار، وولَدُه جُزْؤه، فمات قبل أن يطول عُمُره، على أحسنِ سيرةٍ وحالةٍ، رحمهما الله.

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة[٤]، ولمَّا اشتدَّ مرضُه، وَصَفَ له الأطباء شُرْبَ الخمر تداوياً بها، فقال: لا أفعل حتى استفتي الفقهاء. وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي[٥] بمنزلة كبيرةٍ يعتقد فيه اعتقاداً حسناً،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) توفي في أواخر ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ، وكان من أكابر أمراء حلب، وكان في خدمة السلطان بالقدس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والاهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس، وطلب المسير إلى الوطن، فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة من دمشق، سترد ترجمته في وفيات سنة ٥٨٧هـ، من الجزء الرابع.

(٣) خشكنانكة: في صبح الأعشى ٣/٥٨٨: خشكنان، ويعرف في مصر بالخشتنان، وهو نوع من الحلوى مصنوع من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يملأ وسطها باللوز أو بالفستق.

(٤) في «الكامل في التاريخ» ١٠/١٠٦: وعمره نحو تسع عشرة سنة.

(٥) الكاساني: هو أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، علاء الدين الشاشي الحنفي، نزيل =

ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شُرْبها. فقال له: يا علاء الدين، إن كان الله سبحانه وتعالى قد قرَّب أجلي، أيؤخِّره شُرْبُ الخمر؟ قال: لا والله. قال: والله لا لقِيتُ الله تعالى وقد استعملتُ ما حرَّمه عليَّ،

قلتُ: يحتمل أنه ذكر له أنَّ من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك، لا أنه كان يرى ذلك، فإنَّ مذهبه بخلافه، والله أعلم.

[وصية الملك الصالح لابن عمه عز الدين]

ثم قال ابن الأثير: فلما أَيِسَ من نفسه أحضر الأمراء كُلَّهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لابن عمه أتابك عِزّ الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إنَّ ابنَ عمِّك عِزّ الدين له المَوْصِل وغيرها من البلاد من هَمَذَان إلى الفُرَات، فلو أَوْصَيْتَ بحلب لابن عمك عماد الدِّين، لكان أحسن، ثم هو تربيةُ والدك، وزَوْج أُختك، وهو أيضاً عديم المِثْل في الشَّجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخِلال التي تفرَّد بها. فقال: إنَّ هذا لم يَغِبْ عني، ولكن قد علمتم تَغَلُّبَ صلاح الدين على عامَّة بلاد الشَّام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلَّمت حلبَ إلى عماد الدِّين يَعْجِزُ عن حِفْظها من صلاح الدين، وإنْ مَلَكها صلاحُ الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلَّمتها إلى عِزِّ الدين أمكنه أَنْ يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله. فاستحسن الحاضرون قَوْلَه، وعلموا صِحَّتَه، وعجبوا من جُودة رأيه مع شدَّة مرضه، وَمَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم. فلما توفي أرسل دُزْدار حلب ـ وهو شاذبخت ـ وسائر الأمراء إلى أتابك عِزّ الدين يدعونه إلى حلب ليسلِّموها إليه، فورد الخبر، ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى مارِدِين لِمُهِمٍّ عَرَضَ، فلقي القاصدين عندها، فأخبروه الخبر، فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره، وسار أتابك مُجِدّاً، فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدِّين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء، فحضروا كلُّهم عنده، وجدَّدوا اليمين له، فسار حينئذٍ إلى حلب ودخَلَها، وكان يوماً مشهوداً.

ولما عَبَرَ الفرات كان تقيُّ الدِّين عمر ابن أخي صلاح الدين[1] بمدينة مَنْبِج،

= حلب، من كبار علماء الحنفية في عصره، توفي بحلب سنة ٥٨٧هـ، له من المصنفات: «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» في شرح تحفة الفقهاء لأستاذه علاء الدين السمرقندي، «السلطان المبين في أصول الدين». (كشف الظنون ٥/ ٢٣٥).

(١) هو الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، تقي الدين، كان شجاعاً شديد البأس، له شعر حسن، كسر عسكر الروم وكانوا عشرين ألفاً، سار إلى البلاد التي زادها إياه عمه. وهي حرّان وغيرها فامتدت عينه إلى البلاد المجاورة، واستولى على السويداء، =

فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة، وثار أَهْلُ حماة، ونادوا بشعار أتابك. وكان صلاح الدِّين بمصر، فأشار عَسْكَرُ حلب على عِزِّ الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرِها من البلاد الشَّامية، وأعلموه محبَّةَ أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل، وقال: بيننا يمينٌ فلا نغدر به.

وأقام بحلب عِدَّة شهور، ثم سار منها إلى الرَّقَّة، فأقام بها، وجاءته رُسُل أخيه عماد الدين يطلب أن يسلِّم إليه حلب، ويأخذ عِوَضها مدينة سِنْجار، فلم يُجِبْه إلى ذلك، وَلَجَّ عمادُ الدين وقال: إنْ سَلَّمتم إليَّ حلب، وإلا سَلَّمْتُ أنا سِنْجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذٍ الجماعةُ بتسليمها إليه، كان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فإنَّه لجَّ في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته؛ لتمكُّنه في الدَّوْلة وكثرة عساكره وبلاده، فوافقه وهو كاره، فسلَّم حلب إلى أخيه، وتسلم سِنجار، وعاد إلى المَوْصِل.

وكان صلاحُ الدين بمصر، وقد أَيِسَ من العَوْدِ إلى الشَّام، فلما بلغه ذلك بَرَزَ عن القاهرة إلى الشَّام، فلما سمع أتابك عِزُّ الدين بوصول صلاح الدين إلى الشَّام جمع عساكره، وسار عن الموصل خوفاً على حلب من صلاح الدين. فاتَّفق أَنَّ بعض الأُمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين، وعَبَرَ الفُرَات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحدٍ من أمرائه؛ إذ كان ذلك الأمير أَوْثَقهم في نَفْسه، فعاد إلى المَوْصِل. وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجَزَرِيَّة، ونازل المَوْصل، فلم يتمكن من النُّزول عليها، وعاد إلى حلب وحَصَرَها، فسلَّمها عمادُ الدين إليه ـ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين لما تسلَّم حلب لم يَتْرُك في خَزَائنها من السِّلاح والأموال شيئاً إلا نقله إلى المَوْصِل، وتسلَّمها عماد الدين وهي كما يقال بَطْنُ حمارٍ، فهو كان السبب في تسليمها لصلاح الدين ـ وأخذ عِوَضَها سِنْجَار والخابور ونَصِيبين وسَرُوج والرَّقَّة، وغير ذلك.

قال ابن شَدَّاد: ولما توفِّي الملك الصَّالح، سارعوا إلى إعلام عز الدين

= وحاني، وأيقع مع بكتمر صاحب خلاط، فكسره وحصره في خلاط، وتملك معظم البلاد، ثم رحل ونزل ملازكرد وضايقها، وكان في صحبته ولد المنصور محمد، فعرض للمظفر مرض وتزايد به حتى توفي في يوم الجمعة لأحد عشرة بقيت من رمضان سنة سبع، وقيل: سنة ست وثمانين وخمسمائة، (شفاء القلوب ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، وفيات الأعيان ٣/ ١٢٨، السلوك ١/ ١٠٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٨، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٢٨٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢١٦، العبر ٤/ ٢٦٢، كنز الدرر ص١١٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٩).

مسعود بن قُطْب الدِّين بذلك، وبما جرى له من الوَصِيَّة إليه، وتحليف النَّاس له، فسارع سائراً إلى حلب، مبادراً خوفاً من السُّلْطان، فكان أول قادم من أُمرائه إلى حلب مظفَّر الدين بن زين الدين، وصاحب سَرُوج، ووصل معهما من حلَّف الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان.

وفي العشرين منه وصل عِزُّ الدين إلى حلب، وصَعِدَ القلعة، واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوَّج أُمَّ الملك الصَّالح في خامس شوال من السَّنة المذكورة.

ثم أقام عِزُّ الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شَوَّال، وعَلِمَ أنه لا يمكنه حِفْظُ الشَّام مع المَوْصِل لحاجته إلى ملازمة الشَّام لأجل السُّلْطان، وألحَّ عليه الأمراءُ في طلب الزِّيادات، ورأوا أنفسهم أنَّهم قد اختاروه، وضاق عَطَنُه[1]. وكان صاحبُ أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضَيِّق العَطَن، لم يعتد مقاساةَ أمر الشَّام، فرحل من حلب طالبَ الرَّقَّة، وخَلَفَه وَلَدُه ومُظَفَّر الدِّين بن زين الدِّين بها، فأتى الرَّقَّة، ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستَقَرَّ مقايضة حلب بسِنْجار، وحَلَفَ عِزُّ الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشر شوال، وسار من جانب عماد الدين مَنْ تَسَلَّم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلَّم سِنْجار، وفي ثالث عشر المحرَّم سنة ثمانٍ وسبعين صَعِدَ عماد الدين قلعة حلب.

قلت: ووقفتُ على كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عِزِّ الدين فَرُّخْشاه، وهو نائبه بدمشق: وَقَفْنا على كتابه، وعَلِمْنا ما تجدَّد من الخبر بمرض الملك الصَّالح، واشتداد حاله، وانقطاع الدَّاخل عليه.

ثم أشار بتنفيذ عسكرٍ إلى جهة أخيه تقي الدِّين على إظهار قاعدة النظر في القضية بالحادثة بين أهل ديار بكر وابن قرا أرسلان، والتوجُّه لفَصْلها، قال: فيكون ظاهر حركة العَسْكر لهذا السبب المتقدِّم، وباطنها لهذا السبب المتأخِّر. وقد كُوتب الولد تقي الدين أن يتوجَّه إلى مَنْبِج على الظَّاهر والباطن المذكورين، وأن يحفظ المغازي ويرابط الفرات، ويمنع المعابر، ولنا بالِس وقلعة جَعْبر ومَنْبِج وتل باشر، وهي جمهور الطُّرق، بل كلُّها، وقد أَوْعَزْنا إلى تقي الدين بأن يكون حَمَامُ حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة. وإلى الأَجَلِّ ناصر الدين[2] بأن

(١) العَطَن، محركة: وطن الإبل، ومَبْرَكها حول الحوض، ومربض الغنم حول الماء، جمعه أعطان، وعطّن تعطيناً: اتخذه. وعطَنت الإبل عطوناً: رويت ثم بركت. ورحب العطن: تعبير مجازي، أي كثير المال، واسع الرحل، رحب الذراع. وضيق العطن: تعبير مجازي أيضاً، يعني أنه نزق قليل الصبر.

(٢) هو محمد بن شيركوه، الملك القاهر، ناصر الدين صاحب حمص تقدّمت ترجمته قبل قليل.

يكون حَمَامُ دمشق في حمص، وحمام حمص في حلب. وولدنا عِز الدين يؤمر بأن يكون حمام بُصْرى في دمشق. وقد بعثنا نَجَّابين يكونون منبجين بِبُصْرى، فإن تحقَّقَتِ الوفاة فنحن أسبق إليكم من الجواب قولاً وفِعْلاً، ووعداً ونُجْحاً، فالعِلَّة مُزَاحة، والعساكر مستريحة، والظَّهْرُ قد استعدَّ، والمصلحة في الحركة ظاهرة، وحُجَجُ انتقاد المنتقدين في هذه القضيَّة ساقطة.

وقال العماد: كان قَصْدُ السُّلْطان إصلاح حال الملك الصَّالح، وأنَّه القائم مقام أبيه، فَصَدَّه عنه مماليكه، فأُخِذَتْ بلاده بلجاجهم، وَمَرِضَتْ دَوْلَتُه لسوءِ علاجهم، فامتنع بحلب إلى أن توفِّيَ. ووصل ابنُ عمه عِزُّ الدين مسعود صاحب المَوْصل إلى حلب، فجمع ظاهِرَه وباطنه، وأَخَذَ خزائنه واستخرج دفائِنه، وأخلى كنائنه، ثم إنه عَرَفَ أنَّه لا يستقرُّ له بها أمر، فرغَّب أخاه عماد الدين زَنْكي صاحِبَ سِنْجار في تعويضها له بحلب، فمال إلى بَذْله ورَغِبَ.

ولما سمع السُّلْطان في مِصْرَ بوفاة الملك الصَّالح تحرَّك عَزْمُه، وَنَدِمَ على النُّزوح من الشَّام مع قُرْب هذا المَرَام، فكتَبَ إلى ابنِ أخيه تقيِّ الدِّين، وهو يتولَّى له المعرَّة وحماة، وأَمَرَه بالتَّأَهُّب للنهوض، وكذلك شَحَذَ عزائم نُوَّابه بالشَّام بتجديد المكاتبات لهم، وبَعْثِهِم على الاستعداد وحَمْلهم. وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عِزّ الدِّين فَرُّخْشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكَرَك، فإن الإبرنس الكَرَكي كان يحدِّث نَفْسَه بقصد تيماء في البَرِّية، فما زال فَرُّخْشاه في مقابلته حتى نَكَصَ اللَّعين على عَقِبَيْهِ ذليلاً، ولم يَجِدْ إلى ما حَدَّثَتْه به نَفْسُه سبيلاً، فَعَرَفَ السُّلْطانُ اشتغالَه بهذا المُهِمِّ. فكتب كتاباً بِشَرْح الحال إلى بغداد باللَّفْظ العِمادي، يقول فيه: وشاع الخبرُ بغارة فرنج أنطاكيَة على حارم، وأَتَوْا من السَّبْي والنَّهْبِ بالعَظَائم، وشاع أيضاً أَنَّ عسكر حلب أغار على الرَّاوَنْدان، وهي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجد بهم وَيُغْرِيهم بنا، وقد راسلوا الحشيشيَّة، والمرادُ من الرِّسالة غَيْرُ خاف، والعلم بالمعتاد منه كاف. وابن أخينا غائبٌ في أقصى بلاد الفرنج في أول بَرِّيَّة الحجاز، فإن طاغيةً منهم جَمَعَ خَيْلَه ورَجْلَهُ، وحدَّثته نَفْسُه الخبيثة بقصد تيماء، وهي دِهْليز المدينة على ساكنها السَّلام، واغتنم كون البَرِّيَّة مُعْشِبة مُخْصِبة في هذا العام. والعَجَبُ أَنَّا نحامي عن قَبْرِ النَّبي صلوات الله عليه وسلامه، مشتغلين بمهمِّه، والمذكور ـ يعني صاحبَ المَوْصِل ـ ينازعُ في ولايةٍ هي لنا ليأخذها بيد ظُلْمِهِ، وكم بَيْنَ مَنْ يحارب الكُفْرَ، ويحمل إليهم قواصِمَ الآجال، وبين من يتَّخذهم بِطانَةً دون المؤمنين، ويحمل إليهم كرائِمَ الأموال.

هذا مع ما نَعُدُّ في الدولة الحنيفِيَّة، والدَّوْلة الهادية العباسِيَّة من آثارٍ لا يُعَدُّ

مِثْلُها؛ أولاً لأبي مُسْلِم[1] لأنه أَقْدَم ثم خام[2]، ووالى ثم ولَّى، ولا آخراً لِطُغْرُلْبَك[3]؛ فإنَّه نَصَرَ ونَصَبَ، ثم حَجَرَ وحَجَب، وقد عُرِفَ ما فضَّلنا الله به عليهما في نَصْرِ الدولة، وقَطْع من كان ينازع الخلافة رداءَها، وتطهير المنابر من رِجْسِ الأعداء، ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدُّنيا، غير أن التحدُّثَ بنعمة الله واجب، والتبجُّحَ بالخِدْمة الشَّريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السَّجية غالب. ولا غِنَى عن بُروز الأوامر الشَّريفة إلى المذكور بأَنْ يَلْزَمَ حَدَّه، ولا يتجاوز حقَّه، فإنَّ دُخولَ الأيدي المختلفة عن الأعداء المتَّفقة شاغل، ويحتاج إلى مَغْرَم يُنْفَق فيه العمر بغير طائل، فإنَّ الأعمال تَمرُّ مَرَّ السَّحاب، والفُرَصُ تَمِضُ وَمْضَ السَّرَاب. وبقاؤنا في هذه الدَّارِ القليل اللُّبْثِ، القصير المُكْثِ، نؤثر أنت نغتنمه في مجاهدة العدوِّ الكافر، الذي صار به البيتُ المقدَّس محلاً للأَرْجاس، ومضَتْ عليه دَهورٌ وملوك لم يحصلوا مِنْ رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القَوْمُ قد بَذَلُوا للدَّارِ العزيزة بُذُولاً مُعَارةً، فقد أسلفَ الخادِمُ خدماتٍ ليست بِعَوَارٍ، فإنَّهم لو بذلوا بلادَهم كُلَّها ما وَفَّتْ بفتح مِصْر التي رَجَّلَ بها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادَها، وأعادَ إلى عَيْنِها بعد بياض عَماها من نُورِ الشِّعار العَبَّاسي سَوَادَها، فإن اقْتَضَتِ الأوامرُ الشَّريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد، فالأَوْلى أن يقلِّد الجميع، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شَرّ الشَّريك، ولمالكِ الأمر الحكمُ في ممالك المماليك.

وكان في الكتاب أيضاً ما معناه: إنَّ حلب من جُمْلة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له، وإنما تَرَكها في يد ابنِ نور الدين لأجل أبيه، والآن فَلْيَرْجِعْ كلٌّ إلى حَقِّه، وَلْيَقْنَعْ برزْقِهِ.

ومن كتاب فاضلي: فقد صَرَفَ وَجْهَنا في هذا الوقت عن جهادٍ لو كُنَّا بصدَدِه، وعن فَرْضٍ لو وَصَلْنا يَوْمَه بغده، لكان الإسلامُ قد أُعْفِيَ من شِرْكة الشِّرْك، وانفكَّ أهلُه من رِبْقَةِ أهل الإفْك. ولكانت الأسماءُ الشَّريفةُ قد قَرَعَتْ منابر

---

(١) أبو مسلم الخراساني: هو عبد الرحمن بن مسلم، صاحب دولة بني العباس، ويقال له: أمير آل بيت رسول الله ﷺ، قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧هـ (انظر ترجمته الوافية في البداية والنهاية ١٠/ ٥٢ ـ ٦٠).

(٢) خام: نكص وجبن.

(٣) طغرلبك: هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أول ملوك السلاجقة، دخل بغداد سنة ٤٤٧هـ، منهياً حكم البويهيين، توفي يوم الجمعة ثامن رمضان سنة ٤٥٥هـ، وكان عمره سبعين سنة، وكان عقيماً لم يلد ولداً (انظر أخباره في «الكامل في التاريخ» ٨/ ٢٢٦ ـ ٣٦٢، ووفيات الأعيان ٥/ ٦٣ ـ ٦٨).

طالما عَزَلَتِ الصُّلُبُ خُطَباءها، ولكان الدِّين الخالص قد خَلَصَ إلى بلادٍ صار المشركون متوطِّنيها، والمسلمون غُرَباءها.

وفي كتابٍ آخر له: وقد علم الله أنَّا لِهذَنَتِهِمْ كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكِنَّا قد بُلينا بقوم كالفَرَاش أو أخفّ عُقُولاً، وكالأنعام أو أَضَل سبيلاً، إن بُنيَ معهم فعلى غيرِ أسَّاس، وإن عُدِّد الغَدْرُ منهم فهو أكثر من الأنفاس.

وفي كتابٍ آخر: والخادم ـ والحمد لله ـ يُعَدِّد سوابق في الإسلام والدَّوْلة العباسية لا تعدُّها أَوَّلِيَّةُ أبي مسلم، لأنه والى ثم وارى، ولا آخِرِيَّةُ طُغْرُلْبَك لأنه نَصَرَ ثم حَجَر. والخادم ـ بحمد الله ـ خَلَعَ مَنْ كان ينازعُ الخلافة رداءها، وأساغَ الغُصَّة التي ذَخر الله للإساغة في سَيْفه ماءها، فَرَجَّل الأسماءَ الكاذبة، الرَّاكبة على المنابر، وأُعِزَّ بتأييدِ إبراهيميٍّ، فكَسَّرَ الأصنامَ الباطنة بسيفه الظَّاهر لا السَّاتر، وفعل وما فعل للدُّنيا، ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر.

ومن كتابٍ آخر عند دُخُول صاحب المَوْصِل حلب، واستيلائه عليها، وكانت داخلةً في تقليد السُّلْطان السَّابق، فقال: دَخَلَ حَلَبَ مستولياً، وَحَصَلَ بها مُعْتدياً، وعقود الخُلَفاء لا تُحَلُّ، والسُّيوف في أَوْجه أوليائهم لا تُسَلُّ، وإنه إنْ فُتحَ بابُ المُنَازعة، أُدْنيَ من ندامةٍ، وأُبْعِدَ من سلامة، وخُرِّق ما يُعْيي على الرَّاقع، وجُذِبَ الرِّداء فلم تُغْنِ فيه إلا حيلةُ الخالع. وليس الاستيلاء بِحُجَّةٍ في الولايات لطالبها، ولا الدُّخول إلى الدَّار بموجبِ مُلْك غاصبها، إلا أَنْ تكون البلاد كالدِّيار المِصْرية حين فتحها الخادم وأهلُه، حيثُ الجمعة مُسْتريبة، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحَقِّ مستجيبة، فتلك الولاية أَوْلى من مُنِحَها مَنْ فَتحها، وكان سُلْطانها مَنْ أدخل في كان شَيْطانَها. وأما حَلَبُ التي الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قُلِّدها، لا لمن تورَّدَها، ولمن بالحق تسلَّمها، لا لمن بالباطل تَسَنَّمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يُشاور، وَلَوَلَجها ولم يناظر، ولكنه أتى البيوتَ من أبوابها، واستمطر القِطار من سحابها.

ثم ذكر أَنَّ المواصلة راسلوا الملاحدة الحَشِيشية، واتخذوهم بِطانَةً من دون المؤمنين، وواسطةً بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يَدِ الإسلام تُقْلَع، وضياع من فَيْءِ المسلمين تُوضَع، وبدارِ دعوةٍ بحلب يُنَصَّبُ فيها عَلَمُ الضَّلالة فيرفع، ويا للعَجَبِ مِنَ الخَصْم يَهْدِمُ دَوْلَةَ حَقٍّ وهي تَبْنِيهِ، ومِن العبد يبني مُلْكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقِبُ أعداءه فيه، وَدَعْوَاه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوًى لا يقومُ شاهِدُها، ولا هي بشناعةٍ لا يهتدي قائِدُها، بل هذا رسولهم

عند سِنان[١] صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القومص ملك الفرنج، وهذه الكتبُ الواصلة بذلك قد سيِّرَتْ. ولاستنجاب الولاية طُرُق، أما السَّبْقُ إلى التَّقليد، فللخادم السَّبْقُ. وأما العدالة والعَدْلُ، فلو وَقَعَ الفَرْقُ لوقع الحَقُّ. وأما بالآثار بالطَّاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقَصَرَتْ عنه أيدي الخلق، ومتى استمرَّت المُشَارَكة في الشَّام، أَفْضَتْ إلى ضَعْفِ التَّوْحيد، وقُوَّةِ الإشْراك، وتَرَامَتْ إلى أخطارٍ تَعْجزُ عنها خواطِرُ الاستدراك، وأَحْوَجَتْ قابِضَ الأَعِنَّةِ إلى أن يُغْلِيَها الجَدَدَ[٢] ويُرْسِلَها العِراك[٣]. وطريقُ الصَّلاح والمُصَالحات الأَيْمان، والمشار إليهم لا يلتزمون رِبْقَتَها، ولا يوجبون صَفْقَتَها، فكفى بالتَّجريب ناهياً عن الغِرَّة[٤]، ولا يُلْدَغ المُؤْمِنُ إلا مرة[٥]، وإذا اجتمعت في الشام أَيْدٍ ثلاث: يدٌ عادلة، ويدٌ مُلْحدة، ويَدٌ كافرةٌ، نهض الكُفرُ بتثليثه، وقَصَرَت عن الإسلام يَدُ مُغِيثه، ولم ينفع الخادم حينئذٍ تصحيح حسابه وتصديق حديثه، وما يريدُ الخادم إلا مَنْ تكونُ يَدُ الله

---

(١) هو سنان بن سلمان بن محمد بن راشد البصري، المتوفى سنة ٥٨٨هـ، قال عنه ابن جبير في رحلته، وقد مرّ بالقرب من ديار الإسماعيلية: قيض لهم شيطان من الإنس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه...

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨: ومن الإسماعيلية: المستعلوية الذين يعظمون راشد الدين سنان، وهو رجل كان بقلاع الدعوة بأعمال طرابلس من البلاد الشامية في زمن السلطان صلاح الدين. انتهت رياستهم إليه. قال في مسالك الأبصار: وكان رجل صاحب سيماء، فأراهم بها ما أضل به عقولهم، من تخييل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم في جنات النعيم، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم في النار والجحيم، فثبت ذلك عندهم واعتقدوه حقاً، ومن قدح في ذلك فقد دخل في أهل الضلال، ويقدحون في ابن السلار، ويسفهون رأي صلاح الدين فيما كان منه من إزالة الخطبة للفاطميين وحط رايتهم الصفراء والخطبة لبني العباس ورفع رايتهم السوداء، وما كان منه من الفعلة التي استولى بها على قصر الفاطميين ومن فيه، وأخذ أموالهم بعد موت العاضد (وانظر أيضاً: الأعلام ٣/ ١٤١، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤، رحلة ابن جبير ص٢٤٢ ـ ٢٤٣، معجم البلدان ٤/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٧).

(٢) الجدد: الأرض الصلبة المستوية.

(٣) العراك: ازدحام الإبل على الماء، وقالوا: أرسلها العراك: أي أوردها جميعاً الماء.

(٤) الغرّة: الغفلة.

(٥) هو من قول رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين». أخرجه البخاري في الأدب باب ٨٣، حديث ٦١٣٣، ومسلم في الزهد حديث ٦٣، وأبو داود في الأدب باب ٢٩، وابن ماجه في الفتن باب ١٣، والدارمي في الرقاق باب ٦٥، وأحمد في المسند ٢/ ١١٥، ٣٧٩.

عليه، وهي الجماعة، ولا يُؤْثِرُ إلا ما يتقرَّبُ به إليه، وهو الطَّاعة، ولا يتوخَّى إلا ما تقومُ به الحُجَّة اليوم ويوم تقومُ السَّاعة.

ومن كتابٍ آخر: قد أحاطَ العِلْمُ بما طالع به أولاً عند وفاة وَلَدِ نور الدِّين، رحمه الله، أنَّ التقليد الشَّريف المستضيء لما وصلَهُ بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها: قلاعاً وأمصاراً وحُصُوناً وديارا، ولم يبق إلا قَصَبَةُ حلب، وهو على أَخْذِها، عَدَلَ وَلَدُ نور الدِّين عن القتال إلى النَّوال، وعن النِّزال إلى الاستنزال، وقَصَدَ القَصْدَ الذي ما أَوْجَبَت المحافظة أن يُتَلَقَّى بالرَّدِّ، فأَقَرَّه على الولاية فَرْعاً لا أصلاً، ونائباً لا مُسْتقلاً، وسلَّم إليه البلاد ويدُه الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السَّالبة لا المَسْلُوبة، ومشى الأمر معه مستقيماً ومائلاً، وجائراً وعادلاً، إلى أَنْ قضى نَحْبَه، ولقي رَبَّه، فبدا من المواصلة نَقْضُ الأَيْمان، والابتداءُ بالعُدْوان، والتعرُّض للبلاد، والتصرُّفُ فيها بغير حُجَّة يكون عليها الاعتماد. فطالعَ الدِّيوانَ بالقضية، واستشهدَ بدِلالات قوانينه الجَلِيَّة، في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابر، وسُيِّرَتْ إلى الشَّرْق والغرب نُسَخُهُ، وغُلَّتِ الأيدي التي تُحدِّث أنفسها أنَّها تَفْسَخُه.

فَـصْـلٌ

[توجه السلطان إلى الإسكندرية]

قال العماد: وتوجَّه السُّلْطان بعد شهر رمضان إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيَّم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جدَّدها، والعمارات التي مهَّدَها، وأمر بالإتمام والاهتمام. وقال السُّلْطان: نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عَوْف[1]. فحضرنا عنده، وسمعنا عليه «مُوَطَّأ مالك» رضي الله عنه بروايته عن الطُّرْطُوشي[2]، في العَشْر الأخير من شَوَّال، وتَمَّ له ولأولاده ولنا به السَّماع، والوالي يومئذٍ بها فخر الدين قراجا.

(١) هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، شيخ المالكية في عصره، ولد سنة ٤٨٥هـ، سمع منه السلطان صلاح الدين الموطأ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٨١هـ (سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٢) الطرطوشي: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الطرطوشي الفهري، الإمام أبو بكر الأندلسي المالكي المعروف بابن أبي رندقة، ولد سنة ٤٥١هـ بطرطوشة شرقي الأندلس، وصحب أبا الوليد الباجي، وقرأ الأدب على ابن حزم، ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٧٦هـ فحج، ودخل بغداد والبصرة، ونزل بيت المقدس مدة، ثم استقر في الإسكندرية حتى توفي سنة ٥٢٠هـ، من تصانيفه: «بدع الأمور ومحدثاتها»، «بر =

قلتُ: ووجدتُ للقاضي الفاضل كتاباً كَتَبه إلى السُّلْطان تهنئةً بهذا السماع، يقول فيه: أدام الله دَوْلة المولى الملك النَّاصر، صلاح الدُّنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها، وأَوْصَلَ ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأَوْزَعَ الخَلْقَ شكراً لنعمته فيه، فإنَّها نعمة لا يوصل إلى شُكْرها إلا بإيزاعه، وأودع قَلْبَه نورَ اليقين، فإنَّه مستقرٌّ لا يودعُ فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أَغَرُّ محجَّل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين؛ يوم يَسْفِكُ دَمَ المحابر تحت قلمه، ويوم يَسْفِك دَمَ الكافر تحت عَلَمه، ففي الأوَّل يطلُبُ حديثَ المُصْطَفى ﷺ، فيجعل أثره عَيْناً لا تُستر، وفي الثَّاني يجعل لنصرِه شَرِيعَتَهُ هداه على الضَّلال، فيجعل عينه أثَراً لا يظهر، وقد استغربَ النَّاسُ هِمَمَ العُلَماء في رِحْلَتهم لنقل الحديث وسماعه، والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنَّفوا في ذلك تصانيف، قَصَدُوا بها التحريضَ للهِمَم والتَّنبيه، والرَّفْعَ من أقدار أهله والتنويه، فقالوا: رَحَلَ فلانٌ لسماع مُسْنَدِ فلان، وسار زيدٌ إلى عمروٍ على بُعْدِ المكان، هذا، وصاحب الرِّحلة قد نَصَبَ نَفْسَه للعلم، وشَغَلَ به دَهْره، ووقف عليه فِكْرَه، فلا تتجاذب عِنانَ هِمَّته الكبائر، فما القَوْلُ في ملكٍ خواطِرُهُ كأبوابه مَطْرُوقة، وأمور خَلْقِ الله كأمور دينه به مَعْذُوقة[1]، إذ هاجر إلى بقيَّة الخير في أضيق أَوْقاته، وترك للعِلْم أشدَّ ضروراته، ووَهَبَ له أياماً مع أنه في الغَزاة يُحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أنَّ كاتب اليمين كتب لملكٍ قط رِحْلَةً في طلب العلم إلا للرَّشيد هارون رحمة الله عليه، على أنَّه خَلَطَ زيارة نبويَّة بطلب، ورحل بولَدَيْه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا «المُوَطَّأ»، الذي اتفقت الهِمَّتان الرَّشيدية والنَّاصرية على الرَّغْبة في سماعه، والرِّحْلَة لانتجاعه. وقد كان الرَّشيدُ سام مالكاً ـ رحمه الله ـ أن يجعل له ولوَلَدَيْه الأمين والمأمون مجلساً خاصّاً لإسماع مصنَّفه، فقال له ما معناه: إنها سُنَّة ابنِ عَمِّك ﷺ، وغَيْرُك من سَتَرها، ومِثْلُكَ من نَشَرَها. فهذه رِحْلَة ثانيةٌ في الزَّمان، وأُولى في الإيمان، يكتبها

= الوالدين»، «رسالة العدة عند الكروب والشدة»، «سراج الملوك»، «سراج الهدي» «شرح رسالة أبي زيد القيرواني»، «كتاب الحوادث والبدع»، «كتاب في تحريم جبن الروم»، «كتاب الفتن»، «كتاب الكبير في مسائل الخلاف»، «مختصر تفسير القرآن للثعالبي»، «المختصر في فروع المالكية». (كشف الظنون ٦/ ٨٥، وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠ ـ ٤٩٦، نفح الطيب ٢/ ٢٤٦، ٢٨٧، ٣٦٩، ٣٧٢، ٣/ ٢٦٠).

(١) معذوقة: أي مختصة به.

الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرَّشيد[١]، ويقوم عَلِيُّه[٢] وعُثْمانُهُ[٣] مقام وَلَدَيْه المأمون[٤] والأمين[٥].

وكان أصل «المُوَطَّأ» بسماع الرَّشيد على مالك[٦] رحمة الله عليه في خزانة الكُتُبِ المِصْرية، فإن كان قد حصل بالخزانة النَّاصرية فهو بركة عظيمةٌ، ومنقبةٌ كريمةٌ، وذخيرة قديمةٌ، وإلا فليلتَمَس، وكذلك خَطُّ موسى بن جَعْفر في فُتيا المأمون رحمهما الله كان أيضاً فيها، وهو مما يتبرَّك بمِثْله، ويُعْلَمُ به فَضْلُ العلم، لا خلا المولى ـ أبقاه الله ـ من فَضْله.

وقف المملوك على ما بُشِّر به من صُنْع المولى وتوفيقه، وصِحَّةِ مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دم، واسترواح القَلب من كلِّ هَمّ، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فَألٍ مباركة البُكَر، والفأل مأثورة عن سَيِّد البَشَر، فمن ذلك صِحَّة جِسْمه، فَلْتَهْنِه الصِّحة، وفُسْحة قلبه دامت له الفُسْحة، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشَّام ينقطع بها الدم، ويتَّصل النَّصْرُ له وينتظم السِّلْم. وأخرى أنه رحل إلى «المُوَطَّأ» رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشَّام إلى «الموطأ»، أسعد الله به ممالكه، الله تعالى يحقِّق الخَيْرَ، ويَصْرِفُ الضَّيْرَ، ويبارك لمولانا في المقام والسَّير، إن شاء الله.

---

(١) الرشيد: هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية في العرق وأشهرهم، توفي سنة ١٩٣هـ (الأعلام ٨/ ٦٢).

(٢) هو الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بمصر ليلة عيد الفطر سنة ٥٦٥هـ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٦٢٢هـ. تقدّمت ترجمته.

(٣) هو العزيز أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، عماد الدين، ولد في جمادى الأولى سنة ٥٦٧هـ، وتوفي ليلة الأحد سابع عشر محرم سنة ٥٩٥هـ، تقدّمت ترجمته.

(٤) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس، سابع الخلفاء العباسيين، توفي سنة ٢١٨هـ (الأعلام ٤/ ١٤٢).

(٥) الأمين: هو أبو عبد الله محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، سادس الخلفاء العباسيين، قتل سنة ١٩٨هـ (البداية والنهاية ١٠/ ٢٠١ ـ ٢٠٤).

(٦) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام أهل المدينة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ألّف كتابه الضخم «الموطأ» في الحديث والفقه خلال أربعين سنة، وكان أول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة، وأعرض عمن ليس بثقة في الحديث، ولقي مالك بن أنس من العباسيين كل ضروب التعذيب، توفي بالمدينة سنة ١٧٩هـ.

انظر: أسماء التابعين للدارقطني ١/ ٣٥٤، الفهرست ص١٠٨، وفيات الأعيان ١/ ٥٥٥، تهذيب التهذيب ١٠/ ٥، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٥، ٧/ ١٤٣.

قلتُ: هكذا يَقَعُ في كتب الفاضل ـ رحمه الله ـ كثيراً، وهو أنه يختمها بالأدعية مُتَّصِلةً بقوله: إن شاء الله. والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية، ففي الحديث عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقُلْ أحَدُكُم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارْحَمْني إن شئت، اللهم ارزُقْني إن شئتَ، لِيَعْزِمَ مَسْأَلَته، فإنه يفعل ما يشاء، لا مُكْرِهَ له»[١].

فَصْلٌ

في أمورٍ تتعلَّق بولاة اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدِّين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ[٢] نائباً لشمس الدولة أخي السُّلْطان بزَبيد، وحَصَّل له من أموالها الطَّريف والتَّليد.

ثم ابتاع من السُّلْطان النَّاحية المعروفة بالعَدَوِيَّة بمصر لَمَّا عاد إليها، وبقي أخوه حِطَّان بزَبيد والياً عليها، فصنَعَ دعوةً عظيمةً بها، ذكر العماد أنه حضرها هو وغَيْرُه من الفُضَلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسرِّ حالٍ، إذْ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش، فقبض على سَيْفِ الدَّوْلة، واعتُقِلَ بالقَصْر.

وكان سببه أن أقارِب السُّلْطان وخواصَّه كَثَّروا عليه عنده أنه استوعب مال زَبيد، وأنَّ له كنوزاً لا تبيد، وأشاروا عليه بقبضه، وهو يدافع عنه، إلى أن أكثروا، وقيل فيه: إن لم تُدْرِكه فات. فأمَرَ به فاعْتُقل، فسمح للسُّلْطان خاصَّةً من النَّقد المِصْري بثمانين ألف دينار، لم يظهر فيها بيع متاع، ولا استدانة من تُجَّار. وغَرِمَ لأَخَوَيِّ السُّلْطان العادل[٣]

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣١، والدعوات باب ٢١، ومسلم في الذكر حديث ٨، وأبو داود في الوتر باب ٢٣، والترمذي في الدعوات باب ٧٧، ومالك في القرآن حديث ٢٨، وأحمد في المسند ٢/ ٢٤٣، ٣١٨، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٨٦، ٥٠٠، ٥٣٠، ٣/ ١٠١.

(٢) هو ابن عم أسامة بن منقذ، الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٢٦هـ، بقلعة شيزر، وتوفي سنة ٥٨٩هـ، وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين (وفيات الأعيان ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٦/ ٨٩).

(٣) العادل: هو محمد بن أيوب بن شاذي، الملك العادل سيف الدين، أبو بكر، وكنيته أشهر من اسمه، ولد سنة ٥٣٩هـ، وقيل: سنة ٥٤٠هـ، توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ (انظر ترجمته في: شفاء القلوب ص٢٠٠ ـ ٢٢٩، مرآة الزمان ٨/ ٥٩٤، وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٧، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١٥هـ، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣٥، الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٩، ٣٩٣، ٣٩٤، تاريخ أبي =

وتاج الملوك[1] ما حافظ به على نهج الكرم المَسْلُوك، وخرج مُشرَّفاً مكرَّماً، مُصَرَّفاً محترماً، وزاد السُّلْطانُ في تكرمته، ونفَّذ إليه بما قبضه منه خَطَّ يده، بأَنَّ المبلغَ دَيْنٌ في ذِمَّته، ثم باعه أملاكاً بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ما طلب عن إيثارٍ واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله له في أشيائه وأشياعه.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحَصَافة فَضْله، ما سُمِعَتْ منه شكوى، ولا حكاية في بَلْوى، وقُتِلَ أخوه حِطَّان بزَبيد، وأُخِذَ ماله فلم يظهر منه للسُّلْطان كراهة، وكلُّ شِيمته نزاهةٌ ونباهة.

قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة أشفق السُّلْطان من نوَّابه باليمن، وذكر ما بين وُلاتها من الإِحَن، ووصل الخبر بما يجري بين الأمير عثمان بن الزَّنْجيلي[2] والي عَدَن، وبين الأمير حِطَّان والي زَبيد من الفِتَن، فَنَدَبَ إلى زَبيد عِدَّةً من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يُخْشَى عليها من الفَساد، ومن جُمْلتهم والي مِصْر صارم الدين خُطْلُبا، وبقيت الولاية له بها في غَيْبته يقوم بها نوَّابة، ويَرْجِع إلى رأي أهله أصحابُهُ، فشرعت زَوْجته في عمارة دارٍ عظيمة سِنِيَّةٍ.

وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافةٌ جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نَفْسُ سيف الإِسلام طُغْتِكِين[3] أخي السُّلْطان تَشْرَئِبُّ إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها، فأمر ابنَ سَعْدان الحلبي أن يعمل قصيدةً يُعرِّض فيها بإنفاذ سيف الإِسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها: [الرجز]

جَرِّدْ لها السَّيْفَ الصَّقِيلَ فِتْنَةً فالسَّيْفُ لا يُذْخَرُ إلا للفِتَنْ

= الفداء ٣/ ١٥٨، البداية والنهاية ١٣/ ٧٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، النجوم الزاهرة ٦/ ١٦٠).

(١) تاج الملوك: هو بوري بن أيوب بن شاذي، تاج الملوك، أبو سعيد بن الأفضل، أصغر إخوته، ولد في ذي الحجة سنة ٥٥٦هـ، له ديوان شعر، توفي من طعنة أصابت ركبته، سادس عشر محرم سنة ٥٧٩هـ، وقيل: من سهم أصاب عينه. (شفاء القلوب ص٥٦ ـ ٦٠، وانظر ترجمته في: مرآة الزمان ٨/ ٣٧٥، وفيات الأعيان ١/ ٢٦١، مرآة الجنان ٣/ ٤١٤، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٦٥، كنز الدرر ص٧٧، كشف الظنون ٥/ ٢٤٣).

(٢) هو أبو عمرو عثمان بن علي، عز الدين الزنجيلي، كان أميراً كبيراً استنابه تورانشاه بن أيوب على عدن سنة ٥٧١هـ، وتوفي في دمشق بعد سنة ٥٩٠هـ، وفي الدارس في تاريخ المدارس: هرب من اليمن إلى دمشق وسكن فيها إلى أن توفي سنة ٥٨٣هـ (انظر: العقد الثمين ٦/ ٣٤ ـ ٣٥، شفاء القلوب ص١٩٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٢٦).

(٣) تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

شُدَّ بِهِ أَزْرَ العُلا فإنَّهُ ... نِعْمَ فتًى مَنْ شَرَّعَ الجُودَ وسَنّ
القائِلُ المُسْمِعُ في مقالِهِ ... والصَّادِقُ النَّدْبُ الأمينُ المُؤْتَمَنْ
بادِي الفؤادِ كيفما سَيَّرْتَهُ ... حَنَّ إلى دار الوَغَى ثَمَّتَ أَنّ

وفيها يقول:

يا ابن الكرام النُّجباءِ والذي ... تَلَقَّفَ العَلْيَاءَ فيها وَلَقِنْ
لا تَعْدُ عيناك عن المُلْكِ فما ... يخاطِبُ العَلْياء إلا مَنْ وَمَنْ
قَدْ فَسَدَ المُلْكُ وقد طال العِدَى ... واقْتَسَمُوا بَعْدَكَ أموالَ اليَمَنْ

قال: فلما سمع السُّلْطان هذه القصيدة أَذِنَ لسيف الإِسلام في المسير إلى اليمن.

[ولاية سيف الإسلام طغتكين
أخي صلاح الدين اليمن ومقتل حطان بن منقذ]

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرَّر مع سيف الإِسلام ظهير الدين طُغْتِكِين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وَزَبيد وعدن، وأن يقطع بها الفِتَن، ويتولاها، ويولِّي ويَعْزِل، ويُحْسِن ويَعْدِل. فسار بعد مسيرنا إلى الشَّام، وجَرَتْ مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمانٍ[١]. ووصل إلى زَبيد، وحطَّ حِطَّان عن رُتْبته، وأمَّنه، وطمَّنَه، ثم أَذِنَ له في الانفصال إلى الشَّام، فجمع حِطَّان كل ماله من سَبَدٍ ولَبَدٍ[٢]، ومُطْرَفٍ[٣] ومُتْلَد، ولُجَيْن وعَسْجد، وياقوت وزَبَرْجَد، وآلات وعُدَد، وحُصُنٍ وحُجُورٍ عِراب[٤]، ومالِ اعتقده[٥] من اليمن بغير حساب. ثم أناخ جمالَهُ، ورحَّلَ عليها أَحْماله، وقدَّم قُدَّامه أثقاله، وظنَّ أنه نجا وفاز، وركب الأَوْفاز، فرَدَّه إليه ليودِّعه، ثم يشيِّعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله، وسَيَّر وراءَ ماله مَنْ أَقْفَلَه، وإلى خزانته نقله، ثم أنفذه إلى بعض معاقله فحبسه، ثم

---

(١) أي في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

(٢) يقال: ما له سبد ولا لبد: أي ما له قليل ولا كثير. والسبد: الوبر، وقيل: الشعر. واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى بهما عن المعز والضأن، وقيل: يكنى بهما عن الإبل والماعز، فالوبر للإبل، والشعر للماعز.

(٣) المطرف من المال: المستحدث.

(٤) المتلد من المال: القديم. واللجين: الفضة، والعسجد: الذهب، والحصن، بالضم: جمع حصان، الفحل من الخيل، والحجور: جمع حجْر: الفرس الأنثى تتخذ للنسل. والعراب من الخيل: أي أنها خيول عربية، ليس فيها عرق هجين.

(٥) مال اعتقده: أي اقتناه.

قتله. وفيما ذُكِرَ للسُّلْطان من خبر ذَهَبه وماله الذَّاهب، ما يُعَيِّي بحصر تفاصيلِ جُمَلِهِ أَنْمُلَ الحاسب، أنَّ نَيِّفاً وسبعين غلاماً من غُلُفِ الزَّرَد كانت مملوءة بالذَّهب الأحمر المنقد، وقُوِّم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار.

وأما صاحب عَدَن الأمير عِزُّ الدين عثمان بن الزَّنْجيلي[١]، فإنه لما سمع بسيف الإسلام توجَّه إلى الشَّام.

قلت: ولهذا الأمير أوقافٌ وصدقات بمكَّة واليمن ودمشق، فإليه تُنْسَبُ المدرسة والرباط المتقابلات بباب العُمْرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما بدمشق، رحمه الله.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إليه: البلادُ ذلك فيها عِدَّة سنين، وأنت فيها مُؤْتمن على مالِ الله، فأدِّه إلى من يجاهدُ به أعداءَ الله، ويقيم به كلمة الله ويحفظ به البَيْضَة، ويَذُبُّ به عن المِلَّة، ويقاتل به أعداء القِبْلة، ويضرب بالأَسْداد[٢] بين الكُفْر والإسلام، وينصِبُ وَجْهَه بين الهجير والزَّمْهرير، عاماً في إثر عام، وما نطلب منك الباطلِ الذي لا يجوز لنا أن نَطْلُبَه، ولا لك أن تَدْفعه، ولا نريد إلا الحقَّ الذي لا يحلُّ لنا أن نتركه، ولا لك أن تمنعه.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

[وصول خطيب المزة إلى السلطان]

قال العماد: وفي هذه السنة وَصَلَ إلى السُّلْطان من دمشق العَلَمُ خطيب المِزَّة، وكان قد زَوَّر على السلطان مثالاً يتضمَّن له منالاً، ورفعه إلى عِزِّ الدين فَرُّخْشاه، فما خفي تزويره عليه، وهَمَّ بالإيقاع به، فقصد السُّلْطانَ بمصر، وأطلعه على حاله، فما اكترث به، وقال: نُحَقِّق ما زَوَّرْتَ. وأمر أن يُكْتَب له توقيعٌ بضعف ذلك الإدرار.

قال: وكان له إمامٌ يصلي به، وهو يكتب مثلِ خَطِّه، فأطلق به أموالاً، وأصْلَح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالاً، وما يشُكُّ صاحبُ ديوانٍ ولا متولِّي خزانة في أنه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التَّلف، وجلس إخوة

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.
(٢) الأسداد: جمع سد، وهو كل بناء سُدَّ به موضع.

السُّلْطان وأمراؤه عنده يغرونه به، فقلت له بالعجمية سراً: تهبه للقرآن. فقال: نعم. فنَفَّس من خِناقه، وأمر بإطلاقه، وأبقى عليه خَيْره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماماً، وبقي شغله معه مُسْتداماً.

[نقض الفرنج الهدنة مع صلاح الدين]

قال: وفيها غَدَرَ الفرنج، ونقضوا عهدهم، واستولوا على تُجَّارٍ في البحر وغيرهم، وسهَّلَ الله تعالى بُطْسة لهم عظيمة من المراكب الفرنجية، مقلعةً من بلدٍ لهم يقال له بوليه، تحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم فألقتهم الرِّيح إلى ثَغْر دِمْياط، فَغَرِقَ منهم الشَّطْر، وشَمِلَ الباقين الأَسْر، فحصل في الأسر منهم زُهَاءَ ألفٍ وستمائة وست وسبعين نَفْساً، واتفق ذلك أمام الاهتمام بالمسير إلى الشَّام.

[ولادة المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين والمحسن أحمد بن صلاح الدين]

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسُّلْطان الملك المعظَّم تورانشاه[(١)]، والملك المُحْسِن أحمد[(٢)]، بينهما سبعةُ أيامٍ، واتصل الفَرَحُ بهما أربعة عشر يوماً.

[مسير قراقوش إلى إفريقية]

وفيها سار قَرَاقُوش إلى إفريقية، فأَوْغَل في بلادها، وانتهب ما قَدَرَ عليه، وحارب عكسر ابن عبد المُؤمن[(٣)] بالقيروان، ثم بلغه أنَّ إبراهيم السلاح دار احتوى على أَهْلِ قَرَاقُوش وبلده، فَرَجَعَ إليه، فهرب إبراهيم، وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم.

[وفاة كمال الدين الأنباري]

قال ابن القادِسي[(٤)]: وفيها عشِيَّة الخميس، ثامن شعبان، توفي الإمام كمال

(١) هو الملك المعظم، أبو منصور تورانشاه، فخر الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ، وهو آخر من بقي من إخوته، وكان كبير البيت الأيوبي، وتوفي سابع عشرين ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ، بحلب، وله ثمانون سنة، تقدّمت ترجمته الوافية في الجزء الثاني.

(٢) هو الملك المحسن، أبو العباس، أحمد، ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ، وتوفي بحلب رابع محرم سنة ٦٣٤هـ، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(٣) ابن عبد المؤمن: هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ثالث ملوك دولة الموحدين بمراكش، توفي سنة ٥٨٠هـ، في أثناء حصاره لمدينة شنترين بالأندلس (انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٢٦ ـ ١٢٧).

(٤) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، توفي سنة ٦٣٢هـ، له =

الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السَّعادات، الأنْباري النَّحْوي[1]، وكان فقيهاً نَحْوياً، زاهداً عابداً، خَشِنَ العيش، صَبُوراً على الفقر، وكان يَسْرُدُ الصَّوْم، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً، وكان يحضُر في نوبة الصُّوفية بدار الخلافة المعظَّمة في الوقت، فَيُنْفَذُ إليه بالتَّشْرِيف والذهب، فيعيدُه ولا يقبله، وكان يجتهد

= من المصنفات: «ذيل المنتظم»، «أخبار الوزراء» (وفيات الأعيان ١/ ٣٢٩، الوافي بالوفيات ٢/ ١١٧).

(١) ابن الأنباري: هو عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن مصعب بن أبي سعيد (وليس ابن أبي السعادات كما ذكر ابن القادسي)، كمال الدين، أبو البركات الأنباري البغدادي، الأديب الشافعي، ولد سنة ٥١٣هـ، وتوفي سنة ٥٧٧هـ، له حوالي ١٣٠ مصنفاً، منها: «الاختصار في الكلام على الألفاظ التي تدور بين النظار»، «أسرار العربية»، «الأسما في شرح الأسما»، «أصول الفصول» في التصريف، «الإغراب في جدول الإعراب»، «الألفاظ الجارية على لسان الجارية»، «الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين»، «الأنوار في العربية»، «بداية الهداية» في الفروع «بغية الوارد»، «البلغة في أساليب اللغة»، «بلغة المحب في المذكر والمؤنث»، «البيان في إعراب القرآن»، «تاريخ الأنبار»، «التبيان في جمع افعل أخف الأوزان»، «التفريد في كلمة التوحيد»، «تفسير غريب مقامات الحريري»، «التنقيح في مسلك الترجيح» في الخلاف، «جلاء الأوهام وجلاء الأفهام في تفسير آية أحل لكم الليلة الصيام»، «جمل في الجدل» «الجوهرة في نسب النبي ﷺ»، «الحصن على تعليم العربية»، «حلية الطراز في حل الألغاز»، «حلية العقود في الفرق بين المقصور والممدود»، «الداعي إلى الإسلام في أصول علم الكلام»، «ديوان اللغة»، «رتبة الإنسانية في المسائل الخراسانية»، «الزهرة في البلغة» في اللغة، «زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء»، «سمط الأدلة» في النحو، «شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي» في النحو، «شرح الحماسة»، «شرح ديوان المتنبي»، «شرح المقامات للحريري»، «شفاء السائل في بيان رتبة الفاعل»، «شرح السبع الطوال»، «عقود الإعراب»، «عمدة الأدباء في معرفة ما يكتب فيه بالألف والباء»، «غريب إعراب القرآن»، «الفائق في أسماء الحدائق»، «الفصول في معرفة الأصول»، «قبّة الأديب في أسماء الذيب»، «قبة الطالب في شرح خطبة أدب الكاتب»، «كتاب الألف واللام»، «كتاب فعلت وأفعلت»، «كتاب كلا وكلتا»، «لمعة الأدلة» في أصول النحو، «لمعة في أصول الشعر»، «المرتجل في إبطال تحريف الجمل»، «المعتبر في الفرق بين الوصف والخبر»، «المقبوض في العروض»، «مفتاح المذاكرة»، «منثور الفوائد»، «الموجز في القوانين»، «ميزان العربية» في النحو، «نجدة السؤال في عمدة السؤال»، «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، «نسمة التعبير في علم التعبير»، «نقد الوقت»، «نكت المجالس» في الوعظ، «النور اللائح في اعتقاد السلف الصالح»، «هداية الواهب في معرفة المذاهب»، «لباب الأدب». (كشف الظنون ٥/ ٥١٩ ـ ٥٢٠، إنباه الرواة ٢/ ١٦٩ ـ ١٧١، مرآة الزمان ٨/ ٢٣٤، وفيات الأعيان ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١١٣ ـ ١١٥، فوات الوفيات ٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦، بغية الوعاة ٢/ ٨٦ ـ ٨٨).

به الوزير ابن رئيس الرؤساء[١] أن يقبل لولده شيئاً، فما كان يفعل. وكان يفطر على الخبز الخُشْكار[٢]، ويبتاع برغيفٍ أرزاً وما شاء. وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم، يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان إذا أَحْضَرَ أحدهم في الصيف مَرْوَحةً يتروَّح بها، فإذا خرج يقولُ له: خُذْ مَرْوَحَتَك معك. فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غدٍ، فما يفعل. وصنَّف تصانيف كثيرة، ودُفِن في تُرْبة أبي إسحاق الشِّيرازي، رضي الله عنه.

[وفاة ابن الذروي]

قلت: وفيها توفي بمصر الشَّاعر ابن الذَّرَوي، وهو أبو الحسن علي بن يحيى المِصْري، وسنُّه حول الأربعين، وقد تقدَّم من شعره في حج الفاضل، وفي مدح ابن منقذ وغيرهما. ومن ظريف شعره قوله في أحدب: [الخفيف]

يا أخي كيف غَيَّرتنا اللَّيالي ... كيف حالت ما بينَنا بالمِحَالِ
حاشَ لله أن أُصافيَ خِلاً ... فيراني في وِدِّه ذا اختلالِ
زعموا أنني أتيتُ بهجوٍ ... فيك نَمَّقْتُهُ بسُمٍّ خلالِ
كَذَبوا إنما وَصَفْتُ الذي حُزْ ... تَ من النُّبْل والسَّنا والكمالِ
لا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْباً ... فهي للحُسْنِ مِنْ صفات الهِلالِ
وكذاك القِسِيُّ مَحْدَوْدِباتٌ ... وهي أَنْكَى من الظُّبى والعَوَالي[٣]
ودناني القُضَاة وهي كما تعـ ... ـلَمُ كانَتْ موسومةً بالجَمَال[٤]
وإذا ما عَلا السَّنام ففيه ... لقُروم الجِمال أي جَمالِ[٥]
وأرى الانحناء في مِنْسر الكا ... سِرِ يُلْفَى ومِخْلَب الرِّئبالِ[٦]

---

(١) هو أبو الفرج، محمد بن عبد الله بن هبة الله بن مظفر ابن الوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة، ولد سنة ٥١٤هـ، وقتل سنة ٥٧٠هـ. تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(٢) الخشكار: ويقال أيضاً: الكشكار: من الفارسية «خشك» بمعنى جاف وخشن، و«آرد» بمعنى الدقيق، وقد سقطت دال كلمة «آرد» في الفارسية نفسها، فالخشكار في الفارسية هو الدقيق الخشن لم تفصل نخالته (تأصيل الدخيل لأحمد السعيد سليمان ص١٧٨ ـ ١٧٩).

(٣) الظبى: جمع ظبة، وهي طرف السيف وحدّه. والعوالي: جمع عالية، وهي من الرمح رأسه أو النصف الذي يلي السنان منه، أو السنان نفسه.

(٤) دناني القضاة: الدناني: جمع الدَّنِّيَّة، بفتح الدال المشددة، وكسرها: وهي قلنسوة محددة الأطراف، كان يلبسها القضاة والأكابر.

(٥) القروم: جمع القرم، وهو الفحل الذي يترك من الركوب. ويودع للفحلة.

(٦) المنسر: لسباع الطير، بمنزلة المنقار لغيرها. والرئبال: الأسد.

وأبـو الـغُـصْـن أنـت لا شـك فـيـه ... وَهْـوَ ربُّ الـقَـوَام والاعـتـدالِ
قـد تـحـلَّـيْـتَ بـانـحـنـاءٍ فـأنـتَ الـ ... ـراكـع الـمُـسْـتَـمِـرُّ فـي كـلِّ حـالِ
وتـعـجَّـلْـت حَـمْـلَ وِزْرِك فـي الظَّـهْـ ... ـرِ فـأمـنـاً فـي مـوْقِـفِ الأَهْـوَالِ
إنَّ حَـمْـلَ الـذُّنـوب أهـونُ فـي الـدُّنْـ ... ـيـا عـلـى أنَّـهُ مـن الأَثْـقَـالِ
كـوَّن الـلَّـهُ حـدْبـةً فـيـك إن شـئـ ... ـت مـن الـفَـضْـل أَوْ مِـنَ الإِفْـضَـالِ
فـأَتَـتْ ربـوةً عـلـى طَـوْدِ حِـلْـم ... مـنـك أو مـوجـةً بـبـحـرِ نَـوَالِ
مـا رَأَتْـهـا الـنِّـسـاء إلا تـمـنَّـتْ ... لـو غَـدَتْ حِـلْـيَـةً لـكـلِّ الـرِّجـالِ
عُـدْ إلـى ودِّنـا الـقـديـم ولا تُـصْـ ... ـغِ لِـقِـيـلٍ مـن الـوُشَـاة وقـالَ

فَـصْـلٌ

في عَوْد السُّلْطان من الدِّيار المِصْرية إلى الشَّام

قال العماد: وعدنا من الإسكندرية إلى القاهرة في ذي القَعْدة، وشرع السُّلْطان في الاستعداد لسفر الشام، فجَمَعَ العساكر والسِّلاح، واستصحب نصفَ العَسْكر، وأبقى النِّصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قَراقُوش بإتمام الأَسْوار الدَّائرة على مِصْر والقاهرة.

قال: وكان السُّلْطان عشية توديعه لأهل مصر جالساً في سُرَادقه، وكلٌّ ينشُدُه بيتاً في الوَدَاع، فأخرج أحدُ مؤدِّبي أولاده رأسَه، وأنشد مظهراً له فَضْلَه، ورافعاً بِهِ محلَّه[1]: [الوافر]

تَـمَـتَّـعْ مـن شَـمِـيـم عَـرَارِ نَـجْـدٍ ... فـمـا بَـعْـدَ الـعَـشِـيَّـةِ مـن عَـرَارِ

فلما سمعه خَمَدَ نشاطُه، وتبدَّل بالانقباضِ انبساطُه، ونحن ما بين مُغْضِب ومُغْضٍ، ينظر بعضُنا إلى بعض، ولا نقضي العَجَب من مؤدِّبٍ تَرَكَ الأدب، فكأنَّه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الدِّيار المِصْرية حتى اتصل بنُجْح المُنَى في المَنِيَّة.

قال: ومن جُمْلة تسمُّح المعلِّمين في القَوْلِ ما حكاه لنا شَيْخُنا أبو

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشيري في لسان العرب ٤/ ٥٦٠ (عرر)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٦٧، ومجمل اللغة ٣/ ٣٧٨، وتاج العروس ١٣/ ١١ (عرر)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٤.

محمد بن الخَشَّاب[1] قال: وصلتُ إلى تبريز، فأحضرني يوماً رئيسُها في داره، وأجلس ولده ليقرأ بعض ما تلقنه عليَّ، فقلت: فَرْخُ البَطِّ سابح. فقال معلِّمه، وكان حاضراً: نعم، وجَرْو الكَلْبِ نابح. فخجلت من خَطاءِ خِطابه، وإذا به على دَأْبه في سُوء آدابه، ومقصوده أن يَذْكُرَ قَرِينة، ولا يبالي بعينه قريرةً أم سَخِينة، ودَأْبُ أدباء أولادِ الملوك ـ لاجترائهم على أعِزَّة أولادهم ـ الاجتراءُ على الآباء، ويُحتمل ما يصدُرُ منهم لعِزَّة الأبناء، وإنما يَصْلُح لمجالسة الملوك من يتحفَّظُ في كلامه، ويتيقَّظ حتى في منامه.

[رحيل السلطان عن مصر قاصداً الشام]

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وسبعين[2]

قال العماد: وفي خامس المحرَّم منها رحل السُّلْطانُ من البركة قاصداً إلى الشَّام، ولم يَعُدْ بعدها إلى مِصْر حتى أدركه الحِمام. وأخذ على طريق صَدْر وأَيْلَة في المفاوز، فبات بالبُوَيْب، ثم كانت منازله على الجسر ووادي موسى وحثا وصَدْر، وبعد خمس ليالٍ وصل عقبة أَيْلَة، وهناك سمع باجتماع الكُفَّار بالكَرَك؛ لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحِسْمى، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرَّد السلطان في كُماته، وسلك بهم سَمْتَ الكَرَك إلى الحسا، وأمَّر أخاه تاج الملوك بوري على النَّاس، وأمره أن يسير بهم يمنةً منه، ثم اجتمعوا بالسُّلْطان بالأزرق بعد أسبوع.

[ظفر عز الدين فروخشاه]

ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فَرُّخْشاه ـ قال العماد: ويلقب أيضاً معز الدين ـ بما غنمه أيضاً من بلاد العدو؛ وذلك أن الفرنج لما سمعوا

---

(١) هناك اثنان اسمهم أبو محمد بن الخشاب عبد الله بن أحمد: الأول: عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف البغدادي أبو محمد الشافعي المعروف بابن الخشاب، المتوفى سنة ٥٣٣هـ، صنف: «شرح اللمع لأبي إسحاق الشيرازي» في الفروع.
والثاني: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد البغدادي المحدث اللغوي المعروف بابن الخشاب، كان يؤدب أولاد الخليفة، توفي سنة ٥٦٧هـ (ولعله هو المقصود) من تصانيفه: «حاشية على درة الغواص للحريري»، «الرد على بابشاذ في شرح الجمل»، «الرد على تهذيب الإصلاح للتبريزي»، «الرد على الحريري في مقاماته»، «شرح مقامات الحريري»، «شرح مقدمة ابن هبيرة في النحو»، «اللامع في النحو»، «الجمل في شرح الجمل الصغيرة»، «المرتجل في شرح الجمل الكبيرة»، «مواليد أهل البيت» (كشف الظنون ٥/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) وخمسمائة.

بمسير السُّلْطان مِنْ مصر، ومعه خَلْقٌ من التُّجَّار، اجتمعوا بالكَرَك للقُرْب من الطَّرِيق، لعلهم ينتهزونَ فرصةً، فيقتطعون من القافلة قطعة. فخرج فَرُّخْشاه من دمشق، واغتنم خُلُوَّ ديارهم، فأغار على بلاد طبرية وعكا، وفتح دَبُّورِيَة، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد، وهو شقيفٌ يشرِفُ على بلاد المسلمين، ففتحه، وأسكنه المسلمين، فبقي عيناً على الكُفَّار بعدما كان لهم، ورجع بالغنائم والأسرى مظفَّراً منصوراً، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام. ثم وصل السُلْطانُ بُصْرى، ودخل دمشق سابع عشر صفر.

[إغارة السلطان على بلاد طبرية وبيسان]

قال: وفي العشر الأول من ربيع الأول خرج السُّلْطان، وأغار على بلاد طبرية وبَيْسان، والتحم بينهم القتالُ تحت حصن كوكب، واستشهد جماعةٌ من المسلمين، ولكن كانت الدَّائرة على الكافرين، ورجع السُّلْطان بحمد الله ظافراً.

وكتب بالمثال الفاضلي إلى الدِّيوان: كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالباً للغَزَاة المفروضة، والمسافةُ بين مصر والشام لمن يَرْفُقُ في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوماً، فحشد الفرنج، ونزلوا بالكَرَك على إرْجافٍ بالمصافّ، ولم يَزَل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال، فحَلَّ بها وشَنَّ الغارة فأبعد، وأذكى النَّار فأوْقد، وطلبَ الماء المحميَّ أزْرَقُه بأزْرقهم[1] فأَوْرَد، وسَفَك دم الخِصْبِ بالنَّار، وأخذ فيها عدلُ السَّيْف الجار بالجار، وعلم أَنَّ الفرنج قد تسلَّلوا لواذاً، وتعلَّلوا بالحصون احتجازاً ولياذاً، وأنهم لا يقاتلون إلا في قُرًى محصَّنة، ولا يقاتلون إلا على نجاةٍ متيقَّنة، وسرَّح الخادم إلى تلك الذَّراري، واستقر لها من كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفة، وساروا في طريقٍ على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحَمِيَّةُ الإِسلام الحامية[2]، التي تستنهضُ أرواحِ الكُفْرِ إلى نار الله الحامِيَّة، وسلك البلاد المؤدية أوديتُها إلى سيول الشِرك الطَّامية، وسيوف الضَّلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير، وجَدَعوا أنوف الأُنفِ[3] جَدْعاً قَصَّرَ فيه رأي قصير. وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تُجازُ في يوم واحد في أيام، وأورد عليهم طيفَ الخوف غير لابسٍ ثياب الأحلام، ويَسَّر الله الوصول، ورقابُ عُصْبة الكُفْر تكاد تتوثب عليها رِقاقُها، وعيون الأعيان منهم قد قَيَّدَها للذُّلِّ أطواقها.

---

(١) أزرقه بأزرقهم: الأزرق: السنان، جمعها: أسنة، وتسمى زرقاً للونها.

(٢) الحامية: الجماعة من الجيش التي تحمي البلد.

(٣) الأُنف: جمع الأنوف، وهو الذي يأنف الضيم.

وتوجَّه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأوَّل، ونَزَل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأنَّ الفرنج رحلوا في ليلِ ركبوه جَمَلاً، ولَبِسُوه سِتْراً دون اللِّقاء مُسْبلاً، وأصبحت الأطلابُ الإسلامية طالبةَ الأُرْدُنّ، وأشرف عليهم المملوك فَرُّخشاه، وكان على ميسرة الإسلام، فما خرج منهم من أخرج كفّاً، ولا تطرَّف منهم من أجال طَرْفاً، ولا ركَّض طِرْفاً، ولم يَزَل الخادم مقيماً ينادي للخروج الصُّمَّ الذين لا يسمعون الدُّعاء، إلى أن طوى النَّهارُمُلأَتَهُ، ومَدَّ عليهم كِلاءته[١]، فإنه رعى ما بينه وبين مناسبةِ وجوههم وصحائفهم بسواده، ولأنَّ اللَّيلَ يُدْعى كافراً فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام، كلُّ رمية منها طَعْنة، وكلُّ أنَّةٍ من قَوْسها تُجاوبها للحَيْنِ أنَّة، فاستخرجوا ضمائر كنائنهم، وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم، فمرَّت كأن التوفيق يَقُودُها إلى حيث أمَّت فأماتت، وطارت جَرَاداً ترعى زَرْعَ الحياة فبَتَّتْ وما أباتت، ولم يروا مضاجعَ ذوات حَسَكٍ كمضاجع حَسَكُها السِّهام، ولا ليلةَ هَمٍّ ذات أحلام كليلةٍ حُلْمُها يقظةُ الحِمام، وأصابَتْ خيولَهم صوائِبُها، وتعلَّقت نِصالُهم بِدُهْمها، فكأنهم في ظُلُماتِها كواكِبُها، فلما انشقَّ الصُّبْحُ غَيْظاً من شِقاق كُفْرهم، شُوهدوا نازلين من حِصْنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حِصْن الطُّور الذي كانوا إليه ناوين، فساقت إليهم أطلابُ المَيْسرة صُحْبة المملوك فَرُّخشاه. وساق المملوك عمر[٢] من الميمنة طالباً لِحَوْمَةِ القِتال[٣]، فرأَوْا الخُطَّة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متناسقة، وأنزل الله النَّصْرَ من سمائه على مطيعه في أَرْضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد بِفَرْضه. وتَوَالت من الفرنج حملاتٌ ألجأهم إليها الاضطرار لا الاختيار، وثَبَتَ من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وهُمُ الأعداء لقاءَ الأحباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أَرْجُلُ الخيلِ أجنحة، وصُرِعَتْ للفرنج أبطالٌ وخَيَّالة، وتمَّت الحَمْلة الإسلامية على من كان وراءهم من الرَّجَّالة، فأخذ القَتْلُ كثيراً وقليلاً ترك، وفَرَّ روح الكافر من الجَسَد، وعلمت النار أنَّه سلك، وألجأهم البلاء إلى حِصْنٍ يعرف بِعَفْرَبَلا، وَسَّع الخَوْفُ منه ما هو ضَيِّق، وتعلَّق بالحياة منهم مَنْ هو به متعلِّق، ولم تنصرف صدورُ الخيل دون أنِ اعتقلتهم في سِجْنه، وألزمتهم به فصاروا قُرْطاً في أُذْنه، وكان اليوم من الأيام التي اضطرمت فيها نيرانُ الجحيم،

---

(١) كلاءته: أي حفظه وحراسته.

(٢) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المظفر، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(٣) حومة القتال: هو المكان الذي يشتد فيه القتال.

ارتياحاً لمن قَدِمَها من أزواح الكُفَّار. وكان قائم الظَّهيرة في الغَوْر قد مَنَعَ من استتمام عَوْدَةِ المُغَار، ومورد الماء بعيدٌ من غريمه، والرِّيُّ ـ ولو أنه من حميم ـ أَحَبُّ إلى المرء من حميمه، فمالت الجنودُ إلى المناهل متفرِّقة عليها، ومنصرفةً إليها، وحافَّةً بها من حواليها، وأذْعَنَ الكُفَّارُ بالحَصْرِ والتفادي من الإصحار، والاعتماد على المطاولة والاضِّجار، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الحِرَار. وبات الخادمُ والمسلمون على الحِصْنِ المذكور الذي باتوا به نازلين، قد حقَّقُوا من أحوال اللِّقاء ما كانوا به جاهلين، وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه النَّوْبة ما عواقِبُهُ مُسْفِرَةٌ عن المُرَاد، ودلائِلُهُ محقِّقَةٌ لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦﴾ [آل عمران: ١٩٦] وأنَّ الكُفْرَ مُذْ قام قائِمُهُ، والشَّام مذ حَلَّه ظالمه، لم يَعْبُرْ أحدٌ من ولاة الأمر هذا الحدَّ إلا على حين غَفْلَةٍ من أهله، ولم يواجه الكُفْرَ وهو مجتمعٌ في خَيْلِهِ فَضْلاً عن رَجْله، ولم يهدِّدِ العدوُّ بضرب مصافٍّ إلا واستكانت العزائم لتهديده، ولم يُجْمعْ أمره على اللِّقاء إلا صرفَهُ عنه الآمر بصرفه بذهبه لا بحديده، فأما الآن فقد أَنِسَ المسلمون بحزبه، وتمرَّنُوا بحربه.

فصل

في مسير السُّلْطان إلى بلاد المشرق مرة ثانية

قال العماد[1]: ثم إنَّ السُّلْطان عَزَم على المسير إلى حلب، وبلغه أنَّ المَوَاصلة كاتبوا الفرنج، ورغَّبوهم في الخروج إلى الثغور، ليشغَلُوا السُّلْطان عن قصدهم. فتوجَّه على سَمْتِ بَعْلَبَك، وخَيَّم بالبقاع، وكان قد واعد أسطول مصر أن يتجهَّز إلى بلاد السَّاحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت، فبادَره السلطان بعسكره جريدةً[2] قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أنَّ أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسَلَبَ، وظَفِرَ من غنيمتها بما طَلَب، فأغار السُّلْطان على تلك البلاد، ورجع، وأعاد فَرُّخْشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك، ومنها إلى حمص،

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٧ ـ ٢٣: ذكر العزم على قصد حلب وعبور الفرات إلى بلاد الجزيرة والاستيلاء عليها والنزول على الموصل والعود إلى سنجار وأخذها في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. وانظر أيضاً الكامل في التاريخ ١٠/ ١١٠: ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج.

(٢) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

فخرج الفقيه المهذب عبيد الله بن أسعد بن الدَّهَّان[(١)]، وله في السُّلْطان مدائح، منها قصيدة، أولها[(٢)]: [الكامل]

أَعَلِمْت بَعْدَك وَقْفَتي بالأَجْرَع ... ورضى طلولكِ عن دموعي الهُمَّع[(٣)]
مَطَرَتْ غَضَى في مَنْزِلَيْكِ فذاوياً ... في أَرْبُع ومُؤَجَّجاً في أَضْلُع[(٤)]
هل يعلمُ المتحمِّلُونَ لِنُجْعَةٍ ... أَنَّ المنازِلَ أَخْصَبَتْ من أَدْمُعي[(٥)]
دَعْني وما شاءَ التلذُّذُ والأَسى ... واقْصِدْ بِلَوْمِك مَنْ يُطِيْعُكَ أو يَعِي
لا قَلْبَ لي فأَعِي المَلامَ فإنَّني ... أَوْدَعْتُهُ بالأَمْسِ عند مودعي
قُلْ للبخيلةِ بالسَّلام تورُّعاً ... كيفَ اسْتَبَحْتِ دَمي ولم تتورَّعي
وبديعةِ الحُسْنِ التي في وَجْهها ... دونَ الوجوه عِنايةٌ للمُبْدِعِ
ما بالُ مُعْتَمِرٍ بِرَبْعِك دائباً ... يقضي زِيارَتَهُ بغيرِ تَمَتُّعِ
ووعدتِني إن عُذْتِ عَوْدَ وِصالنا ... هيهات ما أبقى إلى أَنْ تَرْجِعي
هل تَسْمحينَ بِبَذْلِ أَيْسَرِ نائلٍ ... أنْ اشْتَكي وَجْدِي إليكِ وتَسْمَعِي
فتيقَّني أني بحبِّكِ مُغْرَمٌ ... ثم اصْنَعِي ما شئتِ بي أَنْ تصنعي

ومنها:

عفى[(٦)] الرَّبيعُ الجَوْنُ رَبْعاً طالما ... أَبْصَرْتُ فيه البَدْرَ ليلةَ أَرْبَع[(٧)]
ولو استطعتُ سَقَيْتُهُ سيل الغِنى ... من كَفِّ يُوسُفَ بالأَدَرِّ الأَنْقَع[(٨)]
بِيَدَيْ فتًى لو أنَّ جُودَ يمينه ... للغَيْثِ لم يكُ مُمْسِكاً عن مَوْضعِ
فإذا تَبَسَّمَ قال يا جودُ اندَفِقْ ... فَيْضاً ويا سُحْبَ النَّدى لا تُقْلِعي

---

(١) هو عبد الله (وليس عبيد الله كما ذكر المؤلف ولعله تصحيف) ابن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان الشاعر، توفي بحمص سنة ٥٨١هـ، تقدّمت ترجمته في الجزأين الأول والثاني.
(٢) انظر الأبيات في البرق الشامي ٥/١٩ ـ ٢٢، والقصيدة في البرق من ٥٦ بيتاً.
(٣) الأجرع: المكان الواسع الذي فيه حزونة وخشونة والهمّع: الجاريات، يقال: همع الدمع أو الماء: سال.
(٤) الغضى: أي جمر الغضى ويريد بمنزليها: دارها وقلبه. وأربُع: جمع رَبْع: وهو الموطن.
(٥) النجعة: طلب الكلأ.
(٦) في البرق الشامي: فسقى.
(٧) الربيع: المطر الذي يكون في الربيع. والجون: من أسماء الأضداد، ويقصد به هنا الأبيض.
(٨) يوسف: هو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. والأنقع: أي الذي يروي ويذهب العطش.

وإذا تَـنَـمَّـر قـال يـا أرضُ أَرْجُـفـي ... بـالـصَّـاهِـلات ويـا جبـالُ تَـزَعْـزَعِـي[١]
وإذا عـلا فـي الـمَـجْـد أعـلـى غـايـةٍ ... قـالَـتْ لـه الـهِـمَـمُ الـجِـسَـامُ تَـرَفَّـعِ
كـم وَقْـفَـةٍ لـكَ في الـوَغَـى مـحـمـودةٍ ... أبـداً وكـم جُـودٍ حـمـيـدِ الْـمَـوْقِـعِ
والـنَّـاسُ بَـعْـدَكَ في الـمـكـارم والـنَّـدى ... رجـــلان إمـــا ســـارقٌ أو مُـــدَّعـــي

[مسير السلطان إلى حماة]

قال[٢]: ثم رحل السُّلْطان إلى حماة، واستصحب معه ابنَ أخيه تقي الدين[٣]، فلما قَرُبَ من حلب أقبل مظفر الدين كُوكُبُرِي بن علي كُوجك[٤]، صاحب حرَّان حينئذٍ، فاجتمع بالسُّلْطان، وسار في خدمته من جُمْلَة الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويجوز ما وراءها، ويترك حلب إلى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها فاستصوبَ السُّلْطان رأيه وعبر الفرات.

وقال القاضي ابن شدَّاد: نزل السُّلْطانُ على حلب في ثامن عشر جُمادى الأولى سنة ثمانٍ وسبعين، فأقام ثلاثة أيام، ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقرَّ الحال بينه وبين مُظَفَّر الدين بن زين الدين، وكان صاحبَ حَرَّان، وكان قد استوحش من جانب المَوْصِل، وخاف من مجاهد الدين[٥]، فالتجأ إلى السُّلْطان، وعبر إليه إلى قاطع الفُرَات، وقوَّى عزمه على البلاد، وسَهَّل أمرها عنده، فعبر الفرات، وأخذ الرُّها والرَّقَّة ونَصِيبين وسَرُوج، ثم شَحَنَ على الخابور، وأقطعه.

وقال ابنُ أبي طي: في أوَّل السنة أراد مظفَّر الدين بن زين الدين ـ وكان إليه شِحنكية حلب ـ الاستيلاء على قلعة حلب، بأن يهجمها، فلم يتمكَّن، وظهر أمرُه، وبعد هذه الوقعة اجتمع الأَخَوان عِزُّ الدين وعماد الدين على الرَّقَّة، وتحالفا

---

(١) تنمّر: أي غضب.
(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ٢٣.
(٣) هو تقي الدين، الملك المظفر أبو سعيد عمر بن شاهنشاه بن أيوب. تقدّمت ترجمته.
(٤) هو الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد، وعرف والده بكجك لأنه كان قصيراً، أقطعه صلاح الدين الرها مع حران وسميساط وزوّجه أخته، وأبلى بلاءً حسناً في حطين، ونزل عن بلاده السابقة مقابل إربل وضم إليه صلاح الدين شهرزور، ولد سنة ٥٤٩هـ، بقلعة الموصل، وتوفي سنة ٦٣٠هـ، ودفن بقلعة إربل (وفيات الأعيان ٤/ ١١٣ ـ ١٢١، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٢، شذرات الذهب ٥/ ١٣٨، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ ١٠/ ٤٤١ ـ ٤٤٢).
(٥) هو مجاهد الدين قايماز، توفي سنة ٥٩٤، (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٤هـ).

على بساطٍ واحد، وسلَّم عمادُ الدين ما كان بيده من سِنْجار وغيرها إلى عِزِّ الدين، وسلَّم عزُّ الدين إليه حلب، فسار إليها، ودخلها. فخرج مظفر الدِّين عنها، وصار إلى الفُرَات، فلما اتصل به قَصْدُ السلطان حلب سار إلى خدمته، واجتمع به على جباب التُّركْمان، وأشار على السُّلْطان بعبور الفرات، والاستيلاء على بلاد الشَّرْق، وتأخير أمر حلب، ففعل. ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تلِ خالد ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البِيرة، وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأُرْتُقي[١]، فنزل إليه، وقَبَّل الأرض بين يديه، وسأله الصُّعود إلى قلعة البِيرة، فأجابه، وقدَّم له مفاتيح القلعة، فردَّها إليه، ووعده باستخلاص ما كان صاحب مارِدِين غلبه عليه.

ورحل السُّلْطان إلى سَرُوج، فنزل إليه صاحِبُها ابن مالك مستأمناً، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب مارِدِين في ردِّ ما كان تغلَّب عليه من أعمال البيرة، ففعل. ثم أخذ الرُّها ثم الرَّقَّة، ثم سلم الرُّها إلى ابن زين الدِّين، والرَّقَّة إلى صاحب الرُّها، لأنه سأل أن يكون في خدمة السُّلْطان.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُّخْشاه يعلمه بالحال، وفي آخره: وَلْتَعْجَلْ بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحتِ البلادُ أبوابها، قد فتحت المطامعُ أفواهها، واستُوعِبَتِ الخزائنُ إخراجاً وإنفاقاً، واستُنْفِدَتِ الحواصلُ إعطاءً وإطلاقاً، وقدمنا على بحرٍ لا يسدُّه إلا بحر، وعلى أيدٍ إن كان بها الغنى ففي أنْفُسِها الفَقْر.

ومن كتابٍ آخر إلى العادل: يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخَرْج الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وأنَّه متى نَضَبَتِ الموادُّ وقفتِ الأُمور التي قد شارَفَتْ نهاياتِها، وتفرَّقتِ الجموعُ التي تناذَرَتِ الأعداءُ نكاياتها، وما دون تملُّك البلاد إلا الوصول إليها، والنُّزول عليها.

قال العماد[٢]: وقال مُظَفَّر الدِّين للسُّلطان: ما زلتُ شوقاً إليك في حَرَّان حرَّان، وإلى الرَّي من وِرْدِ خِدْمتك ظمآن، وهي لك مبذولة، وبأوليائك من أهل الدِّين والدنيا مأهولة، والرُّها لا يَعْسُرُ أمرها، والرَّقَّة لرقك وبعض حَقِّك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا دارُك، ونَصِيبين نصيبُك، ومُلْكُ المَوْصِل مُوصلك إلى المُلْك، وما هذا أوان الوَنَى، فاذْنُ إلينا، وكلُّ بعيدٍ قد دنا.

(١) ولي البيرة بعد وفاة والده شهاب الدين الياس الأرتقي سنة ٥٧٠هـ.
(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ٢٣ ـ ٢٤: ذكر وصول مظفر الدين واجتماعاته بالسلطان.

قال(١): ووصل البحرُ إلى الفرات، وخيَّم عليها من غربي البيرة، وَمُدَّ الجِسرُ، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحبُ ماردِين، واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسُّلْطان تخلَّى عنها، فأعادَ إليها صاحِبَها شهابَ الدِّين محمد بن إلياس الأرْتُقي.

وكتب السُّلْطانُ بالمثال الفاضلي إلى الدِّيوان عند عبور الفرات كتاباً فائقاً طويلاً، يقول فيه: خَدَمُ الخادِمِ متواليةٌ إلى الأبواب الشَّريفة ـ خَلَّد الله سُلْطَانها ـ شارحاً لأحواله، ومعتداً بها من صالح أعماله، ومتوقعاً من الأجوبة عنها ما يهيئ له من أمره رَشَداً، ويفرِّق الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لِبَداً(٢)، فإن الآراء الشَّريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات وتتضمنها الإجابات والابتداءات، لأفصحت عنها موالاةُ الخادم التي استفتحتِ الدَّوْلَةَ بعقائلِ الفتوح قبل خُطْبتها، وردَّتِ الأسماءَ الشريفة إلى أوطانها من المنابر بعد طول غُرْبتها، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل مهاجر ما هاجر إليه، ونِيَّةُ المَرْءِ ثَوْبُه، فلا يلبس إلا ما خَلَعَتْه النِّيَّة عليه.

وكتابُ الخادِمِ الآن من البِيرة بعدما قطع الفرات، وكان مَنْ لا تُقَرِّبُ عليه العزائِمُ ما هو بعيد، ولا يُلْقي السَّمْعَ وهو شهيد، يظنُّ أَنَّ ساكنَ النِّيل يحولُ الفراتُ بينه وبين قَصْده، وأنه يَنْسى عزيمة رأيه إذا ذَكَرَ طُولَ مُدَّته وهَوْل مَدِّه، وكيفما كان هذا المَخرجُ المُخْرِجُ فقد أَحْسَنَتْ إلى الخادم إساءتُه إليه، وقَرَّبه من محل دار السَّلام بل الإسلام، فما أكثر ما قال السَّلام عليه، واستشرف جَنَانُه مِنْ جَنَابِهِ أمناً وذُعْراً، أَوْجَبَتْهما الموالاةُ والمهابة، وطالعت عَيْنُه أنواءَ وأنواراً تُنْسَبُ إلى بركاتها كُلُّ سحابة، وكاد ينزل عن السُّروج والأكوار(٣)، ويقبل الثَّرى لأجل شَرَفِ الجِوَار، وتستنفد غُلَّتُه ماءَ الفرات، لأنه يمرُّ بتلك الدِّيار، ويقرأُ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام، الذي هو أعمُّ وأغمر للأقطار من القِطار(٤)، وتنوّر دار الإسلام من منزلته فأدناه النَّظَرُ العالي، وأسفلته آمالُه حَوْزَ الفَوْزِ بما قَرَّبه نَجِيًّا من قُرْبها والآمال أمالي، والله تعالى يُشَرِّف أرْضاً هو واطِئُها، ويرعى سُروجاً هو كاليها ويُسْعِدُ به أمةً هو بارُّها، طاعةً لمن هو بارِئُها.

---

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ٢٤ ـ ٢٥: ذكر وصول السلطان إلى الفرات.
(٢) يكونون عليه لبداً: أي مجتمعين بعضهم على بعض، واحدتها لبدة.
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو رحل البعير، أو الرحل بأداته.
(٤) القطار: المطر.

ولما تحقَّق الخادِمُ أنَّ المَوَاصلة قد واصلوا الفرنج مواصلةً أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كِتْمان السَّرائر، وخَصَمَتْهُم خُطوطُ الأيدي المتمسِّكة بعِصَم الكَوَافِرِ، وعقدوا معهم عَقْداً شَهِدَه مَنْ هو حاضِرُه، ونقلَه إلى مَنْ سَمِعَه مَنْ هو ناظِرُه، وكان عقدهم إحدى عشرة سنةً، والمُسْتَقِرّ لهم في كلِّ سنة عشرة آلاف دينار، على أن تُسَلَّم ثغورُ المُسْلمين إلى الكُفَّار، منها: بانياس وشَقيفُ تِيرون وحبيس جلدك وأسارى الفرنج في كل بلدةٍ بأيديهم، وفي كل بلدٍ يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج. ولما تمَّ لهم هذا العَقْد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النَّقْد، ظَنُّوا أن الحقَّ يجادِلُه الباطل فيدحَضُه، وأنَّ يد الكُفْر تنبسط إلى الإسلام فتقبضُه، وأنَّ الخادم لا يمكنه أن يتوجَّه إليهم إلا بأن تكون الفرنج سِلْماً، ولا يستطيع أن يَقْسِمَ العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قِسْماً وبإزائهم قِسْماً، وعملوا على هذا الوَهْم، وبنوا على هذا الحُكْم، واستنهضوا الفرنج على تثاقل الخَطْوة، واستخرجوهم على ما بهم من كُلُوم[1] الغَزْوة بعد الغَزْوة، فتحاملت أرْجُل الكُفْرِ على ظَلْعِها[2]، وخرجت على طَمعها إلى فزعها، وأنفَقَتْ في رجالها مالاً حملوه إليهم جَمًّا، وجَرَّتْ إلى الإسلام جيشاً جهَّزه من يدَّعي الإسلام لَفْظاً ويفارِقُه حُكْماً، وتواعَدَ المَوَاصِلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يُوصل المَسَاءة إلى الخادم، ولم ينظروا للإسلام في العواقب، فوصل المَواصلة إلى نَصِيبين، مُجِدِّين مُحْفلين، وحرَّكوا الفرنج للخروج إلى الشَّام متطرِّفين ومتوغِّلين، فلا جَرَمَ أن أمراء جانبهم وخواصَّ صاحبهم لم يَسَعْهم المُروقُ من الدِّين، ولا الخروجُ عن أمرة الموحِّدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، وأشفقوا على دينهم إشفاقاً دَلَّ على تحرُّزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحَقَّ وسلكوا سبيله، ورَفَعَ لهم الهُدَى منارَه، فاقتفوا دليلَه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] فاستعان الخادِمُ عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أمَّلوا النَّصْرَ من أَرْضِهِم أمَّلَه مِنْ سمائه، فَرَتَّب الخادمُ في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فَرُّخْشاه ابن أخيه، وأبقى عسكرَ الشَّام وحامِيَتَهُ فيه، واستنهض أخاه من مِصْر إلى ما يليه من بلاد الكُفْرِ، فنهض، وقام الخادم بما أقامه له ولله عزّ وجلّ بما فَرَض، وسار الخادمُ بالعَسْكر المِصْري إلى هذا الجانب الذي هو الآن فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطَّريق انتظاراً لأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويُفْرِجُوا عن الوِلاية أيدي اغتصابها، وتعتذِرُ

(١) الكلوم: جمع الكلم: وهو الجرح.

(٢) الظلع: العرج.

إلى السَّيْف ألسنةٌ تُشْفِقُ على رِقابها، فأبَوْا إلا الإباء، ورأوا المُلْك إرثاً ما ادعوا فيه تقليدَ الخُلَفاء بل الآباء.

ولما قَرُبَ الخادم من الفُرَات، وصل إليه صاحب حرَّان ابن زين الدين علي كُوجك، مقدَّم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سَرُوج وصاحب البِيرة، وكلٌّ بيده مفاتيح بلده، وأمامَهُ أمانُ الخادم له، قد استبدله من مقلِّده، ووراءه عَسْكَرُهُ على كمال عَدَده وعُدَدِه، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون إقطاعاتهم خدماً ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جناياتٍ ومقاطعات، ومكُوساً وعُشوراً واحتكارات، يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثُّونه في المسير على الإغذاذ[1]، ويشكون أنهم مع جِوَار دار الخلافة المُعَظَّمة، لا يُسْلَكُ فيهم سَنَنُها، ولا يُقْتَفَى فيهم شرائعها وسُنَنُها، ونُمِيَ إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تُلْزِمُ الفريقين، ويُعْدَلُ بها عن أقصد الطَّريقين، ما يروِّع السَّامع ويُسْمعُ الرَّائع[2]، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم إن ادَّعوا تقليداً فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا، ونقضوا وما افترضوا، ومثَّلوا بالحقِّ وما امتثلوا، وأُمِروا بكَفِّ الأيدي وقد بسطوها، وبأخْذِ الأموال من حِلِّها وقد خَلَطُوها، وبرعايةِ أُمَّةِ النبي ﷺ وقد أسْخطوه فيها وأسخطوها. وابنُ الدَّعْوةِ العَبَّاسية مَنْ رعاها لا من ادَّعاها، والعهود وصايا وما الأَوْلى بها مَنْ سَمِعَها بل مَنْ وعاها، وأي عهدٍ لمن لا عَهْدَ له بالطَّاعة، وأي ولايةٍ لمأمورٍ بأن يجمع أهل الفُرْقة فَفَرَّق أهلَ الجماعة، فالجُنْدِي تُؤكل الأرضُ باسمه ولا شيء بيديه، والعاميُّ يرفع إلى السَّماء الاستغاثة ما لا يُمْهل الله عليه، ولقد تعجَّب الخادم من إسفاف الأنفس الغنية إلا أنها فقيرة، والارتفاق بتلك الطُّعَم الجليلة وهي على الحقيقة الحقيرة ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] الآية.

هذا، إلى طامَّةٍ أُخرى لا تَقِرُّ عليها الجُنوب، ولا تَدُرُّ عليها الحَلُوب، ولا ينام على سهرِ بارقُها وإن كان الخَلُوب؛ وهو أنَّ الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهةً من الجهات التي الدولة منحرفةٌ عنها، وبذلوا الطَّاعة لها وقد أُمروا بالامتناع منها، وهذا نصٌّ في الخِلاف لا يدخله التأويل، وقَوْلٌ قد أحاط به العِلْمُ فلا يَخْتَلِجُهُ التَّقويل، وكلُّ صغيرةٍ من هذه الكبائر، وكلُّ واحدٍ من هذا الجمع المتكاثر، يَنْقُضُ الولاية ويَجْرَحُ العَدَالة، ويَسْلُبُ الرُّشْدَ ويُثْبِتُ الضَّلالة، ويُمْضي نيةَ الوالي فيما هو له ماضٍ، ويَبْعَثُ عَزْمَه فيقضي ما هو قاضٍ، ويُسْخِطُه وكيف لا يسخَطُ والمَوْلَى

(١) الإغذاذ في السير: أي الإسراع.
(٢) الرائع: من الروع وهو الفزع.

غَيْرُ راض، ويغيظه بما لا عُذْرَ له لمغتاظٍ منغاض. وما أنهى الخادم مما اتصل به الأوائل والأطراف، وما عوّل إلا على ما صَحَّحته النَّفْسُ دونَ ما خَيَّلَه الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حَظَّها من مَعْدِلَةٍ كان الزَّمانُ بها طويلاً مَطْلُه، وأنشأها سحابُ إحسانٍ كان بعيداً عليها هَطْلُه، فقد كُفِيَتِ الخواطرُ الشَّريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للأُمة على إمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أَمْرُها، وبيده يُجْلَبُ نَفْعُها ويُجْلَى ضَرُّها، وقد تجدَّدت للدَّوْلة الشَّريفة قوةٌ واستظهار، وبَسْطَةٌ واقتدار، وسَيْفٌ به يُناضل من يُسيء الجوار، ولسانٌ يجادل به من يريد الدار.

[الاستيلاء على بطسة فرنجية]

وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المِصْري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وما غنمه من مراكبه وقوافله، وورد كتابٌ من مِصْر بأنه كَسَبَ بُطْسة فرنجية، خرج مَنْ فيها هارباً من القُسْطَنْطِينِيَّة لفتنةٍ وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فَقُتِلَ منهم خمسون ألف فرنجي، وأُفلتت منهم بَطَس منها هذه البُطْسة، وفيها رجال أكابر، ومقدَّمون لهم فيها ذكر سائر، وغَنِمَ المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبي وذخائر، وانقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وفَضْل، وحازت القَبْضَةُ من الأسارى ما يزيد على أربعمائة بعد من دَرَجَ بالقَتْلِ.

فَصْلٌ

[مكاتبة السلطان ملوك المشرق]

قال العماد(١): ثم كاتَبَ السُّلْطان الملوك بالوفود للاتفاق، فَمَنْ جاء مستسلماً سُلِّمت بلادُه على أن يكون من أجناد السُّلْطان وأتباعه في جهاد الكُفَّار، فجاء رسولُ صاحب حِصْن كَيْفا بالإذعان، وهو نور الدين محمد بن قرا أرسلان. ثم رحل السُّلْطان من البيرة، ونزل على الرُّها، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعْفَراني(٢)، فأذعن وانقاد، وتسلَّمها مُظَفَّر الدين مضافةً له

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ٢٥ ـ ٢٦، ولفظه: ثم كاتبنا أصحاب الأطراف بالوفود للوفاق والتنحي عن مذهب الخلاف، وأنه من جاء مسلماً وللأمر مستسلماً سلمت بلاده وصينت أطرافه وتلاده على أنه يكون من أجناده في غزو الكفر وجهاده.

(٢) كان من كبار أمراء نور الدين، قدمه في آخر حياته على العساكر، وأقطعه الرها وحماة وكفرطاب وحمص، وسلمية وبعرين. تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

إلى حَرَّان. ثم وصل السلطان إلى حران، فَرَتَّبها وانفصل منها إلى الرَّقَّة، وفيها الأمير قُطْب الدِّين ينال بن حَسَّان، فأذعن أيضاً، وسلَّم، ولم يوافق مراعاةً لصاحبه، فأصلحها السُّلْطان. ورحل منها إلى مشهد الرُّمَّان، ثم إلى عَرَابان، فتسلَّمها وأصلح من شأنها. وتواصلت أخبار وصول السلطان بالخابور[1]، وما نَشَرَ من العدل في البلاد التي فتحها؛ ففتحت رأس العين ودورين وماكِسِين والشَّمْسانية والفُدَيْن والمِجْدَل والحُصَيْن.

[فتح السلطان الخابور]

قال: وقطعنا نهر الخابور على قَنْطَرة التُّنَيْنِير إلى نَصِيبين، فاستعصت قلْعَتُها أياماً، ثم فتحت استسلاماً، وولاها السُّلْطان حسام الدين أبا الهيجاء السَّمين[2]، وولَّى الخابور جمال الدين خُوشترين[3]. ثم سرنا إلى المَوْصِل، وقطعنا أعمال بين النَّهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بَلَد، وأشرفنا على دِجْلَة، وكنا أوردنا خَيْلَنا في أشهرٍ من تلك السنة نِيلَ مِصْر والفُرَات ودِجْلَة، ثم صممنا على قَصْدِ المَوْصِل، فلما قربنا من الوصول كَبَّرْنا تكبيرَ من ظَفِرَ بالسُّول، وتقدَّم السُّلْطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السُّور، وعيَّن لكلٍّ مقدَّم مقاماً؛ فنزل هو وراء البلد، وتقي الدين من شرقِيِّه، وأخوه تاج الملوك بُوري عند باب العِمادِيَّة، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولّى مجاهد الدين قايماز حِفْظَ البلد بأحسن تدبير، وكاتَبَ الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السُّلْطان، فَقَدِمَ في ذلك صدر الدين شيخ الشُّيوخ وشهاب الدين بشير في الشَّفاعة، فرحل السلطانُ عنها في شعبان، وقصد سِنْجار، وقدَّم أمامه تقيَّ الدِّين.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: كان نزول السلطان على المَوْصِل في هذه الدُّفْعة يوم الخميس حادي عشر رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وكنت إذ ذاك بالموصل، فَسُيِّرْتُ رسولاً إلى بغداد قُبيل نزوله بأيام قلائل، فسرت مسرعاً في دِجْلة، وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجداً بهم، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشُّيوخ ـ وكان في صحبته رسولاً من جانبهم ـ يأمرونه بالحديث

---

(١) في البرق الشامي: الخابور.

(٢) كان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطنه، ذكره المؤلف في الذيل على الروضتين حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤هـ.

(٣) توفي سنة ٦١٩هـ، بإربل وهو الذي عمر المدرسة الشافعية بالقصر في القاهرة (الوافي بالوفيات ١٣/ ٣١٨).

معه، وتلطُّف الحال معه، وسُيِّر إلى بهلوان رسولٌ من المَوْصِل يستنجده، فلم يحصل من جانبه سوى تَشَرُّطٍ كان الدُّخول تحته أخطر من حَرْب السُّلْطان.

ثم أقام السُّلْطان على الموصل أياماً، وعلم أنه بلدٌ عظيم لا يتحصَّل منه شيءٌ بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أنَّ طريق أَخْذِهِ أَخْذُ قلاعه وما حوله من البلاد، وإضعافهُ بطول الزَّمان، فرحل عنه، ونزل على سِنْجار في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعةٌ، واشتدَّ عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عَنْوَةً، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى المَوْصِل، وأعطاها السُّلْطان ابنَ أخيه تقيَّ الدين، ورحل عنها إلى نَصِيبين.

وقال العماد[1]: لما قصد السلطان سنْجار، نزل بارنْجان، فوجد بها عسكراً من المَوْصِل سائراً إليها، فأحاط به، وأخذ خيلهم وعُدَدهم، ورَدَّهم إلى المَوْصِل رجَّالة، ووصل إلى سِنْجار ومعه رسلُ دار الخلافة، ونور الدين صاحب حِصن كَيْفا، وكان في سِنْجار شرف الدين أخو صاحب المَوْصل، فامتنع من تسليمها، فحوصر، ورُميت القلعة بالمنجنيق، فانهدم بها ثُلْمَةٌ من السُّور، فوكَّلَ بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان، فكفَّ السلطان عن القتال، ثم جاءه الخبر ليلةً أن الموكلين بحفظ تلك الثُّلْمة نيام، فأرسل إليهم من أَوْثَقهم، وحملهم إليه، وكان فيهم جماعةٌ من المقدَّمين والأعيان، فلما أصبح صاحب سنجار أذعن وسلَّم، ورحل بأهله وماله، ودخل السُّلْطان القلعة ورتَّبها، وأمر بعمارتها، وولاها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حِبالة السلطان، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فَتُركت الرِّياسة فيهم، وولَّى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المُظَفَّر بن محمد بن يعقوب.

ثم رحل السلطان إلى نَصِيبين، فأقام بها، لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودَّع رسل دار الخلافة، وشكا أهلُ نَصِيبين من أميرها أبي الهيجاء السَّمين، فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا، وأميرها صمصام الدين بَهْرام الأُرْتُقي، فتلقَّى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حَرَّان، وأقام بها للاستراحة، وعاد كلٌّ إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة. هذا، والمواصلة في جِدٍّ من جَمْع الجموع وَبُغَاء الغَوائل للسلطان.

---

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ٤٠ ـ ٤٢: ذكر الرحيل إلى سنجار وفتحها وحصارها وسبب قصدها.

فَـصْــلٌ

في وفاة فَرُّخْشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب(١)

قال العماد: وفي هذه السنة في جُمادى الأُولى توفي بدمشق الملك المنصور عِزُّ الدين فَرُّخْشاه، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره الفرات، فأقَرَّ السلطان ولده الملك الأمجد بَهْرامشاه(٢) على بَعْلَبَك وأعمالها مكان أبيه، ونفذ شمس الدين بن المقدَّم والياً مكانه على دمشق وأعمالها.

قال ابن أبي طي: كان فَرُّخشاه من أكرم الناس يداً، وأطهرهم أخلاقاً، وأسدِّهم رأياً، وأشجعهم قلباً، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحَمَّام يوماً، فرأى رجلاً قد قعد به الزَّمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثياباً رثَّة يبينُ منها بعضُ جسده، فاستدعى بجميع ما يحتاج الرَّجُل إلى لبسه. وببغلة مسرجة وبألف دينار، وقال لبعض غِلْمانه: اجعل هذا كلَّه في موضع ثياب الرجل، وَخُذْ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له. ففعل. فلما تغسَّل الرجل وخرج، رأى موضع ثيابه تلك الثِّياب، فسأل الحَمَّامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب. فتقدَّم إليه الغُلام، وأخبره بجميع ما صنعه عِزُّ الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين ديناراً في كلِّ شهر، فلبس الثياب وخرج من الحمام وهو من أغنى النَّاس.

قال: وكان فَرُّخشاه مُمَدَّحاً، مدحه ابن سَعْدان بعِدَّة قصائد، من جُمْلتها التي يقول فيها: [الخفيف]

تـخِـذَ الـسَّـابـريَّ لِـبْـداً وعُـودَ الـزَّ (م) ان نـابـاً والـهِـنْـدُوانـيَّ ظُـفْـرا(٣)

---

(١) هو فرّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، عز الدين، أبو سعد بن نور الدولة الأيوبي، تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(٢) هو بهرام شاه بن فرّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، الملك الأمجد، مجد الدين، أبو المظفر، صاحب بعلبك، أعطاه الناصر يوسف عم أبيه بعلبك بعد وفاة أبيه، وكان أديباً فاضلاً شاعراً محسناً جواداً كاتباً ممدحاً، وهو أشعر بني أيوب وشعره مشهور وله ديوان، قتل سنة ٦٢٨هـ. (شفاء القلوب ص٣٣٣ ـ ٣٣٧، وانظر ترجمته أيضاً في: مرآة الزمان ٨/ ٦٦٦، تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٤٦، فوات الوفيات ١/ ١٥٠، مرآة الجنان ٤/ ٦٥، البداية والنهاية ١٣/ ١٣١، السلوك ١/ ٢٤٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٥، شذرات الذهب ٥/ ١٦٩، مفرج الكروب ٤/ ٢٨٤، كنز الدرر ٧/ ٣٠١).

(٣) السابري من الثياب: الرقاق، وهي من أجود أنواع الثياب. والهندواني: من السيوف نسب إلى الهند.

أَعْجَميُّ الأنسابِ قَصَّرَتِ الأعْـ ـرابُ عنه سَجْعاً ونَظْمر ونَثْرا
هَزَمَتْ كتبُه الكتائبَ جفلاً وأعادَتْ دُجى الحوادثِ فَجْرا
فهْو كالمازنيِّ عِلْماً وكالأحْـ ـنَفِ حِلْماً وكالفَرَزْدَق شِعْرا[1]

قال: وكان فَرُّخْشاه مضافاً إلى شجاعته عالماً مُتَفَنِّناً، كثير الأدب، مطبوع النَّظْم والنثر، فمن شعرِهِ قولُه: [مجزوء الرمل]

أنا في أَسْرِ السَّقام مِنْ هَوى هذا الغُلام
رَشَأٌ تَرْشُقُ عينا ه فُؤادي بسِهام[2]
كلَّما أَرْشَفني فا ه على حَرِّ الأُوام[3]
ذُقْتُ منه الشهد في الثلـ ـج المُصَفَّى في المُدام

قلت: ونبغ ابنه الأمجد أيضاً شاعراً، وكان السُّلْطان كثير الاعتماد على فَرُّخْشاه.

وفي بعض الكُتُبِ الفاضلية عن السُّلْطان إليه: وصل كتابه يتضمن خروجَ الفرنج، وما دبَّره من الأحوال، وأعدَّه من مكايد القتال، ولسنا نستبعد أن يدني اللَّهُ به كلَّ بعيد من المُرَاد، وأن يقلل بتدبيره تقلُّبَ الذين كفروا في البلاد، وأن

---

(١) المازني: هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عدي بن حبيب بن عثمان المازني البصري النحوي، قال فيه المبرد، وكان تلميذه: لم يكن أحد بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني. توفي سنة ٢٤٩هـ (كذا في كشف الظنون، وفي سير أعلام النبلاء: توفي سنة ٢٤٧هـ، أو ٢٤٨هـ). من تصانيفه: «تفسير كتاب سيبويه» في النحو، «الديباج على خليل من كتاب أبي عبيدة»، «علل النحو»، «كتاب الألف واللام»، «كتاب التصريف»، «كتاب العروض»، «كتاب القوافي»، «كتاب ما يلحن فيه العامة». (كشف الظنون ٥/ ٢٣٤، سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).
والأحنف: هو أبو بحر، الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، سيد تميم، اسمه الضحاك، وقيل: صخر، وشهر بالأحنف لحنف رجليه ـ وهو العوج والميل ـ يضرب به المثل في الحلم، أدرك النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر بن الخطاب، وولي خراسان، وكان صديقاً لمصعب بن الزبير، توفي سنة ٧٢هـ (كذا في الأعلام وجمهرة الأنساب، وفي سير أعلام النبلاء ووفيات الأعيان توفي سنة ٦٧هـ((انظر الأعلام ١/ ٢٧٦، جمهرة الأنساب ص٢٠٦، وفيات الأعيان ٢/ ٤٩٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٨٦ ـ ٩٧).
والفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس شاعر من النبلاء عظيم الأثر في اللغة، يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، توفي سنة ١١٠هـ (الأعلام ٨/ ٩٣).
(٢) الرشأ: الظبي إذا قوي وتحرك، ومشى مع أمه.
(٣) الأوام: العطش.

يُجري على يده أَوَّل النَّحل[١] الذي توعد به آخر صاد[٢]، وأن يصبَّ به على المشركين سَوْطَ عذاب إنَّ رَبَّك لبالمِرْصاد.

وقال العماد: وكان عِزُّ الدين فَرُّخْشاه من أهل الفضل ويَفْضُلُ على أهله، ويُغني الكرام عن الابتذال بكرم بَذْله. ومن أَخَصِّ خواصِّه، وذوي اصطفائه واستخلاصه، الصَّدْرُ الكبير العالم تاج الدين أبو اليُمْن الكِنْدي[٣]، أوحدُ عَصْره، ونسيجُ وحدِهِ، وقريع دَهْره، وعلَّامة زمانه، وحَسَّان إحسانه، ووزير دَسْته، ومشير وَقْته، وجليس أُنسه، ورفيق دَرْسه، وشُعاع شمسه، وحبيبُ نفسه.

ولي في هذا الملك قصائد، منها قصيدة هائية موسومة، مدحتهُ بها في أول سنة صَحِبْتُ فيها السُّلْطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاجُ الدِّين أبو اليُمْن بكلمةٍ بديعةٍ في وزنها وروِّيها وحُسْن زِيِّها، فأما كلمتي، فهي[٤]: [الكامل]

بَيْنٌ أَمَرَّ حلاوةَ العَيْشِ الشَّهِي ... وهوًى أحال غَضَارَةَ الزَّمَنِ البَهِي
وصَبابةٌ لا أستقلُّ بِشَرْحِها ... عن حَصْرِها حَصَرَ البليغ المِدْرَه
أأحِبَّتي إنْ غِبْتُ عنكمْ فالهوى ... دانٍ لقلبٍ بالغَرام مُوَلَّهِ
أُنْهي إليكُمْ أنَّ صَبْرِيَ مُنْتَهٍ ... بل مُنْتَهٍ والشَّوْقُ ليس بمُنْتَهِ
أما عُقُودُ مَدامعي فلقد وَهَتْ ... وأَبَتْ عُقُودُ الودِّ مِنِّيَ أَنْ تَهِي
ولقد دُهِيتُ بِبَيْنِكُمْ فاشْتَقْتُكُمْ ... يا مَنْ لمشتاقٍ بِبَيْنِكُمُ دُهِي
في شَوْقِكُمْ أَبَدَ الزَّمانِ تَفَكُّري ... وبِذِكْرِكُمْ عند الكِرام تَفَكُّهي
لَوْ قِيلَ لي ما تشتهي مِنْ هذه الدُّ (م) ... نيا لَقُلْتُ سِواكُمُ لا أَشْتَهي
ما كان أَرْفَهَ عيشتي وأَلَذَّها ... مَنْ ذا الذي يَبْقَى بِعَيْشٍ أَرْفَهِ
وَمِنَ السَّفَاهَةِ أَنَّني فَارَقْتُكُمْ ... من أينَ ذُو الحِلْم الذي لم يَسْفَهِ

---

(١) أوّل النحل: يشير إلى أوّل سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾.
(٢) آخر صاد: يشير إلى آخر سورة صاد، وهي قوله تعالى: ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾.
(٣) أبو اليمن الكندي: هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي البغدادي، تاج الدين أبو اليمن المقري النحوي، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦١٣هـ، من تصانيفه: «إتحاف الزائر وأطواف المقيم المسافر»، «حاشية على شرح ديوان المتنبي للوأواء الدمشقي»، «شرح خطب ابن نباتة»، «مشيخة على حروف المعجم»، «نتف اللحية من ابن دحية» وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٣٧٧).
(٤) انظر الأبيات في البرق الشامي ٥/ ٦١ ـ ٦٥، والقصيدة في البرق من ٨٣ بيتاً.

ومنها:

وعقاب أَيْلَة ما يفارِقُ جِلَّقاً أَحَدٌ إليها غَيْرُ غِرٌّ أَبْلَهِ
مالي ومصرَ وللمطامع إنَّما مَلَكَتْ قِيادي حَيْثُ لم أتنزَّه
لا تَنْهَنِي يا عاذِلي فأنا الذي تَبِعَ الهوى وأتى بما عنه نُهي
قد قُلْتُ للحادِي وقد نادَيْتُهُ في مَهْمَه أَقْصِرْ وَصَلْتَ مَهٍ مَهِ
حَتَّامَ جَذْبُك للزِّمام فَأَرْخِهِ فلقَدْ أَنَخْتَ إلى ذَرَى فَرُّخْشَهِ
متكرِّمٌ بالطَّبْعِ لا متكرِّهٌ شَتَّانَ بَيْنَ تكرُّم وتَكَرُّهِ
إحسانُ ذي مَجْدٍ وهِمَّةُ مُحْسنٍ مُجْدٍ وتقوى عابدٍ متألِّهِ

وهي ثلاثة وثمانون بيتاً، والقصيدة التَّاجية تسعةٌ وأربعون بيتاً، أولها[١]: [الكامل]

هل أنتَ راحمُ عَبْرَةٍ وتَولُّهِ وَمُجِيرُ صَبٍّ عند مَأْمَنِهِ دُهي
هَيْهاتَ يَرْحَمُ قاتلٌ مَقْتُولَه وسِنانه في القَلْب غيرُ مُنَهْنَهِ
مَنْ بَلَّ من داءِ الغَرام فإنني مُذْ حَلَّ بي مَرَضُ الهوى لم أَنْقَهِ
إني بُلِيتُ بحبِّ أغيدَ ساحرٍ بلحاظِهِ رَخْصِ البَنَان بَرَهْرَهِ
أبغي شِفَاءَ تَدلُّهي من دَلِّه ومتى يَرِقُّ مُدَلَّلٌ لِمُدَلَّهِ
يا مُفْرَداً بالحُسْن إنَّك مُنْتَهٍ فيه كما أنا في الصَّبابَةِ منتهي
قد لامَ فيك معاشِرٌ أَفَأَنْتَهي باللَّوْم عن حُبِّ الحياة وأَنْتَ هِيْ
أبكي لَدَيْهِ فإنْ أَحَسَّ بِلَوْعَةٍ وتَشَهُّقٍ أومأ بِطَرْفٍ مُقَهْقِهِ
أنا من محاسِنِه وحالي عنده حَيْرانُ بين تفكُّهٍ وتفكُّهِ
ضِدَّان قد جُمِعا بلفظٍ واحدٍ لي في هواه بمعنيينِ مُوَجَّهِ

قلت: يقال تفكهتُ بالشيء: أي تمتعت به، وتفكهت: أي تعجبت، ويقال: تندَّمت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] فهو في تفكُّهٍ: أي تمتُّعٍ بالمحاسن، وفي تعجُّبٍ من حاله وتندُّمٍ عليها.

ثم قال:

أنا عَبْدُ من شَهِدَ الزَّمانُ بِعَجْزِهِ عَنْ أَنْ يجيء له بندٍّ مُشْبِهِ
عَبدٌ لعِزِّ الدِّين ذي الشَّرَفِ الذي ذَلَّ الملوكُ لِعزِّه فَرُّخْشَهِ

---

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٥/٦٦ ـ ٦٩.

طابَتْ مواردُه فغصَّ فِناؤه ... وشدا الحُداة بِذِكْرِهِ في المَهْمَهِ[(١)]
يَفْديك كلُّ مُمَلَّكٍ متتايهٍ ... أبداً بألسنة الرَّعاع مُمَدَّه[(٢)]
لا يَفْقَه النَّجوى إذا حدَّثْتَهُ ... وإذا أتى بحديثه لم يُفْقَهِ

قلت: وذكر العماد في ديوانه أبياتاً حسنة في مدح الشَّيخ تاج الدين أبي اليُمْن، رحمهما الله: [الطويل]

تذاكَرَ مِنْ وَرَّادِ مِصْرَ عصابةٌ ... حديثَ فَتًى طاب النَّديُّ بِذِكْرِهِ[(٣)]
وقالوا رأينا فاضلاً ذا نَباهَةٍ ... أديباً يفوقُ الفاضِلِينَ بِفَخْرِهِ
يَدِينُ حبيبٌ والوليدُ لِنَظْمِهِ ... وَيَحْمَدُهُ عبدُ الحميد لِنَثْرِهِ[(٤)]
ولو عاش قُسٌّ في زمان بيانه ... لكان مُشيداً في البيان بِشُكْرِهِ[(٥)]
فضائِلُهُ كالشَّمْسِ نوراً ولم تَزَلْ ... مناقِبُهُ في الدَّهْرِ أعدادَ زَهْرِهِ
بَيَانٌ هُو السِّحْرُ الحلالُ وإنَّنا ... نَرَى مُعْجِزاً مِنْ فَضْلِهِ حَلَّ سِحْرِهِ
ذوو الفَضْلِ هُمْ عند الحقيقة أبْحُرٌ ... ولكنَّهم أضحوا جَدَاولَ بَحْرِهِ
يَضُوعُ مَهَبُّ الحَمْدِ من عَرْف عُرْفه ... وتَأْرَجُ أَرْجاءُ الرَّجاء بِنَشْرِهِ[(٦)]

(١) المهمه: المفازة والفلاة.
(٢) الممده: الممدح.
(٣) النديّ: مجتمع القوم وأهل المجلس.
(٤) حبيب: هو حبيب بن أوس بن الحارث، أبو تمام الطائي، شاعر وأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، وتوفي سنة ٢٣١هـ (الأعلام ٢/ ١٦٥).
والوليد: هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، شاعر كبير يقال لشعر: سلاسل الذهب، ولد بمنبج بين حلب والفرات، وتوفي فيها سنة ٢٨٤هـ (الأعلام ٨/ ١٢١، وفيات الأعيان ٢/ ١٧٥).
وعبد الحميد: هو عبد الحميد بن يحيى بن سعده مولى بني عامر، الكاتب البليغ المشهور، ضرب به المثل في البلاغة، حتى قيل: فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد، كان إماماً في الكتابة في كل فن من العلم والأدب، وهو من أهل الشام، وأول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، كان كاتب مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وقتل معه سنة ١٣٢هـ، بقرية يقال لها بوصير من أعمال الفيوم بالديار المصرية (الأعلام ٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠، وفيات الأعيان ٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣٢، سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).
(٥) قس: هو قس بن ساعدة الإيادي، أحد حكماء العرب في الجاهلية، ومن كبار خطبائهم، كان أسقف نجران (الأعلام ٥/ ١٩٦).
(٦) العَرْف، بفتح العين: الريح الطيبة، والعُرْف، بضم العين: المعروف والجود. وأرج الطيب: فاح. والنشر: الريح الطيبة.

فَقُلْتُ لهم هذا الذي تصفونَهُ أبو اليُمْن تاجُ الدِّين أَوْحَدُ عَصْرِهِ

قلت: وبلغني أَنَّ أول معرفةِ فَرُّخْشاه به أنه كان في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة، فجاء فَرُّخْشاه إلى الفاضل، فجرى ذِكْرُ بيتٍ من شِعْر أبي الطيب المتنبي[١]، فتكلَّم فيه تاج الدِّين بما يليق به، فأعجب فَرُّخْشاه، وسأل القاضي الفاضل عنه، فقال: هذا فلان. وعرَّفه بفضله، فلما قام فَرُّخْشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشَّيخ تاج الدين، وخرج به، ولزِمه إلى أن توفي، رحمهم الله أجمعين.

فَصْلٌ

في أَخْذِ السَّالكين البحرَ لقصد الحجاز

قال العماد[٢]: وفي شوَّال سنة ثمانٍ وسبعين كانت نُصْرة الأُسطول المتوجِّه إلى بحر القُلْزُم[٣]، والمقدَّم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ[٤]، لطلب الفرنج السَّالكين بَحْرَ الحجاز؛ وذلك أن الإبرنس صاحب الكَرَك لما صَعُبَ عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة أَيْلَة، وهي في وسط البحر، لا سبيل عليها لأهل الكُفْر، أفكر في أسباب احتياله، وفَتَحَ أبوابَ اغتياله، فبنى سُفُناً، ونقل أخشابها على الجمال إلى السَّاحل، ثم ركَّب المراكب، وشحنَها بالرِّجال وآلات القتال، ووقَّف منها مركبين على جزيرة القلعة، فمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عَيْذَاب، فقطعوا طريق التُّجَّار، وشرعوا في القتل والنهب والإسار، ثم توجَّهوا إلى أرض الحجاز، وتعذَّر على النَّاس وجه الاحتراز، فَعَظُمَ البلاء، وأعضل الدَّاء، وأَشْرَفَ أهل المدينة النَّبوية منهم على خَطَر، ووصل الخبر إلى مِصْر وبها العادل أخو السُّلْطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فَعَمَر في بحر القُلْزُم مراكب بالرِّجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النَّخوة للدِّين والحَمِيَّة، وسار إلى أَيْلَة، فظَفِرَ بالمركب الفرنجي عندها، فَخَرَق

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي أبو الطيب المتنبي، ولد سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٤هـ.

(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ٦٩ ـ ٧١. والكامل في التاريخ ١٠/ ١١٧ ـ ١١٨: ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب.

(٣) بحر القلزم: هو البحر الأحمر.

(٤) حسامَ الدين لؤلؤ الحاجب، أرمني الأصل من جملة أجناد مصر أيام الفاطميين، ثم انضم إلى صلاح الدين وأصبح مقدم الأسطول، وكان مقداماً شجاعاً، توفي سنة ٥٩٦هـ. (خطط المقريزي ٢/ ٨٥ ـ ٨٦، السلوك ١/ ٧٨ ـ ٧٩).

السفينة وأخذ جُنْدها، ثم عدَّى إلى عَيْذَاب، وشاهد بأهلها العذاب، ودُلَّ على مراكب العدوّ فتبعها، فوقع بها بعد أيام، فأَوْقَعَ بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التُّجَّار، ورَدَّ عليهم ما أخِذَ لهم، ثم صَعِدَ إلى البر، فوجد أَعراباً قد نزلوا منه شِعاباً، فركب خَيْلَهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطُّرق ضاربين، فحصرهم في شِعْب لا ماء فيه، فأَسَرهم بأَسْرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى مِنى كما يساق الهَدْي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتَبَ السُّلْطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا تبقى منهم عَيْنٌ تطرف، ولا أحد يَخْبُرُ طريق ذلك البحر أو يَعْرف.

قلت: ولأبي الحسن بن الذَّرَوي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعارٌ، منها: [الخفيف]

مَـرَّ يـومٌ مِـنَ الـزَّمـان عَـجـيـبُ ... كـاد يُـبْـدي فـيـه الـسُّـرورَ الـجـمـادُ
إذْ أتـى الـحـاجِـبُ الأَجـلُّ بـأسْـرى ... قَـرَنَـتْـهُـمْ فـي طـيِّـهـا الأَصْـفـادُ
بـجـمـالٍ كـأنَّـهُـنَّ جـبـالٌ ... وعُـلُـوجٍ كـأنَّـهُـمْ أَطْـوَادُ
قُـلْـتُ بـعـد الـتَّـكْـبـيـر لـمَّـا تَـبَـدَّى ... هـكـذا هـكـذا يـكـونُ الـجـهـادُ
حَـبَّـذا لـؤلـؤٌ يَـصِـيـدُ الأعـادي ... وسِـواهُ مـن الـلآلـي يُـصَـادُ

ومنها: [السريع]

قُـلْـتُ وقـد سـافَـرْتَ يـا مَـنْ غـدا ... جـهـادُه يَـعْـضُـدُ مِـنْ حَـجِّـهْ
إذ قـيـل سار الـحـاجِـبُ الـمُـرْتَـجـى ... فـي الـبَـحْـرِ يـا ربَّ الـسَّـمـا نَـجِّـهْ
الـبـحـرُ لا يَـغْـدُو عـلـى لُـؤْلُـؤٍ ... لأنَّـهُ كُـوِّن مـن لُـجِّـهْ

ومنها: [السريع]

يـا حـاجِـبَ الـمَـجْـدِ الـذي مـالُـهُ ... لـيـس عـلـيـه فـي الـنَّـدَى حَـجْـبَـهْ
ومـن دَعَـوه لـؤلـؤاً عـنـدمـا ... صـحَّـتْ مـن الـبـحـرِ لـه نِـسْـبَـهْ
لله مـا تَـعْـمَـلُ مِـنْ صـالـحٍ ... فـيـه ومـا تُـظْـهـر مـن حِـسْـبَـهْ
كَـفَـيْـتَ أَهْـلَ الـحَـرَمَـيْـنِ الـعِـدَى ... وذُدْتَ عـن أَحْـمَـدَ والـكَـعْـبَـهْ

ومنها: [الطويل]

لئن كُنْتَ مِنْ ذا البحر يا لؤلؤ العُلا ... نُـتِـجْـتَ فـإنَّ الـجُـوْدَ فـيـك وفـيـهِ
وإن لـم تـكـن مـنـه لأَجْـلِ مَـذَاقِـهِ ... فـإنَّـك مـن بـحـر الـسَّـمـاحِ أخـيـهِ

ومنها: [الخفيف]

إنـمـا أنـت لـؤلـؤٌ لـلـمـعـالـي ... جـاءَ مـن أَبْـحُـرِ الـسَّـمـاح الـعـذاب

وكتب السُّلْطان إلى العادل من كلام الفاضل: وصل كتابه المؤرَّخ بخامس ذي القَعْدَة المُسْفِر عن المسفر من الأخبار، المتبسم عن المتبسِّم من الآثار، وهي نِعْمةٌ تضمَّنت نِعَماً، ونُصْرة جعلت الحرم حرماً، وكفايةٌ ما كان الله ليؤخِّر معجزة نبيِّه ﷺ بتأخيرها، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تحدَّث عن تسييرها وتسخيرها، وما كان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سَهْماً أصاب وَحُمِدَ مُسَدِّده، وسَيْفاً قَطَعَ وشُكِرَ مجرِّده، ورسولاً عليه البلاغ وإن لم يُجْهل ما أَثَّرَتْهُ يَدُه، وقد غَبَطْناه بأَجْر جهاده ونُجْح اجتهاده. رَكِبَ السَّبيلين برّاً وبحراً، وامتطى السَّابقين مركباً وظَهْراً، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنْجح الغزو، وحَبَّذا العِنان الذي في هذه الغزوة أُطْلق، والمال الذي في هذه الكرَّة أُنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عَوْرة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القِبْلة وتطوَّفوها، ولو جرى في ذلك سبب ـ والعياذ بالله ـ لضاقت الأعذار إلى الله والخَلْق، وانطلقت الألْسُن بالمَذمَّة في الغَرْب والشَّرْق، ولا بدَّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مُخْبِرٌ يدلُّ الكُفَّار على عَوْرات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المَنَال الجليل، وهذا مَقَامٌ، إن روعي فيه حراسة الظَّاهر، والوفاء للكافر، حَدَث الفَتْقُ الذي لا يُمْكِن في كلِّ الأوقاتِ سَدُّه ورَتْقُه، ولُدِغَ المؤمن مرَّتين والأُولى تكفي لمن له في النَّظَر تفقُّه.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل أيضاً: ونحن نُهنِّئ المجلس السَّامي بظفره، ولم لا يكمله وبنَصْره، ولم لا يعجله ويشكره؟ وليس في قَتْلِ هؤلاء الكُفَّار مُرَاجعة، وللشَّرْعِ في إبقائهم فُسْحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التَّغاضي عنهم عِند الله عُذْرٌ مقبول، ولا حُكْم اللَّهِ في أمثالهم عند أهل العلم بمشكلٍ ولا مجهول، فليمضِ العَزْمُ في قتلهم ليتناهى أمثالُهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ما طُرِقَ الإسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل: قد تكرَّر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تَذَر على الأرض من الكافرين ديَّاراً، ولا توردهم بعد ماء البحر إلا ناراً، فأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجِّلِ الرَّاحة منهم وعَدَتِ العاقبةُ بالأشقِّ الأتعب.

ومن كتابٍ آخر إلى بغداد: وسارتِ المراكبُ الإسلامية طالبةً شوكة المراكب الحربيَّة المتعرِّضة للمراكب الحجازية واليمنية. وكانت مراكبُ العدو قد أوغلت في البحر، وَدَلَّها على عورات الساحلين من العربِ مَنْ أشبه ركَّابها في الكُفْر، فوصلت إلى عَيْذَاب، فلم تنل منها مُراداً، غير أنَّ ما وجدته في طريقها أو في

فُرْضَة(١) عَيْذَاب نالتْ منه، وشعثت وأفسدت فيه، وعَثَتْ وتمادت في السَّاحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحَوْراء، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأوقعوا بها أشدَّ إيقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البِدار والإسراع، وفرَّ فرنجها إلى السَّاحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العُربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شِعابٍ وجبالٍ اعتصموا بها وقصدوها، ولحُفي المسلمون أشدَّ فسادٍ في أرضهم، وأقطع قاطعٍ لفَرْضهم، وانبسطت أمالُهم بقبضهم، وعَمِيَتْ على الكُفَّار هذه الطريق التي لو كُشِفَ لهم غطاؤها قِذماً، ولو أحاطوا بها عِلْماً، لاشتطَّت نكايتهم، واشتدَّت جنايتهم، وعَزَّ على قدماء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران، ويطفؤوا هذه النِّيران، ويركبوا غوارب اللُّجَج(٢)، ويُرْخِصوا غوالي المُهَج، ويقتنصوا هذا الطَّائر من جوِّه الذي لا يُدرك لُوحُه ويُدْركوا هذا العدوَّ الذي لا يُدْرَكُ إلا أن يُنْجَدَ عليه ملائِكَةُ الله ورُوحهُ(٣).

وفي كتابٍ آخر إلى بغداد(٤): كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نُكْراً، وافتضُّوا من البحر بِكْراً، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدَّت مخافةُ أهل تلك الجوانب بل أهل القِبْلَة لما أَوْمَضَ إليهم من خَلَلِ العواقب، وما ظنَّ المسلمون إلا أنها السَّاعة، وقد نُشِرَ مطويُّ أشراطها، والدُّنيا قد طُوي منشورُ بساطها، وانْتُظِرَ غَضَبُ الله لفناء بيته المُحرَّم، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم ﷺ، ورجوا أن تَشْحَذَ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت، إذ قصده أصحابُ الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حَسْبَهم ونِعْمَ الوكيل.

وكان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة أَيْلَة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوِرُه بلادُهم من ساحله، وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أَيْلَة، فإنَّه قَدَّرَ أن يمنعَ أهلَها من مَوْرِدِ الماء الذي به قِوام الحياة، ويقاتِلُهم بنار العَطَش المَشْبُوبِ الشَّبَاة، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقدَّر أن يمنع طريقَ الحاجّ عن حَجِّه، ويحول بينه وبين فَجِّه، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن، ويلمَّ بسواحل الحجاز، فيستبيحَ ـ والعياذ بالله ـ المحارم، ويَهِيجَ جزيرة العرب بعظيمةٍ دونها العظائم.

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عَمَّر مراكب، وفَرَّقها على الفريقين، وأمرها

(١) الفرضة: محط السفن.
(٢) غوارب اللجج: أي أعالي الموج.
(٣) انظر البرق الشامي ٥/ ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) انظر البرق الشامي ٥/ ٧٣ ـ ٧٤.

بأن تطوي وراءهم الشقتين. فأما السَّائرة إلى قلعة أَيْلَة، فإنها انقضَّتْ على مُرَابطي الماء انقضاضَ الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قَذْفَ شُهُبِ السَّماء مسترقي سَمْعَ الظَّلْماء، فأخذت مراكب العدوِّ برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا من تعلَّق بهضبةٍ وما كاد، أو دخل في شِعْبٍ وما عاد، فإنَّ العُرْبان اقتصُّوا آثارهم والتزموا إحضارهم، فلم يَنْجُ منهم إلا من ينهى عن المُعَاودة، ومن قد عَلِمَ أَنَّ أمر السَّاعة واحدة.

وأما السائرة إلى بحر الحجاز، فتمادَتْ في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحَوْراء، فأخذت تُجَّاراً، وأخافت رفاقاً، ودلَّها على عَوْرات البلاد مِنَ الأعراب مَنْ هو أشدُّ كُفْراً ونفاقاً، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأُخذت المراكب بأسرها، وفَرَّ فرنجها بعد إسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب أصحابُنا وراءهم خيل العرب، يَشُلُّونهم شَلاً ويقتنصونهم أَسْراً وقَتْلاً، وما زالوا يتبعونَهم خمسةَ أيام خيلاً ورَجْلاً، ونهاراً وليلاً، حتى لم يَتْركوا عنهم مُخبراً، ولم يُبْقوا لهم أثراً ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] وقُيِّدَ منهم إلى مِصر مائة وسبعون أسيراً[١].

ومن كتاب آخر: ومن جُمْلة البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرةً ثانية كاسراً كاسباً، غانماً غالباً بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ما وجده فيها من الأعمال والعمائر، ومن جملة ما ظَفِرَ به في طريقه بَطْسة من مراكب الفرنج تحمل أخشاباً منجورة إلى عكا، ومعها نَجَّارون ليبنوا منها شواني، فأُسر النَّجَّارون ومن معهم، وهم نيِّفٌ وسبعون. وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكُفي شَرَّها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى إفريقية فُتُوحُه، وعاوَدَ به شخصُ الدِّين في تلك البلاد روحُه.

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة
[إنعام السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم]

قال العماد[٢]: وفي هذه السنة ـ وهي سنةُ ثمانٍ وسبعين ـ أَنْعَمَ السُّلْطان

(١) في البرق الشامي: أسراً.
(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ٧٧ ـ ٧٨: ذكر ما أنعم السلطان على ابن قرا أرسلان وشرح مقدمات ذلك.

على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جاريةً في عمل المَوْصل، فلما تسلَّمها جعلها من نصيبه. وقد كان الملك العادل نور الدين محمود ابن زَنْكي ـ رحمه الله ـ حين توجَّه إلى الموصل في أوائل سنة ستٍّ وستين عند وفاة أخيه مودود، وَعَدَ ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم سلَّمها إليه دون أعمالها تَحِلَّةً ليمينه، ووفاءً بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصَّه السُّلْطانُ عاجلاً بهذا الإنعام، ثم وهب له قلعة الجُدَيدة؛ وهي قريبة من نَصِيبين، ووعده بفتح آمِد له، فَوفَى بوعده كما سيأتي.

قال[1]: وكان شاه أرمن صاحب خِلاط ظهير الدين سكمان، وهو خال صاحب مارِدِين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش، وصاحبُ مارِدِين هذا هو ابن خال صاحب المَوْصِل عز الدين مسعود بن مودود بن زَنْكي، فنفَّذ شاه أرمن يشفع إلى السُّلْطان في المَوْصِل وسِنْجار ـ وهو على سِنْجار ـ وأرسل إليه سيف الدين بَكْتَمُر، وهو من أعز أصحابه عليه، فلم يسمع السلطان شفاعته، فاجتمع هو وصاحب مارِدِين وصاحب المَوْصِل وصاحب أَرْزَن وبَدْلِيس وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعاً، وعزموا على لقاء السُّلْطان، ونزلوا ضيعةً من أعمال ماردين يقال لها حَرْزَم، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حَرَّان في خمس ليالٍ، فساروا إليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين، وسمعوا بمجيئه، تفرَّقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خِلاطه باختلاطه، ورجع المَوْصلي إلى مَوْصِله لمواصلة احتياطه، واعتصم الماردي بحصنه المارد، وهتكوا حرز حَرْزَم للصَّادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها، ونحن على طريقه، فآذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم إلى الموصل، فعبر الفرات عند عانة، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النِّساء وقد جاؤوا وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحَرْزَم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السُّلْطان.

[نزول قراقوش على بلد زالوت]

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة نزل قَراقوش على بلد زالوت، وقاتله إلى أن انهزم منه أَهْلُه، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشِّتاء، فأصبح يوماً فإذا حول المدينة عَسْكر مقدارُه خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد أصحابه، فلم يجد إلا

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ٨٠ ـ ٨٣.

جماعةً من البَوَّابين والركابدارية[١]، وباقي النَّاس سُكَارى، ورأى أحد البوقيَّة، فأمره أن يضرب بالبوق، وفتح البابَ وخرج، فظنَّ العسكر أنَّ قراقوش وعسكره قد شعروا بهم، فانهزموا.

قال: ثم إنَّه قصد طَرَابُلُس، فحاصرها، وضيَّق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان، وسأله أن ينفِّذ إليه قوماً يقرِّر معهم أمر التَّسْليم. فأنفذ إليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد، وأنزلهم في دارٍ أخلاها لهم، وأمر لهم بجميع ما يحتاجون إليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخادَّ وتصافعوا بها حتى قطعوها، وقام بعضهم إلى صهريجٍ مملوءٍ ماءً للشُّرْب، فأحدَثَ فيه، فأَخبرتِ الرُّقَباءُ عبدَ المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد، وقصَّ عليهم ما كان منهم، وقال: إذا كان هؤلاء خيارهم، فما ظنكم بشرارهم؟! وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذٍ. وحضر ابنُ مطروح من الغد إليهم إلى الدار ومعه وجوه البلد، فقال لصاحب ضيافته: لِمَ أحضرتَ لهؤلاء السَّادة مخادَّ مقطَّعة؟ فقال: ما أحضرتُ لهم إلا مخادَّ جُدُداً، ولكن القوم أكلوا طعام الصُّوفية الذي لا نعرفه في بلادنا. فاستحيا القوم، وعلموا أنهم قد فطنوا بحالهم، ونزل رجلٌ إلى الصِّهْريج فرأى العَذِرَة على وجه الماء، فقال: من فعل هذا؟ فلم يردَّ واحدٌ منهم جواباً، فقال ابن مطروح: يا قوم، ما أدخلناكم إلينا إلا عازمين على تسليم البلد إليكم، وأن نكون لكم رعايا، وقد شاهدنا منكم أفعالاً ما نرضاها، فإن قلتم إن هذه الفعلة من غِلْماننا وعبيدنا، فما أقبح هذه الأُحدوثة عن خيار أصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خيرٌ منكم، فَلِمَ بعثكم إلينا؟ هذا طعنٌ في عقله. ثم أمر بإخراجهم، فأُخرجوا من المدينة، فلما صاروا إلى قراقوش، وعَلِمَ القِصَّة عَظُمَ عليه الأمر، وأراد الفتك بهم، وعلم أنهم قد فتقوا عليه فَتْقاً لا يمكنه رَتْقُه أبداً، وتيقَّن أنه لا يملك البلد أبداً. وأنفذ عبد المجيد إلى قَرَاقُوش: إنك لست بقادرٍ على أخذ هذا البلد، لأجل ما نفَّر به أصحابك قُلُوبَ أهله، فإن رأيت أن نجعل لك جُعالة[٢] نحملها إليك في كلِّ سنة، وترحل عنا، فعلنا. فأجاب إلى ذلك، ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم.

---

(١) الرِّكاب داريّة: لفظ: «دار»، فارسي ومعناه الصاحب أو القيم، والركاب دارية هو صاحب الركاب (صبح الأعشى ٤/ ٦).

(٢) الجعالة: ما جعله له على عمله، وهو أعم من الأجر والثواب.

قال: وتوافت إليه الفُرْسان من مصر حتى صار في ثمانمائة فارس من الأتراك، وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الرُّوم وغيره من المواضع والقلاع، فهجم وَنَهَب وغنم وغلب، وخافه أهلُ تلك النَّواحي.

فصل

في فتح آمِد[1]

قال العماد: ثم سار السلطانُ إلى آمِدِ، ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحِجَّة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك، فأذِنَ له، فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: والسُّلْطان منازل لآمد، واشتدَّ قتال العامة بها، فأمر السلطان بكَتْبِ رقاع فيها إِبْراقٌ وإرعاد، ووعد وإيعاد، إن داموا على القتال ليستأصِلَنَّ شأفتهم، وإن اعتزلوا وسَلَّموا البلد ليحسنَنَّ إليهم، وليضعن ما عليهم من الكُلَف والضَّرائب. وأمر أن تعلَّق تلك الرِّقاع على السِّهام، وتُرْمى إلى آمِد، فَرُمِيَ من ذلك شيءٌ كثير، فكفُّوا عن القِتال، وأشاروا على ابن تيسان[2] بطلب الأمان، فأُومِنَ على أن يخرجَ بجميع أمواله دون الذَّخائر والسِّلاح، وأُمهل ثلاثة أيام، فلما عوَّل على نقل أمواله قعد به أصحابُه، فأرسل إلى السُّلْطان، فأنفذ إليه غِلْماناً ودوابَّ، وضُربت له خيمةٌ بظاهر آمِد، وجعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقُماش وآلات الذَّهب والفِضَّة مدة ثلاثة أيام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاثمائة إنسان، ولم ينقل عُشْر ما كان له، وسُرِقَ من أمواله أكثر مما حَصَلَ له، لأنه ما أَخْرج أحدٌ شيئاً إلا وأخذ نِصْفه أو أكثر.

وكان ابن تيسان[3] قد حصَّل في آمد أشياء كثيرة لا يمكن وَصْفُها من الأسلحة والأموال والغِلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ما حصل، وسار

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١١٩ ـ ١٢٠: ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها إلى صاحب الحصن. وانظر البرق الشامي ٥/ ٨٤ ـ ٩٦: ذكر المسير إلى آمد والنزول عليها وفتحها وتيسير المقاصد وأسباب نجحها، وكان النزول عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة وفتحها يوم الأحد في العشر الأول من المحرم.

(٢) ابن تيسان: كذا بالأصل، وفي «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١١٩: بهاء الدين بن نيسان، بالنون.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

قاصداً بلاد الرُّوم، وتسلَّم السُّلْطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصب أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر محرَّم، ووجد فيها من الغِلال والسِّلاح وآلات الحصار من المناجيق[(١)] واللعب والعَرَّادات[(٢)] أشياء كثيرة لا يمكن أن توجد في بلدٍ مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مائة ألف شمعة، وبرج مملوء نصول النُّشَّاب، وأشياء يطول شَرْحُها. وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السُّلْطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمَّازة[(٣)]، ويقال: إن ابن قرا أرسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدَّة سبع سنين حتى امتلأت الأرضُ من ذخائرها. وكان السلطان لما تسلَّم آمِد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار. فقال: لا أضنُّ عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمِد يقول سعيد الحلبي[(٤)] من قصيدةٍ في السُّلْطان: [الطويل]

رمى آمِداً بالصَّافنات فأذْعَنَتْ ... له طاعةً آكامُها ووعورُها
فما عَزَّ ناديها ولا اعتاصَ ثَغْرُها ... ولا جاشَ طاميها ولا ردَّ سورُها[(٥)]
وأَنْزَلْتَ بالكُرهِ ابنَ نَيْسان مُحْرَجاً ... كما أَنْزَلَ الزَّبَّاءَ كَرْهاً قَصِيرُها
نَهَدْتَ لها حتى إذا انقادَ صَعْبُها ... وقَرَّ على طول الشَّماس نفورُها
سَمَحْتَ بها جُوداً لمن ظلَّ بُرْهَة ... يغاورها طَوْراً وطوراً يغيرُها
وَمَلَّكْتَ ما مُلِّكْتَ منها تخولاً ... وكان قليلاً في نَدَاكَ كثيرُها

(١) المناجيق: جمع منجنيق، تقدّم التعريف به.

(٢) العرادات: واحدتها عرّادة، وهي من آلات الحرب، أصغر من المنجنيق، ترمي بالحجارة المرمى البعيد (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٤٢).

(٣) جمّازة: قال في القاموس المحيط «جمز»: جمز الإنسانُ والبعيرُ يجمز جمزاً وجَمَزى: وهو عدو دون الحضر وفوق العنق. وبعير جمّاز، وناقة جمّازة، وحمار جمّازٌ: وثّاب. والجمّازة: دُرَّاعة من صوف.
وفي المعجم الوسيط: الجمّازة: مركب سريع يتخذه الناس في المدن.

(٤) سعيد الحلبي: هو سعيد بن محمد الحريري، الحلبي، قدم مصر أثناء الدولة الناصرية الصلاحية («خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١٥٣/٢ ـ ١٥٤).

(٥) اعتاص: عاص الأمرُ عوصاً: التوى فخفي وصعب. وعاص الكلام: خفي معناه وصعب فهمه. واعتاص عليه الأمر: عاص.

وإن بـلاداً تَـجْـتَـدِيـك مـلـوكُـهـا لأَجْـدَرُ أن يَـرْجُـو نَـدَاك فـقـيـرُهـا(١)

وقال ابن سَعْدان الحلبي يذكر فتح آمد، يقول: [الطويل]

فـيا سـاكـني الرَّعْـنـاء مـن سَـفْـحِ آمـدٍ أرى عـارِضـاً يـنـهـلُّ بـالـموتِ هـاطِـلُـهْ(٢)
لـئن غَـضِـبَـتْ يـومـاً عـلـيـكُـمْ عـروشـهـا فـهـذا ابـنُ أيـوبٍ وهـذي مـعـاقِـلُـهْ
ولـو رامـهـا يَـوْمـاً سـواه لـقُـطِّـعَـتْ أبـاهِـرُهُ مـن دُونـهـا وأبـاجِـلُـهْ(٣)

قلت: وقال آخر: [السريع]

لـو عُـرِّفَـتْ آمِـدُ مَـنْ جَـاءهـا يَـخْـطُـبُ فـي الإِسـلامِ تَـسْـلِـيـمَـهـا
لَـصَـيَّـرَتْ أعـلـى شـراريـفـهـا لِـمَـنْ عـلـى الأَرْضِ سـلالِـيـمَـهـا

قال العماد: وأما آمد فَحَصَلَ فَتْحُها يوم الأحد في العَشْر الأول من المحرَّم، وكان مدبِّر آمد ابن تَيْسان(٤)، فهو رئيسها والقائم بأمرها، وكان لآمد أميرٌ قديم يقال له إيكلدي من أيام السَّلاطين القدماء، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه، ويدَّعي أنه من غِلْمانه ومصطنعيه، وأنه يحفَظُ البلد له، وأنه لا يغدر به ولا يُؤْثر بَدَلَه، وإذا جاء رسولٌ يحضره عند أميره، ويسند ما يدبِّره إلى تدبيره، ويقول: إنه غلام وما معه كلام. وحافظ على سر هذه السَّريرة، وأمن باحتياطه من جَوْر الجيرة، بل ما منهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عُرْفه ويعرف نُكْره.

ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد، وخرجت نساؤهم سَحَراً إلى المخيَّم الفاضلي يطلبن الأمان، فأمَّنهم السُّلْطان على أنهم يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ما قدروا عليه من المال والأثاث، وأعانهم السُّلْطان على نَقْلِ الأموال بالدَّوابِّ والرِّجال. فلما انقضت مدَّة الأمان تسلَّمها السلطان، وسلَّمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان وأعمالها وما فيها. وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها.

ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد من الذَّخائر والأموال والحواصل

---

(١) تجتديك: أي تسألك العطية.

(٢) الرعناء: أنف، الجبل المتقدم.

(٣) الأباهر: جمع الأبهر: وهو الظهر وعرق فيه، ووريد العنق، والأكحل. وأباجل: جمع أبجل، وهو عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل فيما بين العصب والعظم.

(٤) ابن تيسان: تصحيف والصحيح ابن نيسان، كما في «الكامل في التاريخ» والبرق الشامي.

والأمتعة، وأن أصحابها لم يقدروا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ما خفَّ منها، واستغنى المساعدون لهم في تحويلها إليهم.

وكتب الفاضل عن السُّلْطان إلى الديوان ببغداد[١]: وَرَدَ إلى الخادم التقليد الشَّريف بولاية آمِد، فلما رآه مستقرّاً عنده قال: هذا مفْتاحها. وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد وقال: هذا مِصْباحها. وتناوله فما ظنَّه إلا كتاباً أُنزل عليه من السَّماء في قِرْطاس، وما تيقَّنه إلا نوراً يمشي به في النَّاس، فسار به ولولا العادة ما استصحب جُنْدياً وعوَّل عليه، ولولا الرتبة ما تقلَّد هندياً وطرق بابه بإقليده، ولولاه ما اسطاع الأولياء أن يَظْهَروه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث رسائل، فلو كان ذا سَمْع أَصْغى، ولو كان ذا لُبٍّ لَبَّى. فلما انقضت ضيافة أيام النِّذارة، واحتقر مَنْ بآمد نَارَ الحَرْبِ جاهلاً أن ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، عَمَدَ لها في اليوم الرَّابع فزلزل عُمُدَها، وقاتلها فأزال جِلْدها وزَيَّل جَلْمَدَها، ثم رأى أن الشَّوْكة ربما أصابت غير ذات الشَّوْكة[٢] من جُنْدها، وأن المُسْلم قد آمنه الله من عذاب الحريق، ولا يأمن أن تحرقه القِسِيُّ من السِّهام بشَرار زَنْدها، فعدَلَ إلى منجنيقه، الذي أمَّل صاحبُها[٣] منه منجى نِيقِهِ[٤]، ورأى أنه سَوْطُ سَطْوته، يَضْرِبُ الحَجَر، ويُضْرِبُ عن أن يُباشر البَشَر، وتلك الأبرجة قد شَمَخَتْ بأنفها، ونأت بعِطْفها، وتاهت على وامقها[٥]، وغَضَّتْ عينَ رامقها، فهي في عقاب لُوح الجو كالطَّائر، إلا أن المنجنيق أغرى بها عُقابيه، وَضَغَّمَها[٦] بمخلبيه، وجثَم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحَجَر، فتنبجس من النُّقوب أعينٌ لا ترسلِ الماء[٧]، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظُّماء كذلك أياماً حتى محا من الشُّرفات شَنَبَ ثَغْرها، وتناوبها كَأْسُ فَتْكٍ تبين بهزِّ أبراجها آثارُ سُكْرها، وعَلَتِ الأيدي الرَّامية لها، وغُلَّت الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها مَنْ يفتح جَفْناً، وشنَّ

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٠٠ ـ ١٠٢: الكتاب بفتح آمد من الإنشاء الكريم الفاضلي إلى الديوان العزيز في محرم سنة تسع وسبعين ووصف التقليد الإمامي بولاية آمد.

(٢) في البرق الشامي: غير ذي الشكة.

(٣) في البرق الشامي: أمّل صاحبه.

(٤) النيق: أعلى موضع في الجبل.

(٥) وامقها: أي محبها.

(٦) الضغم: العض الشديد.

(٧) يشير إلى قوله تعالى: **﴿أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشر عيناً﴾** [الأعراف: ١٦٠].

المنجنيق عليها غارَتَه إلى أن صارت شَنّاً، وفُضَّتْ صناديقُ الحجارة المُقْفَلة، وفُصِّلت منها أعضاء السُّور المتَّصلة، ووجب القتال لئلا يُظَنَّ بالخادم ألا جُندَ له إلا جَنْدَلَه، فأوعز بالتقدُّم إليها، ودخول النَّقَابين فيها، فأُثخنت جراحاً بالنُّقوب، وهُتِكَ الحجابُ من أضالع البلد، فكاد يوصل إلى ما وراءها من القلوب، وخُشيت معرَّة الجيش في وقت هَجْمه، وَرُوسِل صاحبها بأنه كشف له الخِذْلان حتى نصر على شَكِّه بعِلْمه، فأعادَ الرسول مستنكفاً تحجب[1] النَّجاة بإرسال ذوات الحجاب وإبرازهن، ومستكفاً ليد القتل بمن لم يكن جوابُه غير إحرازه وإحرازهن، ولم يُعارَضْ في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله وهي ما هي؛ ذخائر موفَّرة، ومكاسب من أرباحٍ مخسَّرة، كانت الحقوق عنها مذودة، والآمال دونها مطرودة. وغَضَّ الخادم كُلَّ عين عن عَيْنه وَوَرِقِه، وصانَه في مخيَّمه من الفقر صيانته في ذات سُوره وخَنْدَقِه، واستوفى شَرْطَ الوفاء بما أعطاه من مَوْثِقه.

وهذه آمِد فهي مدينةٌ ذِكْرُها بين العالم مُتَعالم، وطالما صادَمَ جانبها من تقادم، فرجع مجذوعاً[2] أنفه وإن كان فَحْلاً، وقَرَعها فريدُ الهِمَّة واستصحب حَفْلاً، ورأى حَجَرها فقدَّر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فحسب أنه لا ينسخه فَجْر، وحمِيَّةَ أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لِزَجْر، من ملوك كلهم طوى صَدْرَه على الغليل إلى موردها، ووقفَ بها وقوف المُحِبِّ المسائل فلم يَفُزْ بما أَمَّلَ من جواب معهدها.

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أرسلان، ثم قال[3]: ولما رأى صاحب مَيَّافارقين أن أُخت صاحبته قد ابْتُني بها، خاف أن يُجمع له بين الأختين، فراسل ببذل الخِدْمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين.

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب مارِدِين وصاحب أَرْزن وبَدْلِيس، وغيرهم على قَصْدِ الخادم، ونزلوا تحت الجَبَل، فلما صحَّ عندهم قصدُه، ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، فأخذوا أعِنَّة الفرار بقوة، وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مَخُوفة وعنده مرجوَّة، وسار كلُّ فريقٍ على طريق، بِنِيَّةِ عدوٍّ وفِعْلِ صديق، والخادم يقول مهما أرادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نَوَتْ فيه من إحسانٍ قَرُبَ عليه ما نواه، فهذه آمِد لما أُرسل إليه مِفْتاحُها وهو التَّقليد فَتَحها،

---

(١) في البرق الشامي: مستكشفاً بحجب.

(٢) في البرق الشامي: مقدوعاً.

(٣) انظر البرق الشامي ٥/ ١٠٢.

وهذه المَوْصل لما تأخر عنه المِفْتاحُ مُنِعَها وما مُنحها، ولو أُعين به لَعَظُمَتْ على الإسلام عائدته، وظهرت في رفع مناره فائدته، لأنَّ اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهِمَّة لآلات النَّصْر واجدة. فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يميِّزَ بين أوليائه، ويَنْظُرَ أَيُّهم أبَرُّ بأوليائه، وأشَدُّ على أعدائه، وأقومُ بحقِّه وحق آبائه، وأثبتُ رأياً ورويَّةً في مواقف راياته، ومجالس آرائه، وأعظمُ إقداماً على ملحدين كلّهم كان يُنازعه رداءَ علائه، وكان السَّابقُ من ولاة الدولة العَبَّاسية قاصر السَّيف عن أن نسيغ الغُصَّة بمائه، وأَيُّهم أتركُ للفراش الممهَّد، وأهتكُ للطريق الممدَّد، وأهجرُ في سبيل الله لراحِهِ، وأصبرُ في جهاد عدو الله على مضض جراحِه، وأسْلَى عن ريحانة فؤاده، وأكثر ممارسةً لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي جعله اللّهُ لها إماماً وأميراً، أسعدَ من أَجْرى في طاعته ضامراً وملأ بولائه ضميراً، فمن عَدْله أن يُولي عليها العَدْلَ الذي يقرُّ عَيْنها، ومن فَضْله أن لا ينسى الفَضْل بينها.

وقد ورد ذلك المنشور بآمِد فأورد الميسور، بأن وردَه المنشور المُشَار إليه بالجزيرة وما وسَقَت، فإنه نورٌ على نور، وما يحسبُ الخادمُ أن كيداً للعدوِّ الكافر أَكْيَد، ولا جهداً لأهل الضَّلال أَجْهد، ولا عائدةً بغيظِ رؤساء أهل الإلحاد أَعْود، من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، وإلا فلينظر، هل يشقُّ على الكُفَّار مزيدُ أحدٍ سواه من وُلاة الإسلام، فكلُّ ذي سُلْطان هو الطَّاعم الكاسي، المَحْمِيُّ بالمناصل لا الحامي، المَكْفِي لا الكافي، يقضي عُمُرَه وهو لا يشهدُ الطَّعْنَ إلا في المَيْدَان، ولا يتمثَّل الهامَ طائراً لولا الكُرة في الصَّوْلجان، ولا يَشْقى بسهمه إلا قِرْطاسُه، ولا يحظى برفْده إلا أكياسُه، فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدِّين إلى معالم حقِّه الأُولى، وأطال يد سُلْطانه الطُّولى، إلى أن تأخذ الأمور مآخذها عَدْلاً واعتدالاً، وسِلْماً وقتالاً، فتعود إلى الإسلام عوائدُ ارتياحه، وأيامُ منصوره وسَفَّاحه.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى وزير بغداد: أَصْدَرَ هذه الوسيلة إلى المجلس السَّامي، معوِّلاً على كرمه فيما حَمَلْتُهُ من اللُّبانة، مستغنياً بشهرة الحال المتجدِّدة عن الإبانة، فإن آمد قَصُرَ الأَمَدُ في الظَّفر بها، وإنقاذها من المظالم التي تُلْبِسُ نهارها نُقْبَةَ غَيْهبها، وسار إليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشَّام، وأقاموا قبالة الكُفَّار، بعدَّة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الدِّيار المصرية على بُعْد تلك الدِّيار، لِيَظْهرَ لمن نوى المناواة، ويتبيَّن لمن كان على منافاة الملاقاة، وأنَّ رجالاً من مِصْر فتحوا آمِد بعد سنة من البَيْكار[١]، وبعد غزوتين قد طولع بهما في

(١) البيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٧٠).

تواريخهما إلى الكُفَّار، ففي ذلك ما يَغُصُّ الحاسد، ويَغُضُّ الحاقد، ويعلم أن في أولياء الدولة ما رَدَّ كُلَّ مارد. فلما حَلَّ بعَقْوتها[١] أراد أن يُجري الأمر على صوابه، ويَلِجَ الأمرَ من بابه، وأن يُنْذِرَ المُغْتَرَّ ويوقِظَه، ويَعِظَهُ بالقَوْل الذي رأى من الرِّفْق ألا يُغْلِظَه، فبعث إليه أن يَهُبَّ من كَرَاه، ويُعِدَّ لضيف التقليد قِراه، وينجو بنفسه منجى الذُّباب، ولا يتعرَّض لأن يكون منتجًى للذُّباب، فإذا عريكته لا تلين إلا بالعِراك، وطريدته لا تُصاد إلا بالأَشْراك، فَهُناك رأى عاجلاً ما هُناك، وقوتل حقَّ القتال في يوم واحد، عرف ما بعده من الأيام، ووقع الإشفاق من رَوْعةِ الحريم وسَفْك الحرام، ونصب المنجنيقات، فأرسل عارضُها مطرَه، وفَطَرَ السُّورَ بقدرة الذي فَطَره، وخَطَبَ أمامها خطيبُ خَطْبه، وأغمد الصَّارم اكتفاءً بضَرْبِه، وترَفَّه أهلُ الحرب لِحُسْنِ المناب منه عن حَرْبه، فصار في أقرب الأوقات جبلُها كثيباً مهيلاً، وعُفِّرتِ الأَبرِجة وجهاً تَرِباً، ونظرت القلعة نظراً كليلاً، حتى إذا أمكنت النُّقوبُ أن تُؤْخَذ، وكبد السُّور أن تُفْلَذ، رأى الذي لا يصبر على بعضه، واعتذر إليه البِنَاءُ الذي بناءُ الأمر إن لم يَقْضه، فلا بُدَّ من نَقْضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نَفْسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظُّلْم، وسَلِمَ وهو يرى السَّلامة إما من الحُلُم وإما من الحِلْم.

ثم قال: ولولا تقليدُ أمير المؤمنين لما فُتحَ له البابُ الذي قَرَعه، ولا أُنزل عليه النَّصْرُ الذي أُنزل معه، ولا ساعَدَ سيفاً ساعِد، ولا نالت يدٌ مُدَّت من مِصْر فأخذت آمِد وَمَنْ بآمِد، ولو قُبلت مسألته في تقليد المَوْصل، لكان وَلَجها ولو بدلجةٍ ادَّلجها، وأخذَها ولو بحصَاةٍ نبذَها، وهو يتوقَّع في جواب هذا الفتح أن يُمَد بجيشٍ هو الكلام، ورماح هي الأقلام، ونصرٍ هو وافد الأمر، وترشيدٍ هو فكُّ الحَجْر، وليس ذلك لوسائلَ من دولةٍ أقامها بعد مَيْل عُروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاغَرَتْ دونه هِمَمُ جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجزيرة الكبيرة، وهي دار الفُرْقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمت في السِّلْك، لانتظم جميع عسكر الإسلام في قتال الشِّرْك، ولكان الكُفْريُلقي بيديه، وينقلبُ على عقبيه، ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يَديه، ويُغْزى من مِصْر براً وبحراً، ومن الشَّام سراً وجهراً، ومن الجزيرة مَدّاً وجَزْراً، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثَّل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧﴾ [طه: ٣٧].

- ومن كتابٍ آخر[٢]: كتابنا هذا والمدينة قد فُتحت أبوابها، وعُذقت[٣] بدولتنا

---

(١) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة.

(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ٩٧.

(٣) عذقت: أي اختصت.

أسبَابها، وتكلَّم لسان عَلَمنا في فم قلعتها. وبعد أن لبستها دولتنا، وَفَينا بموعد خِلْعتها، فالحمد لله الذي تتمُّ النعمة بحمده، وينجحُ الأَمَلُ بقَصْده ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

قال العماد: ثم دخل السُّلْطان مدينة آمِد، وجلس في دار الإمارة، وحَلَّفَ نورَ الدين بن قرا أرسلان على أنه يُظْهِرُ بها العَدْل، ويقمع الجَوْر، ويكون سامعاً مطيعاً للسُّلْطان؛ من معاداة الأعداء، ومصافاة الخِلَّان، في كلِّ وقتٍ وزمان، وأنه متى استمدَّه من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان، وإليه عطشان.

قال(١): وكان هذا نور الدين في خدمة السُّلْطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفُرَات، ثم إن رُسلَ ملوكِ الأطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الأمان، وأن يتخذه من جُمْلَة الأعوان؛ منهم صاحب مارِدِين، وصاحب مَيَّافارقين، وهما قريبا ابن قرا أرسلان، فَرَدَّ السُّلْطان كلَّ رسولٍ بسوله، وأجاب إقباله بقبوله. ثم رحل السلطان من آمِد، وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها، فتسلَّم في طريقه تل خالد بالرُّعْب، ولم يكن منهم بالقُرْب، فأقَرَّ أهلها فيها، ثم نزل على عين تاب، فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خُمارْتِكِين إلى خدمة السُّلْطان، فأعاده إلى مكانه بالإِحسان.

وقال ابن أبي طي: تسلَّم السُّلْطان تل خالد في رابع عشر محرَّم، وسلمها إلى بدر الدين دُلْدُرُم(٢).

ومن كتابٍ فاضلي(٣): نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر محرَّم، وكان قد تقدَّمنا الأجلُ تاجُ الملوك إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها، وعالجها ولو شاء لعاجلها، ولما أطلَّتْ عليها(٤) راياتنا ألقى من فيها بيده، وأنجز النَّصْرَ صادقُ مَوْعده، وأرسلتها حلب مقدِّمةً لفتحها، وقد أنعمَ الله علينا بنعم لا نحصيها تعداداً، ولا نستقصيها اعتداداً، ولا نستوعبها ولو كان النَّهار طِرْساً والبحرُ مداداً، وراياتُنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تَجْذِبُها بطبعها، وسيوفُنا قد صارت مفاتح الأمصار تفتحها بنصر الله لا بحدِّها ولا بقطعها.

---

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٠٩ ـ ١١٠، ١١٢.
(٢) هو بدر الدين دلدرم بن ياروق الياروقي صاحب تل باشر توفي سنة ٦١١هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦١١هـ).
(٣) انظر البرق الشامي ٥/ ١١٠ ـ ١١١.
(٤) في البرق الشامي: ولما أطلت عليه.

قلتُ: وما أحسن ما قال التَّلَّعْفَري[1] من قصيدةٍ له في السُّلْطان: [البسيط]

قل للملوكِ تنحَّوْا عن ممالككمْ فقد أتى آخذُ الدُّنيا ومُعْطيها

فَصْلٌ

في فتح حلب[2]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما عاد السُّلْطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها وقاتلها، وأخذها في ثاني عشر محرَّم سنة تسع وسبعين، ثم سار إلى حلب، فنزل عليها في سادس عشري المحرَّم، وكان أول نزوله بالمَيْدَان الأخضر، وسيَّر المقاتلة يقاتلون، ويباسطون عَسْكر حلب ببانَقُوسا وباب الجِنان غُدْوةً وعشية. وفي يوم نُزُوله جُرِحَ أخوه تاج الملوك. وكان عماد الدين زَنْكي قبل ذلك قد خرج وخَرَّب قلعة عَزَاز في تاسع جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وسبعين، وخرَّب حصن كفرلاثا، وأخذها من بكمش، فإنه كان قد صار مع السُّلْطان، وقاتل تل باشر، فلم يقدر عليها، وجَرَتْ غارات من الفرنج على البلاد بحكم اختلاف العساكر.

قال: ولما نزل السُّلْطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خَلْقٌ كثيرٌ، وقاتلها قتالاً شديداً، وتحقَّق عماد الدين زَنْكي أنه ليس له به قِبَل، وكان قد ضَرس من اقتراح الأمراء عليه وَجَبْهِهم، فأشار إلى حسام الدين طُمان أن يَسْفِرَ له مع السُّلْطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرَّت القاعدة، ولم يشعر أحد من الرَّعية ولا من العسكر حتى تَمَّ الأمر، ثم أعلمهم، وأَذِنَ لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنه وعن الرَّعية عِزَّ الدين جُرْديك وزين الدين بلك، فبقُوا عنده إلى اللَّيل، واستحلفوه على العَسْكر وعلى أهل البَلَد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدَّمو حلب، وخَلَع عليهم، وطيَّب قلوبهم، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر.

---

(١) التلعفري: هو مظفر بن محمد، موفق الدين، شاعر، من أهل تل أعفر، من حصون سنجار، توفي سنة ٦٠٢هـ (الغصون اليانعة ص٥٩ ـ ٦٥).

(٢) انظر البرق الشامي ٥/١١٣ ـ ١٤٣.

[وفاة تاج الملوك]

وفيه توفي تاج الملوك[1] أخو السُّلْطان من الجُرْح الذي كان أصابه، وشقَّ عليه أمر موته، وجلس للعَزَاء.

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي[2] أن مولده سنة ستٍّ وخمسين في ذي الحِجَّة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئاً، وأنشد له شِعْراً.

وقال العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»[3]: إنه لم يبلغ العشرين سنة، وله نَظْمٌ لطيف، وَفَهْمٌ شريف.

ثم قال القاضي أبو المحاسن: وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزَّاه، وسار معه بالميدان الأخضر، وتقرَّرت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدَّم له تقدمةً سَنِيَّة، وخيلاً جميلة، وخلع على جماعةٍ من أصحابه. وسار عماد الدين من يومه إلى قَرَا حِصَار سائراً إلى سِنْجار، وأقام السلطان بالمخيَّم بعد مسير عماد الدين غير مكترثٍ بأمر حلب ولا مستعظم لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشري صفر، ثم صَعِدَ في ذلك اليوم قلعة حلب مسروراً منصوراً، وعمل له حسام الدين طُمان دعوةً سنية، وكان قد تخلَّف لأخذ ما تخلَّف لعماد الدين من قُماش وغيره.

وقال العماد[4]: وصل السُّلْطان إلى حلب وفيها عماد الدين زَنْكي بن مودود الذي كان صاحب سِنْجار، وقد تحصَّن بكثرة الأجناد والعُدَد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السُّلْطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال، لكن الشَّباب وجُهَّال الأصحاب راموا القتال، وأحبُّوا النِّزال، وتقدَّموا وأقدموا، والسُّلْطان ينهاهم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السُّلْطان، فطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد. وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمةً لعماد الدين زَنْكي، وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صَدْر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الرَّبيع الأنضر، ثم رحل ونزل على جبل جَوْشَن، ونهى عن القتال، وقال: نحن هاهنا نستغلُّ البلادَ، وما علينا من الحصن الذي بلغ منه هذا العناد. ونفَّذَ رُسُلَ الترهيب

---

(١) تاج الملوك: بوري بن أيوب بن شاذي، أبو سعيد، أصغر إخوته. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) ابن القادسي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، توفي سنة ٦٣٢هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٣) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام ص١٣٦.

(٤) انظر البرق الشامي ٥/ ١١٣ ـ ١١٤: ذكر الوصول إلى حلب في المحرم من السنة.

إليهم، ففكَّر عماد الدين في أمره، ورأى أن الصَّواب مصالحةُ السلطان، فنفَّذ سراً إليه حسام الدين طُمان، وصالحه، وحلَّفه على أن يُسَلِّم إليه حلب، ويرد عليه بلدة سِنْجار. ففعل وزاده الخابور ونَصِيبين والرَّقَّة وسَرُوج، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة للغَزَاة.

ومن كتبٍ فاضلية: تسلَّمنا مدينة حلب وقلعتها بسِلْم وَضَعَتْ بها الحَرْبُ أوزارها، وبلغت بها الهِمَمُ أَوْطَارها، وعوِّض صاحِبُها بما لم يخرج عن اليد، لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعَسْكره، ومختلط بالجملة فهو أحدُ الأولياء في مغيبه ومحضره، عُوِّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة سِنْجار ونَصِيبين والخابور والرَّقَّة وسَرُوج، فهو صَرْف بالحقيقة؛ أخذنا فيه الدِّينار وأعطينا الدَّراهم، ونزلنا عن المبيحات وأَحْرزنا العواصم، وسرَّنا أنها انجلت والكافر المحارَبُ، والمُسْلم هو المسالَم. واشترطنا على عماد الدِّين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغَزْو والمُصَابرة، فانتظم الشَّمْل الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشَّغَب، وأُخمد اللَّهب، واتَّصل السَّبب، وأُخذت للغَزَاة الأُهَب، ووصلت إلى غايتها هِمَّةُ الطَّلب، والأُلْفة واقعة، والمَصْلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة.

فتحنا مدينةَ حلب بسِلْم ما كشفت لِحُرْمتها قِناعاً، وتسلَّمنا قلعتها التي ضمنت أن نتسلَّم بعدها بمشيئة الله قِلاعاً، وعُوِّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعُدَّة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالُها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، وأن تَعْظُمَ في العدوِّ الكافر نكايتُها، لا أن تُغْذَقَ بالولي المُسْلم ولايتُها. والأوامر بحلب نافذة، والرَّاياتُ بأطراف قلعتها آخذة.

وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يؤمِّلون، وأَمِنوا ما كانوا يحذَرون، وعُوِّض صاحبها ببلادٍ من الجزيرة، على أن تكون العساكر مجتمعةً على الأعداء، مُرْصَدَةً للاستدعاء، فالبلادُ بأيدينا لنا مغنَمُها ولغيرنا مَغْرَمُها، وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عَسْكرها، وفي يده ما لا نضنُّ به وهو دِرْهَمُها.

شرطنا على عماد الدِّين النَّجْدة في أوقاتها، والمظاهرة على العُداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدٌ إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبِّره، ويكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

ومنها: نشعر الأمير بما مَنَّ الله به من فَتْح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد،

وتَسَلُّم قلعتها التي هي أحد ما رَسَتْ به الأرض من الأوتاد، فلله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المِنَّة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي الجنة. وصَدَرَتْ هذه البُشْرى والمواردُ قد أَفْضَت إلى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها، وقلعتها قد أناف لواؤنا على أنفها، وقبضت على عقبه بكفِّها، واعتذرت من لقائه أمس برشفها، ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وأن نوسِّع المجال فيما نضيق به تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد.

قلتُ: ولأبي الحسن بن السَّاعاتي[1] في مَدْح السُّلْطان عند إرادة فتح حلب قصيدة، منها: [البسيط]

ما بعد لُقْياك للعافين من أَمَلِ ... مَلْكَ المُلُوك وهذي دولةُ الدُّوَلِ
فانهضْ إلى حَلَبٍ في كلِّ سابقةٍ ... سُرُوجُها قُلَلٌ تُغْني عن القُلَلِ
ما فَتْحُها غَيْرُ إقليدِ الممالكِ والدَّ (م) اعي إليه جميعُ الخَلْق والمِلَلِ
وما عَصَتْ مَنْعَةً لكنَّه غَضَبٌ ... علامَ أَهْمَلْتَها إهمالَ مُبْتَذِلِ
غارَتْ وَحَقَّك من جاراتها فَشَكَتْ ... ما بالَهُ باقتضاضي غَيْرُ مُحْتَفِلِ

وللقاضي السعيد ابن سناء المُلْك[2] من قصيدةٍ: [البسيط]

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عزَّتْ دولة العَرَبِ ... وبابن أيوبَ ذلَّت بِيعَةُ الصُّلُبِ
إنَّ العواصم كانت أي عاصمةٍ ... معصومةً بتعاليها عن الرُّتَبِ
جليسةُ النَّجْمِ في أعلى مَرَاتِبه ... وطالما غابَ عنها وهي لم تَغِبِ
وما نَعَتْه كَمَعْشُوقٍ تَمَنُّعُه ... أحلى من الشَّهْدِ أو أَشْهى من الضَّرَبِ[3]
فمرَّ عنها بلا غيظٍ ولا حَنَقٍ ... وسار عنها بلا حِقْدٍ ولا غَضَبِ
تطوي البلادَ وأهليها كتائِبُهُ ... طَيّاً كما طَوَتِ الكُتَّابُ للكُتُبِ

---

(١) هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، بهاء الدين، أبو الحسن الدمشقي، ثم المصري، المعروف بابن الساعاتي، الأديب الشاعر، ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) ابن سناء الملك: هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن سيناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، أبو القاسم المصري، المعروف بابن سناء الملك، الأديب الشاعر، ولد سنة ٥٥٠هـ، وتوفي سنة ٦٠٨هـ، له من المصنفات: «در الطراز» في ديوان شعر «روح الحيوان» في اختصار كتاب الحيوان للجاحظ، «فصوص الفصول وعقود العقول» في الأدب (كشف الظنون ٦/ ٥٠٦، معجم الأدباء ١٩/ ٢٦٥ ـ ٢٧١، وفيات الأعيان ٦/ ٦١ ـ ٦٦، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ٦٤ ـ ١٠٠).

(٣) الضَّرَب: بالتحريك: العسل الأبيض.

أرضُ الجزيرةِ لم تَظْفَرْ ممالِكُها ... بمالكٍ فَطِنٍ أَوْ سائسٍ دَرِبِ
ممالكٌ لم يُدَبِّرْها مُدَبِّرُها ... إلا برأيِ خَصِيٍّ أو بِعَقْلِ صَبي
حتى أتاها صلاحُ الدِّينِ فانْصَلَحَتْ ... مِنَ الفَسَادِ كما صَحَّتْ من الوَصَبِ[(١)]
وقد حَوَاها وأَعْطَى بعضَها هِبَةً ... فهو الذي يَهَبُ الدُّنيا ولم يَهَبِ
ومُذْ رأَتْ صَدَّه عن رَبْعِها حلبٌ ... وَوَصْلَهُ لبلادٍ حُلْوَةِ الحَلَبِ
غارَتْ عليه وَمَدَّت كفَّ مُفْتَقِرٍ ... منها إليه وأَبْدَتْ وَجْهَ مُكْتَئِبِ
واسْتَعْطَفَتْهُ فوافَتْها عواطِفُهُ ... وأكْثَبَ الصُّلْحُ إذ نادَتْهُ عن كَثَبِ[(٢)]
وحلَّ منها بأُفْقٍ غيرِ مُنْخَفِضٍ ... للصَّاعدين وبُرْجٍ غيرِ مُنْقَلِبِ
فَتْحُ الفُتوح بلامَيْنِ وصاحِبُهُ ... مَلْكُ الملوك ومَوْلاها بلا كَذِبِ

وقال ابنُ أبي طي: وكان كثيرٌ من الشُّعراء يحرِّضون السُّلْطان على فَتْحِ حلب، منهم أبو الفضل بن حُميد الحلبي، له من قصيدة: [الخفيف]

يا ابن أيوبٍ لا بَرِحْتَ مدى الدَّهْـ ... ـرِ رفيعَ المكانِ والسُّلْطانِ
حَلَبُ الشَّامِ نحو مرآكَ وَلْهى ... وَلَهَ الصَّبِّ رِيعَ بالهِجْرانِ

وقال ابنُ سعْدان الحَلَبي في قصيدة: [الرجز]

دُونَكَ والحسناءَ أم القُرَى ... وبازَها الأَشْهَبَ والطَّوْدَ الأَشَمْ
واركب إلى العَلْياء كلَّ صَعْبَةٍ ... أَبَيْتَ لعناً وخَلاك كلُّ ذَمْ
وارمِ فَكَلُّ الصَّيْدِ في جَوْف الفَرَا ... لا صارِدَ السَّهْمِ ولا نابي الحَكَمْ[(٣)]
مُدَّ إلى أُختِ السُّهاءِ زَوْرَةً ... لا فَرَقٌ يعْقبها ولا نَدَمْ[(٤)]
فيا لها شَمَّاءَ مُشْمَخِرَّةً ... تطارِحُ البَرْقَ وساحات الدِّيَمْ[(٥)]
ايهِ صلاحَ الدِّين شُدَّ أَزْرها ... واعزمْ عليها فالزَّمان قَدْ عَزَمْ
ودونك المنعةَ من قِبابها ... وبابها المُغْلَقَ في وَجْهِ الأُمَمْ

---

(١) الوصب: المرض والألم.
(٢) أكثب: دنا.
(٣) لا صارد السهم: أي لا مخطئ الرمي، ومنه: أصرد السهم: أخطأ.
(٤) السهاء: هو السها: كويكب صغير، خفي الضوء في نبات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم.
(٥) مشمخرّة: أي عالية، والديم: جمع ديمة: وهي من المطر الذي لا رعد فيه ولا برق.

[ولاية حسام الدين طمان الرقة]

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نُشِرَ سَنْجَق[١] السُّلْطان الأصفر على سور قلعة حلب، وضُرِبَتْ له البشائر، وفي ذلك الوقت تخفَّى عماد الدين، وخَرَجَ من القلعة ليلاً إلى الخيم، وأخذ في إخراج ما كان له في القَلْعة من مالٍ وسلاح وأثاث. وكان استناب الأمير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافي رسله بتسليم سِنْجار ونَصِيبين والخابور إلى نوَّابه، وأعطى السُّلْطانُ طُمانَ الرَّقَّة لوساطته في أمر عماد الدِّين. وكان السلطان شَرَطَ أنه ما يريد من حَلَب إلا الحجر فقط، وأَذِنَ لعماد الدين في أَخْذ جميع ما في القلعة، وما يمكنه حَمْله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئاً، وباع في السُّوق كل ما لم يتمكَّن مِنْ حمله، وأطلق له بغالاً وجمالاً وخيلاً برسم حَمْلِ ما يحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوةً عظيمةً في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدَّمي حلب.

قال: وبينما السُّلْطان على لذَّته بالدَّعْوة، والأخذ والعَطَاء، والإِنعام والحِباء، إذ حضر إليه مَنْ عَرَّفه وفاةَ أخيه تاج الملوك بسبب الضَّرْبة التي أصابته على حلب، فلم يتغيَّر لذلك ولا اضطرب، ولا انقطع عَمَّا كان عليه من البَشَاشة والفَرَح، وبَذْلِ الإِحسان، وأَمَرَ بِسَتْرِ ذلك وَتوعَّد عليه إنْ ظهر، وكَظَمَ حُزْنه وأخفى رَزِيَّته، وصبر على مُصيبته، ولم يَزَل على طَلاقته وبشاشته إلى وقت العَصْر، وفي ذلك الوقت انقضتِ الدَّعوة وتفرَّق النَّاس، فحينئذٍ قام رحمه الله واسترجع، وبكى على أخيه، ثم أمر به فَغُسِّلَ وكُفِّن، وصلى عليه، وأمر به فدفن في مقام إبراهيم ﷺ بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق، ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شاباً حَسَنَ الشَّباب، مليح الأعطاف، عَذْبَ العبارة، حُلْوَ الفُكاهة، مليح الرَّمي بالقَوْس والطَّعْن بالرُّمْح، وكان شجاعاً باسلاً مِقْداماً على الأهوال، وكان قد جمع إلى ذلك الكَرَم والتفنُّن في الأدب، وله ديوان شِعْر حسن متوسط، فمنه: [البسيط]

يا هذه وأماني النَّفْس قُرْبُكُم ... يا لَيْتَها بَلَغَتْ منكم أمانيها
إن كانتِ العَيْنُ مُذْ فَارَقْتَكُمْ نَظَرَتْ ... إلى سِوَاكم فخانتها أماقيها

---

(١) السنجق: باللغة التركية معناه الطعن، والمراد به عند استعماله الراية، وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح، والرمح هو آله الطعن يسمّى بذلك مجازاً (انظر صبح الأعشى ٢/ ١٤٢). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٤٧٤/١ : أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم.

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على النَّاس في اليوم الرَّابع، وفرَّق في وجوه الحلبيين الأموال. وفي سادس عشر صفر ورد أصحابُ عماد الدين، وأحضروا إليه العلائم بتسلُّم سِنْجار ونَصِيبين والخابور، ففي ذلك اليوم سلَّم قلعة حلب، وأنزل منها الأمِير طمان وأصحابه، ولما سلَّمها إلى نواب السُّلْطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السُّلْطان ظاهراً وركب السُّلْطان إلى لقائه، فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشَّمال، فتسالما، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم جاء بعد عماد الدين وَلَدُه قطب الدين، فترجَّل للسُّلْطان، وترجَّل السلطان له، واعتنقه، وعادا فركبا، وسار هو وأبوه في خدمة السلطان إلى المخيَّم بالميدان الأخضر، فأجلس السُّلْطانُ عمادَ الدين معه على طرَّاحته(١)، وقدَّم له تقدمةً حسنةً: عشرين بقجة(٢) صفراء، فيها مائة ثوب من العَتَّابي والأطلس والمعتق والمُمَرَّش، وغير ذلك وعشرة جلود قُنْدُس، وخمس خِلَع خاص برسمه ورَسْم ولده، ومائة قَبَاء، ومائة كُمَّة(٣)، وحِجْرتين(٤) عربيتين بأداتهما، وبغلتين مسروجتين، وعشرة أكاديش(٥)، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات، وقطار بُخْت. ولما فرغ السُّلْطان من عرض الهدية قَدَّم الطعام، فلما أصاب منه عماد الدين نهض للرُّكوب، وخرج السلطان معه وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من بابِلَّى، وودَّعه، وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

قال: وفي يوم الاثنين سابع عشر صفر رَكِبَ السُّلْطان، وصَعِدَ إلى قلعة حلب، وكان صعودُه إليها من باب الجبل، وسُمِعَ وهو صاعد إلى قلعة حلب

---

(١) الطراحة: كلمة عامية تعني وسادة مربعة ومحشوة موترة، تطرح ليجلس عليها، مأخوذة من طرح الوسادة إذا ألقاها، فكأنها بمعنى مطروحة، وفصيحتها الميثرة، وتعرف في مصر بالشلتة.

(٢) البقجة: كلمة فارسية أصلها بغجة، بضم الباء: وهي قطعة قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صرة (صبح الأعشى ٤/ ٦٣).

(٣) الكمّة: هي القلنسوة المدورة.

(٤) الحجر: بكسر الحاء، وسكون الجيم المعجمة: الفرس الأنثى تتخذ للنسل.

(٥) أكاديش: جمع إكديش: أصلها أكدش، بفتح الهمزة وكسرها، فارسية الأصل، ثم دخلت التركية بصيغة إيكيدش، ومعناها في التركية الفرس الهجين.
وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ١٧: من أصناف الخيل: العجميات، وهي البراذين، ويقال لها: الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش، وتجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالب ما توجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي.

يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقال: والله ما سُررْتُ بفتح مدينةٍ كسُروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبيَّنت أنني أملك البلاد، وعَلِمْتُ أن مُلْكي قد استقرَّ وثَبَتَ. وقال: صَعِدْتُ يوماً مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعتُهُ يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾.

قال: ولما بلغ السُّلْطان إلى بابَ عماد الدين قرأ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] ثم صار إلى المقام، فصلَّى ركعتين، ثم سجد، فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيَّم، وأطلق المكوس والضَّرائب، وسامح بأموالٍ عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعةٌ من الشُّعراء، منهم يوسف البُزَاعي له من قصيدةٍ: [الكامل]

شَرُفَتْ بسامي مَجْدِكَ الشَّهْباءُ ... وتجلَّلتها بهجةٌ وضِياءُ
أَلْقَتْ إليكَ قِيادَها وبها على ... كلِّ الملوكِ تَرَفُّعٌ وإباءُ

ومنهم سعيد بن محمد الحريري، له من قصيدة تقدَّم بَعْضُها: [الطويل]

وَصَبَّحْتَ شهباءَ العَواصِمِ مُصْلِتاً ... قواضِبَ عَزْمٍ لا يُفَلُّ شهيرُها
فأَمْطَتْكَ منها غازياً فيكَ راغباً ... وعادَ يسيراً في يَدَيْكَ عَسِيرُها
وَأَوْطَأْتَ منها أَخْمَصَيْكَ تَنُوْفَةً ... يَعِزُّ على الشِّعْرَى العَبُور عُبُورها
وَرَدَّ إليها روحُ عَدْلِك روحَها ... وكانت رميماً لا يُرَجَّى نُشُورها

قال: وقال والدي أبو طي النَّجَّار من قصيدةٍ: [الخفيف]

حَلَبٌ شامةُ الشَّام وقد زِيـ ... ـدَتْ جلالاً بيوسفٍ وجَمَالا
هي أُسُّ الفَخَار مَنْ نال أَعلا ... ها تعالى فَخَامَةً وتغالا
ومحلُّ العلاء من حَلَّ فيها ... تاه كِبْراً وعِزَّةً وجلالا
مَنْ حَوَاها مملَّكاً ملكَ الأرْ ... ض اقتساراً سُهُولةً وجبالا
فافْتَرِعْها مُهَنَّأً بمحلٍّ ... سَمَقَ الأَنْجُمَ الوِضَاءَ وطالا

قال: وحدَّثني جماعةٌ من الحلبيين، منهم الركن ابن جَهْبَل العَدْل. قال: كان الفقيه مجد الدين بن جَهْبل الشَّافعي الحلبي(١) قد وقع إليه «تفسير القرآن» لأبي الحكم

(١) مجد الدين بن جهبل: هو طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي، مجد الدين الشافعي، كان فاضلاً في علم الوصايا والفرائض، ولد في حلب سنة نيف وثلاثين وخمسمائة، وتوفي بالقدس سنة ٥٩١هـ (كذا في كشف الظنون، وفي الذيل على الروضتين: توفي بالقدس سنة ٥٩٦هـ) (كشف الظنون ٥/ ٤٣٠، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٦هـ).

المَغْرِبي[١]، فوجد فيه عند قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] أن أبا الحكم قال: إن الرُّوم يُغْلَبون في رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، ويُفتح البيتُ المقدَّس، ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد. واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه. فلما فتح السُّلْطان حلب كتب إليه المجد بن جَهْبَل ورقةً تبشِّره بفتح البيت المقدَّس على يديه، ويُعَيِّن فيه الزَّمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عَرْضها على السلطان، وحدَّث بما في الورقة لمحيي الدين بن زكي الدين القاضي الدِّمَشْقي، وكان ابن زكي الدِّين واثقاً بعقل ابن جَهْبَل، وأنه لا يُقْدِمُ على هذا القول حتى يحقِّقَه ويثقَ به، فعمل قصيدةً مَدَحَ السُّلْطان بها حين فتح حلب في صفر، وقال فيها[٢]: [البسيط]

وَفَتْحُكُمْ حَلَباً بالسَّيْفِ في صَفَرٍ ... قَضَى لكُمْ بافتتاحِ القُدْسِ في رَجَبِ

ولما سمع السُّلْطان ذلك تعجَّبَ من مقالته. ثم حِينَ فتح البيت المُقَدَّس خرج إليه المجد بن جَهْبَل مهنئاً له بفتحه، وحدَّثه حديث الورقة، فتعجَّب السلطان من قوله، وقال: قد سبقَ إلى ذلك محيي الدين بن زكي الدِّين، غير أني أجعلُ لك حظّاً لا يزاحمك فيه أحد. ثم جمع له مَنْ في العسكر من الفُقَهاء وأهل الدين، ثم أدخله إلى القُدْس، والفرنج بَعْدُ ما خرجوا منه، وأمره أن يذكر درساً من الفِقْه على الصَّخْرة. فدخل وذكر درساً هناك وحَظِيَ بما لم يَحْظَ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذِكْرُ ما قاله أبو الحكم في «تفسيره»، وغيره مما يناسبه، وبالله التوفيق.

وقال العماد[٣]: تَمَّ فَتْحُ حلب في صَفَر من هذه السَّنة، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السُّلْطَان بأبياتٍ، منها: [البسيط]

وَفَتْحُكُمْ حَلَباً بالسَّيْفِ في صَفَرٍ ... مُبَشِّرٌ بفتحِ القُدْسِ في رَجَبِ

فوافق فتح القدس كما ذكره، فكأنَّه من الغيب ابتكره.

---

(١) أبو الحكم المغربي: هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي، أبو الحكم الإشبيلي المالكي المعروف بابن برجان، توفي بمراكش سنة ٥٣٦هـ. من تصانيفه: «الإرشاد في تفسير القرآن»، «شرح أسماء الله الحسنى» في مجلدين، «كتاب الإرشاد»، (كشف الظنون ٥/ ٥٧٠، التكملة لابن الآبار ٣/ ٦٤٥ ـ ٦٤٦، فوات الوفيات ٢/ ٣٢٣، الوافي بالوفيات ١٨/ ٤٢٨، لسان الميزان ٤/ ١٣ ـ ١٤، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٣٠٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) انظر البيت في البرق الشامي ٥/ ١١٩. و«الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٢٢.

(٣) انظر البرق الشامي ٥/ ١١٩ ـ ١٢٠.

قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبتُ من السُّلْطان جاريةً من سبي الأسطول المنصور في الأبيات، وهي[١]: [السريع]

يـؤمِّـلُ الـمـمـلـوكُ مـمـلـوكـةً تـبـدِّلُ الـوَحْـشَـةَ بـالأُنْـسِ
تُـخْـرِجُـهُ مـن لَـيْـلِ وَسْـوَاسِـهِ بِـطَـلْـعَـةٍ تُـشْـرِقُ كـالـشَّـمْـسِ
فَـوَحْـدَةُ الـعـزبـة[٢] قـد حَـرَّكَـتْ سَـوَاكِـنَ الـبَـلْـبَـالِ والـمَـسِ
فـلا تَـدَعْ يَـهْـدِمِ شَـيْـطَـانُـهُ مـا أَحْـكَـمَ الـتَّـقْـوى مـن الأُس
فَـوَقِّـعِ الـيَـوْمَ بـمـطـلُـوبـه مـمـا سـبـى الأُسـطـولُ بـالأَمْـسِ
لا زِلْـتَ وَهَّـابـاً لـمـا حـازَه سَـيْـفُـك مـن حُـورٍ ومِـنْ لُـعْـسِ
وإنـنـي آمُـلُ مِـنْ بَـعْـدِهـا كـرائِـمَ الـسَّـبْـيِ مـن الـقُـدْسِ

قال: فجاء الأمر على وَفْق الأمل، فَوَهَبَ لي عام القدس ما أَمَّلْتُ.

فصل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم الفرنج واستدعاهم إليه، مُطْمِعاً لهم في الاستيلاء على حارم بشرط أن يعصموه من الملك النَّاصر، وَعَلِمَ الأجناد بقلعة حارم بما عَزَمَ عليه، فتآمروا بينهم في القَبْضِ عليه. وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعَدُ إليها في أموره ولَذَّاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه، فوثَبَ أهلُ القلعة لما خرج، وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان. وكان السُّلْطان راسل والي حارم، وبَذَلَ له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة، منها ولاية بُصْرى، وضيعة في دمشق يملِّكه إياها، ودار العقيقي التي كان نجم الدين أيوب والد السُّلْطان يسكنها، وحَمَّام العقيقي بدمشق، وثلاثون ألف دينار عَيْناً، ولأخيه عشرة آلاف دينار. فاشتطَّ في السَّوْم، وتغالى في العِوَض، فأنفذ إليه السلطانُ وتوعَّده وتهدَّده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل: إن نقيب القلعة أراد أن تَنْفُقَ سُوقه عند السلطان، ويحصِّل منه شيئاً، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب إليه السلطان بتتميم ذلك، ووعده بأشياء سَكَنَ إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وَجْه الوالي. وقيل: إن النَّقيب وأهلَ القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنَّعوا عليه

(١) انظر الأبيات في البرق الشامي ٥/ ١١٩ ـ ١٢٠.
(٢) العزبة: كذا في الأصل، وفي البرق الشامي: الغربة.

بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامةً لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السُّلْطان. ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفذ تقي الدين إلى حارم لِيَتَسلَّمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدةً، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعيين، وسلَّموها إليه في تاسع عشر صفر. ولما حضروا عند السُّلْطان حدَّثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الدَّاية حاضراً، فقال للسلطان: يا مولانا، لا تلتفت إلى هؤلاء، فإنهم آذوا هذا الوالي، وكذبوا عليه حتى فَوَّتوه ما كان السلطان وَعَدَه به، وما قلتُ هذا إلا عن تجربةٍ، فإنني لما كنتُ متوليًا لهذه القلعة جرى عليَّ من كذبهم في حقِّي، وتحرضهم عليَّ أموراً كِدْت بها أَهْلِكُ مع نور الدين، وهُمْ كانوا سبَبَ خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السُّلْطان يُقِرُّهم في القلعة على هذه التجربة! فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به، وأَفْضَلَ عليهم، وولَّى القلعة غيرهم، وقال لابن الدَّاية: إن بين أيدينا أمكنةً نريد أَخذَها، ومتىٰ لم نفِ بما نَعِدُ ونُجْزِلُ العطاء لم يثق بنا أحد.

وبات السُّلطان بقلعة حارم ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فَرَتَّبها، وقرَّر ولده الظَّاهر سُلْطَاناً بها، وقرَّر له في كلِّ شهر أربعة آلاف دِرْهَم وعشرين كُمَّة[1] وقَبَاء، وما يحتاج إليه من الطَّعام وغيره، وجعل معه والياً سيف الدين أزكش الأَسَدي[2]، وولَّى حسام الدين تميرك[3] الخليفتي شِحْنَة حلب، وولَّى الديوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد الدِّمَشْقِي ودار الضَّرْب، فضرب الدرهم النَّاصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخَطَابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدِّمَشْقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، وولَّى الجامع والوقوف لأبي علي بن العَجَمي.

---

(١) الكمة: هي القلنسوة المدورة.

(٢) كذا أورد اسمه ابن أبي طي، وهو سيف الدين يازكوج، وهو الذي قتل الباطني الذي حاول قتل السلطان صلاح الدين عندما كان محاصراً عزاز، في حادي عشر ذي القعدة سنة ٥٧١هـ، وقد ولاه صلاح الدين حلب سنة ٥٧٩هـ، وتوفي بمصر سابع عشر ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ، (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٣) كان من أصحاب قطب الدين قايماز الذي شق العصا على الخليفة، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فهرب وتوفي بالموصل، وتفرق أصحابه في البلاد، فمنهم من أتى الشام، منهم حسام الدين تميرك (انظر الجزء الثاني أول أحداث سنة ٥٧١هـ).

وقال العماد[1]: كان في قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين فعصىٰ، وتأبَّى عن تسليمها، فأخرجه منها أهلُها لمَّا اتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلَّمها. ودبَّر أمرها، وأحكمها.

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم من يتسلَّمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم إليه يوم الثلاثاء ثامن عشري صفر، فحلفَ لهم، وسار من وقته إلى حارم، فوصلها تاسع عشري صفر، فتسلَّمها، وبات بها ليلتين، وقرَّر قواعدها، وولَّى فيها إبراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول. ثم أعطى العساكر دستوراً، فسار كلٌّ منهم إلى بلده، وأقام يقرِّر قواعد حلب ويدبِّرُ أمورها.

[هدنة صلاح الدين مع أنطاكية]

قال العماد: وَرَجَفَتْ أنطاكية بعد ذلك رُعْباً، فأرسل صاحِبُها جماعةً من أسارى المسلمين، وانقاد، وسارع إلى أمان السُّلْطان وولَّى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي، فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسي، وكشف السُّلْطان عن حلب المظالم، وأزال المُكُوس، وولَّى قلعتها سيف الدين يازْكُوج، وولَّى الدِّيوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظَّاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشَّام، وأَقَرَّ عين تاب على صاحبها، وأعطى تل خالد وتل باشر بدر الدين دُلْدُرُم بن بهاء الدولة بن ياروق، وأعطى قلعة عَزَاز علم الدين سليمان بن جَنْدَر.

[إسقاط صلاح الدين المكوس عن حلب والرقة]

قلت: وفي توقيع إسقاط المكُوس عن حلب من كلام الفاضل عن السُّلْطان: وانتهى إلينا أنَّ بمدينة حلب رسوماً استمرَّت الأيدي على تناولها، والألْسِنَةُ على تداولها، وفيها بالرُّعاة إرفاق، وبالرَّعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند مَنْ كلُّ شيء عنده بمقدار، منها ما هو على الأثواب المجلوبة، ومنها ما هو على الدَّوابِّ المركوبة، ومنها ما هو في المعايش المَطْلوبة. وقد رأينا بنعمة الله أن نبطلها وَنَضَعها، ونعطِّلها ونَدَعها، ونُضْرِبَ عنها في أيامنا، ونَضْرِبَ عليها بأقلامنا، ونسلك ما هو أهدى سبلاً، ونقول ما هو أقوم قيلاً، ونكره ما كرهه الله، ونحظر ما حَظَرَه الله، ونتاجِرُهُ سبحانه، فإنه من ترك الله شيئاً عوَّضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرَّعِيَّة اليوم بما يوضع عنهم من إصْرها، ولنا غداً بمشيئة الله بما

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤.

لا يرفع من أَجْرِها. فعلى كافة أوليائنا وولاتنا، وأمرائنا، والمتصرِّفين من قِبلنا ألا يُهووا إليها يداً، ولا يَرِدُوا ولو بلغ الظمأ منها مَوْرداً، ولا يثقلوا بها ميزان المال، فيخِفَّ ميزان الأعمال، ولا يرغبوا في كثير الحرام، فإن الله يُغْني عنه بقليل الحلال، وَلْيُعْلَم أن ذلك من الأمر المُحْكَم، والقَضَاء المُبْرَم، والعَزْم المُتَمَّم.

وفي منشور أهل الرَّقَّة بمثل ذلك: أَشْقَى الأُمراء من سَمَّن كيسه وأَهْزَلَ الخَلْق، وأبعدُهُمْ من الحقِّ من أخذ الباطل من النَّاس وسمَّاه الحق، ومن تَرَكَ شيئاً عَوَّضه، ومن أقرض الله قَرْضاً حسناً وفَّاه ما أقرضه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرَّقَّة أشرفنا منها على سُحْتٍ يؤكل، وظُلْم مما أمر به أن يُقْطع، وأَمَرَ الظَّالمون أن يوصل، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافَّة الولاة من قِبلنا أن يَضَعوا هذه الرُّسوم بأَسْرِها، ويلقوا الرَّعايا من بشائر أيام مُلْكنا بأَسَرِّها، ونُعْتق بلد الرَّقَّة من رِقِّها، ونثبتُ أحكام المَعْدَلَةِ فيها بمحو هذه الرُّسوم وَمَحْقها. وقد أمرنا بأن تُسَدَّ هذه الأبواب وتُعَطَّل، وتُنْسخ هذه الأسباب وتُبْطَل، وتُسْتمطر سحائبُ الخِصْب بالعَدْل وتُستنزل، ويُعفَّى خَبَرُ هذه الضَّرائب من الدَّواوين، ويُسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحةً ماضيةَ الأحكام، مستمرَّة الأيام، دائمةَ الخُلُود، خالدةَ الدَّوام، تامة البلاغ، بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونةً في الأعقاب، ملعوناً من يطمحُ إليها ناظِرُه، وتتناولُها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمعٍ لا يوصله إليه غده.

قال العماد[١]: وورد على السُّلطان، وهو نازلٌ على حلب بشارتان إحداهما: أن الأُسطول المِصْري غزا في خامس عشر محرَّم، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظَفِرَ ببطسة مقلعةٍ من الشَّام، فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون عِلْجاً من خَيَّالةٍ وتُجَّار، والثَّانية: أن فرنج الدَّاروم نهضوا، فَنَذِرَ بهم والي الشَّرْقِية، فخرج إليهم، فالتقوا على ماءٍ يُعْرف بالعُسَيْلة، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يَهْلِكُون عطشاً، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء، فأرواهم الله بماء السَّماء.

قلتُ: وكتبَ الفاضل عن السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين: بفتح حلب وحارمِ كتاباً شافياً، أوله[٢]: أدام الله أيام الدِّيوان العزيز، ولا زالت منازل مملكته منازلَ التَّقديسِ والتطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجباً للتقديم والتقدير، والأُمة مجموعة الشَّمْلِ بإمامته جمع السَّلامة لا جمع التكسير. الخادمُ

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣: فصل من كتاب من إنشائي في معنى الظفرين.
(٢) انظر البرق الشامي ٥/ ١٤٠ ـ ١٤٢.

ينهي أن الذي يفتتحه من البلاد ويتسلَّمه إما بسكون التَّغَمُّدِ أو بحركةِ ما في الأغماد، إنما يَعُدُّه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكُفَّار، ويحسِبُه جناحاً يمكنه به المطار إلى ما يلابسه الكُفَّار من الأقطار. وعلى هذه المقدِّمة فهو يستفتح بذكر ظَفَرينِ للإسلام: بري وبحري. شامي ومِصْري، أحدهما وهو البحري عَوْدُ أحد الأسطولين اللذين أغزاهما أخو الخادم أبو بكر بمصر، وكانت مُدَّة غيبته من حين خروجه إلى وقت عَوْده إلى دِمْياط تسعة أيام، فظفر ببطسة مقلعةٍ من الشَّام، فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون عِلْجاً، منهم خيَّالة ذوو شِكَّة وازِعة[(١)]، وتُجَّارٌ ذوو ثَرْوَةٍ واسعة.

والثَّاني، وهو البَرِّي، نهوض فرنج الدَّاروم إلى أطراف بعيدة، فَنَذِر بهم والي الشَّرْقية، فركب إليهم الليل فرساً كما ركبوه جملاً، وسروا ثقيلاً وسرىٰ رَمَلاً، فتوافى الفريقان إلى ماء يُعْرَف بالعُسَيْلة، سَبَقَ الفِرَنْج إلى موردته، والسَّابق إلى الماء محاصِرٌ للمسبوق، ووردوا أزرقه فتغضَّب لأزرقهم[(٢)]، فظنَّ المؤمن أن الكافر مرزوق. واشتدَّ بالمسلمين العطش، ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة إنجاد السماء بالماء، فلم ينجُ من الفرنج إلا رجلان، أحدهما الدليل، والثاني الذليل، وعاد المسلمون برؤوس عَدُوِّهم في رؤوس القَنَا وقد اجتنوا ثمراتِها، وبأرواحهم في رؤوس الظُبى وقد أطفؤوا بمائها جمراتِها.

ثم قال: ويثني الخادم بذكر ما امتثله من الأوامر العَلِيَّة، في إغماد سيفٍ مجرِّدُهُ من استدعى تجريده، ومُورِدُه من عَرَّض له وريده ـ ثم ذكر تسلُّمه حلب ـ وأنه لا يُؤْثر إلا أن تكون كلمةُ الله هي العليا لا غَيْرُ، وثغور المسلمين لها الرِّعايا ولا ضَيْر، ولا يختار إلا أن تَغْدُو جيوش المُسْلِمين متحاشدة على عدوِّها لا متحاسدة بعتوِّها. ولو أن أمور الحَرْب تصلحها الشِّرْكة لما عَزَّ عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدُّنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحَرْب لا تحتمل في التَّدبير إلا الوَحْدَة، فإذا صحَّ التدبير لم يحتمل في اللِّقاء إلا العِدَّة، فعوَّض عماد الدين من بلاد الجزيرة سِنْجَار وخابورها، ونَصِيبين والرَّقَّة وسَرُوج، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يُطْوى منشورُها. وأجابَ الخادمُ عمادَ الدين إلى ما سأل فيه من أن يُصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدِّين، لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخاً، ولم يطمئنَّ إلى مجاورتهم إلى أن يَضْرِبَ بينه وبينهم من عنايته بَرْزَخاً، فَلْيَلُحِ الآن عُذْرُ الأجنبي إذا

(١) ذوو شكّة وازعة: أي ذوو سلاح مانع.
(٢) الأزرق: السنان، جمعها: أسنة، وتسمى زرقاً للونها.

لم يثق، ولتكُن هذه مُضحية من عُوتِبَ في سُكْرِهِ حُسْن الظَّنِّ فلم يُفِقْ، ومن شَرْطه، على المواصلة المعونة بعسكرهم في غَزَواته، والخروج عن المظالم، فما زاد على أن قال: سالموا مسلماً، وحاربوا كافراً، واسكنوا لتكون الرَّعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهراً. وهذه المقاصد الثلاثة: الجهادُ في سبيل الله، والكفُّ عن مظالم عباد الله، والطَّاعة لخليفة الله، هي مُرادُ الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدُّنيا إذا مُنحها، والله العالم أنَّه لا يقاتل لعيشٍ ألين من عيش، ولا لغَضَبٍ يملأُ العَنَان من نَزَقٍ وطَيْش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسَّم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النِّيَّةَ التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة ويُرْقَم.

وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلةً، وخرج منها إلى حارم، وكانت استحفظت مملوكاً لا يملكه دين ولا عقل، غِرّاً ما هذبته نَفسٌ ولا أهل، فاعتقد أن يُسلمها إلى صاحب أنطاكية ـ يَسَّر الله فَتْحَها ـ اعتقاداً صرَّح بفعله، وشَهَرَه بِكُتُبِهِ ورسُلِه، وواطأ على ذلك نَفَراً من رجالٍ يعرفون بالشَّمْسِيَّة؛ لا يعرفون خالقاً إلا من عَرَفُوه رازقاً، ولا يسجدون إلا لمن يرونه في نهر النَّهار سابحاً، وفي بحر الظَّلام غارقاً، فشعر به مَنْ فيها من الأجناد المسلمين، فشرَّدوه ومن تابعه على فِعْلِه، وظَفِرَ به المملوك عمر ابن أخيه في ضواحي البلد، فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها، فتسلَّمها، ورتَّبَ بها حاميةً ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف بل إنها للعِقْد واسطة، والخادم كما طالع بماضيه الذي حازه الأمس المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهِّب للخروج نحو الكُفَّار، لا تسأَمُ رايتُه النَّصْبَ، ولا جهة سيره الرَّفْع، ولا جيشُه الجَرَّ، ولا يُصْغِي إلى قول خاطر الراحة المفنَّد: لا تنفروا في الحَرِّ، ولا يُجيب دعوة الفراش المُمَهَّد، ولا يُعَرِّج على الظل الممدود، ولا دُمْية القصر المشيد، ولا يعطف على ريحانة فؤادٍ يفارقه حَوْلاً ويلقاه يوماً، ولا يقيم على زهرة ولدٍ استهلَّ فمتى ذكَّره الفطر على راحته قال: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

ومن كتاب آخر أنفذه من نَصيبين سنة ثمانٍ وسبعين إلى بغداد: سبيلُ الخادم أن يُبْنَى ولا يُهْدَم، ويُوفَّر جانبه ولا يُثْلَم، وأن يُفَرَّقَ بينه وبين من يمسكون أَعِنَّة الجياد المسوَّمة ولا يطلقونها، ويَكْنِزُون الذهب والفِضَّة ولا ينفقونها، فقد عُلِمَ أن الخادمَ بيوتُ أمواله في بيوت رجاله. وأن مواطِنَ نُزُوله في مواقف نِزَاله ومضارب خيامه أَكِنَّة ظلاله. وأنه لا يدَّخر من الدُّنيا إلا شِكَّته، ولا ينالُ من العيش إلا مُسْكته، وعدوُّ الإسلام شديدٌ على الإسلام

كَلَبُه، مضطرمٌ على أهله لَهَبُهُ، زَجِلٌ ـ إذا أصغت أسماعُ التأمُّل ـ لَجَبُهُ. ولو أن أحدَ من يدَّعي المُلْك ميراثاً، ويَعُدُّ البلاد له تراثاً، دُفع إلى مدافعة هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر، لعرَّفته الأيام ما هو جاهِلُه، ولقلَّدته الحَرْب ما هو قاتله، ولحمَّلته الأهوال ما تخور تحته محامِلُه.

وفي كتابٍ آخر: وإذا ولّاه أمير المؤمنين ثَغْراً لم يبت في وسطه وأصبح في طَرَفِه، وإذا سوَّغه بلداً هجَّر في ظلِّ خِيمه ولم يَقُمْ في ظل غُرَفِهِ، وإذا باتَ بات السَّيْفُ له ضجيعاً، وإذا أصبح أصبح ومعترك القِتالِ له ربيعاً، لا كالذين يغبون أبوابَ الخلافة إغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرُّفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأنَّ الدنيا لهم إقطاع لا إيداع، وكأن الإمارة لهم تخليد لا تقليد، وكأن السِّلاح عندهم زينةٌ لحامله ولابسه، وكأن مال الخلق عندهم وديعة، فلا عُذْرَ عندهم لمانعه ولا لحابسه، وكأنهم في البيوت دُمًى مصوَّرة في لزوم جُدُرها لا في مستحسنات صورها، راضين من الدين بالغَزْوة اللَّقبية، ومن إعلاء كلمته بما يسمعونه على الدَّرجات الخشبية، ومن جهادِ الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المُهَلَّبية، ومن قتال الكُفَّار بأَنه فرض كفاية؛ تقوم به طائفةٌ فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومِنْ طاعةِ الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها، فلا يقنعون بأنَّهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لا يُساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوَّهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليداً وطريفاً، ووطئوا الإسلامَ وأَهْلَه وَطْأً عنيفاً، فإذا جاء وَعْدُ الآخرة جاء الله بهم في زُمْرَة الشَّيْطان لفيفاً.

وقال في هذا الكتاب: إنَّ المواصلة ما فَزِعُوا إلى دار الخلافة إلا بعد أن فَزِعوا، وإلا فطالما طَمِعَ أَوَّلهم كما طمعوا، وقديماً دُعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتَّبعوا، حتى إن الأولين منهم علَّموا أولياء الدولة من الأتراك ضِدَّ ما جُبِلَتْ أخلاقهم عليه من عقوقها، وسَنُّوا لهم إضاعة حقوق الله بإضاعة حقوقها، فأين كان التعلُّق بالدار العزيزة، وهم يحاصرون دار السَّلام بأحزابهم، ويرامون التَّاج الشَّريف بِنُشَّابهم، ويمدُّون محاصريها بالأسلحة والمنجنيقات، والأزواد والإقامات، ويصافُّون الخلفاء مصافَّة المُواقف، ويكاشفونهم مُكاشفة المُخالف، ويُغرون دُزْدار تكريت ـ وهي من أهون بلاد الله ـ بِجَوْر الجِوار، ويجعلُونها سِجْناً لمماليك الخلافة ذوي الأقدار، ولو تحرَّك اليوم متحرِّكٌ لكانوا له كِنانة، ولكانت بلادهم له خِزانة، ويرجو الخادم بالمَوْصِل أن تكون المُوصِلَ إلى القُدْسِ وسواحله، ومستقرِّ الكُفْر في القُسْطَنْطينية على بُعْد مراحله، وبلاد الكُرْج،

فلو أَنَّ لهم من الإسلام جاراً لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيفٍ لأطفأ ما فيها من النَّار، إلى أن تعلو كلمةُ الله العليا، وتملأَ الولايةُ العَبَّاسية الدُّنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصَّليب المرفوع حطباً في المواقد، والنَّاقوس الصَّهَل أخرس اللَّهجة في المشاهد. ويضيف إلى الديوان بمشيئة الله ما يجاوز أكنافه، ويمدُّ أطرافه مثل تكريت ودَقُوقا والبوازيج وخُوزستان وكِيش وعُمان، والذي وقع أعظم من الذي يتوقَّع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع، والذي رُئِي أمسِ أكبر من الذي يُسمع.

قلت: يعني أَنَّ ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها. وأشار بفعل أول المواصلة إلى ما سبق من فعل زَنْكي في حصار بغداد، ومساعدته للسَّلجوقية على العادة في ذلك الزَّمان، والله أعلم.

وفي آخر كتابٍ فاضلي إلى حِطَّان بن منقذ باليمن عن السُّلْطان: فَتَحَ الله علينا ممالك وأَضافها، وبلاداً آمنها بنا مما أخافها، وبلَّغنا غرائب صُنع لا نبلُغ أوصافها؛ منها بلاد الشَّام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة إلى دِجْلَتِها. فمنها ما أُعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا[1]، ومنها ما استمرَّ في اليد، وولاته من أوليائنا وأنصارنا. ولمَّا لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أو في يد مطيعٍ لنا، كان من شُكْر هذه النِّعْمة أن نصرف القوَّة ونُثْنِي العَزْمة، ونحدَّ الشَّوْكة ونَلْبَسَ الشِّكَّة للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارِعُهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فَنُطَهِّر الأرض المقدَّسة من رِجْسهم بدمائهم، إلى أن تَرِقَّ السُّيوف للصخرة الشَّريفة لما مَرَّ بها من قسوة كُفْرهم واعتدائهم. فنحن نرجو أن نكون عين الطَّائفة من الأُمة التي أخبر نبيُّنا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحقِّ ظاهرة، وبثواب الله وعَدُوِّه ظافرة، والله تعالى يُعيننا على ما يَعْنينا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحيينا.

فصل

في رجوع السُّلْطان إلى دمشق وخروجه منها للغَزَاة بمخاضة الأُرْدُن

رحل السلطان من حلب، فمرَّ على حماة ثم حمص ثم بَعْلَبك ثم دمشق.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني

(١) البيكار: الحرب عامة، تقدّم التعريف بها مراراً.

والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عَزْماً على الغَزَاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرِّزاً نحو دمشق، واستنهض العساكر، فخرجوا يتبعونه. ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يَزَلْ يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جُمادى الأولى، فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه. ثم برَّز في ذلك اليوم، ونزل على جسر الخشب، وتبعته العساكر مبرّزة، وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوَّار، وتعبَّى فيه للحرب، وسار حتى نزل القُصير، فبات به، وأصبح على المخاض وعَبَر، وسار حتى أتى بَيْسَان، فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا وأحرقوا ما لم يمكن أخذه.

وسار حتى أتى الجالوت؛ وهي قريةٌ عامرة، وعندها عين جارية، فخيَّم بها.

وكان قد قدَّمَ عز الدين جُرْديك وجماعةً من المماليك النُّورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الفرنج، فاتَّفق أنهم صادفوا عسكر الكَرَك والشَّوْبَك سائرين نجدةً للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمةً، وأسروا منهم زُهاء مائة نفر، وعادوا، ولم يُفقد من المسلمين سوى شخصٍ واحد يدعى بَهْرام الشَّاووش، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة، وهو العاشر من جُمادى الآخرة.

[اجتماع الفرنج في صفورية]

وفي حادي عشرة وصل الخبر إلى السلطان أن الفرنج اجتمعوا في صَفُّورِيَة، ورحلوا إلى الفولة؛ وهي قرية معروفة، وكان غرضه المصافَّ، فلما سمع بذلك تعبَّى للقتال، وسار للقاء العدو، فالتقوا، وجرى قتالٌ عظيم، وقتل من العدو جماعة وجُرح جماعة، وهم ينضمُّ بعضهم إلى بعضٍ، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين، فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون؛ لخوفهم من المسلمين، فإنهم كانوا في كثرةٍ عظيمة، فرأى السلطان الانتزاح عنهم لعلَّهم يرحلون، فَيُضْرَبُ معهم مصافّ، فرحل نحو الطور سابع عشر جُمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقباً رحيلهم، ليأخذ منهم فُرْصة، فأصبح الفرنج راجعين على أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه الله نحوهم، وجرى من رمي النُّشَّاب واستنهاضهم للمصاف أمورٌ عظيمة، فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطانُ منصوراً وقد نال منهم قتلاً وأسراً، وخرَّب عَفْرَبَلا وبَيْسان وزرعين وقرًى عِدَّة، فنزل الفَوَّار،

وأعطى النَّاس دستوراً، فسار من آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه الهِمَّة التي لم يشغلها عن الغَزَاة أخذ حلب ولا الظَّفر بها، بل كان غرضه ـ رحمة الله عليه ـ الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفَّقه للأعمال المرضية في الدُّنيا.

وقال العماد: خرج السُّلْطان إلى الغزو، ورابط العدوُّ بعين الجالوت، وعبر المخاضة الحُسَيْنية تاسع جُمادى الآخرة، فوصل إلى بَيْسان وقد أخلاها أهلُها، فأطلق النَّاسُ فيها النيران، ونهبوا ما فيها، وكذلك فعلوا بأبراج وقلاع غيرها. وصادفت مقدَّمة العساكر خيلاً ورَجْلاً للفرنج عابرين من نابلس ومقدَّمهم ابن هنفري، فَقُتل منهم وأُسر، وتوقَّل الباقون في الجبال، ووصل الخبر بأنَّ الفرنج قد أقبلوا في ألفِ وخمسمائة رُمْح، ومثله تركبلي[1]، وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين الجالوت، فأخذهم الرُّعْب، وخاموا[2] عن الإقدام عليهم، فخندقوا حولهم، وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام. فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفَّس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى النَّاصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، لم يخلِّص العدو منها شيئاً، وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة. وقد كانوا مُدَّة مقامهم يتخطَّفهم المسلمون من كلِّ جانب، ويرمونهم بالنَّبْل، وينتظرون أن يحملوا أولاً كما هو عادتهم، فما فعلوا.

وفي كتاب فاضلي عن السُّلْطان إلى بغداد: لما كان بتاريخ الثَّامن من جُمادى الآخر سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الإسلام إلى بلاد الكُفْر، وقد تكاملت جنودُ الإسلام، وتعيَّنت ميامنه ومياسره، وأُخذت أُهَبُهُ، وشُحِذت قُضُبه، وباعوا الله ما اشتراه، وَمُثِّل لأعينهم ثوابه فكأنَّها تراه، وساروا تحت ليل عَجَاج سَتَرَ السَّائِرُ تحته سُرَاه، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأُرْدُن؛ وهو

(١) تركبلي: من الجند الفرنج الذين كانوا يجندون من العناصر المحلية، وكانوا مسلحين ومدربين على غرار فرق الخيالة البيزنطية الخفيفة، ومن عناصر مسيحية محلية، ومن المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية.
وقيل: تركبلي: جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا العصر. وذكرهم ابن العديم باسم: كافر ترك (حاشية البرق الشامي ٣/ ١٦٧).

(٢) خاموا: أي جبنوا، وخام عن القتال: جبن عنه، والخائم: الجبان.

النهر الفاصل بين الإسلام والكُفْر، والمخاضة المضروب منها بسورٍ على ذلك القُطْر، فخاض ذلك البحر وذلك النهر، وأمدَّته نُطَفُ الحديد فإذا الماء يرمي بالشَّرر ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشَّهر. ولما جاز المخاضة أخذ البلاد ضَرْبُ المخاض، وزُلْزِلَتْ أرضُها فهي بالقوم تُرَضُّ أو للقيامة تُرَاض، وأخذت رجال المسلمين تنقُصُ الأرضَ من أطرافها، وتَقْلَعُ قِلاع الجبال، وتطيِّر رؤوسها من أكتافها، فإذا البلادُ قد انهزم أهلها، فألحقها المسلمون مساكنها في الهزيمة، وعوَّلوا فيها على سيوف المعاول، فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلادُ مدن ما كان غرم قَبْلُ منها مُدْنياً، وعماراتٌ ما كان أملٌ إليها مفضياً، بل طالما كان عنها مغضياً، مثل بَيْسان وعَفْرَبَلا وزرعين وجِينين، كلها بلاد مشاهير لها قُرى مُغِلَّة، وبساتين مُظلَّة، وأنهار مقلَّة، وقلاع مُطلَّة، وأسوار قد ضُرِبَت على جهاتها وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها، فغنم المسلمون ما فيها من أقواتٍ مُخْتَزِنةٍ، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كُفْرها بالنَّار، وعذَّبوها عذاب أهلها من الكفَّار، وقتلوها وكان الضِّرام لها دماً، وكتبوا عليها الخراب، وكان السَّيْفُ فيها قلماً، فأجلوا عن حماها حُمماً، وتساقطت جُدُرُها فكأنما أسارَّت فيها النوى لَمماً.

ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبرُ بأن عسكر الكافرين قد رَكِبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلابسه ومُدَّرِعه، فركب الخادم يبوِّىءُ المؤمنين مواقف القتال، ومنازل النِّزال، فمن متسرِّع يطوف عليهم بصفاح ليطاف عليها بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مَشْيَ العَرُوس ساعةَ الزِّفاف، وهنالك منظرٌ وَدَّ المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر، كما هو به آمر، ولا غَرْوَ أن يصفه الخادمُ ليسرَّ المخدوم لا ليوصف الخادم، وَمَنْ وَصَفَ ضَرْبَة السيف فإنما وصف الضَّارب ولم يصف الصَّارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطاً عن سَرْجه، ومنحازاً عن فَجِّه، وسالكاً نهجاً غير نَهْجه، وأحدقَ به راجله، وهو زُهاء عشرين ألف راجل، ورَكَزَ صليبَ صلبوته، فاستوى في العَجْز المحمول والحامل، ونزل محصوراً، وخَنْدَقَ فكأنما أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبوراً، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الرَّوائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير، ويتكرَّر إليه في اليوم الواحد النَّفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السَّفير، فيقبل تحيَّة الضَّرْب مترددةً ولا يَرُدُّها، وتتبسَّم إليه صفيحة النَّصْل متودِّدة فلا يودُّها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لِبُغْيتها.

من كتابٍ آخر إلى وزير بغداد: أثاروا على يوم الكفر ليلةَ عَجَاجٍ جَعَلَتْ لَيْل

مَنْ وراءهم من الإسلام سَكَناً، وصبروا وصابروا فكأنما كان السَّيف لهم أليفاً، وكان المُعتَرك لهم وطناً، وأخذت في البلاد النَّار مأخذها، ونفَّذت فيها الغِيَرُ منافذَها، وثُلَّت عُروشها وثلَّت غُروسها، وجُليت في مُصَبَّغات النِّيران عَرُوسُها، وأصبحت تناجي العيونَ ثواكِلُها، وتَصِفُ النَّوازِلَ منازِلُها، دمناً على الأطلالِ مطلولة، وصَرْعَىٰ بسيوف البلاءِ مقتولة. وجاء العدوُّ، فأحدقت به الأبطال، وتنجَّزَتْ عادة حمله فمطلت وما كان خُلُقها المِطَال، فلما كَثَّر الله المسلمين في عيونهم، ورأوا بها ما لم يكونوا يرونه قبلها بظنوهم، واستمدُّوا مغاني الشكوى لتبوح بها أَلْسِنَتهم، إذا خَلَوْا إلى شياطينهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحَمْلَةِ ناكلين، واتقى فارسُهم براجله، ورامِحهُم بنابله، ولاذَ سَيْفُهم بِجَفْنِه ولا خَيْرَ في حامله، ولاذ جَفْنُه بإطراقه خَوْفاً من كَحْلِهِ بسهم قاتله. وأقاموا محصورين لا يستطيعون وِرْداً ولا صَدَراً، ولا يجدون متقدَّماً ولا متأَخَّراً، فما كان للكُفْر فئةٌ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً، وعَزَف النَّصْل في لحن السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القُلُوب، فلا يقل النَّاسُ كيف.

فـصـل

[في ولاية الملك العادل حلب وولاية تقي الدِّين مصر، وغير ذلك]

قال العماد(١): وقد كان العادل نائباً بمصر، فلما فتح السُّلطان حلب كتب العادلُ إليه يطلبُها منه مع أعمالها، ويدع الدِّيار المِصْرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه إلى الكَرَك، فإنه سائرٌ إلى فَتْحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الدِّيار المصرية موضع أخيه العادل ابنَ أخيه تقي الدِّين، فاستصحبه السلطان معه إلى الكَرَك في رجب هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله إليها غنائم، وخَيَّم علىٰ الرُّبَّة، ثم حصر الكَرَك ورماه بالمجانيق صباحاً ومساءً، وتناوب عليه الأُمراء حتى خرج شهر رجب، وما حصل منه الطَّلب، لكن عَظُمت النِّكاية في الكُفَّار بأخذ أموالهم وتخريب الدِّيار. ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمَّعوا بالموضع المعروف بالواله على قَصْد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم، ورأى السُّلْطان أن أمر حَصْرِهِ يطول، فعوَّل على الرَّحيل إلى دمشق،

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٥٢ وما بعدها: ذكر الغزوة إلى الكرك واستدعاء الملك العادل من مصر لتولي حلب، واستنابة الملك المظفر تقي الدين.

ووصل العادلُ إلى السُّلْطان وهو بَعْدُ على الكَرَك، فجهَّز تقيَّ الدين إلى الديار المصرية والياً عليها، وقوَّى عَضُده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولَّى العادل حلب وأعمالها، ومَنْبِج وجميع قلاعها، وسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملكُ الظَّاهر ونوَّابُ السلطان.

قلت: وكتب العادِلُ إلى الفاضل يستشيره في التعوُّض عن مصر بحلب. فكتب إليه الفاضل كتاباً، فيه: [الرمل]

إنــمــا أنــتَ كــغــيــثٍ مــاطــرٍ ... حــيــثــمــا صَــرَّفَــه الله انــصــرفْ

والمولى أعلم، وبسياسة الدُّنيا أقوم وقد تكرَّر الكتاب النَّاصري إليه بما نصَّ عليه، وكشف له الغطاء، وسنَّى له العطاء، وقالت له المخطوبة: هَيْتَ لك. وأدَّى إليه مالكُ الأَمْرِ ما قد ملك، فلا زالت سعادتُه أنورَ مِنْ شمسٍ وأدورَ مِنْ فَلَك، ولا زال رابحاً على الدَّهْرِ إنِ امرؤٌ خَسِرَ، وباقياً إنِ امرؤ هَلَك.

ومن كتابٍ آخر إليه: أدام اللَّهُ دولة حامي الحِمى، وثبَّت الدولة النَّاصرية التي يقومُ بها ملكان هُمامان هما، هذا صلاحٌ يمنعُ فساداً، وهذا سَيْفٌ يحقِنُ دماً.

قال ابن أبي طي: كان السلطان يُعَظِّم الملك العادل، ويعمل برأيه في جميع أموره، ويتيمَّن بمشورته، ولا يُعلم بأنه أشار على السُّلْطان بأمرٍ فخالفه. حدَّثني قاضي اليمن جمال الدين، قال: كان السلطان يجمع الأُمراء للمشورة، فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه، وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكاتبه بجلِيَّة الأحوال، ثم يسمع رأيه فيها.

قال: وحدَّثني أبي قال: حدَّثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غَنَاء عن العادل ولا عن رأيه، فلما حصل العادل بمصر وبَعُدَ عن السلطان هناك صار السلطان يتكلَّف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخِّرُ الأمور إلى أن يَرِدَ عليه جوابُه، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدَّوْلة وللجهاد. فلما حصر الكَرَك في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله وأمواله وجميع أصحابه، وولَّى مِصْرَ تقيَّ الدين، ولما حصل العادلُ عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في أي ولايةٍ يولِّيه.

قال: وحدَّثني علم الدين قيصر الصَّلاحي قال: إنما أَقْدَمَ السُّلْطَانُ العادلَ من مِصْر لأجل ولايةِ حلب، وبذلك كاتبه، ولأجل هذا خَرَجَ العادل بأمواله وعياله وأثقاله.

قال: وحدَّثني غيره، قال: لما حصل العادِل عند السُّلْطان بأمواله وأثقاله

كانت الأموال قد قلَّت على السُّلطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادلَ ليلاً وقال: أريد أن تقرضني مائة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال: السَّمْع والطَّاعة. ثم قام، وخرج من عنده، وكتب إليه يقول: أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك، وأشتهي أن أحمل هذا المال إلى خدمة السُّلْطان، ويكون عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها. فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأولِّيك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك، فقد وافق ما عندي. فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البَيْع والشِّرىٰ. فامتنع السُّلْطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال عليَّ له. فَاعتذر العادل إلى السُّلْطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع، أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خَزَنَةٌ للمسلمين، ورعاةٌ للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم؟ أَوَما عَلِمْتَ أن السُّلْطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقي لما وقف طبرية على جامع خُرَاسان لم يحكم به أحدٌ من القضاة ولا من الفقهاء؟ ثم قرَّر السلطان ولاية العادل بحلب وأعمالها إلى رَعْبان إلى الفرات إلى حماة، وكتب له التوقيع، وقرَّر عليه مالاً يحمله برسم الزردخاناه[1] وخزانة الجهاد، ورجَّالةً من الحلبيين. ورحل السلطان إلى دمشق، واستدعى ولده الظَّاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعَوْدِ إلى حلب وتسليمها، إلى عَمِّه العادل، ففعل، وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب، فالتقيا بالرَّستن، وباتا فيه. فكانت ولاية الظَّاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظَّاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده والتقرُّب إليه، إلا أن الانكسار لخروج حلب ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئاً إلا الطَّاعة لوالده، والانقياد لمرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخَشَّاب، قال: حدثني الملك الظَّاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى عليَّ ما قَدُمَ وما حَدُثَ وأصابني من الهَمِّ ما لم أقدر على النُّهوض به، وودت أني لم أكن رأيتُها، ولا دخلت إليها، لأن قلبي أَحَبَّها وقبلها، وطاب لي هواؤها، ولما فارقتها كنت أَحِنُّ إليها واشتاقُها.

---

(١) الزردخاناه: ومعناها بيت الزرد، وربما قيل السلاح خاناه، ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقسي العربية والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع (أي الجيد البالغ الجودة) والقرقلات (نوع من الدروع)، المتخذة من صفائح الحديد المغشّاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك من الأطبار (هو الفأس)، وسائر أنواع السلاح. (صبح الأعشى ٤/ ١١).

قال: ودخل العادل حلب في رمضان، وخلع على المقدَّمين والأعيان، وكان قد قدَّم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة ليُسَلِّم حلب وقلعتها من الملك الظَّاهر، وولَّى القلعة صارم الدين بُزْغُش، وولَّى الديوان والإقطاعات شجاع الدين بن البيضاوي صبَّاغ دقنه، وولى الإنشاء وما يتعلَّق بأمور السر للصنيعة ابن النَّحَّال ـ وكان نصرانياً ثم أسلم على يد العادل ـ فولى ابن النحال الوظائف لجماعةٍ من النصارى. وفي ذلك يقول الشَّاعر: [الخفيف]

فـاق ديـنُ الـمـسـيـح فـي دولـة الـعـا … دل حـتـى عـلا عـلـى الأديـانِ
ذا أمـيـرٌ وذا وزيـرٌ وذا وا … لِ وذا مُـشْـرِفٌ عـلـى الـدِّيـوانِ

قال: ولم يزل العادل يهذِّب أمور حلب إلى سادس عشر ذي القَعْدة، ثم خرج متوجِّهاً إلى دمشق بسبب أن السلطان اجتمع عنده في ذي القعدة عِدَّةُ رسل، منهم: رسل الخليفة، ورسل طُغْرُل بن البهلوان، ورسل قزل أخي البهلوان، ورسل شاه أرمن صاحب خِلاط، ورسل المواصلة، ورسل عماد الدين صاحب سِنْجار، ورسل قليج أرسلان صاحب الشمال، فأراد السلطانُ إحضار العادل لسماع الرَّسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصلَ العادلُ إلى دمشق أحضره السلطانُ لسماع الرسائل، وسمع ما عنده من الأجوبة، ولما قضى أجوبة الرسل ودَّعَ السلطان، وعاد إلى حلب.

قال: ولما بلغ سيفَ الإسلام أن السلطان كتب لتقي الدين عهداً بولاية مصر عَتِبَ لأجل ذلك، فكتب السلطان له عهداً ببلاد اليمن جميعها.

قال: وأقطع السلطان تقيَّ الدين الإسكندرية ودِمْياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبُوش، ثم عوَّضه عن بوش سَمَنُّود وحَوْف رمسيس، وذكر غير ذلك.

قال العماد[1]: أنعم السُّلْطان على تقيِّ الدِّين بالأعمال الفَيُّومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها[2]، وزاده القايات وبُوش، وأبقى عليه بالبلاد

---

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) الجوالي: جمع جالية وتطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا من أوطانهم، وقال المقريزي: أما في زماننا هذا فإن الجوالي قلّت جداً لكثرة إظهار النصارى للإسلام في الحوادث التي مرّت بهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٩٤، وخطط المقريزي ١/ ١٠٧).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٣٠: الجوالي هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة.

الشَّامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها. ولما وصل تقيُّ الدِّين إلى مِصْر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السُّلْطان لا يؤثر مفارقته، فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بُدّاً، وكانت فيه حِدَّة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى تدبير الأَجَل الفاضل.

قال القاضي ابن شداد: وَقُتل على الكَرَك في هذه الكرة شرف الدين بُزْغُش النُّوري شهيداً رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحباً أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها، فوصلها، وصَعِدَ القلعة في يوم الجمعة الثَّاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظَّاهِر، ومعه سيف الدين يازكُوج يدبِّر أموره، وابن العميد في البلد، وكان الظَّاهر أَحَبَّ أولاده إلى قلبه لما قد خَصَّه اللَّهُ به من الشَّهامة والفِطْنة والعقل، وحُسْن السَّمْت والشَّغف بالمُلْك، وظهور ذلك عليه، وكان من أبرِّ الناس بوالده، وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحةٍ رآها، فخرج من حلب ـ لما دخلها عمه العادل ـ هو ويازكوج سائرين إلى خدمة السُّلْطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شَوَّال، فأقام في خدمة والده لا يُظْهر له إلا الطَّاعة والانقياد، مع انكسار باطنه لا يخفى عن نَظَر والده.

قال: وفي ذلك الشهر وَرَدْنا على السُّلْطان رُسُلاً من جانب المَوْصل، وكُنَّا قد ترسَّلْنا إلى الخليفة النَّاصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين[1] رسولاً وشفيعاً إلى السُّلْطان، فسيَّره معنا من بغداد، وكان غزير المروءة، عظيمَ الحُرْمة في دولة الخلافة وفي سائر البلاد، وكانت مكانته عند السُّلْطان بحيث يتردَّدُ إليه إذا كان عنده في مُعْظم الأيام.

قال: وكان الشيخ قد وصل إلى المَوْصل، وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين[2]، وكان بينهما صحبة من الصِّبا، وكنتُ مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته،

---

(١) صدر الدين: هو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد النيسابوري، صدر الدين، شيخ الشيوخ، ولد سنة ٥٠٨هـ، وتوفي في رجب سنة ٥٨٠هـ، سترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٠هـ، في هذا الجزء.

(٢) محيي الدين بن كمال الدين: هو أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، توفي في جمادى الأولى سنة ٥٨٦هـ. سترد ترجمته الوافية في الجزء الرابع، وفيات سنة ٥٨٦هـ.

وأقمنا أياماً نراجع في فَصْلِ حال، فلم يتفق صُلْح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى المَوْصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القُصير، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق. وكان الوقوف من جانب محيي الدين، فإنَّ السلطان اشترط أن يكون صاحب إرْبِل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه. إلى صاحب المَوْصل، فقال محيي الدين: لا بُدَّ من ذكرهما في النسخة. فوقف الحال. وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحِجَّة.

قال: وفي تلك الدفعة عَرَضَ عليَّ السُّلْطان مواضع البهاء الدمشقي بمصر على لسان الشيخ، فاعتذرتُ، ولم أفعل، خوفاً من أن يُحَالَ توقفُ الحالِ عليَّ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمرٌ لم أعرفه إلا بعد خدمتي له. وأقام السُّلْطان بدمشق ترد عليه الرُّسُل من الجوانب، فوصله رسول سِنْجر شاه صاحب الجزيرة، فاستحلفه لنفسه وانتمى إليه، ورسل إرْبل، وحلف لهم وساروا، ووصل إليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحِجَّة، فأقام عنده. وعيَّد، وعاد إلى حلب.

[وصول رسل صاحب الجزيرة]

قال العماد(١): ووصلت رُسُل صاحب الجزيرة معز الدين سِنْجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي، ورسل صاحب إرْبل زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بُكْتِكِين، ورسل صاحبي الحديثة، وتَكْريت يشكون من صاحب المَوْصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السُّلْطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك. وكان أبو سنجر شاه سيف الدين غازي هو صاحب المَوْصل بعد والده مودود ـ كما تقدم ذكره ـ فعهد إلى ابنه سِنْجرشاه بها، فغلبه عليها عَمُّه عز الدين مسعود بن مودود، فبقيت الجزيرة بيد سِنْجرشاه، وهو تحت يد عمه، وفي قلبه منه ما فيه، وكانت إرْبل وأعمالها وما يليها كلُّها مضافةً إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثَمَّ طلب هو الانحياز إلى خدمة السُّلْطان، فأجابه، وسمع بذلك صاحب الموصل، فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السُّلْطان أن يجدِّد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جُمْلة الأعوان، حَرْباً لمن حاربه، سِلْماً لمن سالمه. وجاء رسول صاحب المَوْصل قاضي القضاة محيي الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري(٢)، وترفَّع في أداء الرسالة، وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال: أنا أقضي حاجته

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٦٣ ـ ١٦٩.

(٢) ولي قضاء دمشق ثم انتقل إلى حلب ثم عاد إلى الموصل فتولى قضاءها، ودرس بمدرسة

على ما أراد، ولكن قد سبق مني يمينٌ لأولئك السلاطين، فأنا أستثنيهم وأَرُدُّهم إلى اختيارهم لي أَوْ له. فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصَّداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم. فَعَظُمَ ذلك على السلطان، وكان ذلك محرِّكاً له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرُّسل على ذلك غير ظافرين بطائل.

وكان منزل شيخ الشيوخ بالرِّباط على المنيبع، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق المَيْدَان، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته فدفنه في المقبرة المحاذية للرِّباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد[1]: وكانت شَتْوة هذه السنة كثيرة الأمطار.

وكثرت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتاً، منها:[2] [الكامل]

عُذْرُ الزَّمانِ بأيِّ وجهٍ يُقْبَلُ ... وَمُحِبُّكُمْ بالصَّدِّ فيه يُقَتَّلُ
ما لي سوى إنسان عيني مُسْعداً ... بالدَّمعِ إنسانٌ عليه أُعَوِّلُ
الدَّهْرُ لَيْلٌ كلُّه في ناظري ... لا صُبْحَ إلا وَجْهُكَ المُتَهَلِّلُ
خُيِّرْتُمْ بين المَنِيَّة والمُنَى[3] ... لا تَهْجُروا فالمَوْتُ عنديَ أسْهَلُ
يا غائبين وهم بفكريَ حُضَّرٌ ... يا راحلين وَهُمْ بقَلْبي نُزَّلُ
ما للسُّلُوِّ إلى فؤاديَ مَنْهَجٌ ... ما للصَّبابة غير قلبي مَنْهَلُ[4]
لا تَعْدِلُوا عني فمالي مَعْدِلٌ ... عنكم وليس سواكُمُ لي مَوْئِلُ

والده المدرسة النظامية، وفد رسولاً إلى بغداد من قبل صاحب الموصل مراراً. ولد سنة ٥١٠هـ (كما في وفيات الأعيان، وفي خريدة القصر ولد سنة ٥١٩هـ) وتوفي سنة ٥٨٦هـ في مدينة الموصل (انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٩٩ ـ ١٠٠، شذرات الذهب ٤/ ٢٨٧).

(١) انظر البرق الشامي ٥/ ١٧٠.

(٢) انظر الأبيات في البرق الشامي ٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨، والقصيدة في البرق الشامي من ١٢ بيتاً.

(٣) في البرق الشامي: والنوى.

(٤) المنهج: الطريق.

كلُّ الخُطُوب دفعته بتجلُّدي … إلا التفرُّقَ فهو خَطْبٌ مُعْضَلُ
إن لم يَجِدْني طَيْفُكُمْ في زَوْرَةٍ … فلأنني منه أَدَقُّ وَأَنْحَلُ
لا صَبْرَ لي لا قَلْبَ لي لا غَمْضَ لي … لا عِلْمَ لي بالبَيْنِ ماذا أَفْعَلُ

[قبض عز الدين صاحب الموصل على مجاهد الدين قايماز]

قال ابن الأثير(١): وفي جُمادى الأُولى من سنة تسع وسبعين، قبض عِزُّ الدِّين أتابك على مجاهد الدِّين قايماز، وهو حينئذٍ نائبه في بلاده، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه، ولم ينظر في مضرَّة صاحبه. وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفَنْدار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير ـ الذي كان أبوه صاحب بلد الغَرَّاف ـ وهما من أكابر الأُمراء، فلما قبضه كان بيده إرْبل وشَهْرُزور ودَقُوقا وجزيرة ابن عمر، وكان بها مُعِزُّ الدين سِنْجِرشاه بن سيف الدين صغيراً، والحكم فيها إلى مجاهد الدين، ولهم أيضاً قلعة العَقْر، فحين قُبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين عليّ بإربل، وكان فيها لا حُكْم له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة النَّاصر لدين الله عسكراً حصر دَقُوقا فملكها، ولم يحصل لعز الدين إلا شَهْرُزور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أَضَرَّ شيء على المَوْصِل، وبقي مقبوضاً، فأخرجه وأعاده إلى ولاية قلعة المَوْصل، إلا أن الذي أُخذ من البلاد لم يَعُدْ إلى طاعته، وقَبَضَ عِزُّ الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة ليس على الدُّول شيءٌ أَضَرَّ من إزالة مُدَبِّر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطَّبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه، وما يوافقه ويؤذيه. فإلى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح.

[وفاة الشاعر الأبله]

قال ابنُ القادسي(٢): وفي هذه السنة في جُمادى الآخرة توفي الأبله الشَّاعر ـ وهو من أسماء الأضداد ـ واسمه أبو عبد الله محمد بن بَخْتِيار بن عبد الله(٣)،

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٢٣ ـ ١٢٤: ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك.

(٢) ابن القادسي: هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله القادسي، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٣) الأبله الشاعر: هو محمد بن بختيار بن عبد الله، أبو عبد الله المولّد، المعروف بالأبله البغدادي، الشاعر المشهور. قال ابن خلكان في وفيات الأعيان: الشاعر المشهور، أحد

وكان فصيحاً هجَّاء، وله أشعار رقيقة، منها: [المديد]

زار مــــن أحــيــــا بِـــزَوْرَتِــــه والــدُّجــى فــي لَــوْنِ طُــرَّتِــهِ
يـــا لــهـــا مـــن زَوْرَةٍ قَـــصُـــرَت فـــأمـــاتَـــتْ طُـــولَ جَـــفْـــوَتِـــهِ

[حصار السلطان للكرك]

ثم دخلت سنة ثمانين(١)

قال العماد: وقد تقوَّض البرد، فلما طاب الزَّمان تجهَّز السُّلْطان بالعساكر المنصورة إلى الكَرَك مَرَّة أُخرى، وأرسل إلى تقي الدِّين، فجاء بالعساكر المِصْرية والأَجَلِّ الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل، وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحِصْن وآمِد، وصاحب دارا، وأخو صاحب سنجار، وعسكر ماردِين، فاجتمعت العساكر برأس الماء، وأشفق السُّلْطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العَوْد، وأمر العادل بالإقامة معه.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: سيَّر السُّلْطان إلى العساكر يطلبها، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه العادل إكراماً عظيماً، وأَصْعَدَه القلعة، وباسطه، ورحل معه طالباً دمشق. وكان السلطان قد مَرِضَ أياماً، ثم شفاه الله تعالى، ولمَّا بلغه وصولُ ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه ـ وكان رحمه الله يكارم النَّاس مُكارمةً عظيمة، فالتقاه على الجسر بالبقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق، وخلَّف نور الدين واصلاً مع العادل، فتأهَّب للغَزَاة، وخرج مبرِّزاً إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق، فأقاموا بها أياماً، ثم رحلوا يلتحقون بالسُّلْطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالباً للكَرَك، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المُظَفَّر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقيُّ الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه، فسيَّرهم إليه، وتقدَّم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكَرَك، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكَرَك في رابع عشر جُمادى الأُولى، وركَّب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المِصْرية والشَّامية والجَزَرِيَّة.

المتأخرين المجيدين، جمع شعره بين الصناعة والرقة، له ديوان شعر بأيدي الناس، كثير الوجود وقال الصفدي في الوافي بالوفيات: وإنما قيل له: الأبله، لأنه كان في غاية الذكاء، فسمي الأبله من باب تسمية الشيء بضده، كما قيل للأسود: كافور. والكافور: شجر خشبه أبيض هش (كشف الظنون ٦/ ١٠٠، الكامل في التاريخ ١٠/ ١٢٥، مرآة الزمان ٨/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، وفيات الأعيان ٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٥، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(١) وخمسمائة.

ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذَّبِّ عن الكَرَك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قَصْدِ مصر بحيثُ كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجَمَّة، فاهتمَّ السلطانُ بأمره لتكون الطَّريق سابلة ـ ويَسَّر الله ذلك، وله الحمد والمِنَّة، ولكن كان فتحها بعد ذلك ـ ولما بلغ السلطانَ خَبَرُ خروج الفرنج تعبَّى للقتال، وأمر العساكر أن تخرج إلى ظهر الكَرَك، وسيَّر الثَّقَل نحو البلاد، وبقي العسكر جريدةً، ثم سار السلطان يقصد العدو.

وكان الفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله، وسار حتى نزل بالبَلْقاء على قريةٍ يقال لها حُسبان قُبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضع يقال له ماعين، والفرنج مقيمون بالواله إلى السَّادس والعشرين من جُمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكَرَك، فسار بعض العساكر وراءهم، فقاتلوهم إلى آخر النهار. ولما رأى رحمه الله تصميمَ الفرنج على الكَرَك، أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوِّه عن العساكر، فهجموا نابلس ونهبوها، وغنموا ما فيها، ولم يبق فيها إلا حصناها، وأخذوا جِينين، والتحقوا بالسلطان برأس الماء.

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حِصْن الكَرَك في بعض كتبه، فقال: هو شَجَاً في الحناجر، وقذًى في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقَعَدَ بأرصاد العَزَائم، وطُرُقها، وصار ذئباً للدَّهْر في ذلك الفَجِّ، وعُذْراً لتارك فريضة الله من الحَجِّ، وهو وحصن الشَّوْبك ـ يسر الله الآخر ـ كبيت الواصف للأَسدين[1]: [المنسرح]

مَا مَرَّ يَوْمٌ إلا وعِنْدَهُمَا   لَحْمُ رجالٍ أو يُولِغان دَمَا

وفي كتابٍ آخر: وأما الكَرَك فكفَّات المنجنيقات عليه متضافرة، وحجارتُها على مَنْ فيه حاجرة، وقد جُدعت أنوف الأَبْرِجة، وأَسْبَلَتْ قناع السَّتائر وجوهها المتبرِّجة، وكلُّ جوانبها وَعْرة المُرْتَقى، صَعْبَة المُخْتطى، والسُّلْطان يستعذب المشقَّات التي تتفادى منها الهِمَم، ويباشر جمرات الشِّتاء الكالح بوجهه المبتسم.

ومن كتابٍ آخر: وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج، فرمت الشَّراريف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج

(١) البيت لابن قيس الرقيات في ديوانه ص١٥٤، ولسان العرب ٨/ ٤٦٠ (ولغ)، وجمهرة اللغة ص٩٦٢، وتاج العروس ٢٢/ ٥٩٣ (ولغ)، والأغاني ٥/ ٩٧، والحيوان ٧/ ١٥٤، ولابن هرمة أو لأبي زبيد الطائي في ملحق ديوانه ص٢٤١، ولسان العرب ٨/ ٤٦٠ (ولغ)، ولأبي زبيد الطائي في ملحق ديوانه ص١٤٩، وبلا نسبة في كتاب العين ٤/ ٤٥٠، وأساس البلاغة (ولغ).

باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أَخْرَج أحدٌ منهم رأساً إلا دخل في عينه نَصْلٌ، وما هَجَرَ قِرَابَ الإسلام سيفٌ إلا وله مع رقاب الكُفْر عند قَطْعها وَصْل، وما على الحَجَرِ في الإسراف والتبذير حَجْر، ولكلِّ ليلةٍ من نَقْع الحوافر من سنا الأسِنَّة فَجْر، ولقد أخذنا من العدوِّ بالمخنق، وشرعنا في طَمِّ الخَنْدَق، والحائط واقع والواقعة بهم محيطة، والمدرَّع بالسيوف مُفَصَّلة وبالجروخ مخيطة.

ومن كتابٍ آخر: عذاب الله بالحِصْنِ وأهله واقع، ما له من دافع، وإن دليلَ النَّصْرِ قد ظهر وما دونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهَدْم، وفي الأعلاج بالهَتْكِ، فلم تُبْقِ لها الحجارةُ الطَّائرة إليها حجارةً قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلاً ونهاراً ديمَة دائمة، وأطفنا عليها بالزَّرَجُون[1] حتى وقعت الأسوار من سُكْرها، وضربنا دونها الستائر حتى ترنَّمت لصخرها، وعاطَتْها كفة المنجنيق عُقار عقرها، فالسُّور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدَّتْ قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو وادٍ من الأودية واسع عميق، لما تعذَّر إلى الزَّحْفِ إليهم والهَجْمِ عليهم طريقٌ.

ومن كتابٍ آخر: الحِصْن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة الحصانة، قد هدَّت الحجارةُ منه ما أحكموه بالحجارة، وغدا عليه بالتخريب ما أعدُّوه للعمارة، فقِسِي المنجنيقات ترمي ولا تُرَنِّم سهامُها، ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهَدْم انتقامها، فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان، قد أتى التخريب على ما فيه من العُمْران، فلم يبق إلا طَمُّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدوِّ بالمخنق، والقلوب واثقةٌ بحصول الفَتْح، وقد عَلِمَ كلُّ واحدٍ منا أن متجره قد فاز بالرِّبْح، فما يُسْمع منا بحمدِ الله من أحدٍ ملل ولا ضَجَر، ولا تُسْفِرُ هذه النَّوْبة إن شاء الله تعالى إلا عن نَصْرٍ وظَفَر.

قال العماد: ورحل السُّلْطان من رأس الماء على طريق الظَّليل والزَّرْقاء، وعَمَّان والبَلْقاء، ثم الرَّقيم، وزيزاء، والنقوب واللَّجُون، ثم أدر، ثم الرُّبَّة، وذلك في بلد مآب، فلما تلاحقتِ العساكر نزل على وادي الكَرَك، ونصب عليها تسعة مجانيق، صفاً قُدَّام الباب، فهدمت السُّور المقابل لها، ولم يبقَ مانعٌ إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة، والمهالك الغائرة الغائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمُّه، وملؤه بكل ممكنَ وَرَدْمُه، فَعُدَّ ذلك من الأمور الصِّعاب، وتعذَّر لحُزُونة الأرض وتحجُّرِها حَفْرُ

---

(١) الزرجون: الخمرة، فارسي معرب.

الأسراب، فأمر السُلْطان بضرب اللَّبن وجَمْع الأخشاب، وبناء الحيطان المقابلة من الرَّبَض إلى الخندق وتسقيفها، وتلفيقَ ستائرها وتأليفها، فتمَّت دروباً واسعة لا يَزْحَمُ فيها الجائي الذَّاهب، وتوافدت رجال العسكر وأتباعه، وغِلْمانُه وأشياعه، على نقل ما يُرْمى في الخندق، وهان طَمُّ الخندق بالدَّبابات التي قُدِّمت، والأسراب التي بنيت وأُحْكِمت، فوجد النَّاس إلى الخندق طريقاً مهيعاً فهم يَزْدَحمون آمنين من الجِرَاح، عاملين بانشراح، والنَّاس تحت القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حَذَراً، ولا يخشون سَهْماً ولا حَجَراً، وقد امتلأ الخندق حتى إن أسيراً مقيداً رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من الفرنج رمي الحجارة عليه.

وفي بعض الكتب العمادية: ولولا الخندق المانع من الإرادة، وأنه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو وادٍ من الأودية واسع الأفنية، لَسَهُلَ المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا تدبير طَمِّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدوِّ بالمخنق، فعملنا دبابات قدَّمناها، وبنينا إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللَّبِن سقفناها وأحكمناها، فصارتْ منها إلى طَرَفِ الخندق طُرُقٌ آمنة، وشرع النَّاس في طَمِّ الخندق منها ونفوسهم مطمئنة، وقلوبهم ساكنة. وكان الشُّروع فيه يوم الخميس سابع جُمادى الأُولى، وقد تسنَّى طَمُّه وتهيأ رَدْمُه، وتسارع النَّاس إليه، وازدحموا عليه، ولم يبق صغيرٌ ولا كبير إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نُجْح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القَلْعَة نهاراً كازدحامهم في المصلَّى يوم العيد، وليلاً كحضورهم في جامع دمشق ليلة النِّصف السَّعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبالنصر موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنَّصْر سريع، والحِصْنُ ومَنْ فيه صريع، وقد خَرَقَتِ الحجارةُ حجابة، وقطعت بهم أسبابه، وناولته من الأَجَل كتابه، وحسرت لثام سُوَرِهِ وحلَّت نقابه، فآناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشُّرُفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السُّقوف مبقورة، وأعضاء الأساقف معقورة، ووجوه الجُدُر مسلوخة، وجلود البواشر(١) منسورة: [البسيط]

والنَّصْرُ أَشْهَرُ من نارٍ على عَلَمٍ والحَرْبُ أَقْوَمُ من ساقٍ على قَدَمِ

قال: وأشرف السُّلْطان على أَخْذِها، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا

(١) البواشر: جمع باشورة، وهي أن يكون أمام كل باب أو خلفه بناء ذو عطف حتى لا تهجم عليه العساكر وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة (المؤرخ ابن تغري بردي ص١٦١).

وجاؤوا منجدين لأهل الكَرَك ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عِنان العَزْم إليهم، وكانوا في منزلة الواله، وتلك المواضع ضيقة صعبة المَسْلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى البَلْقاء، وتقدَّم عنهم بأميال، فرجعوا وتفرَّقوا ولم يُقدموا، وعلى قصد الكَرَك عزموا، ولما رأى السُّلْطان أن الفُرْصة من الفئتين فاتت مَرَّ على نابلس، فأغار وغَنِمَ، وفي طريق عَوْدِهِ نزل على سَبَسْطِيَة، وفيها مشهد زكريا عليه السَّلام، وقد اتخذه الفرنج كنيسةً، وأودعوها أمتعةً نفيسة، وبها من الفرنج سُكَّان وأقسَّاء ورُهْبان، ففدوها بأسارى المسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جِينين، فأهبط أَوْجَها وهدم بُرْجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصَّفايا، واجتمع بأصحابه على الفَوَّار، وتحدَّث بالإنجاد لحوادث الغَوْر في الغَوَّار.

فصل

[رجوع السلطان إلى دمشق]

ثم رحل السُّلْطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصرٌ الكَرَك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا، ومات جماعةٌ من أصحابهم، وعادَ السُّلْطَانُ شيخَ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمُنيبع، واستأذنوا في العَوْد قبل الشِّفاء، فضاقت الصُّدور بصدر ذلك الصَّدْر على تلك الحالة، وعجزت تلك العشرة - كما شاء الله - عن الإقالة، ثم اسْتَقَلَّ مودِّعاً وداع الأبد. وكان حسام الدين طُمان مقدَّم عسكر سِنْجار مع السُّلْطان حاضراً في الجهاد، فأذن له في العود، وأمره بمرافقة صدر الدين والرُّسُل معه، والرِّفْق بهم في مسيرهم، فساروا على سَمْت الرَّحبة، فاغتنم الأمير طمان بركةَ تلك الصُّحْبة، فأدركت المَنِيَّة شهاب الدين بشيراً بالسُّخْنة، ووصلوا بشيخ الشُّيوخ إلى الرَّحبة، وهناك لقي رَبَّه.

قال: ولقد توفَّاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشِّيَم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارِقاً للدُّنيا في حياته، مقبلاً على الآخرة قبل وَفَاتِه، فهو ممن رَفَعَتْ سريرَه الملائكُ، وَوُضِعَتْ له في عِلِّيين الأرائك، وكانت وفاته في شعبان، بوَّأه الله الجِنان.

قلتُ: كان صدر الدين هذا أحد السَّادة، وأبوه وجَدُّه من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزَّمان، وهو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سَعْد أحمد بن

محمد النَّيْسَابوري، وقد ذكرتُ ترجمة والده في «تاريخ دمشق» وألحقتها من أخبار جَدِّه مما ذكره أبو سعد السَّمْعاني[١] في «تاريخه».

وقال ابن القادسي[٢]: توفي صدر الدِّين في رجب برحبة مالك بن طَوْق، ودُفِنَ في قُبَّةٍ إلى جانب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المُتَقِّنة الرَّحْبي[٣]، وكان مولده في ذي الحِجَّة سنةَ ثمانٍ وخمسمائة، وكان شيخاً ماثلاً في العِلْم والدِّين والسَّداد، ثابت الجَنَان في الحوادث المُزْعجة، والوقائع الباغتة المُجَلْجَلَة، سديد البديهة، صافي الفِكْرة، وجَمَعَ بين نَظْم الشِّعْرِ ونثر الترسُّل، وكان يُرْسَلُ إلى الأطراف، ورُتِّبَ في مشيخة الشيوخ منذ تَوفي والده في جُمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرِّباط صفي الدين إسماعيل.

ومن شِعْرِه، يعني صدر الدين: [الوافر]

ولـم أَخْـضِـبْ مـشـيـبـي وهـو زَيْـنٌ لإيـثـاري جـهـالاتِ الـتَّـصَـابـي
ولـكـن كـي يَـرَانـي مَـنْ أُعـادِي فـأُرْهِـبُـهُ بـوثْـبَـاتِ الـشَّـبـابِ

قلت: ووقفتُ على كتابٍ فاضلي إليه جواباً عن كتابٍ عَتَبَ فيه: وقف على التحيَّة الطَّيبة، والكرامة الصَّيِّبة، والألفاظ العِذاب إلا أنها الغِضاب، والنَّعيم إلا أنه العَذَاب، والمسامحة إلا أنها الحساب، والمتشابهات اللواتي أوّلها أحسن تأويلها، والمحكمات اللَّواتي هُنَّ أم الكتاب، ويكفي أنه مَزَجَ الصَّاب بعسله، وأَرْعَفَ قلمه بما لا يُرْعِفُهُ الشُّجاع من أُنوف أَسَلِهِ. وهذا بابٌ قد آن سَدُّه، وسبيلٌ قد وجب صدُّه، وعينُ دَهْرٍ أصابت هذه المودَّة، وقد آن لها أن تنطرف وتنصرف، وبادِرَةُ هَمٍّ قد حان أن تنكشف وتنكسف، فلا نظر بَعْدَها للعينِ التي أصابت، ولا خطرات في أثرها

(١) أبو سعد السمعاني: هو عبد الكريم بن أبي بكر محمد بن المنصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تاج الإسلام، أبو سعد المروزي الشافعي، ولد سنة ٥٠٦هـ، وتوفي سنة ٥٦٢هـ. تقدّمت ترجمته في الجزء الثاني.

(٢) ابن القادسي: تقدّمت ترجمته.

(٣) في كشف الظنون ومعجم البلدان: ابن المتفننة، وهو تصحيف. وهو محمد بن علي بن محمد بن الحسن، أبو عبد الله، فقيه شافعي، له معرفة بالأدب، توفي سنة ٥٧٧هـ. قال ياقوت في معجم البلدان: صنف كتباً منها «بغية الباحث» أرجوزة في الفرائض، والمشهورة بالرحبية. (كشف الظنون ٦/ ٩٩، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، معجم البلدان ٣/ ٣٥، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٥٦، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٩، وفيه توفي سنة ٥٧٩).

للخطرة التي رابت، ولا كان للأيام في فَضْلِ سيدنا على عبده نصيب، ولا عدا أبداً على شباب الرِّضى عنه مشيب، ولا تمكَّن من حبيبٍ ودُّه إلى القَلْب رقيب، ولا ملك رِقَّه غير تلك اليد الكريمة، ولا سمعت حديث الحوادث تلك المودَّة القديمة.

قال العماد: وخرجنا من دمشق في شعبان، وخَيَّمنا على سَعْسع، ودعا تقيَّ الدين فأمره أن يرجع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصف الشَّهْر، ثم رجعنا من فَرْض الجهاد إلى فرض الصِّيام بدمشق، ورجع كلُّ عسكرٍ إلى مركزه.

ومدح العمادُ تقيَّ الدين في هذه الكرة بقصيدةٍ ثائية، نحو خمسة وثمانين بيتاً، أوَّلها: [الطويل]

إذا شِئْتُما عن غيرِ قلبي تحدَّثا ... فما حَلَّ فيه الهمُّ إلا لِيَلْبَثا
خُذا شاهِدَي صدقي على صِحَّةِ الهَوَى ... ضنًى ساكتاً مني ووجداً مُحَدِّثا
مريضكُما أَشْفَى على اليأس سُقْمُهُ ... فلا تَعْجَلا في أَمْرِهِ وَتَرَيَّثا
رثى لي عَدُوِّي من جَفاء أَحِبَّتي ... وناهيك من حالٍ عَدُوِّي لها رثى
عهودكم بعد النَّوى ما تشعَّثَتْ ... وحاشى لذاك العَهْدِ أن يَتَشَعَّثا
وأَمْلِكْ بالمَلْك المُظَفَّر ظافراً ... من الجدِّ والجدوى قديماً ومُحْدَثا
مخوفُ السُّطا صَعْبُ الإبا حَسَنُ الثنا ... مرجَّى النَّدى سَهْلُ الرِّضى طَيِّب النَّثا[1]
صفا آخر العُمْرين منْ عمر الذي ... به العُمَران اليوم في العَدْلِ ثُلِّثا
هم أَحْدَثُوا قَمْعَ الضَّلالةِ بالهُدَى ... فمذ ملكوا لم تَلْقَ في الدِّين مُحْدِثا
غُثَائي وغَثِّي أنتَ حامل نَقْصِهِ ... بفضلك إنَّ البحر يحتملُ الغُثَا

ومنها في وَصْفِ القصيدة:

وقد سَهُلَتْ والثَّاء أَوْعَرُ مُرْتَقًى ... فلا فَرْقَ عندي بين راءٍ وبين ثا

فَصْلٌ

يحتوي على ذِكْر المفاضلة بين مصر والشَّام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

الذي كان صلاح الدين يكاتبه بوقائعه، وهو الذي نمَّ على عُمارة وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة النَّاصرية مِصْريةً كما سبق.

(١) النثا: مثل الثناء إلا أنه في الخير خاصة.

وسبب ذِكْره هنا أنه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتابٍ كتبه إلى السُّلْطان في هذا العام، وقد تقدَّم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر وذَمِّ الشَّام في أوائل أخبار سنة أربعٍ وسبعين.

وله من كتابٍ آخر: فَدَعُونا من بَعْلَبَك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضَّيِّقة المَخْجِر، ومن ثَلْجها الذي تَنفِشُ الجبال بعِهْنِهِ، ومن بَرْدها الذي لا يَشفَعُ الجَمْرُ عنده إلا بإذنه، وعُودوا إلى ما أُترِفْتُمْ فيه ومساكِنِكُمْ، فإنها قد عَلَتْها وَحْشة لقطينها، فسألَتْ مطالعُ دُسُوتها عن أقمار سلاطينها، واذكروا النِّيل الذي وفى لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرةً لغير جُودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا قُرطها وماء طوبتها، فقد كاد يقيم الحُجَّة على ثَلْج الشَّام وَوَخِمِهِ، ويتغلغل بَرْدُه فيسري إلى قلب الغليل وكأنه جار على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائها وتعصُّبه لأيامكم، حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحَّة أجسامكم.

ومن كتابٍ آخر: وأما أحوالي فإنني لم أزل مُلْتاثاً منذ دخلتُ دمشق لتغيُّرِ مائها وهوائها، وأبنيتها وأبنائها، وأوديتها وأودَّائها، وقُراها وقرنائها. وَمَنْ لي بمصر، فإني أقنع بما تُنْبِتُه أَرْضُها من بَقْلها وقِثَّائها، وأبيع بَرَدى وما عساه بشربةٍ من مائها، وامتطي مَتْنَ السَّيف في هَجْرِ سوادها وسودائها، فالطَّلَلُ هائل ولا طائل، وما كُنَّا نسمع به من تلك الفضائل متضائل، حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً، فهي بلادٌ تستجدي ولا تجدي، وفِعْلُ المال بها لازم للتعدي.

وقال العماد: هذا زين الدِّين علي بن نجا الواعظ من أهل دمشق، ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوَعْظ فصيحة، وبهجة في الفضل صبيحة، وقَبُولٍ من القلوب، وفصول في فَصْل الخطاب للخطوب، وقد تأثث وتأثل، وقَبِلَ وأقبل، وأحسن السُّلْطان إليه بالأعطيات والإقطاعات وأجمل، وأعطاه وأَجْزل، وأَتَمَّ له مراده وأكمل. وكان السُّلْطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سَجِيَّته. ووصل منه في هذه السَّنة كتابٌ يُشَوِّق إلى مصر ونيلها ونعيمها وسلسبيلها، ودار مُلْكها ودارة فلكها، وبحرها وخليجها، ونَشْرها وأريجها، ومقسمها ومقياسها، وإيناس ناسها، وقصور مُعِزِّها ومنازل عِزِّها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبَرَكتها وبِرْكتها، وغُدْوتها وعَدَوِيَّتها، وتعلق القلوب بقَلْيُوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرْتقى الهَرَمين، وروضة جِنانها، وجَنَّة رِضْوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومرابعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها،

ورحاب شوارعها، وحِلاب مشارعها، وشروق غربيتها، وغروب شرقيتها، وطيب طُوبتها، ومسارّ مُسْراها، ومَجْرى فُلكها ومُرْساها، وعجائب بُناها وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بَلَسانها، وكياسة أخلاقها، ونفاسة أَعْلاقها، وشتاؤها في الفصل ربيع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابها عنبري.

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه ما دَلَّ به على فضيلة تلك الدِّيار من الآيات والأخبار والآداب والآثار، ولو ظفرتُ به لأوردته بلفظه، وجلوته بوعظه، لكنني فقدته، فَعَرَمْتُ معانيه وأَحْكمتُ مبانيه.

قال: فكتبتُ إلى زين الدين الواعظ في جوابه عن السُّلْطان: عَرَفْنا طيب الدِّيار المِصْرية ورِقَّة هوائها، ونحن نسلِّم له المسألة في طيبها وتوفر نصيبها، ورقة نسيمها ورائق نسيبها، لكن لا ريب أنَّ الشَّام أفضل، وأن أجْر ساكنه أجْزَل، وأن القلوب إلى قُبْله أميل، وأن الزُّلال البارد به أعلّ وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الزَّهْرَ به أشبُّ والنبت به أكهل، وأن الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأن القلوب به أروح، والروح به أقبل، ودمشق عقيلته[1] الممشوطة، وعُقْلته المنشوطة[2]، وحديقته النَّاضرة، وحدقته الناظرة، وهي عينُ إنسانه، بل إنسانُ عينه، وصيرفيُّ نقوده في عين نُضاره ولُجينه، فمستامها مستهام، وما على محبِّها مَلام، وما في رَبْوتها ريبة، وفي كلِّ حبوة حبيبة ولكلِّ شائب من نَوْرها شبيبه، وعلى كلِّ ورقةٍ وَرْقا، وعلى كلِّ معانقة من قدود البانات عَنْقا، وشادياتها على الأعواد تُطْري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تُعْجم وتُعْرِب، وكم فيها من جوارٍ ساقيات، وسواقٍ جاريات، وأثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورُمَّان، وخيرات حسان، وجميع ما في سورة الرحمن، ونحن نتلو عليها آلاءها إلى أن يرجع إلينا فنتلو على منكرها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣ ـ ٧٧] وقد تمسَّكْنا بالآية والسُّنَّة والإجماع، وغنينا بهذه الأدِلَّة عن الاختراع والابتداع، أَمَا أَقْسَمَ الله تعالى بدمشق في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ [التين: ١] والقَسَمُ من الله لها أَدَلُّ دليلٍ على فَضْلها المصون، أَمَا قال رسولُ الله ﷺ: «الشَّام خيرة الله من أَرْضه، ويسوق الله إليها خِيرَتَه من عِباده»[3]. وهذا

(١) العقيلة من النساء: الكريمة المخدرة النفيسة.

(٢) العقلة: العقدة. والعقلة المنشوطة: عقدها وشدها.

(٣) روي الحديث بلفظ: «عليك بالشام فإنه خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده»، أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ٣، حديث ٢٤٨٣، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٠، وابن تيمية في أحاديث القصاص ص٦٢، وأحمد في المسند ٤/ ١١٠.

أوضح بُرْهان قاطع على أنَّه خير بلاده. أمَا الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السُّكْنَى بالشَّام، أَما فتح دمشق بِكْرُ الإِسلام، وما ننكر أن الله تعالى ذكر مِصْر وسمَّاها أَرْضاً، فما الذكر والتسمية في فضيلة القَسَم، ولا الإِخبارُ عنها دليلا على الكَرَم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشَّام بنقل يوسف الصِّدِّيق إليها عليه أفضل الصلاة والسَّلام، ثم المقام بالشام أقرب للرِّباط، وأوجب للنَّشاط، وأجمع للعساكر السَّائرة من سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب من سناء سَنير، وأين ذُرى مَنْفِ المشرف من ذروة الشَّرَف المنيف المنير، وأين الهَرَم الهَرِم من الحرم المحترم، وبينهما فَرْقٌ ما بين الفَرْق والقَدَم، وهل للنِّيل مع طول نيله وطُول ذيله واستطالة سيله بَرْدُ بردى في نقع الغليل، ونفع العليل، وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السَّلْسبيل، وإذا فاخرنا بالجامع وقُبَّة النَّسْر ظهر عند ذلك قِصَرُ القَصْر، على أن باب الفراديس في الحقيقة باب النَّصْر، وما رأس الطابية كبابِ الجابية، ولو كان لناسها باناس لم يحتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فَضْله كما أباه، وحُبُّ الوطن من الإِيمان، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقليمٌ عظيم الشان، وأن مَغَلَّها كثير، وماءها غزير، وأن عِدَّها نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلسِ السامي الأجلي الفاضلي ـ أسماه الله ـ أن دمشق تصلُح أن تكون بُسْتاناً لمصر. ولا شك أن أحسن ما في البلاد البُسْتان. وزين الدين ـ وفقه الله ـ قد تعرَّض للشام، فلم يَرْضَ أن يكون المُساوي حتى شرع وعَدَّ المَسَاوي، ولعله يرجع إلى الحقِّ، ويعيد سعد إسعاده ووفاقه إلى الأُفُقِ، إن شاء الله.

قلتُ: وقد قيل في وصف دمشق شيء كثير من النَّظْم والنثر، واشتمل ما جمعته في أول «تاريخ دمشق» على قطعةٍ حسنة كبيرة من ذلك، وصنَّف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السَّخاوي(١) رحمه الله مقامةً تشتمل على المفاخرة بين

---

(١) السخاوي: هو علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب بن غطاس الهمداني، علم الدين، أبو الحسن السخاوي، المصري المقري الشافعي، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ. من تصانيفه: «إفصاح الموجز في إيضاح المعجز»، «الإفصاح وغاية الأشراح في القراءات السبع»، «أقوى العدد في معرفة العدد»، «تحفة الفراض وطرفة المرتاض»، «تفسير القرآن إلى سورة الكهف»، «تنوير الظلم في الجود والكرم»، «جمال القراء وكمال الإقراء»، «الجواهر المكللة في الأخبار المسلسلة»، «ذات الأصول في مدح الرسول ﷺ»، «ذات الأصول والقبول في مفاخر الرسول ﷺ»، «ذات الحلل» قصيدة على طريقة اللغز، «ذات الدرر في معجزات سيد البشر»، «سفر السعادة وسفير الإفادة» في شرح =

دمشق ومصر، ووصف كلاً من البلدين بما يليق به، وكان أول ما قدم دمشق يذمُّها في مكاتباته إلى مصر نَظْماً ونثراً؛ حُبّاً للوطن. ثم لما استقر فيها قَرَّت عينه، وفضَّلها في بعض مكاتباته، وقد ذكرتُ كل ذلك في جُزْءٍ مستقلٍّ به.

وأما القاضي الفاضل رحمه الله، فقد قال في بعض مكاتباته إلى مصر: ومما أسُرُّ به قلبه الكريم أنني وصَلْتُ إلى دمشق المحروسة حين شردَ بردُها، وورد وَرْدُها، واخضلَّ نَبْتُها، وحَسُنَ نعتها، وصفا ماؤها، وضفا رداؤها، وتغنَّت أطيارها، وتبسّمت أزهارها، وافترَّ زهر أُقحوانها، فحكى ثغور غِزْلانها، ومالت قُضُب بانها، فانثنت تثنِّيَ وِلْدانها، فلما قربتُ من بساتينها، ولاح لي فَيْحُ ميادينها، وتوسطتُ جَنَّة واديها، ورأيتُ ما أبدعه الله فيها، سمعت عند ذاك حماماً يُغَرِّد، وَهَزاراً يشدو ويردِّد، وقُمْرياً ينوحُ. وبُلْبلاً بأشجانه يَبُوح، فوقفتُ أُثني على باريها، وأكادُ بالدَّمْع أباريها، أَسَفاً على أيام خلت بعدما حلت منها وفيها، فعند ذلك عاينت روحي، وزال أنيني ونوحي: [البسيط]

وكانت النَّفْسُ قد ماتت بغُصَّتها   فعند ذلك عادت رُوحها فيها

[وصف دمشق للوزير صفي الدين بن شكر]

قلت: ووَصَفَ أيضاً دمشق من أهل مصر مَنْ يُرْجَع إلى قوله، ويُرْضى بحكمه لفضله وفَضْله؛ وهو الوزير العادلي صفيُّ الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شُكْر[1] في كتاب «البصائر» له، فقال: دمشق نُزْهة الأبصار،

المفصل، «شرح المحاجاة في الأحاجي والأغلوطات للزمخشري»، «شرح مصابيح السنة للبغوي»، «شكوى الاشتياق إلى النبي الطاهر الأخلاق»، «الطود الراسخ في القراءة»، «عروس السمر في منازل القمر»، «عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة لفظ التجريد»، «فتح الوصيد في شرح القصيد» أي حرز الأماني، «القصائد السبعة في مدائح النبوية»، «القصيدة الناصرة لمذهب الأشاعرة»، «الكوكب الوقاد في تصحيح الاعتقاد»، «لواقح الفكر في أخبار من غبر»، «متشابهات الكتاب»، «مراتب الأصول وغرائب الفصول» في القراءات، «المفضل في شرح المفصل» للزمخشري، «منازل الإجلال والتعظيم في فضائل القرآن العظيم»، «مناسك الحج»، «منير الدياجي في شرح الأحاجي»، «منهاج التوفيق في معرفة التجويد والتحقيق»، «نثر الدرر في ذكر الآيات والسور»، «الوسيلة إلى كشف العقيلة»، «هدية المرتاب وغاية الحفظ والطلاب» منظومة في القراءات، وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٧٠٨ ـ ٧٠٩).

(١) ابن شكر: هو صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي بن الحسين بن عبد الخالق الشيبي الدميري المالكي المعروف بابن شكر، من وزراء الأيوبية بمصر، ولد بدميرة سنة ٥٤٨هـ، وتوفي بالقاهرة في شعبان من سنة ٦٢٢هـ، صنف كتاباً في فروع المالكية، كان كل من حفظه نال منه حظاً وافراً (كشف الظنون ٥/ ٤٦٠).

وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومَغْرِسُ الأشجار، ومُعَرَّس السُّفَّار، ومعبد الأبرار، المستغفرين بالأسحار، ظِلُّها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب، وعَيْبُها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المَرْوِيَّة المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ونسيمها العليل، وهجِيرُها الأصيل، وماؤها السَّلْسبيل. وقد شرَّفها الله تعالى بالذِّكْر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المبين: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولم تزل مقرَّ البركات، ومَعْدِن النُّبوَّات. ومنزل الرِّسالات، ومسكنَ أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بُقْعتها من الأخبار ما لا يشك في صحة إسناده، قال رسول الله ﷺ: «الشَّام صفوة الله من بلاده، فيها خِيرةُ الله من عِباده»[(١)]. ونبَّه في خبرٍ آخر على عظم فَضْله، فقال: «إن الله تكفَّل لي بالشَّام وأَهْله»[(٢)] وركب في سُكْناها أهلُ الإسلام بقوله عليه السلام: «البركة في الشَّام»[(٣)]. وذهب بعضُ المفسِّرين من أهل الاجتهاد إلى أنها ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: ٧، ٨].

قال: ولما أنعم الله تعالى عليَّ بإسكاني في فِنائها، وتخيري لبنائها، ونَزَّهني في أفنانها، وآنسني بإنسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت بإدراك البصر منه إدراك المسامع، فلما وصلت إليه، وحللتُ الحُبَى لديه، رأيتُ مرأًى صَغَّر الرواية، ورونقاً حصل من الحسن على النِّهاية، ونوراً يجلو الأبصار، وجمعاً يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآناً يُتْلى في آناء

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٠١، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٥٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٦٢، والفتني في تذكرة الموضوعات ١١٩، والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٥٤٤، ٢/ ٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٠٩، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١٦٠، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٢، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٠، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة ١/ ٢٤٢، وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣١١. وابن حبان في صحيحه ٧٢٠٣.

(٣) روي الحديث بلفظ: «اللهم بارك لنا في شامنا»، أخرجه بهذا اللفظ البخاري ٢/ ٤١، ٩/ ٦٧، والترمذي حديث ٣٩٥٣، وأحمد في المسند ٢/ ٩٠، ١١٨، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٦٢٦٤، والعجلوني في كشف الخفا ١/ ٢١٥، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٣٠٥، وأبو الشيخ في أخلاق النبوة ص٢٣٥، وابن كثير في تفسيره ٣/ ١١٣، وابن حجر في فتح الباري ٢/ ٥٢١، ٤/ ٩٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٩، والبغوي في شرح السنة ٤/ ٢٠٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٣٨٤، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٧٩.

الليل وأطراف النَّهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الأعمار. والبركاتُ تَحُفُّ بجوانبه، والعلومُ تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسولِ الله ﷺ تُسْنَدُ وتُرْوَى، والمصاحفُ بين أيدي التَّالين تُنْشَر ولا تُطْوى، وأعلام البِرِّ فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تُزْوى، والخَلْقُ منقسمون إلى حَلَقٍ، قد نبذَ أهلها ما وراءهم من العُلَق. والإسلامُ فيه فاشٍ، والجهل به مُتلاشٍ، وهو مما بناه الأولون لعبادتهم، وجعلوه ذُخْراً لآخرتهم، وما بَرِحَ مَعْبَداً لكلِّ مِلَّةٍ، اتخذته المجوس واليهود والنَّصارى قبل الإسلام هيكلاً وقِبْلَة، وهو بيتُ المتقين، وسوق المتصدِّقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين.

قال: وعاشرتُ أهلها وباشرتهم، ثم كاشرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادةً أدباء، وعلماء نجباء؛ رأيتهم يتناظرون في الفِقْه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جَدَده، ويفسِّرونه عن عِلْم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ما وردت به ثقاتُ الآثار. وعامَّتُهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضلَ الرِّياش، لا يخوضون في لَغَطٍ ولا إكثار، ولا يجتمعون على فسادِ نيَّة في مقيمٍ ولا بعيد الدار.

قال: فأقمتُ منها في أشرف البُلْدان التي هي أُنموذج الجِنان، وعنوان الدَّار التي خازنها رِضْوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنُّفُوسُ بالخير دون الشَّرِّ آمرة.

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: كانت إِرْبل وما يجري معها من البلاد والقلاع من ولايات المَوْصل معدودة، فأراد صاحب إِرْبِل أن ينفرد عنه ويستبدّ بالبلاد، فاعتزى إلى السُّلْطان، وكاتبه وطلب منه منشوراً ببلاده، فكتبه له، وفيه: إن الله لما مكَّن لنا في الأرض، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفَرْض، رأينا أن نقدِّم فرض الجهاد في سبيل الله، فَنُوضِحُ سبيله، ونُقْبِلُ على إعلاء الدين وننصر قَبِيلَهُ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه، ونجمعُ كلمتهم في رفع كلمته العليا في أَرْضه، على استنزال نَصْرِهِ من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يَحْظَى من عوارفنا الجزيلة بِحُسْنِ الصَّنيعة، ونُجْح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه وأعرض عن حَقِّ دينه بالإقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه، وإن أَصَرَّ على غَوَايته أزلنا يده وعَزَلْناه.

تفصيل ما كتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها، جميع ما قطعه الزَّابي الكبير، شهْرَزُور وأعمالها، معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابلي، الدَّشْت والزرزارِيَّة.

[وفاة قطب الدين إيلغازي]

قال العماد: وفي مستهل جُمادى الآخرة من هذه السنة توفي صاحب مارِدِين، وهو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق، والأمراء الأَرْتُقية هم الذين رتقوا فُتوق الإسلام أولاً، وكانوا يتولّون بيت المقدس، وحموه من الفرنج قبل المِصْريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المِصْريين، فبقي السَّاحل كلُّه مع أهل الشِّرْك، فَحَمَتِ الأُرْتُقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابراً عن كابرٍ إلى أن انتهى إلى هذا قُطْب الدين أعمال مَيَّا فارِقِين ومارِدِين، فلما مات بقيت على ولده، وله عَشْرُ سنين، وانتهى إلى ابن عَمِّه نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سُكْمان بن أُرْتُق حصن كيفا وخَرْتَبِرْت، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السّلْطان إليه آمِد. وقد كان قطب الدين أولاً على مصافاة صاحب المَوْصل لما بينهما من القَرَابة، ثم أذعن للسُّلْطان، ودخل تحت طاعته.

[وفاة يوسف بن عبد المؤمن]

قلتُ: وفي هذه السنة أيضاً توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي(١)، وولي ابنُه يعقوب.

قال القاضي ابن شَدَّاد: وبعد عَوْدِ السُّلْطان من حصار الكَرَك، وصل رُسُل الخليفة ومعهم الخِلَع، فَلَبِسَها السُّلْطان، وأَلْبَسَ أخاه العادل وابن أسد الدين خِلَعاً جاءت لهما، ثم خَلَعَ السُّلْطان خِلْعة الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستوراً، فسار إلى بلاده، ووصلت رسل زين الدين بن زين الدين مستصرخاً إلى السُّلْطان، يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إرْبل مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نُصِرَ عليهم وكَسَرَهم.

فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلُبُ البلاد، وتقدَّم إلى العساكر، فتبعته، وسار على طريق المغار ويبوس البقاع إلى بَعْلَبك، ومَرِضَ العماد، فانقطع بها، وسار السُّلْطان إلى حمص، ثم إلى حماة، فأقام بها إلى أن شُفِيَ العماد، ولحقه

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٢٦ ـ ١٢٧: ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب. وانظر ترجمته أيضاً في سير أعلام النبلاء ٢١/٩٨.

بها. وكان الأَجَل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم بن المطران، واسمه أسعد بن إلياس إلى العماد ببعلبك لَمَّا سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طبَّ لمن حَبَّ، فبرئ بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه رحل إلى السُّلْطان، فوافقه بحماة.

[وصول السلطان إلى حلب وخروجه منها قاصداً الموصل]

ودخلت سنة إحدى وثمانين(١)

قال العماد: والسُّلْطان مخيِّم بظاهر حماة، فسار إلى حلب، وتلقَّاه أخوه العادل، واجتمعت له بها العساكر، فخرج منها في صفر لقصد المَوْصل، فسار وقطع الفُرَات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السّلْطانُ قد سيَّر إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأَمَر أهلها بعمارة كل سفينة في الفُرَات، وزورق ومَرْكَب، وجمعها من كل مَشْرِقٍ ومغرب. ثم وصل إلى حرَّان، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إرْبِل، وقد كان أوَّل من دخل في خدمة السُّلْطان أول ما قصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتماء إلى السُّلْطان، وحضر معه حصار عِدَّة بلادٍ كالمَوْصل وسِنْجار وآمِد وحَلَب، وأظهر من المودَّة فوق ما كان في الحساب، وكان كثيرَ الحَثِّ للسُّلطان على المسير إلى الموصل هذه المرَّة برسوله وكتابه، وقال رسوله للسُّلْطان: إن مُظَفَّر الدِّين إذا عبرتُم الفرات يستدرك كلَّ ما فات، ويقوم بكل ما تحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، ويُقَدِّم يوم الوصول إلى حرَّان خمسين ألف دينار، وكتب خَطَّه بذلك.

فلما وصل السُّلْطان إلى حَرَّان لم يَرَ منه ما التزمه الرسول، فارتاب به، وظَنَّ أنه مال مع المواصلة، ووَشَتِ الأعداءُ فيه بذلك، وأن نِيَّته قد تغيَّرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغيَّر، وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره، وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبضَ السُّلْطان على مظفَّر الدين ليتبيَّن أمره، وشاور فيه أصحابه، فأشار بعضُهم بإتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه، فعفا السلطانُ عنه على أن يُسلِّم قلعتي الرُّها وحَرَّان، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أُعيدت إليه القلعتان في آخر السنة؛ لما رأى السلطانُ من حركاته المُسْتحسنة.

---

(١) وخمسمائة.

قال القاضي ابن شَدَّاد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة، والتقاه مظفَّر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرَّم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام ـ يعني المَوْصلي ـ رسولاً ـ واسمه إبراهيم بن علي بن عبد السلام، ويُكنى بأبي الخليل ـ فلقيه بحماة يعتذر مما جرى، فأعطاه دستوراً بعد أن أكرمه، وسار من غير غَرَض.

قلت: وصحب ابنَ عبد السلام في هذه السفرة من الموصل عمرُ بن محمد المعروف بابن الشِّحْنة[١]، فمدح السلطان بقصيدةٍ، أولها: [الطويل]

سلامُ مشوقٍ قد براه التشوقُ ... على الحَيِّ من وادي الغَضَا إذ تَفَرَّقوا

فلما بلغ من مديحها إلى قوله:

وقالتْ لي الآمالُ إن كنتَ لاحقاً ... بأبناءِ أيوبِ فأنت المُوَفَّقُ

قال له السلطان: لقد وفِّقْتَ. وأجازه جائزةً سنية.

ثم قال القاضي: وتقدَّم السلطان إلى سيف الدين المَشْطُوب أن يسير في مقدِّمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حرَّان في الثاني والعشرين من صَفَر.

وفي السادس والعشرين منه قَبَضَ على مُظَفَّر الدين لشيء كان جرى منه، وحديثٍ بلَّغَهُ عنه رسولُه ولم يقف عليه، وأنكره، وأخذ منه حَرَّان والرُّها، ثم أقام في الاعتقال تأديباً إلى مستهلِّ ربيع الأول، ثم خلع عليه وطَيَّب قلبه، وأعاد عليه قلعة حَرَّان وبلاده التي كانت بيده، وأعاده إلى قانونه في الاحترام والإِكرام، ولم يتخلَّف له سوى قلعة الرُّها، ووعَدَه السُّلْطان بها.

ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حَرَّان إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأَسْرهم قد اتفقت كلمتُهم على قَصْدِ السلطان إن لم يَعُدْ عن المَوْصل ومارِدِين، وأنهم على عَزمْ ضَرْبِ المصافِّ معه إن أَصَرَّ على ذلك، فرحل السلطان يطلب دُنَيسر، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطان واحترمهم، ثم رحل من دُنيسر نحو المَوْصِل حتى نزل بموضع يُعرف بالإِسماعيليات قريب الموصل، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبةً جَريدةً تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه، فأعطاه دستوراً.

---

(١) ابن الشحنة: هو مهذب الدين، أبو حفص، عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر، توفي سنة ٦٠٦هـ (وفيات الأعيان ٧/ ٢١١).

[خروج السلطان من حران نحو الموصل وحصاره لها]

وقال العماد: خرج السلطان من حرَّان في ربيع الأول، فَمَرَّ على رأس عين ودارا، فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر وآمِد نيابةً عن أخيه نور الدين، فإنه كان مريضاً، ثم رحل إلى نَصِيبين، وقَدِمَ صاحب الجزيرة سِنْجر شاه ابن أخي صاحب المَوْصِل، فأكرمه السُلْطان، ثم سار من أقرب الطُّرُق من دِجْلة، وتنكَّب طريق الدَّوْلَعِيَّة، فنزل على بَلَدٍ آخِرَ ربيع الأول، ثم توجَّه إلى المَوْصِل، وخيَّم على الإسماعيليات. وقَدِمَ على السلطان زين الدين صاحب إِرْبِل، وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قِبَل الإسماعيليات إرسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن الشَّهْرُزُوري إلى الخليفة بما عَزَمَ عليه من حَصْرِ المَوْصِل، فإن أهلها يواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القائم، وناقِشُو اسمه في الدَّنانير والدَّراهم، وأنهم يتعزَّزون بالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطَّاعةِ له والإذعان، وأنهم يرسلون إلى الفرنج، ويقوون نفوسهم على قَصْدِ الثُّغور، وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعاً في استضافة مُلْك، ولا استزادة سِلْك، ولا قَلْعِ بيتٍ قديم، ولا قَطْعِ أصلٍ كريم، وإنما مقصوده الأصلي ومطلوبه الكُلِّي ردُّهم إلى طاعة الإمام ونُصْرَةِ الإسلام، وكَشْفُ ما اعتادوه واعتوروه من الظُّلْم والظَّلام، وفَطْمُهُمْ عن استحلال الحرام، وقَطْعُهُمْ عن مواصلة الأعجام، وإلزامُهم بما يجب عليهم من حِفْظ الجار وَصِلَةِ الأرحام؛ فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل، ولي عهد أبيه، لم يَرْعَ فيه ذِمَّة أخيه، وأبعده عما استحقَّه بالإرث والتولية، وحَرَمَه ما يستوجبه من التَّرْبية والتَّلْبية، وأخافَ حُرَمَه، وقَطَعَ رَحِمَه، ولو تمكَّن منه لأطاح دَمَه، ولولا خوفُه من جانبه، وتوقِّيه من دبيب عقاربه، لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب. وهذا صاحب إربل جار الموصل، أبوه زين الدين عليٌّ هو الذي حَفِظَ بيتهم، وخلف في أحيائهم ميتَهم، وهذا ولده في جوارهم يشكو جَوْرَهُمْ، وحديث صاحب الحديثة في حادثةٍ لا تخفى، وعَيْنُ مَنْ بتكريت من مخافتهم وآفتهم لا تكرى.

قلت: وفي بعض الكتب الفاضِلِيَّة عن السُلْطان إلى الدِّيوان: وكان قد تحيَّز إلى الخادم في وَقْت حركته صاحبُ تكريت والحديثة، وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذاناً مخصَّصاً إلا لمحلِّهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته

إلى ما يجري في خاصِّ الديوان العزيز مع غيرهما، مما يجري مجراهما في القُرْب من الجوار، والدخول في ذمام شَرَفِ تلك الدَّار، فإن أذِنَ له استثناهما في صُلْح إن تَمَّ معهم، أو حماهما مع مباينته إن اختار المشار إليهم البقاء عليها، وهذا بُرْدُ شَرَفٍ قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الخط الشَّريف نَظَمَ الفخار منتظمه.

ومن كتاب آخر: وما كُنَّا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطعِ كَفِّه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حَدَّ السِّنان مضطراً في حكمه.

وأصحب العمادُ الرسولَ قصيدةً مدح بها الصاحب مجد الدين أبا الفضائل، أولها: [الطويل]

قضى الوَجْدُ لي أن لا أُفيق من الوَجْدِ ... فيا ضلَّة اللاحي إذا ظَنَّ أَنْ يَهْدي
مُحِبُّكُمْ جَلْدٌ على كلِّ حادِثٍ ... ولكن على هِجْرانِكُمْ ليس بالجَلْدِ
ببغداد حُطُّوا رَحْلَكُمْ ليخصَّكُمْ ... أبو الفَضْلِ مَجْدُ الدِّين بالفَضْل والمَجْدِ
رآه الإمام النَّاصر الدين ناصراً ... فحاول تعويلاً على مَجْدِهِ المُجْدِي

ومنها:

إليكَ صلاحُ الدِّين ألجأَ أمرَهُ ... فَحُطْ رُكْنَهُ والعقد بالشدِّ والشَّدِّ
مليكٌ على حَرْبِ العَدُوِّ مُصَمِّمٌ ... وما زال فيه غالبَ الجَدِّ والجُنْدِ
تُساوِرُ أفواه الجِرَاحِ رِماحُهُ ... مساورةَ الأميال للأَعْيُنِ الرُّمْدِ
يُحِلُّ المنايا الحُمْرَ بالكُفْرِ مُجْرياً ... دَمَ الأصفر الرُّوميِّ بالأبيضِ الهِنْدِي
وما لأمير المؤمنين كيوسفٍ ... فتًى في مراضيه بمُهْجَتِهِ يفدي

قال: وشرع السُّلْطان في إقطاع البلاد، والتوقيع بها على الأجناد، وسيَّر الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكَّاري، ومعه الأمراء من قبيلته، والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعةٍ من الأُمراء الحميدية إلى العَقْر وأعمالها، لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها. ونُصِبَ الجسر، ومُلِك الأمر، وعبر مُظَفَّر الدين صاحب حرَّان وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغَرْبي، وكان الحَرُّ إذ ذاك شديداً، فأمر السلطان بالصَّبْر عن القتال إلى أن يطيب الزَّمان. وأهل الموصل في الحصار، وأُشير عليه بتحويل دِجْلة ـ وكان ماؤها قد قَلَّ ـ بطريق ذكره خبيرٌ بها، زعم أنه يمكن سَدَّ دجلة وسَكْرَها، وَبَثْقَ فُرْضَةٍ أُخرى وكَسْرَها، ونقلها وتحويلها إلى دِجْلة نينوى، وتعطش المَوْصِل إذا الماء عنها انزوى، وعُرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدَّهَّان

البغدادي[١] ـ وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفَضْلِ وعين إنسانه، وكان منذ عهد قديم سكن المَوْصِل في ظل كبير من أصحاب زين الدين عليٍّ، ولما سمع بكرم السُّلْطان تفيأ بظله، وتعرَّف إلى فَضْله ـ فصدَّق المشيرَ بذلك، وقال: هذا ممكن ولا يتعذَّر، ويتيسَّر ولا يتعسَّر.

ومن كتابٍ عمادي إلى بغداد: وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذٍ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضررٍ في تضييق ولا نزال.

فَـصْــلٌ

فيما فعل السُّلْطان في أمر خِلاط ومَيَّافارقين وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خِلاط، فتحوَّل إليها العَزْم، وترجَّح بها الحَزْم. وكان ورود موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التَّاسع منه، ولم يُخلِّف ولداً ولا ذا قَرَابةٍ يكون خلفاً له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بَدْليس وغيرها إلى السُّلْطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولَّوها، فاختلف النَّاس على السلطان، فمن مشيرٍ بالإقامة إلى انفصال أمر المَوْصِل، ومن مشيرٍ بالمسير إلى بلاد الأرمن، فإن الموصل غير فائتة، ومِن قائلٍ بانقسام العسكر في الجهتين، فترجَّح رأي السُّلْطان على المسير إليها، فكَتب إلى الخليفة يطلُب منه كتابَ تقليدٍ ببلاد الأرمن وديار بكر والمَوْصل، فجاءه بعد فتح مَيَّافارِقِين مثالٌ شريف بتقليده النَّظر في أمر ديار بكر، والنظر في مصالح أيتام ملوكها.

ثم رحل السلطان عن المَوْصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدَّم في مقدِّمته ناصر الدين محمد بن شِيركُوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حَرَّان، وأمرهما أن

(١) ابن الدهان البغدادي: هو محمد بن علي بن شعيب، المعروف بابن الدهان، فخر الدين أبو شجاع الحاسب الفرضي البغدادي، أقام مدة بالموصل ثم بدمشق فأكرمه صلاح الدين، توفي راجعاً عن الحج بالحلة في صفر من سنة ٥٩٠هـ، له من الكتب: «تاريخ»، «تفسير المجرد»، «تقويم النظر في الخلاف»، «مجدول على وضع تقويم الصحة»، «الزيج المشهور»، «غريب الحديث»، «المائدة والفائدة في النوادر والفرائد»، «المنير في الفرائض» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٠٣).

يسيرا إلى خِلاط من أقرب الطُّرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بَكْتَمُر من مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلَّب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشَّرْق، وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن إيلدكز متولِّي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يُظْهر للسلطان المودَّة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القُرْب، فهو أشدُّ للإرهاب والرُّعب. ففعل، ولو خلاه لسبق إليها.

وقيل: إن هذا الوزير أنفذ إلى بهلوان، وأمره بالإتيان، وأظهر له المودَّة والإحسان، ولما تَمادى الزمان، وقرب منها البهلوان، راسله بَكْتَمُر، وحمل إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن من الأموال التي أُودعت المخزن، ونَدَبَ السُّلْطان إليها الفقيه ضياء الدِّين عيسى، فدخلها وتخلَّلها، وتأمَّلها، وتكلَّم مع الوزير وشاوره، فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء ليتملَّك المكان، ولو استعجلتم لسَهُلَ ما صَعُبَ الآن وهان. ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ما كان.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خِلاط، وولي بعده غلامٌ له يُدْعى بَكْتَمُر ـ وهو الذي كان وصل رسولاً إلى خدمة السلطان بسِنْجار ـ فعدَلَ وأحسن إلى أهل خِلاط، وكان متصوِّناً في طريقته، فأطاعه النَّاس ومالوا إليه. ولما ملك خلاط امتدَّت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن الدكز[1]، فلما بَلَغه ذلك سيَّر إلى خدمة السلطان من يقرِّرُ معه تسليم خلاط إليه، واندراجه في جُمْلته، فطمع السُّلْطانُ بخلاط، وارتحل عن المَوْصل متوجِّهاً نحوها، وسيَّر إليه الفقيه عيسى وغَرْس الدِّين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرُّسُل وبهلوان وقد قارب البلاد جداً، فخوَّف بهلوان من السلطان، وأشعره أنَّه إن قصده سلَّم البلاد إلى السُّلْطان. فطلب بهلوان إصلاحه، وزوَّجه ببنتٍ لهم وولَّاه، وأعاد البلاد إليه، واعتذر إلى رُسُلِ السلطان، وعادوا من غير زُبْدَةٍ. وكان السلطان قد نزل على مَيَّافارِقين، فحاصرها وقاتلها قتالاً عظيماً، ونصب عليها مجانيق، وملكها في آخر جُمادى الأولى.

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السُّلْطان، وكان قد مات صاحب مارِدِين كما تقدَّم، وبقيت الولاية لولده الكبير، وله عَشْرُ سنين، وكان

(١) البهلوان بن الدكز: هو أتابك شمس الدين محمد بن أتابك الدكز، كان صاحب الجبل والري وأصفهان وأذربيجان، ولي سنة ٥٦٨هـ، وتوفي سنة ٥٨٢، وسترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٨٢هـ، من هذا الجزء.

القائم بتدبير مُلْكه نظام الدين بن البُقش. ومات أيضاً صاحب آمِد نور الدين محمد بن قرا أرسلان[١] رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سُكْمان، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يستردَّ بلاد آمد منهم، فنفَّذ السلطان إليهم شمس الدين بن الفَرَّاش[٢]، ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدهم على الطَّاعة مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين. ووصل السلطان في جُمادى الأُولى إلى مَيَّافارقين، وكان قد دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقاتله، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورغَّبه في الموادعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب مارِدِين الذي توفي، فأحال الأسدُ الأمرَ على الخاتون، فراسلها السُّلْطان ورغَّبها، وضمن لها كل ما تطلبه منه، ووعدها أن يصاهر إليها، فما زال بها وبالأسد حتى لانا، فقرَّر السلطان لها كل ما كان باسمها واسمِ خُدَّامها، وطلبت حصن الهَتَّاخ ليكون لها عُشًّا للأفراخ، وزوَّج السلطان ابنه معز الدين إسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى بَذْلِ كل ما اقترحوه، وفُتحت مَيَّافارقين. وأقبل صاحب آمد قطب الدين سُكْمان بن نور الدين على صِغَرِ سِنِّه إلى خدمة السلطان، فأكرمه، وأعاده إلى منصبه، وكان معه وزيره قِوامُ الدين أبو عبد الله محمد بن سماقة، وقُتِلَ غِيلَةً في رمضان من هذه السنة كما سيأتي.

[عودة السلطان إلى الموصل لحصارها]

ثم سار السلطان لقصد المَوْصل، وولَّى تلك الدِّيار مملوكه حسام الدين سُنْقُر الخِلاطي، فنزل السلطان على دِجْلة بكَفْر زَمَّار بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أن يشتِّي في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتابكيَّات معرِّضات للشفاعة، فأكرمهن السُّلْطان، ووعدهنَّ بالإحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لا بُدَّ من مصلحةٍ تتم، ومصالحة نفعها يعمُّ. واستقرَّ الأمر على أن يكون عماد الدين زَنْكي صاحب سِنْجار أخو صاحب المَوْصل وسيطاً في البين، وحَكَماً فيما يعود بمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة، ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطَّف وتلطَّف لأجلهن وإجلالهن، وأتى من الكرامة بما يليق

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٣٣: ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن.

(٢) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش، كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان إلى ملوك الآفاق، ومات بملطية سنة ٥٨٨هـ. (البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٩).

بأمثالهن. وكن ظننَّ أنَّه لا يقيمُ لحرمةِ قصدهن، ويُصَدِّق ظنونهن، وأنه يعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولا يشتغل بأمرٍ لا يؤذن بمرادهن دونهن. فدخلن البلد متلومات متذمِّمات، وبلطف الله لائذات معتصمات.

فـصـل

في انتظام الصُّلْح مع أهل المَوْصل ومرض السُّلْطان المرضة المشهورة بحرَّان(١)

قال العماد: وكان السُّلْطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحِفْظه، واشتغل بالصِّيام والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه وتغيَّر مزاجُه، وتعذَّر علاجه، وطال مرضه، وندم على رَدِّ الشَّوافع(٢)، وسيَّر إلى عماد الدين صاحب سِنْجار في إنفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله. فوصل رسوله شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شَهْرُزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزَّابين من البَوَازيج والرُّسْتاق، وبلد القرابليَّة وبني قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي، وشمس الدين قاضي العَسْكر(٣) من جانبنا إلى المَوْصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السُّلْطان قبل عيد الفِطْر بيوم، وهو من بحر بُحْرانه في عَوْم، وخيَّمنا على نَصِيبين في شوَّال، ولم نترقب عود الرسول بنجاز الأشغال، بل كان الارتجال على الارتحال، ثم استمر الصُّلْح، وصَلُح الأمر، وخُطِبَ في جميع بلاد الموصل للسُّلْطان بعد قطع خطبة السَّلْجوقية، وفي ديار بكر أيضاً والولايات الأَرْتُقية، وضُرِبَ باسمه الدِّينار والدِّرْهم، وانحلَّ الإِشكال وكشف المبهم.

وكتب العماد عن السُّلْطان كتاباً إلى أخيه سيف الإِسلام باليمن بشرح الحال، وفيه: ونزل لنا صاحب المَوْصل عن جميع ما وراء الزَّاب من البلاد والقلاع والحصون والضياع وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق، وولاية القرابلي والبوازيج وعانة، وقرَّرنا عليه المَوْصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا، وتكون الخطبة والسِّكَّة باسمنا، وأن يطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم، وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٣٤ ـ ١٣٥: ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتابك عز الدين.

(٢) انظر الصفحة السابقة: حيث خرجت من الموصل نساء أتابكيات معرضات للشفاعة.

(٣) هو القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، ابن الفراش تقدّم ذكره قبل قليل.

بكر الطَّاعة والسِّكَّة والخُطْبة، وعمَّت الهيبة والرَّهْبة، والعزائمُ إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع.

قال: ونفَّذ السُّلْطان إلى شَهْرُزُور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك، فتملَّا بها وتملَّك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الإِيوانية مستولية بها، فشتَّت شملها وندب للنَّظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفَرَّاش، وأقطع البَوَازيج لبعض خواصِّه المماليك، وسيَّر إلى البلاد نوَّابه، ورتَّب فيها لإقامة سُنَنِ العَدْل والإِحسان أصحابَهُ، ووقف ضيعةً بالبوازيج تُعرف ببافيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: لما أيس السُّلْطان من أمر خِلاط، وعاد إلى المَوْصل، فنزل بعيداً عنها ـ وهي الدفعة الثَّالثة ـ بموضع يقال له كَفْر زَمَّار، وكان الحرُّ شديداً، فأقام مُدَّة، وفي هذه المنزلة أتاه سِنْجر شاه من الجزيرة، واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكَفْر زَمَّار مرضاً شديداً، خاف من غائلته، فرحل طالب حَرَّان وهو مريض، وكان يتجلَّد، ولم يركب في مِحَفَّة، ووصل حَرَّان شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضَّعْف، وأُيس منه، وأُرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل من حلب ومعه الأطباء.

قال: وكان سببُ صُلْحه مع المواصلة أن عِزَّ الدين صاحب المَوْصل سيَّرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زُبْدَة، وسيَّر إلى العجم، فلم يحصل منهم زُبْدَة، فلما وصلتُ من بغداد، وأدَّيت جوابَ الرِّسالة، أيس من نجدة، فلما بلغهم مرضُ السُّلْطان رأوا ذلك فُرْصة، وعلموا رِقَّة قلبه وسُرْعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لذلك الأمر، وبهاءَ الدين الربيب، وفُوِّض إليَّ أمر النُّسْخة، وقالوا: أَمْضِ ما يصل جهدكم وطاقتكم إليه. فسرنا حتى أتينا العسكر، والنَّاسُ كلُّهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحِجَّة، فاحْتَرَمنا احتراماً عظيماً، وجَلَس لنا ـ وكان أول جلوسه من مرضه ـ وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين، أخذها من سِنْجر شاه وأعطاها المواصلة، وحَلَّفْتُهُ يميناً تامَّةً، وحلَّفْتُ أخاه العادل ـ ومات قدَّس الله روحه وهو على ذلك الصُّلْح، لم يتغيَّر عنه ـ وسرنا عنه وهو بحَرَّان قد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عَرَفة، ونحن في العَسْكر، وجلس العادل في العَزَاء.

وفي تلك الأيام كانت وقعة التُّرْكُمان والأكراد، وقُتِلَ بينهم خَلْقٌ عظيم.

وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكز[١]، وكانت وفاتُهُ في سَلْخ ذي الحِجَّة.

قال العماد: وأقام السلطان على نَصِيبين أياماً قلائل، ثم رحل إلى حَرَّان فألقينا بها عصا النَّوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القُوَى، متواصلة الجَوَى، والفَضْلُ خائف من كساده، آسفٌ على عَتَاده، مُشْفِقٌ من انخفاض قَدْره وانقراض عَصْره، والسَّماح يقول: هذا أوان كسوف سمائي، ونضوبُ مائي، والدِّين يُنْدَب، والمُلْك يصخب، والأيدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنِّيات بالإخلاص مشفوعة، والكُفْر في أراجيف، والقَدَرُ في تصاريف، والسُّلْطان كلما زاد ألمه زاد في لُطْف الله أَمَلُه، وكلَّما بان ضَعْفُه قَوِيَ على الله توكُّله، وأنا ملازِمُهُ ليلاً ونهاراً، سِرّاً وجِهاراً، وهو يُمْلي عليَّ في كلِّ وقتٍ وصاياه، ويُفَرِّقُ بقلمي على عُفاته عطاياه، ومن جُمْلة ذلك أنَّه اشتدَّت به الحالُ ليلةً أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعُدِمَ الرَّجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه، والقاصدون المرتجون جَنَى جَنَابه، وضَجُّوا ضَجَّةً ارتجَّت منها الدَّهْماء، ولانت لسماعها الصخرة الصَّمَّاء، فسأل عن ذلك، فقيل: هؤلاء وَفْدُك، قد اجتمعوا على بابك، متأسِّفين على ما بك. فدعاني وأمرني بكَتْبِ أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزائنه من الأموال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكُنَّا نظنُّ أن ما به من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السَّماحة راحة، واستمرَّ مُدَّة استمرار مَرَضِهِ على بَذْلِ جَوْهر ماله وعَرَضه. وكان خلُقُه أحسن ما كان في حال الصِّحَّة، يخاطبنا بسجاياه السهلة السَّمْحة، ولا يخلو مجلسُه من أولي فَضْلٍ، وذوي نباهة ونُبْل، يتجاذبون بحضرته أطرافَ الفوائد، ويهزُّون لمكارمه أعطافَ المحامد، فتارةً في أحكام شرعية ومسائل فقهيَّة، وآونةً في صناعات شِعْرية، وألفاظٍ عربية، ومعانٍ أدبية، ومرةً في أحاديث الأجواد وشِيَم الأمجاد، ودفعةً في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له والاستعداد، وينذُرُ أنه إنْ خلَّصه الله من نَبْوةِ هذه النَّوبة، وأعفاه من كَدَر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصَّافية الحُلْوة، اشتغل بفتح البيت المقدَّس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقيَّة عمره إلا في قتالِ أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام والإقبال على قبيله، وأنه لا يترك شيمة الجود، والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وإنجاز الموعود.

قال: وربما اسْتَرْوَحَ في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لإشارة

(١) تقدّمت ترجمته قبل قليل.

الأطباء به لأجلِ التفريج والإمتاع، ولقد كان ذلك المرضُ تمحيصاً من الله للذُّنوب وتنزيهاً، وتذكرةً مُوقظةً من سِنَةِ الغَفْلة وتنبيهاً.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السُّلطان، ووصوله إلى حرَّان، بادر بالوصول، وصادف وقت القَبُول، وقام بضبط الأُمور، وسياسة الجُمْهُور، والجلوس في كلِّ يوم في النُّوبتية السُّلْطانية، لتولي مصالح الرَّعيَّة، وإقامة وظيفة السِّماط، والعمل في كلِّ يوم بالاحتياط، والتصدِّي لكشف المظالم، وبَثِّ المكارم، وتنفيذ ما يخرج من المراسم، ورَقْع كلِّ خَرْق، ورَتْقِ كل فَتْق، وحِفْظ المَهَابة، والقيام عن السُّلْطان في كلِّ مُهِمٍّ بحُسْنِ النِّيابة، ولقد نفعنا حضورُه، ورفعنا تدبيره، فقد كُنَّا على خَوْفٍ من إرجاف يقوى، وانتشار خبر سوءٍ لا يُطْوى، لا سيَّما إذا خرج الأطباء وقالوا: ما فيه أمل، ولكلِّ عُمر أجل. فهناك ترى النَّاس يستشعرون، وبإبعاد ما يَعِزُّ عليهم من أعلاقهم ودوابِّهم يستظهرون، فزال بحضورِ العادلِ كل مخافة، وسلَّم الله برأفته من كلِّ آفة. وكان الملك العزيز عثمان ولد السُّلْطان مع أبيه، مُقْتَدٍ بمعاليه، مقتفٍ لمراضيه، وكان من جُمْلة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجِّي شفائه: إن أدركني المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلَّفت أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليّاً؛ فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشَّام ومِصْر المعوَّل.

وأقام العادل إلى أن وَضَحَ المزاج، وصحَّ المنهاج، وطابت القُلُوب وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه إلى حلب، وتمَّ معه إلى حمص ودمشق، وهَبَّ له نسيم مصر، فاستجدَّ إلى نَشْرِهِ النَّشْق. وسيأتي ذكر مُضِيِّه إلى مِصْر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصول الملك الأفضل من مصر وبعده الملك المُظَفَّر تقي الدين.

قال العماد: وكانت صدقاته الرَّاتبة دارَّة، وبالأبرار بارَّة، على أن جُوده مُسْتَوْعِبُ الموجود، ولا يترُكُ فَضْلاً للوفُود، ولما مرض، وعَرَضَ له من الألم ما عَرَض، قال لي: اكتب إلى الولاة والنُّوَّاب بالدِّيار المِصْرية والشَّامية أن يتصدَّقوا على الفقراء والمساكين من المال المُعَدِّ للحمل بما نَصَّ على قَدْره في التعيين. فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصَّالحات منِ الله لدعائه مجيب. فدفع بالصَّدَقة البلاء، ورفع للصِّدْق الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سناء مِنَنِهِ السَّنِيَّات، ومن جُمْلَة تلك الصَّدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق

الصفي بن القابض أن يتصدَّق بخمسة آلاف دينار صُوريَّة[١]، فقلت: ما عنده غير دنانير مِصْرية، فقال: يتصدَّق بها مصرية خمسة آلاف، لنفوز من الثَّواب بأضعاف.

قال: ولما امتدَّ زمانُ مرضه أمر ببناء دارٍ عند سُرَادقه وحمَّام، فَبُنِيَتْ في أربعة خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصَّغيرين تُورانشاه ومَلِكْشاه وأمهما، وأسكنهم فيها مُدَّة مقامه، وسماها دار العافية، للبُرْء فيها من سَقَامه، ثم خلاها لمن ينزل بها ضيفاً، وجعلها للآوين إليها وَقْفاً. وبعدها اتصلت المُواصلة بين السُّلْطان والمَواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة، لصاحب المَوْصل ولوالدته ولصاحبته ولابنة نور الدين رحمه الله، وقوِّم ما سيَّره إليهم بما يربي على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطِّيب، والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السَّداد، وتجهَّزوا في النُّصْرة النَّاصرية ـ على ما سيأتي شَرْحُه ـ إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدَّس وسائر البلاد، وتجدَّدتِ الفتوح، وأنجدت الملائكة والرُّوح، وامْتُحَتْ[٢] باليُسْر العُسْرة، وصَحَّتْ بحطين الكَسْرة، وخَصَّ الله السلطان بفضيلة فتح القُدْس، وقضى حاجاته التي كانت في النَّفْس، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ شَرْحُ كلِّ فتح في موضعه، وكيف أشرق سنا النصر في مَطْلِعِهِ.

وكتبَ الفاضلُ من دمشق إلى تقي الدين بمصر: إن العافية النَّاصرية قد استفاضت أخبارها وفاضت أنوارها وآثارها، وولَّتِ العِلَّة ـ ولله الحمد ـ وأُطفئت نارُها، وانجلى غبارُها، وخَمَدَ شرارُها، وما كانت إلا فَلْتَةً وقى الله شَرَّها، وعظيمةً كُفي الإِسلامُ أمرها، ونوبةً امتحن الله بها نفوسَنا، فرأى أقل ما عندها صبرها، وما كان الله ليضيِّع الدعاء وقد أخلصته القلوب، ولا ليوقف الإِجابةَ وإن سَدَّت طريقَها الذنوب، ولا ليخلف وَعْدَ فَرَجٍ وقد أيس الصَّاحب والمصحوب: [الوافر]

نعيٌّ زاد فيه الدَّهْرُ ميما ... فأصبح بعد بُؤساه نعيما
وما صدَقَ النَّذيرُ به لأني ... رأيتُ الشمسَ تَطْلُعُ والنُّجوما

وقد استقبل مولانا السُّلْطانُ الملك النَّاصر العافيةَ غَضَّةً جديدة، والعزمةَ ماضيةً حديدة، والنَّشاط إلى الجهاد والجنة مبسوط البساط، وقد انقضى الحساب، وجُزْنا الصِّراط، وعُرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجَمَلُ يَلِجُ في سُمِّ الخِيَاط.

ومن كتابٍ آخر: الأحوال بالحَضْرَةِ مستقيمة، والنِّعْمة بالعافية عظيمةٌ عظيمة، والبقيَّة الموهوبة من العُمْر النَّاصري كريمة القيمة، عَرَفَ وعَرَفَ النَّاس

(١) تقدّم التعريف بالدينار الصورية مراراً.
(٢) امتحت: أي انتزعت.

شكرها، ولزم ولزموا قدرها، فسيوف الجهاد قد كادت تهتزُّ في أغمادها، وخَيْلُ الله قد كادت تنادي أهلها: اركبي لميعاد طرادها، والمسجد الأقصى مبشّر تأنيسُه بما استوحش منه من القرآن، وتطهيره مما استولى عليه من رِجْس الصُّلْبان.

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة ومن توفي فيها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمِيَّة بدمشق في ذي القَعْدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، فلما توفي، وخلَّفه السلطان بالشَّام، في حِفْظ البلاد ونُصْرة الإِسلام، تزوَّج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أَعَفِّ النساء، وأعصمهن وأجلهن في الصِّيانة، وأحزمهن، مستمسكة من الدين بالعُرْوة الوثقى، ولها أمرٌ نافذ، ومعروفٌ وصدقاتٌ، ورواتب للفقراء وإدرارات، وبَنَتْ للفقهاء والصُّوفية بدمشق مدرسةً ورباطاً.

قلتُ؛ وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذَّهب قريب الحَمَّام الشركسي، والرباط خارج باب النَّصْر، راكب على نهر باناس في أول الشَّرَف القِبْلي. وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغَرْب، فهو منسوب إلى خاتون أُخرى قديمة، تقدَّم ذِكْرُها، وهي زُمُرُّذ بنت جاولي أُخت الملك دُقاق لأُمِّه، وزَوْج زنكي والد نور الدين، رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذٍ بحرَّان في بحر المرض وبُحْرانه، وعنف الألم وعُنْفُوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفاً من تزايد عِلَّته، وتوقُّد غلَّته، وهو يستدعي في كلِّ يوم درجاً، ويكتب إليها كتاباً طويلاً، ويلقي على ضَعْفه من تعب الكتابة والفكر حملاً ثقيلاً، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شِيركُوه ابن عمه، فَنُعِيَتْ إليه الخاتون، وقد تعدَّت عنه إليهما المَنُون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحِجَّة فجأةً من غير مرض، وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده.

قلتُ: وقبر الخاتون المذكورة في التُّرْبة المنسوبة إليها بسفح جبل قاسيون قِبْليِّ المقبُرة الشَّرْكسية.

وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عَمِّه ستُّ الشام بنت أيوب، فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعُوينة، فهو القَبْر الأوسط بين قبرها وقبر أخيها، رحمهم الله.

وكانت ستُّ الشَّام كثيرةَ المعروف والبر والصَّدقات.

وكتب الفاضلُ إلى تقي الدين: ورد الخبر عشيَّة يوم الأربعاء الحادي عشر من ذي الحِجَّة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة انتقل إلى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله بمرضٍ حاد أَعْجَلَ من لمح البصر ومَرَدِّ النظر، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وشاهد المملوك كتاباً من ولده أسد الدين شيركوه ـ أحياه الله ـ إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول فيه: وكتبتُه وقد صار في حُفْرته، واستقرَّ في قَبْره. فنسألُ الله حُسْنَ المَرْجِع، وكفاية هَوْلِ المُطَّلَع، والمعونة على ساعة هذا المَصْرَع، ونشكرُ الله ثم نشكره، ونذكره بأحسن ما يذكره به مَنْ يذكره، إذ وقى النَّفس الكريمة العالية الشَّريفة النَّاصرية، وقدَّم قبلها من لا يَسُرُّه التقدُّم بين يديه، وجعل الله أنفسَنا فداها، فإن تلك نعمة علينا كما هي نعمة عليه، ولا فرَّق الله لهذا البيت شَمْلاً، ولا قَضَبَ له حبلاً[1]، وأعظم الله أجر الملك المظفَّر في ابن عمه، وأمتعه ببقاء عَمِّه، وأعاذَه من مقابلة مقدور الله بهَمِّه وهِمِّه[2]، فليس إلا التَّسليم لما لا يستطيعُ الخَلْقُ له دَفْعاً، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنَّا لا نملك لها ضَرًّا ولا نفعاً، ولخوف المملوك أن يلتبس الخبر في مَطَالعه، ويُحرِّف الكَلِمُ عن مواضعه، عَجَّلَ بالإنهاء والإشعار، وسَبَقَ بما لا يسرُّه السَّبْقُ به من هذه الأخبار.

قال العماد: وفيها في جُمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن أُنَر، ونحن قد فتحنا مَيَّافارقين بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر، ومن ذوي المآثر والمفاخر، وما رأيت أحسنَ منه خُلُقاً، وأزكى عِرْقاً، ولم يزل في الدولتين النُّورية والصَّلاحية أميراً مقدَّماً، وعظيماً مكرَّماً، ولسفور فضائله، ووفور فواضله، وجِدِّ شهامته وحَدِّ صرامته، رغب السُّلْطانُ ـ وهو زوج أخته ـ أن يكون هو أيضاً زوج أخته، فزوَّجه بالتي تزوَّجها مُظَفَّر الدين كُوْكُبُري بعده.

قلتُ: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب[3]، عمَّرت إلى أن توفيت بدمشق بدار

---

(١) ولا قضب له حبلاً: أي ولا قطع له حبلاً.

(٢) بهمِّه، بفتح الهاء: أي بحزنه، وهِمِّه، بكسر الهاء: أي هواه.

(٣) هي ربيعة خاتون بنت أيوب بن شاذي، تزوجت سعد الدين بن أنر، وتزوج صلاح الدين عمته. ثم مات سعد الدين بن أنر، فتزوجها مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، فأقامت بها، ثم قدمت دمشق، فخدمتها العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وحصل لها منها

أبيها، رهي دار العقيقي في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتاً، وكان يحترمها الملوك من أولاد أُخوتها وأولادهم، ويزورونها في دارها.

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء، ومقامات في الغزاة حقيقة بالثَّناء، وهو أكبر أمير للأسدية، ولم يزل في الهيجاء يَحْسُنُ بلاؤه، ويصدق غَناؤه. ولما عُدْنا بعد فتح مَيَّافارقين إلى المَوْصل طَرَقَه البلاءُ في طريقه، قَفَزَ بحصانه بعض السُّواقي، فعثر به، وانكسرت رِجْلُه، ثم عملت عليه قدمُه، واشتدَّ ألمه، وطال به سَقَمه، وانتقل إلى دمشق، وتوفي بها في آخر هذه السنة أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فُجِعَ الإسلامُ منه بِذَمِرٍ مشيحٍ[(١)]، لِذِمار الكُفْر مُبِيح[(٢)].

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قُتِلَ بآمِد وزير ابن قرا أرسلان، وهو قِوامُ الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غِيلَةً، وتمحَّلُوا له في مباغتته بالقَتْل حِيلَةً؛ وذلك أنه كان جالساً في ديوانه وإيوانه، متصدِّراً بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأماثل، فدخل عليه واحدٌ منهم، وقال له: الملك يدعوك وَحْدَك. فقام، فدخل الدِّهْليز، وقد أغلق البابُ الذي يصل منه إلى الأمير، وأُغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه، ثم أخرجوا الصَّلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين.

قال: وفيها توفي الفقيه مهذَّب الدين عبد الله بن أسعد المَوْصِلي بحمص[(٣)]، وكان المدرِّس بها، وكان عَلَّامة زمانه في عِلْمه، ونسيجَ وَحْدِهِ في نَظْمه، وقد أوردتُ من شِعْره في صَدْر الكتاب ما يستدلُّ به على فَضْله، وأنه ممن عُقِمَ الدَّهْر بمثله، واشْتُريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بَحْرُهُ قلائدَ اللؤلؤ والمَرْجان.

= أموال عظيمة، ووقفت مدرسة للحنابلة وجعلت عليها الأوقاف، توفيت ربيعة خاتون بدار العقيقي بدمشق سنة ٦٤٣هـ، وقد جاوزت الثمانين، وبين وفاتها ووفاة والدها ستة وسبعون سنة، (شفاء القلوب ص٢٣٠، وانظر ترجمتها في: مرآة الزمان ٨/ ٧٥٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٤٣هـ، مختصر أبي الفداء ٣/ ١٧٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥١، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٨٠، النجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٣، شذرات الذهب ٥/ ٢١٨).

(١) الذمر المشيح: أي الشجاع المجد.

(٢) الذمار: هو كل ما يلزم حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه.

(٣) هو عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن أحمد، مهذب الدين، أبو الفرج الموصلي، المعروف بابن الدهان، له ديوان شعره (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧).

قال: وفي هذه السنة ردَّ السُّلطانُ قلعتي الرُّها وحَرَّان إلى مُظَفَّر الدين كُوكُبُوري بن زين الدين لتوفُّرِهِ في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ما حَقَّق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإِمرار، ورغب في مصاهرة السُّلْطان، وقلَّده طوق الامتنان.

قال: وكان السُّلْطان قد سكنت نَفْسُه للمقام، وأراد أن تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز والملك الظَّاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين، وخلَّا شِبْلَه أسدَ الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصِغَرِ أولاده، واحتيج أيضاً إلى الاحتياط على ما في خزائنه، واستخراج دفائنه، وكذلك الخاتون خلَّفت أملاكاً وتراثاً، وأوقافاً وأمتعةً وأثاثاً، لم يكن من الحركة بُدٌّ، وقدَّم الكُتُبَ إلى البلاد بما صمَّم عليه عَزْمه، وأجرى به حُكْمه، وأمر بالاستعداد لترقُّب الاستدعاء، ووصَّاهم في سائر المقاصد والأنحاء.

وكتب إلى ولد ناصر الدين: قد عَرَفْنا المصاب بوالده رحمه الله، وعظم أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين ـ أحياه الله ـ نِعْمَ الخَلَفُ الصَّالح، وإن انتقل والدُه إلى دار البقاء، فهو في مكانه المستقرٌ من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه، مُسَلَّمة إليه، مُقَرَّرة في يديه، وما مضى من والده رحمه الله إلا عينه، وولدنا قُرَّة العيون، وبه استقرار السُّكُون، والحمد لله الذي جبر به كَسْرَ المصاب، وألبسنا وإياه ثَوْبَ الثَّواب، فليشرح ولدنا صَدْرَه، ولا يشغل سِرَّه، ويُعَرِّف خواصَّه وأصحابه، ووُلاته ونوَّابه بحمص والرَّحْبة وغيرهما أنهم باقون على عادتهم.

وكان المندوب إليه القاضي نجم الدين أبو البركات ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون، ولم يفارق الخدمة السُّلْطانية في هذه السَّنة.

قال: وفي هذه السنة لما كنَّا على مَيَّافارِقِين وقد فتحناها، ورد للسُّلْطان مثالٌ شريف إمامي ناصري بتفويض ولاية مارِدِين والحِصْن ـ وهو حصن كيفا ـ والعلامة[١] الشريفة النَّاصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف: «النَّاصِرُ لدِين الله».

قلت: وفيها في جُمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن

(١) العلامة في الأصل وفي المصطلح خاصة بالسلطان، وهي ما يكتبه السلطان بخطه على كل ما يأمر به (صبح الأعشى ١/ ١٣٢).

عمر بن أحمد المديني الأصبهاني[(١)]، محدِّثٌ مشهور، له تصانيف كثيرة.

وفي هذه السنة توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصَّابوني، ودفن بسارية من القرافة، ومولده ببغداد سنة خمسمائة ـ وجَدُّ أبيه لأُمِّه شيخ الإِسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصَّابوني، فيه عُرِفَ بابنِ الصابوني[(٢)] ـ وكان جَدُّه صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي إليه. ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به، ونزل إلى زيارته، وسأله الإِقامة بدمشق، فذكر له أن قَصْدَه زيارة الإِمام الشَّافعي رضي الله عنه بمصر، فجهَّزه وسيَّره صُحْبة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سارَ إلى ولده بمصر، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة ومحبة عظيمة، بحيث إنه ما كان يصبر عنه ساعةً واحدة، وأقبل عليه. ولما ملك ولده الملك النَّاصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكِّنْه من العود إلى الشَّام، ووقَّف عليه وقفاً بالديار المِصْرية، وعلى عقبه، وهو باقٍ بأيديهم إلى الآن.

وقرأتُ بخطِّ صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حَقِّه إلى أخيه الملك العادل لما كان نائبه بمصر: الأخ الأجل، الملك العادل أدام الله دولته، غير خافٍ عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصَّابوني، وأنَّه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين ـ يعني الخُبُوشاني[(٣)] ـ ما جرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى

---

(١) هو محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني، الحافظ أبو موسى المديني المحدث الشافعي، ولد سنة ٥٠١هـ، وتوفي بأصبهان سنة ٥٨١هـ، من مصنفاته: «الأخبار الطوال»، «الأسماء المشتركة بين الرجال والنساء»، «أنساب المحدثين»، «تتمة الغريبين»، «تتمة معرفة الصحابة»، «الترغيب والترهيب»، «تضييع العمر والأيام»، «دستور المذكرين»، «الذخيرة والعدة في مناقب أبي عبد الله بن جندة»، «ذيل أسماء الصحابة لابن منده»، «سباعيات في الحديث»، «الشرح المكمل في نسب الحسن المهمل»، «الطوالات في الواهن والموضوع من الحديث»، «عوالي التابعين»، «كتاب الحفظ والنسيان»، «كتاب الطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ والأعارف»، «كتاب الوظائف»، «مجموع المغيث في علمي القرآن والحديث»، «من اسمه صالح»، «من اسمه عطاء»، «نزهة الحفاظ». (كشف الظنون ٦/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم المحدث، أبو عثمان الصابوني، توفي سنة ٤٤٩، له «أربعين في الحديث» (كشف الظنون ٥/ ٢١٠، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٠ ـ ٤٤).

(٣) الخبوشاني: هو محمد بن موفق الدين سعيد بن الحسن بن عبد الله الخبوشاني (بضم الخاء المعجمة والباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفي آخرها نون، بليدة بناحية نيسابور)، نجم

موضع غيره، لنقطع الفتنة والخصومة بينهم، بأمرنا إليه، مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف مَنْ عنده من الفقهاء. والأخ الأجل الملك العادل يتقدَّم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرُّف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجهٍ من وجوه التأويلات، وحسم مادَّة الشكوى منه ممن يتعدَّى عليه، إن شاء الله تعالى.

وقرأت بخط الشيخ عمر المَلَّاء المَوْصِلي(١) رحمه الله كتاباً كتبه إلى ابن الصَّابوني هذا بشيراز، يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله، أَوَّلُه: أخوه عمر بن محمد المَلَّاء يقول فيه: وبعد، فالذي يتطلَّع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمورٌ في هواطل الآلاء، غير أن أيدي البلوى بالنقم ترفعني تارةً إلى مقام الصِّدِّيقين، وتضعني تارةً أُخرى إلى مقامات المتخلِّفين، ومع هذا، فطلب النجاة لا يفتر، والحركة في طلب الفوز لا تسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمُنَى، وما أشبه حالي بحال القائل: [الرجز]

آمُلُ في يومي إدراك المُنَى ... حتى إذا ولَّى تَمَنَّيْتُ غدا
لا وَطَراً أقضي من الدُّنيا ولا ... أَفْعَلُ للأُخرى فِعَالَ السُّعَدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا ... ضلالةً خالصةً ولا هُدَى

يا أخي، ما أخبرتك بأحوالي هذه إلا رجاءَ أن تتحرَّك هِمَّتُك لي بالشَّفقة والرأفة، فتدعو الله لي بقلبٍ حاضر، منوِّرٍ بنور الشفقة والرحمة ويؤمِّنُ على دُعائك مَنْ حضر مِنَ السَّادة الأُخوان، وتقول: اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد المَلَّاء، يدعوك ويقول: [الرمل]

لا تُهِنِّي بعد إكرامِكَ لي ... فشديدٌ عادةٌ منقطعه

وقد توسَّل بنا إليك، نسألك أن تبلغه آماله، وأن تحييه حياة السُّعَداء، وأن تميته موت السُّعَداء، وتحشره في زُمْرة السُّعداء، وأن تجعل خَيْرَ عُمُره آخره، وخيرَ أعماله خواتيمها، وخيرَ أيامه يوماً يلقاك فيه.

الدين أبو البركات الشافعي ولد سنة ٥١٠، وتوفي بمصر سنة ٥٨٧هـ. من تصانيفه: «تحقيق المحيط في شرح الوسيط للغزالي» من فروع الشافعية. وقال سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان: وكان الخبوشاني كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني وزين الدين بن نجية، ويكفرونه ويكفرهم... (كشف الظنون ٦/ ١٠٢، مرآة الزمان ٨/ ٢٦٥).

(١) الشيخ عمر الملاء: هو عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي ثم الموصلي الصوفي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر الملاء، توفي سنة ٥٧٠هـ. له كتاب «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين» (كشف الظنون ٥/ ٧٨٤، الأعلام ٥/ ٦٠ ـ ٦١).

[عودة السلطان إلى دمشق]

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين[١]

قال العماد: فرحل السُلْطان إلى الشَّام، وودَّع مظفَّر الدين صاحب حَرَّان من الفرات، ورحل صَوْب حلب، والعادل صاحبها على المقدِّمة، وقد هيأ أسباب التَّكرِمة، فوصل حلب في العَشْر الأوسط من المحرَّم، ثم رتَّب العادلُ في حلب نُوَّابه، وصحب السُلْطان، فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خُمارتِكِين، وهو صاحب بوقُبيس، وقد جمع النهضة والأمانة. ثم وصل السلطان إلى حمص، وقرَّر أمر المجاهد أسد الدين أبي الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جَدِّه ولقَّبه بلقبه، وكتب له منشوراً بما قَرَّر عليه من البلاد، وذلك حمص وسَلَمِيَّة وتدمر ووادي بني حُصَين والرَّحبة وزلبيا. وكتب منشوراً آخر بإسقاط المكوس بالرَّحْبة، وفيه: وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرُّسوم التي يُبيحها الشرع، وهي الخَرَاج والأجور والزَّرع.

واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شروه الهَكَّاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب، فبقي والياً بها ستَّ سنين، ورتَّبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص.

قال: ورتَّب السلطان مع أسد الدين بحمص أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فقدم[٢] على أصحابه، بتولي مصالح بابه، حتى تفرَّد الأسدُ بالأمر لسَدَاده، وبلغ مدى رشاده، ونُعِتَ بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المحامد.

قال: وأقمنا بحمص حتى استعرضنا خَزَائن ناصر الدين، وقسمنا ميراثه، وكانت أُخت السلطان الحُسَامية زوجة ناصر الدين، وهي مستحقة الثُّمُن، والباقي بين البنت والابن، وخلَّف عيناً وَوَرِقاً، مجتمعاً ومفترقاً، وبلغ التراث في الملك والعين والأثاث عَظُمَ أن يُقَدَّر بمقدار، وأناف عن[٣] ألف ألف دينار، فما أعاره السلطان طَرْفه، بل تركه على أهل التَّرِكَة.

قال: ولما شاع بدمشق خَبَرُ دُنوِّنا، احتفل أهلُها، واجتمع بالمسارِّ شَمْلُها، وطلعت أعيانها ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعُونُها، وظهر مكنونها

(١) وخمسمائة.

(٢) فقدم: كذا بالأصل، ولعلها: فقدمه.

(٣) وأناف عن ألف ألف دينار: كذا بالأصل، ولعلها: وأناف على ألف ألف دينار.

ومخزونها، وترامت إلينا ثمراتها ومكرماتها سهولها وحُزُونها، ودخلنا المدينة وزينة الدُّنيا خارجة، وسكينة النُّعْمى فارجة، ودمشق كالهَديِّ مزفوفة، وبالهُدَى محفوفة، وبالحُسْنِ موصوفة. وكان النَّاس قد ساءهم خبر المرض، فسرَّهم عيانُ السَّلامة، وأسهرهم الهم للإشفاق فراجعوا للشِّفاء كَرَى الكرامة، وما ألذَّ الرجاءَ بعد الإبلاس، والثَّراء غِبَّ الإفلاس، والأمل عقيب الياس، وأنهم ظفروا في حالة الإيحاش بالإيناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادِسَ[1] الوَسْوَاس. واجتمع السُّلْطان في القلعة بأهله، وأقلع المُرْجِفُ عن جهله، وَحَسُنَتِ الأحوال، وأُمنت الأهوال، وشاهدنا الفَضْلَ والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وَعُدْنا إلى عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثَّه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخَل جَنَّته وجَنَى ثماره، وزاره مرةً واستزاره، وراجعه في مصالح دولته واستشاره، وجلس السلطان في دار العدل لكشف المظالم، وَبَثِّ المكارم، وإحياء المعالم، وإقامة مواسم المراسم.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: ولما وجد السلطانُ نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصولُه إليها يوم الأحد رابع عشر المحرَّم، وكان يوماً مشهوداً لشدَّة فرح النَّاس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشره نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السُّلْطان، ومعه أُخته، وقد صحبه خدمة عظيمة وقُرَب زائدة، ومَنَّ عليه بحمص، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوماً لم يُرَ مثله فرحاً وسروراً.

فَصْلٌ

في ذكر ما استأنفه السُّلْطان بمصر والشَّام من نَقْلِ الولايات بين أولاده[2]

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخَطِّ والأدب وسماع الأحاديث النَّبوية يتوفَّر، وقد مالت إليه بمِصْر

(١) حنادس: جمع حندس، وهي الظلمة.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٣٩ ـ ١٤٠: ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها.

جماعة، وله منهم طاعة، وربما نَقَمَ تقيُّ الدِّين النَّائب هناك من أحدٍ أمراً، فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سِرِّه، وكان في نفس السُّلْطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزَها، وليحرز مملكتها ويحوزَها، وهو مفكِّر في طريق تدبيره، ووجه تقريره، حتى بدا له نَقْل الأفضل إلى الشَّام، فكتب إليه يتشوَّقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته، ووالدته وحَشَمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثَّالث والعشرين من جُمادى الأُولى، وخرج السُّلْطان لاستقباله، وأنزله بالقلعة في دار رضوان، وكتب إلى تقيِّ الدين أنه قد استقلَّ أمرُه، وزال عُذْرُه. فابتهجَ بتفرُّده، وخَفِيَ عنه أنه كان في ذمّة ولد السُّلْطان وعِصْمته، وأن تَمام حُرْمته بحرمته.

قال: ولما وصَلْنا إلى دمشق كان بها من أولاد السُّلْطان الملك الظَّاهر غازي غياث الدين، فزار عَمَّه العادل وهو صهره، وقد اشتدَّ بمصاهرته ظهره، فقال له: قد نَزَلْتُ عن حلب لك، وأنا قانعٌ من أخي بإقطاع أين كان، وأَلْزَمُ الخِدْمة ولا أفارقُ السلطان، فاطْلُبْها من أبيك إن كانت تُرْضيك. وجاء إلى السلطان، وقال: هذه حلب مع رغبتي فيها، ومحبَّتي لتولِّيها، أرى أن أحد أولادك بها أَحَقّ، وهذا ولدنا الملك الظَّاهر أُحِبُّ أن أُوثره بها. فقال السُّلْطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز، فإنَّ مِصْرَ لا بُدَّ أن يكون لي بها ولدٌ أعتمد عليه، وأسند ملكها إليه. ورحل إلى الزرقاء ومعه ولداه العزيز والظَّاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عِوَضَ حلب بلاداً عيَّنها، ونواحي بمصر بَيَّنها. وكان قد مال الملك العزيز إليه لإشفاقه عليه، فسأل أباه أن يُسَيِّرَ معه العادل، فإنه نِعْمَ الكافي الكافل. فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشَّرْقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك المِصْرية.

ولما سمع تقي الدين هذا الخبر، نبا ونَفَر، وذمَّ الغِيَر، واستبدل من الصَّفْو الكَدَر، وغار من تغيُّرِ الرأي فيه، وإذا تولَّى أبو بكر فلا عمر. فعبر إلى الجِيزة مُظْهِراً أنَّه يمضي إلى بلاد المغرب ليملكها، وكتب وسأل السُّلْطانَ أن لا يمنعه من سلوك مسلكها، وسَمَتْ هِمَّتُه إلى مملكةٍ جديدة، وأقاليم ذات ظلالٍ مديدة، وبلادٍ واسعة، ومدنٍ شاسعة.

وقد كان أحد مماليكه المعروف بقَراقَوش، قد جمع من قَبْلُ الجيوش، وسار إلى بلاد بَرْقة فملكها، وَهَدَتْهُ الأُمنيَّة إلى النفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى إفريقية، وهو يكتب أبداً إلى مالكه الملك المُظَفَّر، يُرَغِّبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة. فلما تجدَّد لتقي الدين ما تجدَّد، وتمهد لعمِّه العادل ما تمهَّد، عاد له ذكر المغرب، فعبر بعسكره، ومالت إليه عساكر مصر لِبَذْله، وقدَّم مملوكه يوزبا في المقدِّمة.

فلما انتهى إلى السلطان خَبَرُ عَزْمه، قال: لَعَمْري، إن فتح المغرب مُهِمٌّ، لكن فتح البيت المقدَّس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أَخَصُّ وأَعَمُّ، وإذا توجَّه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرِّجال، وإذا فتحنا القُدْس والسَّاحل، طوينا إلى تلك الممالك المراحل. وعلم لَجَاجَ تقي الدين في ركوب تلك اللُّجَّة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهَّزَ ولده العزيز إلى مصر، وقَرَّر له قوص وأعمالها، وسار ومعه عَمُّه العادل، فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان.

وأما الملك الظَّاهر فسيَّره السُّلْطانُ إلى حلب، وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السُّلْطان، ومعه الأفضل.

وقدم تقي الدين في آخر شعبان، وتلقَّاه السلطان، وخيم على المصري فوق قصر أُمِّ حكيم، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحَّب به، ودخل دمشق، وعاد إلى ما كان له من البلاد ومَنْبِج والمَعَرَّة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه مَيَّافارِقين وجميع ما في ذلك الإقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عَزْمِ المغرب بل إبطاله. فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشَّام مصر، سوى مملوكه زينِ الدين يوزبا، فإنه رَتَّب له عسكراً إلى المغرب، فمضى واستصحبه، وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحبُ المغرب، فأخذه مأسوراً، ثم أغزاه مع الغزو في ثغرٍ من الثغور، فألفاه مشهوراً مشكوراً، فقدَّمه عليهم.

قلتُ: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: سببُ هذه الخدمة ما اتَّصل بالمملوك من تردُّد رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب والدستور إليه: [الكامل]

يـكـفـي الـزَّمـان فـمـالـنـا نَـسْـتَـعْـجِـلُ

يا مولانا، ما هذا الواقع الذي وقع، وما هذا الغريم من الهَمِّ الذي ما اندفع، بالأمسِ ما كان لكم من الدُّنيا إلا البُلْغة، واليوم قد وهب الله هذه النِّعْمة، وقد كان الشَّمْلَ مجموعاً، والهمُّ مقطوعاً ممنوعاً، أفتصبحُ الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسُعت؟ والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت؟ يا مولانا، إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقةٍ من عَيْش؟ أو في قِلَّةٍ من عدد؟ أو في عَدَمٍ من بلاد؟ أو في شكوى من عَدَم؟ كيف نختارُ على الله وقد اختار لنا! وكيف نُدَبِّر لأنفسنا وهو دبَّرَ لنا! وكيف ننتجع الجَدْبَ ونحن في دار الخِصْب! وكيف نَعْدِل إلى حَرْب الإِسلام المنهيِّ عنها ونحن في المدعوِّ إليها من حرب أهل الحرب! معاشِرَ الخدَّام

والجُلَساء، وأرباب العقول والآراء ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]: [الطويل]

تَـعَـقَّـبِ الـرَّأيَ وانْـظُـرْ فـي أَواخِـرِه فـطـالـمـا اتُّـهِـمَـتْ قِـدْمـاً أوائِـلُـهُ

لا زال مولانا يُمْضي الآراء صائبة، ويلحظها باديةً وعاقبة، ولا خَلَتْ منه دار إن خَلَتْ فهيهاتَ أن تُغمر، ولا عَدِمَتْه أيام إن لم تَطْلُعْ فيها شَمْسُ وَجْهه دَخَلَتْ في عِداد اللَّيالي فلم تُذْكر.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: وفي سابع عشر جُمادى الأُولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشَّام قبل ذلك، وكان السُّلْطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المُظَفَّر، فما زال يفاوضه في ذلك، وهو على حرّان مريض، وحصل ذلك في نفس العادل، فإنه كان يُحِبُّ الدِّيار المِصْرية. فلما عاد السلطان إلى دمشق، ومَنَّ الله بعافيته، سيَّر يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدةً، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جُمادى الآخرة، فاستقرَّ عَوْدُ العادل إلى مصر، ويسلِّم بلاد حلب إلى الملك الظاهر، وسلَّم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه[1].

قال: ولقد قال لي الملك العادل: لما استقرَّت هذه القاعدة اجتمعتُ بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: اعلم يا مولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير، وغداً فما يخلو ممن يقول عني ما لا يجوز، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع، فَقُل لي حتى لا أجيء. فقال: لا أسمع، وكيف يكونُ ذلك! ثم التفتُّ وقلت للملك الظَّاهر: أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فيَّ أقوال المُفْسدين، وأنا فمالي إلا أنت، وقد قَنِعْتُ منك بمنبج متى ضاق صَدْري من جانبه. فقال: مبارك. وذكر كلَّ خير.

ثم إن السُّلْطان سيَّر ولده الظَّاهر إلى حلب وأعادها إليه، وكان ـ رحمه الله ـ يعلم أن حلب هي أَصْلُ الملك وجُرْثُومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد الشَّرْق، وقَنِعَ منهم بالطَّاعة

---

(١) الأتابك: ويعرف عن صاحبها بأتابك العساكر. وأصله أطابك ومعناه الوليد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ، ولقبه بألقاب منها هذا، وقيل: أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكامل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلوّ المقام (صبح الأعشى ٤/ ١٨).

والمعونة على الجهاد، فسلَّمها إليه علماً منه بحذاقته وحَزْمه وحِفْظه، فسار إليها حتى أتى العين المباركة، وسيَّر في خدمته شِحْنَةً حسام الدين بشارة، وواليًا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة بالعين المباركة، وخرج النَّاس إلى لقائه بُكْرة يوم السبت تاسع جُمادى الآخرة، وصَعِدَ القلعة ضاحي نهاره، وفَرِحَ النَّاسُ به فرحاً شديداً، ومَدَّ على النَّاس جَنَاح عَدْله، وأفاض عليهم وابِلَ فَضْله.

وأما الملك العزيز والعادل فإنَّ السُّلْطان قرَّر حالهما، وكتب إلى الملك المُظَفَّر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول إلى الشَّام. فشقَّ ذلك عليه حتى ظهر للنَّاس، وعزم على المسير إلى ديار الغَرْب إلى برقة، فَقَبَّحَ ذلك عليه جماعةٌ من أكابر الدولة، وعرَّفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك، فرأى الحقَّ بعين البصيرة، وأجاب بالسَّمْع والطَّاعة، وسلَّم البلاد، ورحل واصلاً إلى خدمة السُّلْطان، فسار السلطان إلى لقائه، فلقيه بمَرْج الصُّفَّر، وفرح بوصوله فرحاً شديداً، وذلك في الثَّالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة، وسار إليها، وكان عقد بين الظَّاهر وبعض بنات العادل عَقْدَ نكاح، فتمَّم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السَّنة.

ومن كتابٍ فاضليٍّ إلى السُّلْطان: الملك العادل والملك المُظَفَّر المذكوران ما هما أخ وابن أخٍ، بل هما ولدان لا يَعْرِفان إلا المولى والداً ومُنْعماً، وكلُّ واحدٍ منهما له عُشٌّ كثير الفِراخ، وبيتٌ كرقعة الشِّطْرنج فيه صغار وكبار كالبياذق والرِّخاخ، فلا يُقْنع كلَّ واحد منهما إلا طرف يملكه، وإقليم ينفرد به، فَيُدبِّرُ مولانا في ذلك بما يقتضيه صَدْرُه الواسع، وَجُوده الذي ما نَظَرَ مثله النَّاظر ولا سَمِعَ السَّامع، ولا ينس قول عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه: مروا القَرَابة أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وما على مولانا عجلة في تدبيرٍ يُدَبِّره، ولا في أمرٍ يَبُتُّه. وستبدي لك الأيام ما كنتَ عارفاً، وفي غدٍ ما ليس في اليوم، ولله أقدارٌ ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذُرِّيَّة تَوَدُّ لو قَدَّمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت أجفانُها بغبارِ قَدَميه، ما فيها من يُشْتكى منه إلا التَزَيُّد في الطَّلب، وهو من بابِ الثقة بكرم المُنْعم، ولهم أولاد، والمولى مدَّ الآمال لهم، كما قال مولى الأُمَّة: «تناكحوا تناسلوا، فإني مكاثرٌ بكم الأمم»[1]، طالما قال لهم المولى: لِدُوا، وعليَّ تجهيز

(١) أخرجه النسائي في النكاح باب ١١، وابن ماجه في النكاح باب ٨، وأحمد في المسند ٣/ ١٥٨، ٢٤٥، ٣٥٤، ٤/٣٤٩، ٣٥١، وعبد الرزاق في المصنف ١٠٣٩١، والزبيدي في

الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشموس والبُدُور.

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدةٍ سينية سَنِيَّة، قطوفها دانية جَنِيَّة، تشتمل على مائة وأربعين بيتاً، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردتُ بعضَها، ومطلعها: [الطويل]

عَفا الله عَنْكُمْ عن ذوي الشَّوْقِ نَفِّسوا ... فقد تَلِفَتْ منَّا قلوبٌ وأنْفُسُ
ألم تعلموا أني من الشَّوْقِ موسِرٌ ... ألم تعلموا أني من الصَّبْرِ مُفْلِسُ
ظننتُمْ بعيني أنَّها تَألَفُ الكَرَى ... فَهَلَّا بَعَثْتُمْ طَيْفَكُمْ يَتَجَسَّسُ
وليس لقلبي في السُّرورِ تَصَرُّفٌ ... فَقَلْبي على الأَحْزانِ وَقْفٌ ومُحَبَّسُ
لِفَتْكِ مُحِبِّيهِ تَيَقُّظُ طَرْفِهِ ... وَتَحْسِبُهُ من سُقْمِ عينيه يَنْعَسُ
له ناظِرٌ عند الخِلاف مُنَاظِرٌ ... يقولُ دَلِيلُ الدَّلِّ عِنْدِيَ أَقْيَسُ
إذا دَرَسَتْ ألحاظُه السِّحْرَ أصبحت ... رسومُ اصْطِباري حين تَدْرُسُ تَدْرُسُ
ولم أنس أُنسي بالحِمى رُعِيَ الحِمى ... عَشِيَّةَ لي مجنًى ومَجْلًى وَمَجْلِسُ
لحا الله أبناءَ الزَّمانِ فكلُّهم ... صَحِيفَتُهُ أَوْدَى بها المُتَلَمِّسُ
ولولا ابتساماتُ المُظَفَّر بالنَّدَى ... لما راق نَفْسي صُبْحُه المُتَنَفِّسُ
جَلَتْ شَمْسُ لقياه الحَنَادِسَ بعدما ... عَرَتْنا وهل يَبْقَى مع الشَّمْسِ حِنْدِسُ
وصارَ بِهِ هذا الزَّمان جَميعُه ... نهاراً فما للنَّاس لَيْلٌ مُعَسْعِسُ
إذا صال فالمغلولُ ألفٌ مُدَرَّعٌ ... وإن جاد فالمَبْذُولُ أَلْفٌ مُكَيَّسُ
وليس بمغبونٍ على فَضْلِ رأيه ... وَيُغْبَنُ في الأموالِ منه ويُبْخَسُ
إذا أطلق المَلْكُ المُظَفَّر في الوَغَى ... أعِنَّتَهُ فالشَّمْسُ بالنَّقْعِ تُحْبَسُ
فذاك ملوكٌ لا يُلَبُّون داعياً ... وكلُّهُمُ عن دَعْوَةِ الحَقِّ يَخْنُسُ
تشكَّى إليك الغَرْبُ جَوْرَ مُلُوكِهِ ... فأشْكَيْتَهُ والجَوْرُ بالعَدْلِ يُعْكَسُ
سَيُهْدى إلى المهدِيَّة النَّصْر والهُدَى ... بهديكُمُ فيها وتونس تُؤْنَسُ
رَدَدْتَ كراديس الفِرنج وكلُّهمْ ... لدى الأَسْر في غُلِّ الصَّغار مُكَرْدَسُ
وبَيَّضْتَ وَجْهَ الدِّين يومَ لَقِيتَهُمْ ... وأَبيضكُمْ من أَسْوَدِ القصر أَشْوَسُ
أفادَ دَمُ الأنجاسِ طُهْرَ سُيوفِكُمْ ... وما تستفيدُ الطُّهْرَ لولا التَّنَجُّسُ
شموس ظُبًى تغدو لها الهام سُجَّداً ... فلله نَصْرَانِيَّةٌ تَتَمَجَّسُ

إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٨٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٤٤٤٢، والقرطبي في تفسيره ٥/ ٣٩١.

وكم كُفِيَ الإسلامُ سوءاً بملككم كُفِيتُمْ على رَغْم المعادين كُلَّ سُو
ولا يَفْتَحُ البيتَ المُقَدَّسَ غَيْرُكُمْ وبيتكُمُ مِنْ كُلِّ عابٍ مُقَدَّسُ
لهمْ كلَّ يوم في جهادِ مثلَّثٍ إذا نصروا التَّوحيدَ فيءُ مُخَمَّسُ
إذا ما تقيُّ الدِّين صال تساقَطَتْ لأَقْدامه من عُصْبَة الشِّرْك أَرْؤُسُ
وما عمرٌ إلا شَبيهُ سَمِيِّهِ شديدٌ على اللأواء ثَبْتٌ عَمَرَّسُ

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: كان المنجِّمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، بطوفان الرِّيح في سائر البُلْدان، وخَوَّفوا من ذلك من لا وثوق له باليقين، ولا إحكام له في الدِّين، من ملوك الأعاجم والرُّوم، وأشعروهم من تأثيرات النُّجوم، فشرعوا في حَفْرِ مغارات في التُّخوم، وتعميقِ بيوتٍ في الأسراب وتوثيقها، وسدِّ منافسها على الرِّيح وقَطْع طريقها، ونقلوا إليها الماءَ والأزواد، وانتقلوا إليها، وانتظروا الميعاد، وكلَّما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضَّحك من عقولهم، وسُلْطاننا متنمِّرٌ من أباطيل المنجِّمين، موقنٌ أن قولهم مبنيٌّ على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عيَّنها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوسٌ عند السُّلْطان في فضاءٍ واسع، ونادٍ للشموع الزَّاهرات جامع، وما يتحرَّك لنا نسيم، ولا لسرح الهواءِ في رعي منابت الأنوار مُسِيمٌ، وما رأينا ليلةً مثلها في ركودها وركونها، وهدوِّها وهدونها.

قال ابن القادِسي: وحكم أصحابُ النُّجوم أن في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السَّيَّارة الخمسة، والشمس والقمر في بُرْج الميزان، ويؤثر ذلك هواءً عظيماً، وخِيماً سموميًّا. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تَهْلِكُ البلاد، ويُحمل الرَّمل، ونسبوا ذلك إلى الخارمي، وقالوا: يكون أشدَّ ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعدَّ لذلك أقوامٌ في البلاد، وجمعوا الكعك، وحفروا السَّراديب، فأهلَّ رجب وما جرى مما قالوا شيء، فخزي أهلُ التنجيم لذلك، ولم يَهُبَّ في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزَّمانُ حاراً، واشتدَّ الحرُّ في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء. وعمل الشُّعراء في ذلك شعراً يَزْرون عليهم في حكمهم، منهم أبو الغنائم محمد بن علي بن المُعَلِّم

الهُرْثي(١)، وفخر الدين عيسى بن مودود(٢) دُزْدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التَّعاويذي(٣).

قال أبو الغنائم بن المعلِّم: [المنسرح]

قُلْ لأبي الفَضْلِ قَوْلَ مُعْتَرِف ... مَضى جُمادَى وجاءنا رَجَبُ
وما جَرَتْ زَعْزَعاً كما حكموا ... ولا بدا كوكبٌ له ذَنَبُ
كلا ولا أَظْلَمَتْ ذُكاء ولا ... أبدت أذًى في قرانها الشُّهُبُ(٤)
يقضي عليها من ليس يَعْلَمُ ما ... يُقْضَى عليه هذا هو العَجَبُ
فازم بِتقويمك الفُرَاتَ والإصـ ... ـطرلابُ خَيْرٌ من صُفْرِهِ الخَشَبُ
قد بان كِذْبُ المُنَجِّمين وفي ... أيِّ مقالٍ قالوا فما كَذَبوا
مدبِّرُ الأمرِ واحدٌ ليس للسَّـ (م) ... ـبْعَةِ في كلِّ حادثٍ سَبَبُ
لا المشتري سالمٌ ولا زُحَلٌ ... باقٍ ولا زُهْرَةٌ ولا قُطُبُ
تبارك الله حَصْحَصَ الحَقُّ وانـ ... ـجاب التَّمادي وزالتِ الرِّيَبُ
فَلْيُبْطِلِ المُدَّعون ما وضعوا ... في كُتْبهم وَلْتُخَرَّقِ الكُتُبُ

وقال عيسى بن مودود: [مجزوء الرمل]

مَزِّقِ التقويم والزِّيـ ... ـجَ فقد بان الخَفَاءُ
إنما التقويم والزِّيـ ... ـجُ هَبَاءٌ وهَوَاءُ
قُلْتَ للسَّبعة إبرا ... مٌ ومَنْعٌ وعطاءُ
ومتى يَنْزِلْنَ في الميـ ... ـزان يَسْتَوْلي الهواءُ
وتثير الرَّمْلَ حتى ... يمتلي منه الفَضَاءُ

---

(١) هو محمد بن علي بن فارس بن علي، نجم الدين أبو الغنائم الواسطي، المعروف بابن المعلم الشاعر المشهور، ولد سنة ٥٠١هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٩٢هـ، له ديوان شعره (كشف الظنون ٦/ ١٠٤).

(٢) هو عيسى بن مودود بن علي بن عبد الملك بن شعيب، فخر الدين التركي، صاحب تكريت، ولد في حماة، قتله إخوته في تكريت سنة ٥٨٤هـ. له ديوان شعره، ورسائل، ودوبيت رقيق (كشف الظنون ٥/ ٨٠٧، وفيات الأعيان ٣/ ٤٩٨ ـ ٥٠٠).

(٣) سبط ابن التعاويذي: هو محمد بن عبد الله، أبو الفتح الكاتب البغدادي، المعروف بسبط ابن التعاويذي الشاعر، المتوفى سنة ٥٨٤هـ، له من المصنفات: «الحجبة والحجاب»، «ديوان شعره» في أربعة فصول (كشف الظنون ٦/ ١٠١).

(٤) ذكاء: أي الشمس.

ويَــعُــمُّ الأَرْضَ خَــسْــفٌ وخـــراب وبـــلاءُ
ويــصــيــر الــقــاع كــالــقُــفِّ وكــالــطَّــوْدِ الــعَــرَاءُ
وحــكــمــتــم فــأبــى الــحــاكــمُ إلا مــا يَــشَــاءُ
مــا أتــى الــشَّــرْعُ ولا جــاءَتْ بــهــذا الأنــبــيــاءُ
فــبــقــيــتــم ضُــحْــكَــةً تــضــحــك مــنــهــا الــعــلــمــاءُ
حَــسْــبُــكُــمْ خِــزْيــاً وعــاراً مــا يــقــول الــشُّــعَــراءُ
ثــم مــا أطــمــعــكــم فــي الــحُــكْــم إلا الأُمــراءُ
لــيــت إذ لــم يُــحْــسِــنــوا فــي الــدِّيــن ظَــنَّــا مــا أســاؤوا
فــعــلــى اصــطــرلاب بــطــلــيــمــوس والــزِّيــج الــعَــفَــاءُ
وعــلــيــه الــخِــزْي مــا جــادَتْ عــلــى الأرضِ الــسَّــمــاءُ

ولم يذكر شعر سبط ابن التَّعاويذي.

[وفاة ابن بري النحوي]

قال: وفي السَّابع والعشرين من شوَّال توفي محمد أبو عبد الله بن بَرِّي بن عبد الجبار النَّحْوي[١]، وكان آيةً في النحو، ثقةً عالماً صالحاً، وكان مُبْلَداً في أمر دنياه، حدَّث عن ابن الخَطَّاب[٢]، ومرشد بن صادق[٣] وغيرهما.

---

(١) ابن بري: هو عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار المقدسي ثم المصري، الإمام أبو محمد (وليس كما ورد في المتن: محمد أبو عبد الله بن بري بن عبد الجبار، وهو خطأ وتصحيف). الشافعي اللغوي، ولد سنة ٤٩٩هـ، وتوفي سنة ٥٨٢هـ، من تصانيفه: «الاختيار في اختلاف أئمة الأمصار»، «الإيضاح في حاشية الصحاح للجوهري»، «التنبيه والإيضاح عما وقع في كتب الصحاح»، «اللباب على ابن الخشاب» من حواشي درة الغواص للحريري. وغير ذلك (كشف الظنون ٥/ ٤٥٧، معجم الأدباء ١٢/ ٥٦ ـ ٥٧، إنباه الرواة ٢/ ٣١٨، التكملة للمنذري ١/ ٥٨ ـ ٦٠، وفيات الأعيان ٣/ ١٠٨ ـ ١٠٩، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٣٦ ـ ١٣٧، الوافي بالوفيات ١٧/ ٨٠ ـ ٨٣، طبقات الشافعية للسبكي ٧/ ١٢١ ـ ١٢٣، بغية الوعاة ٢/ ٣٤).

(٢) ابن الخطاب: هو محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، أبو عبد الله، المعروف بابن الخطاب، مسند الديار المصرية، المتوفى سنة ٥٢٥هـ، له سداسيات في الحديث، ومشيخة (كشف الظنون ٦/ ٨٦) وفي سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦: ابن الحطاب بالحاء المهملة.

(٣) مرشد بن صادق: كذا بالأصل، وفي سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦: مرشد بن يحيى بن القاسم المديني المصري، أبو صادق، توفي سنة ٥١٧هـ.

[وفاة البهلوان]

قال العماد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك شمس الدين محمد بن أتابك أيلدكز المعروف بالبهلوان[١]، وهو الذي كان نَزَل على خِلاط في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجِدِّ والجَدَا، واضطربت من بعده تلك الممالك، واحتربت أصفهان، وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت أوزارها، وتولَّى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السَّلْجقي، وسلك نهج السعيد الشَّقي إلى أن ذهب، فاتَّضع المُلْك، وانقطع السِّلْك، واتسع الهُلْك، وطمعت خراسان في العراق، وعدمت الإِفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الاشراق.

قال: واشتغل السُّلْطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصَّيْد والقنَص، والانتهاز فيه لبوادر الفُرَص، وكان يركب إلى تل راهط للصَّيْد بالبُزاة والشَّواهين، مع مماليكه الخواصّ الميامين، وله شاهين بحري كأنه بحر، إذا حلَّق فَشَرَار، وإن أحرق فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوباً[٢]، وعَقَرَ بإنجاز وعد صيده عُرْقُوباً، فطلبته من السُّلْطان، فقال: أنت للقلم والدَّواوين، فما لك وللبُزَاة والشَّواهين! فقلت: يكون في مُلْكي، وكل ما يَقْنِصُهُ يأمر لي به المولى، وهذا أربح لي وأنفع وأولى. فقال: نعم. فلما أصبح سيَّر لي سبع عشرة قطعة من طَيْرٍ وحَجَل، وقال: هذا صيدُ شاهينك في طَلْقٍ واحد على عَجَل. فملكتُ ذلك الشَّاهين خمس ستَّ سنين، والسُّلْطان يصطادُ به ولي قَنْصُهُ، له مطلعه ولي مخلصه، فما زال لي على هذا الحقِّ محافظاً، ولهذه النُّكْتة ملاحظاً، إلى أن أَوْدى الجارح، وانقطعت تلك المنايح، فيا لله دَرُّه من سُلْطانٍ لم ينس ذكر هذه القضيَّة التي أعاد مَزْحها جدّاً، واعتدَّه لي حقاً مُعَدًّا، فدون حَقِّه على مثله أن يُؤسَفَ، ومن حَقِّنا بعده أن نتلو ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

قال: ولما دخل شهر رمضان نوَّعَ أقسام الإِنعام، واتفق أن بعض التُّجَّار كانت بضاعته بياقير رفيعة، وما لها نَفَاق، وهي أكثر من مائة قطعة، فحملها إلى الخزانة السُّلْطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مِصْر على بعض الجهات. فاشْتُرِيَتْ منه بما كان يرجوه من الرِّبْح. وكان من كرم شِيَم السُّلْطان إذا عرف في خزانته موجوداً، أنَّه لا يستطيب تلك الليلة حتى يفرقَه جُوداً.

---

(١) صاحب بلد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد، توفي في أول هذه السنة. ولي سنة ٥٦٨هـ، انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٤٠ ـ ١٤١، وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٨).

(٢) اليعقوب: ذكر الحجل والقطا.

فقال لي: قد اجتمعت لنا بقايير وعمائم، وقد تقاضتني بخلعها على أهل الفَضْل المكارم، فنبدأ بأهل الدِّين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حَظٍّ من الجَدْوى. وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعَّاظ، وعلماء وحُفَّاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبةً لمن يتكلَّم على المنبر، ويُذكِّرنا بالحلال والحرام، والبَعْث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القُرَّاء.... فاشتغل مُدَّة أسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المُدَّة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاحن والتَّضاغُن. فقلت: أنا أضمنهم ولا يحضر إلا أوقرهم وأرزنهم. فاستدلَّ أول يوم برهان الدين مسعود(١) مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النُّورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر(٢)، واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السُّلْطان يجلس في كل يوم لطائفةٍ، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها، وصرفها إليهم.

[القتال بين التركمان والأكراد في نصيبين]

قال القاضي ابن شَدَّاد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعاتٌ كثيرةٌ بين التركمان والأكراد بأرض نَصِيبين، وغيرها، وقُتِلَ من الفئتين خَلْقٌ عظيمٌ. وبلغ السُّلْطان أن معين الدين بن معين الدين قد عصى بالرَّاوَنْدان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه. وكان نزولهم عليه في العَشْر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرَّصاص لتميرك في بقيَّة ذلك الشَّهْر، وفي ثامن جُمادى الأُولى وصل معين الدين من الراوندان، وقد سَلَّمها إلى علم الدين سليمان، ثم مضى إلى خدمة السُّلْطان.

قال ابنُ القادسي: وقدم الحاجُّ في عاشر صَفَر، فأخبروا أن سيف الإسلام أخا صلاح الدين ملك مكَّة، وضرب الدَّنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم «حي على خير العمل»، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج. وأَخْبَرَ الحاج أن قُفْل باب الكعبة تعسَّر حتى فُتح، ولما فُتِحَ مات في الدّوسة أربعة وثلاثون شخصاً من بين رجلٍ وامرأة.

---

(١) هو برهان الدين مسعود بن شجاع بن محمد بن الحسن الفقيه الحنفي، يعرف بالأموي، نزيل دمشق المتوفى بها سنة ٥٩٩هـ، له من المصنفات: «الملتقطات من مسائل الواقعات» (كشف الظنون ٦/ ٤٢٦، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

(٢) هو عسكر بن خليفة الحموي، أبو الجيوش، كان رئيس الحنفية بدمشق، توفي سنة ٥٩٦هـ، سترد ترجمته الوافية في وفيات سنة ٥٩٦هـ في الجزء الرابع.

قال: ووصل الخبر أن ريحاً هبَّتْ بالبصرة، فكسرت نخيلاً كثيراً، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، وأُحرقت المحال ونُهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس، وبقي الأمرُ على ذلك من سابع محرَّم إلى ربيع الآخر، فأحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة، بعد أن احترق أطفالٌ في المهود بالليل، وقام قزل أخو البهلوان فكفَّ الناس، وكان قزل قد رتب شِحْنَةً في أصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصَّلْب، وصادرهم، وأُشير على قزل بأن يُلْزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء. فقال بعضُ المصالحة لقزل: ما نأخذ إلا من الأغنياء. فوثَبَ عَيَّار فقتل المصلحيَّ، وكان العَيَّار متعلِّقاً على قاضي البلد، فوكَّل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخُجَنْدِي إلى دار القاضي، فحسَّن له إخراج الموكلين بها، وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خُطْبة السُّلْطان الذي نصب قزل. ففعل ذلك في سابع شوَّال، ثم كَثُرَ القَتْل في البلد، فكل من في قلبه على أحد شر وَثَبَ عليه، فقتله مِنْ رجلٍ أو امرأة، وكان القَتْل الكثير في أصحاب ابن الخُجَنْدي، وكان الحريق والنهب وإحراق الدُّور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عَرَفة ويوم العيد، ودام، وبطل الناس من المعايش، وخَربَتِ الأسواق، ووقع الغلاء، ومات النَّاس من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخَوْف، وأُخذت ثياب الناس، فلا يتجاسر أحد أن يلبس ثوباً جديداً، والعَيَّارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب النَّاس من أصفهان.

فَصْلٌ

[في الخلف الواقع بين قومص طرابلس وملك بيت المقدس ومصافاة قومص طرابلس للسلطان]

قال العماد: مما قدَّره الله تعالى من أسباب نُصْرة الإسلام وَوَهْنِ الكُفْر أن قومص طرابلس رغب في مصافاة السُّلْطان، والالتجاء إليه، والمساعدة له على أهل مِلَّته، بسبب أنه كان تزوَّج بالقومصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالمُلْك لابن أخته هذه وهو صغير، فتزوَّج القومص أُمَّه وربَّاه، فمات الصَّغير، وانتقل المُلْكُ إلى أُمه. ثم إنها مدَّت عينها إلى بعض المقدَّمين من الغَرْب فتزوَّجته، وفوضت الملك إليه، فشرَعَ يطلب حساب البلاد من القومص، فوقع الاختلاف بينهم لذلك، فالتجأ القومص إلى ظل السُّلْطان، فصار

له من جُمْلة الأتباع، فقبله السُّلْطان وقوَّاه، وشدَّ عَضُدَه بإطلاق من كان في الأَسْر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل مِلَّته يُسْلم، وصار بدولة السلطان وملكه يُقْسم، ومال إليه من الفرنج جماعةٌ، وظهرت له منهم للطماعية طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السَّرايا، وخرجت بالغنائم والسَّبايا، وأعطى الدَّنِيَّة في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شَرَّه، ويحذرون مكره، فتارةً يدارونه، وآونةً يمارونه، وللقومص قومُ صِدْقٍ يساعدونه في كلِّ حق وباطل، فَبُلِيَ منهم أهل السَّاحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أماري بن فُلْك، وهو مُرِّي الذي تقدَّم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين، سنة مات نور الدين، رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي بينهم زُهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حضره الموت أوصى لابن أُخته بالمُلْك.

[نقض أبرنس أرناط للهدنة مع صلاح الدين]

قال: وكان إبرنس الكَرَك أَرْناط أغدرَ الفرنجية وأخبثها، وأَفْحَصَها عن الرَّدى والرداءة وأبحثها، وأنْقَضَها للمواثيق المُحْكَمة، والأيمان المُبْرَمة وأنكثها وأحنثها، ومعه شِرْذِمة لها شَرُّ ذِمَّة، وهي من شَرِّ أُمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكُنَّا في كلّ سنةٍ نغزوه، وبالبوائق نعروه، ويُصيبُه منَّا المكروه، فأظهر أنه على الهُدْنة، وجنحَ للسِّلْم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقُفْل من مِصْر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكس الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصةٌ في الغَدْرِ، فقطَعَ الطَّريق، وأخاف السَّبيل، ووقع في قافلةٍ ثقيلة، معها نِعَمٌ جليلة، فأخذها بأسْرِها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشَّرَك، وحملهم إلى الكَرَك، وأخذ خَيْلَهم والعُدَّة، وسامهم الشدّ والشِّدَّة، فأرسلنا إليه، وذممنا فِعَاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإِصْرار والإِضرار، فنذر السُّلْطانُ دمه، ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السَّنة الآتية كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ وأقام السُّلْطانُ بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الاستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمِصْرية، فانتظمت أمورُه على أحسن قضيَّة.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بعض إخوانه: كتبتُ هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السُّلْطان ـ أعزَّ الله أنصاره ـ للغُزَاة إلى بلاد الكُفْر، في عسكرٍ فيه عساكر، وفي جمعِ البادي فيه كأنه حاضر، وفي حَشْدٍ يتجاوز أن يحصِّله

الناظر، إلى أن لا يُحصِّله الخاطر، وقد نهضت به هِمَّةٌ لا يُرْجى غير الله لإنهاضها، ونجحت به عزمةٌ، اللَّهُ المسؤول في حَسْم عوارض اعتراضها، وباع اللَّهَ نفساً يستمتع أهلُ الإسلام بهيئتها، ويُذْهِبُ اللَّهُ الشِّرْكَ بهيبتها، وأرجو أن يتمخَّض عن زُبْدةٍ تستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سَفْتَجَة[1] نُصْرة الإسلام، وسُلْطانُه قد نهضَ للقَبْض.

[كسرة حطين وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين] ثم دخلت سنة ثلاثٍ وثمانين[2]

وهي سنةُ كَسْرَة حِطِّين، وفَتْحِ السَّاحل والأرض المقدَّسة للمسلمين.

قال العماد في كتاب «البرق»: وهي السنة الحسنة المُحْسنة، والزَّمان الذي تقضَّتْ على انتظار إحسانه الأَزْمنة، وطُهِّر فيه المكان المقدَّس الذي سَلمَتْ بسلامته الأَمْكنة، وخَلَصت بمنحة الله من المحنة الأرضُ المقدَّسة الممتحنة، وكَفَى الله شَرَّ الشِّرْك، وحكم على دماء الكَفَرة بالسَّفْك، ونُصِرَتِ الدَّولة النَّاصرية، وخُذلت المِلَّة النَّصْرانية، وانتقم التَّوحيد من التَّثْليث، وشاع في الدُّنيا بمحاسنِ الأيام الصَّلاحية حُسْنُ الأحاديث.

[وقعة حطين برواية العماد الكاتب]

ثم ذكر في كتابي «الفتح» و«البرق» ما جملته أن قال: فبرز السُّلْطان من دمشق يوم السَّبت أول المحرَّم في العسكر العَرَمْرَم، ومضى بأهل الجَنَّة لجهاد أهل جَهَنَّم، فلما وصل إلى رأس الماء، أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك، ليستدني إليه الأُمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السُّلْطانُ إلى بُصْرى، وخيَّم على قَصْر السَّلامة، وأقام على ارتقاب اقتراب الحُجَّاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أُخت السُّلْطان مع جماعةٍ من الخواصِّ، وقد تقدَّم ذكر غَدْر إبرنس الكَرَك، وهو على طريقي العسكر المِصْري والحُجَّاج. ووصل الحاجُّ في آخر صفر، وخلا سِرُّ السُّلْطان من شُغْلهم، ثم سار ونَزَل على الكَرَك، وأخاف أهله، وأخذ ما كان حوله، ورعى زَرْعهم، وقَطَعَ أشجارهم وكَرْمهم، ثم سار إلى الشَّوْبك، وفعل به مِثْلَ ذلك، ووصل عسكر مِصْر، فتلقَّاه بالقريتين، وفرَّقه على أعمال القلعتين،

---

(١) السفتجة: فارسية معربة، وهي الحوالة.

(٢) وخمسمائة.

وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك الأفضل ولده مقيمٌ برأس الماء، في جَمْع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة، والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمراً من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظارُ السُلْطان، فأنهض منهم سَرِيَّةً سَرِيَّة، وأمرها بالغارة على أعمال طَبَرية، ورتَّب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرْق وديار بكر مظفر الدِّين كوكُبُرِي صاحب حَرَّان، وعلى عسكر حلب والبلاد الشَّامية بدر الدين دُلْدُرُم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النَّجْمي، فساروا مدجَّجين، وسروا مُدْلجين، وصبَّحوا صَفُّورية، وساء صباحُ المُنْذَرين، فخرج إليهم الفرنج في حَشْدهم، فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السُّني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم مُنَى المنايا، وفازوا وظَفِروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدَّم الإسبتار، وحصلَ جماعةٌ من فُرْسانهم في قبضة الإِسار، وأُفلت مقدَّم الدَّاوية وله حُصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين، غانمين غالبين، فكانت هذه النوبة باكورة البركات، ومقدِّمة ما بعدها من ميامن الحركات. وجاءتنا البُشْرى ونحن في نواحي الكَرَك والشَّوْبك، فسار السلطان، ووصل السير بالسُّرى، وخيَّم بعَشْترا، والقدر يقول له: تعيش وتَرَى. وقد غُصَّت بخيل الله الوهادُ والذُّرى، وامتدَّ العسكر فراسخ عَرْضاً وطُولاً، وملأ بالملأ حُزوناً وسهولاً، وما رأيت عسكراً أبرك منه ولا أكبر، ولا أكْرَثَ للكُفْر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مُذكِّراً بيوم العَرْض، وما شاهده إلا من تلا ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤] وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجَّج، في ليل العَجَاج مُدَلَّج، ولما تمَّ العرضُ، وحُمَّ الفرض، وسالت بأفلاك السماءِ الأرضُ، وتعيَّن الجهاد، وتبيَّن الاجتهاد، ثم رتَّب السلطانُ العسكر أطلاباً، وحزَّبه أحزاباً، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر، عازماً على دخول السَّاحل، فأناخ ليلة السبت على خِسْفين، ثم سار في الأُرْدُنّ إلى ثَغْر الأُقْحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عيَّن مواقف الأمراء وشِعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحرُه المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط.

ولما سمع الفرنجُ باجتماع كلمة الإِسلام عليهم، وسَيْرِ تلك العساكر إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عَهْدَ لهم بمثله، وأن الإِيمان كلَّه قد برز إلى الشِّرْك كلِّه، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخوا، ودخل القومص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفُّوا راياتهم بصَفُّورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والرَّاجل، والرَّامح والنَّابل، ورفعوا صليب الصَّلبوت، فاجتمع إليه عُبَّاد الطاغوت، وضُلَّال النَّاسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل

الأقانيم، وصَلَّبوا للصَّليب الأعظم بالتعظيم، وما عصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإِحصا، وكانوا عَدَدَ الحَصَى، وصاروا في زُهاء خمسين ألفاً ويزيدون، ويكيدون ما يكيدون، قد توافوا علي صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لا يريمون، والسُّلْطان في كلِّ صباح يسير إليهم، ويُشْرِفُ عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرَّض لهم ليتعرَّضوا له، ويردُّوا عن رقابهم سيوفَه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا وما نبضوا، وقَعَدُوا وما نهضوا، فلو بَرَزُوا للمصافِّ لطالت عليهم يَدُ الانتصاف. فلما رأى السلطانُ أنَّهم لا يَبْرَحُون، ومن قُرْب صَفُّورية لا يَنْزَحُون، أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويدوموا على عَزْم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصِّه العَبْسِيَّة على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذٍ يتمكَّن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنَّقابين، والخراسانية والحجَّارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون النقب في بُرْج فهدُّوه وهدموه، وتسلَّقوا فيه وتسلَّموه، ودخل الليل وصباح الفَتْح مُسْفر، وليلُ الوَيْل على العدوِّ معتكر، وامتنعت القلعةُ بمن فيها، من القومصية وبنيها.

ولما سمع القومص بفتح طبريَّة وأَخْذِ بلده، سُقِطَ في يده، وخرج عن جلد جَلَده، وسمح للفرنج بسَبَدِهِ وَلَبَدِهِ[1]، وقال لهم: لا قعودَ بعد اليوم، ولا بُدَّ لنا من لقاء القَوْم، وإذا أُخذت طبرية أُخذت البلاد، وذهبت الطراف والتِّلاد، وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكَسْر من جَبْر. وكان الملك قد حالفه فما خالفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه، فمادت الأرضُ بحركته، وغامت السماءُ من غَبَرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا، ففرح السُّلْطان، وقال: جاءنا ما نريد، ونحن أُولو بأسٍ شديد، وإذا صَحَّتْ كسرتهم فطبرية وجميع السَّاحل ما دونه مانع، ولا عن فَتْحه وازع.

واستخار الله تعالى وسار، وعَدِمَ القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضِّهم وقضيضهم، وهم كالجبال السَّائرة، والبحار الزَّاخرة، أمواجُها ملتطمة، وأفواجها مُزْدَحمة، فرتب السُّلْطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قُدَّامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ، وللقرم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطَّريقين، وهيئت

(١) يقال: ما له سبد ولا لبد: أي ما له قليل ولا كثير، والسبد: الوبر، وقيل: الشعر، واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى بهما عن المعز والضأن، وقيل: يكنى بهما عن الإبل والماعز، فالوبر للإبل، والشعر للماعز.

دركات النيران، وهنئت درجاتُ الجنان، وانتظر مالك واستبشر رِضْوان، فهي ليلة القَدْر خَيْرٌ من ألف شهر، تنزَّل فيها الملائكة والرّوح، وفي سحَرها نَشْر الظَّفَر يفوح، وفي صباحها الفُتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كُنّا ممن قال الله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وبتنا والجَنَّة معروضة، والسُّنَّة مفروضة، والكوثر واقفةٌ سُقاتُهُ، والخُلْد قاطفةٌ جُنَاته، والسَّلْسبيل واضحٌ سبيلُه، والإقبال ظاهرٌ قَبِيلُه، والظُّهُور قائمٌ دليلُه، والله ناصِرُ الإِسلام ومديلُه.

وسَهِرَ السُّلْطان تلك الليلة حتى عيَّن الجاليشية من كلِّ طلب، وملأ جِعَابها وكنائنها بالنِّبال، وكان ما فَرَّقه من النُّشَّاب أربعمائة حِمْل، ووقف سبعين جَمَّازة[١] في حومة الوغى، يأخذ منها من خَلَت جِعابه، وفَرَغ نُشَّابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية[٢] تحرق بنيران النِّصال أهل النَّار، ورنَّت القِسِي وغَنَّتِ الأوتار، ذاك، واليوم ذاكٍ، والجيش شاكٍ، وللقيظ عليهم فيض، وما للغيظ منهم غيض، وقد وَقَدَ الحرّ، واستَشْرى الشَّرُّ، ووقع الكرُّ والفَرُّ، والسَّرابُ طافح، والظمأ لافح، والجوُّ محرق، والجَوَى مقلق، ولأولئك الكلاب من اللهب لَهَث، وبالغيث عبث، وفي ظَنِّهم أنهم يَرِدُون الماء، فاسْتَقْبَلَتْهُمْ جهنَّم بشرارها، واستظهرت عليهم الظَّهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة، بجموع أهلها المجتمعة، ووراء عسكرنا بحيرةُ طبرية، والورْدُ عِدٌّ[٣] وما منه بُعْد. وقد قطعت على الفرنج طريق الورود وبلوا من العَطَش بالنَّار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين، مكابرين مضابرين، فَكَلِبوا على ضَرَاوتهم، وشَرِبوا ما في إداوتهم، وشَفَهوا ما حولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السَّيْل، وباتوا حيارى، ومن العطش سُكارى، وهم على شَعَفِ

---

(١) جمّازة: قال في القاموس المحيط «جمز»: جمز الإنسان والبعير يجمز جمزاً وجَمَزَى: وهو عدو دون الحضر وفوق العنق، وبعير جمّاز، وناقة جمّازة، وحمار حمّاز: وثّاب. والجمازة: درّاعة من صوف، وفي المعجم الوسيط: الجمّازة: مركب سريع يتخذه الناس في المدن.

(٢) الجاليش: كلمة فارسية ومعناها: الحرب والمعركة. والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل. وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يوماً قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانة (مكان في القلعة)، والجاليش أيضاً تستعمل بمعنى طليعة الجند، وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش» وتجمع على «جواليش» (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٨، وصبح الأعشى ٤/ ٧).

(٣) العدّ: الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها، مثل ماء العين.

البُحيرة بِحَيْرة، وقوّوا أنفسهم على الشَّدَّة، واستعدُّوا بالعَزائم المحتدَّة، وقالوا: غداً نصُبُّ عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضب القواضي، فأحَدُّوا عَزْمَ البلاء، وطلبوا البقاء بالتورُّط في الفَنَاء.

وأما عسكرنا فإنها اجترأت، ومن كلِّ ما يعوقُها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لِعنانه آخذ، وهذا سهم مفوَّق، وهذا شهم موفَّق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناجٍ للسَّعادة، وهذا راجٍ للشَّهادة، فيالله تلك من ليلةٍ حُرَّاسها الملائكة، ومن سُحْرَةٍ أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسُّلْطانُ ـ رحمه الله ـ قد وَثِقَ بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصُّفوف، ويحضُّهم ويَعِدُهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يُجِيدُون ويجدُّون، ويصدُّون العدو ويردُّون، وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس، حمل في أول النَّاس، وكان حصانُه قويَّ الرَّاس، فأبعد عن إخوانه، ولم يتابعه أحدٌ من أقرانه، فانفرد به الفرنج، فأَثْبَتَ في مستنقع الموت رِجْلَه، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنُّوا أنه أحد أولاد السُّلْطان، وانتقل الشهيدُ إلى جوار الرحمن. ولما شاهد المُسْلمون استشهاده، وجلَده وجلاده، حميت حميَّتهم، وخَلَصت لله نيتهم، وأصبح الجيشُ على تعبئته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيعِ الآخر، وهو يوم النُّصْرة، ووقوع الكسرة، وبرَّحَ بالفرنج العَطَشُ، وأبت عثرتُها تنتعش، وكان النسيمُ من أمامها، والحشيشُ تحت أقدامها، فرمى بعضُ مطوعة المجاهدين النَّار في الحشيش، فتأجَّج عليهم استعارُها، وتوهَّج أُوارها، فَبُلُوا ـ وهم أهل التثليث ـ من الدنيا بثلاثة الأقسام في الاصطلاء والاصطلام، نار الضرام، ونار الأُوام، ونار السِّهام، فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طَلْبهم المُخْرَج مَخْرَجاً، فكلما خرجوا جُرحوا، وبرّح بهم حَرُّ الحرب فما برحوا، وهم ظِماء، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفِرِنْد ماء، فشوتهم نارُ السِّهام وأشوتهم، وصمَّمت عليهم قلوب القِسِي القاسية وأصمتهم، وأُعجزوا وأزعجوا، وأُحرجوا وأُخرجوا، وكلما حملوا رُدُّوا وأُرْدُوا، وكلما ساروا وشدُّوا أُسروا وشُدُّوا، وما دبَّت منهم نملة، ولا ذبَّت عنهم حَمْلَة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النُّشَّاب فعادت أسودُهُمْ قنافذ، وضايقتهم السِّهام فوسعت فيهم الخَرْقَ النَّافذ، فآووا إلى جبلِ حِطِّين يعصمهم من طوفان الدَّمار، فأحاطت بحطِّين بوارق البَوَار، ورشفتهم الظُّبَى، وَفَرشَتْهُم على الرُّبى، ورشقتهم الحنايا، وقَشَرَتْهُمُ المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرَّزايا.

ولما أحسَّ القُومص بالكَسْرة، حَسَرَ عن ذراع الحسرة، واقتالَّ من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجَمْع، واضطرام الجَمْر، فخرج

بطلبه يطلُبُ الخروج، واعوجَّ إلى الوادي وما ودَّ أن يعوج، ومضى كومض البَرْق، ووسع خُطَى خَرْقه قبل اتساع الخَرْق، وأُفلت في عِدَّة معدودة، ولم يلتفت إلى ردَّة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبق بالحَمْلَة، وأفصلُهُم من الجُمْلة. فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعةٌ من المقدَّمين مضافروه، وصَحِبَه صاحب صيدا، وباليان بن بارزان، وتآمروا على أنهم يحملون ويبلِّغون الطعان. فحمل القُومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المُظَفَّر تقي الدين، وهو مُؤَيَّدٌ من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقاً، ورمى من أتباعهم فريقاً، فمضوا على رؤوسهم، ونجوا بنفوسهم. ولما عرف الفرنج أن القومص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وَهَنوا وهانوا، ثم اشتدُّوا وما لانوا، وَثَبَتُوا على ما كانوا، واستقبلوا واستقتلوا، واستُلْحموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوعَ النَّار في الحَلْفَاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فَزَاد في الإذكاء، فحطُّوا خيامهم على غارب حِطِّين، حين رأونا بهم مُحيطين، فأعجلناهم عن ضَرْب الخيام بضرب الهام، ثم استحرَّت الحرب، واشتجر الطَّعْن والضَّرْب، وأُحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدَّوائِرُ عليهم، وترجُّوا خيراً فترجَّلوا عن الخيل، وجرفهم السَّيْفُ جَرْفَ السَّيْل، ومُلِكَ عليهم الصَّليب الأعظم، وذاك مُصابُهُم الأعظم. ولما شاهدوا الصَّليب سليباً، ورقيب الرَّدَى قريباً، أيقنوا بالهلاك، وأُثْخنوا بالضَّرْب الدِّراك، فما بَرِحُوا يُؤسرون ويُقتلون، ويخمدون ويُخملون، وللوثوب يخفُّون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأَسْر ينقلون.

ووصلنا إلى مقدَّمهم، وملكهم وإبرنسهم، فتمَّ أسر الملك، وإبرنس الكَرَك، وأخي الملك جُفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري بن هنفري، وابن صاحب إسكندرونة، وصاحب مرقية، وأُسِرَ من نجا من القَتْل من الدَّاوية[1] ومقدَّمها، ومن الإسبتارية[2] ومُعَظَّمها، ومن البارونية ومن أخطأه البوار، فأصابه وساءه الإِسار، وأُسِر الشَّيطان وجنودُه، ومُلك الملك وكنوده، وجُبِرَ الإسلام بكسرتهم، وقُتلوا

(١) الداوية: طائفة مشهورة من الرهبان المرابطين، كان مركزهم الأساسي في قلعة رباح بأسبانيا، التي كانت حداً فاصلاً بين أرض النصارى وأرض المسلمين، وقد جاء قسم منهم إلى المشرق مع الحملات الصليبية، ويقال لهم في فرنسا: فرسان المعبد، وهم طائفة عسكرية متدينة تأسست سنة ١١١٩م. وكان لها دور بارز في الحملات على فلسطين (دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٣٧٩).

(٢) الاسبتارية: فرق عسكرية مسيحية جاءت مع الحملات الصليبية بدافع الشحن العقائدي الديني، وهم بذلك مثل «فرسان المعبد» أو «الداوية».

وأسروا بأَسْرهم، فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل، ومُذِ استولى الفرنج على ساحل الشَّام ما شُفِيَ للمسلمين كيوم حطين غليل.

فالله عَزَّ وجلَّ سَلَّط السُّلْطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهداه من التَّوفيق لامتثال أمره وإقامة فَرْضِهِ النهج المسلوك، ونَظَمَ له في حُتُوف أعدائه والفتوح لأوليائه السُّلوك، وخصَّه بهذا اليوم الأغَرِّ، والنَّصْر الأبَرِّ، واليُمْن الأَسَرِّ، والنُّجْح الادَرّ، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم، لكان متفرِّداً على الملوك السَّالفة، فكيف ملوك العَصْر في السموِّ والسَّوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القُدْسي مقدِّمة، ولمعاقد النَّصْر وقواعده مُبْرِمة مُحْكِمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم ما دام فَرَسُهُ سالماً لم يدلَّ للصَّرعة، فإنه من لُبْسِهِ الزَّردي من قَرْنه إلى قَدَمه كأنَّه قطعة حديد، ودِراك الضَّرْب إليه غير مفيد، لكنَّ فرسه إذا هلك فُرِسَ ومُلِكَ، فلم يُغْنَمْ من خيلهم ودوابِّهم ـ وكانت ألوفاً ـ ما هو سالم، وما ترجَّل فارسٌ إلا والطَّعْن والرَّمي لمركوبه كالم، وغَنِمْنا ما لا يحصر من بيضٍ مكنون، وزَغْفٍ مَوْضُون[1]، وبلادٍ وحُصُون، وسهول وحُزون، وابتذلنا منهم بهذا الفتح كلَّ إقليم مصون، وذلك سوى ما استبيح من مالٍ مخزون، واستُخْرِجَ من كَنْزٍ مدفونَ. وصَحَّت هذه الكسرة، وتمَّتْ هذه النُّصْرة يوم السبت، وضُرِبَتْ ذِلَّة أهل السَّبت على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من النَّقد[2]، فما أُفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملا[3] بالأَسْرى والقَتْلى، وانجلى الغُبار عنهم بالنَّصْر الذي تجلَّى، وقُيِّدتِ الأسارى في الحبال واجبةَ القلوب، وفُرِشَتِ القَتْلى في الوِهاد والجبال واجبةَ الجُنُوب، وحَطَّت حِطِّين تلك الجيف عن مَتْنها، وطاب نَشْرُ النَّصْرِ بنتنها، وعَبَرْتُ بها فألفيتها مَحَلَّ الاعتبار، وشاهدتُ ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خَبَراً من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنُّفوسَ بائرة، والعيونَ غائرة، والجسوم رمستها السَّوافي، والرُّسوم دَرَستها العَوَافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعَرَاء عُراة، مُمزَّقةً بالمآزِق، مفصَّلة المفاصل، مفرَّقةَ المرافق، مُغَلَّقة المفارق، محذوفة الرِّقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطَّعة الهام، موزَّعة الأقدام، مجدوعةَ الآناف، منزوعة الأطراف،

(١) الزغف الموضون: الدرع المحكمة، الداخلة الحلق بعضها في بعض.
(٢) النقد: الصغيرة من الغنم.
(٣) الملا: الفلاة.

مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، مُنَصَّفة الأجساد، مُقَصَّفة الأعضاد مقلَّصة الشِّفاه، مُخلَّصة الجباه، سائلةَ الأحداق، مائلةَ الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمةَ الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرةً لأُولي الأبصار.

ولما أبصرتُ خدودهم ملصَّقةً بالتُّراب وقد قُطعوا آراباً تلوتُ قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠] فما أطيب نفحات الظَّفَر من ذلك الخَبَث، وما ألهب عَذَبات العذاب في تلك الجُثَث، وما أحسنَ عمارات القلوب بقبح ذلك الشَّعَث، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحَدَث، هذا حساب من قتل فقد حُصرت ألسنة الأُمم عن حَصْرِه وعَدِّه، وأما من أُسِرَ فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشدِّه، ولقد رأيتُ في حبلٍ واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهنالك العُتَاة عُناة، والعُدَاة عُرَاة، وذوو الأَسِرَّةِ أَسْرى، وأولو الأَثَرَةِ عَثرى، والقوامِصُ قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الدَّاوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أُصيد صِيد، وقائد قيِّد وقِيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحرّ في الرِّق، ومبطل في يد المُحِقّ، ولم يُؤْسر الملك حتى أُخذ صليب الصَّلبوت، وأُهلك دونه الطَّاغوت، وهو الذي إذا نُصب وأُقيم ورفع، سجد له كلُّ نَصْرانيٍّ وركع، وهم يزعمون أَنَّه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلِبَ عليها معبودهم، وقد غلَّفوه بالذَّهب الأحمر، وكلَّلوه بالدُّرِّ والجَوْهر، وأعدُّوه ليوم الرَّوْع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع أحدهم عنه التخلُّف، ولا يسوغ للمتخلِّف عن اتِّباعه في نَفْسه التَّصَرُّف، وأَخْذُه عندهم أعظم من أَسْر الملك، وهو أشدُّ مصابٍ لهم في ذلك المُعْتَرَك، فإنَّ الصَّليب السَّليب ماله عِوَض، ولا لهم في سواه غَرض، والتَّأَلُّه له عليهم مفترض، فهو إلههم وتعفَّر له جباههم، وتسبِّح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المُهَج، ويطلبون به الفَرَج، بل صاغوا على مثله صُلْباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها.

فلما أُخذ هذا الصَّليبُ عَظُمَ مصابهم، وَوَهَتْ أصلابُهم، وكان الجمعُ المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنَّهم لما عرفوا إخراج هذا الصَّليب، لم يتخلَّف أحدٌ عن يومهم العصيب، فهلكوا قَتْلاً وأَسْراً، ومُلكوا قَهْراً وقَسْراً. ولما صَحَّ الكَسْرُ، وَقُضِيَ الأمر، وتمكَّن النَّصْر، وسكن البحر، ضربَ السُّلْطانُ في تلك الحومة دِهْليز السُّرَادق، وتوافت إليه حُماة الحقائق، ونَزَل

السُّلْطان وصلَّى للشكر وسجد، وجدَّد الاستبشار بما وجد، وأُحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس، وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب «الفتح»: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السُّكارى، فَقُدِّم بدايةً مقدَّم الدَّاوية وعدَّة كثيرة منهم، ومن الإسبتارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري، والإِبرنس أرناط صاحب الكَرَك، وهو أَوَّل من وقع في الشَّرَك، وكان السُّلْطان نَذَرَ دمه، وقال: لأُعجِّلَن عند وِجْدانه عَدَمَه.

فلما حضر بين يديه، أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرَّعه على غَدْره، وذكَّره بذنبه، وقال له: كم تَحْلِفُ وتَحْنِث، وتعهد وتنكُثُ، وتُبرم الميثاق وتنقُض، وتُقْبِلُ على الوفاق ثم تُعْرِضُ، فقال التَّرْجُمان عنه: إنه يقول: قد جَرَتْ بذلك عادةُ الملوك، وما سلكْتُ غير السَّنَن المسلوك.

وكان الملك يلهث ظمأً، ويميل من سَكْرَة الرُّعْب مُنتشياً، فآنسه السلطان وحاوره، وفثَأَ سورةَ الوَجَلِ الذي ساوره، وسكَّن رُعْبَه، وأمَّن قلبه، وأمر له بماءٍ مثلوج فشربه، وأَطفأَ به لهبه، ثم ناول الملكُ الإِبرنسَ القَدَح، فاستشفَّه، وبرَّد به لهفه، فقال السُّلْطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذناً، فلا يوجب ذلك له مني أَمناً. ثم ركب وخلاهُما، وبنار الوَهَلِ أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضُرِبَ سُرَادقُه، ورُكِزَتْ أعلامُه وبيارقُه، وعادت إلى الحِمى عن الحومة فيالِقُه.

فلما دخل سُرَادقه استحضر الإِبرنس، فقام إليه، وتلقَّاه بالسَّيْف، فحلَّ عاتقه، وحين صُرِعَ أمر برأسه فَقُطع، وجُرَّ برجله قُدَّام الملك حين أخرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطانُ أنه خامره الفزع، وساوره الهَلَع، وسامره الجَزَع، فاستدعاه واستدناه، وأمَّنه وطمَّنه، ومكَّنه من قُرْبه وسكَّنه، وقال له: ذاك رداءتُه أَرْدَتْهُ، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغَيِّه وَبَغْيِه.

ثم جمع الأُسارى المعروفين، وسلَّمهم إلى والي قلعة دمشق النَّاصح الغيدي، فقال لهم: أنتم تحت قَيْدي. وسلَّمهم إلى أصحابه. فتسلَّمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خَطَّ الصَّفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكُبُولهم. فتفرَّق العسكر بمن ضمَّته أيدي السَّبْي أيدي سبا، وهادتهم الوِهادُ والرُّبى.

قال: ولما أصبح السُّلْطان يوم الأحد، استقام على الجَدَد، وخيَّم على طبرية، وراسل القومصية، وأخرجها من حِصْنها بالأمان، ووفَى لها وللفُرْسان بَنِيها بشروط الأمان، فخرجت بمالها ورحالها، ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس

بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وولّى طبرية قايماز النَّجْمي. وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصَّلْت والبَلْقاء وجبل عوف، والحَيَّانِيَّة والسَّواد، وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وَصَفَتِ الصفاة، وأُمِنَت الآفات، هذا، والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طَبَّ البَرِيَّة، وعسكره قد طبَّق البريَّة.

فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الدَّاوية والاسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذه الجنسين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر، وهما أخبثُ أهل الكُفْر. فتقدَّم بإحضارِ كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليهم عَيْنَ الحَيْف، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يَضَنُّ بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسيرٍ منهما من الدَّنانير الحُمْر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضَرْبِ رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعةٌ من المتطوِّعة المتورِّعة، والمتصوِّنة المتصوِّفة، والمتعمِّمة المتصرِّفة، ومن يمتُّ بالزُّهْد والمعرفة، فسأل كلَّ واحدٍ في قَتْلِ واحد، وسَلَّ سيفه وحسر عن ساعد، والسُّلْطان جالس ووجهه باشر، والكُفْر عابس، والعساكر صفوف، والأُمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فَرَى وبرى وشُكِرَ، ومنهم من أبى ونبا وَعُذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه، وشاهدتُ هناك الضَّحوكَ القَتَّال، ورأيت منه القَوَّال الفَعَّال، فكم وعدٍ أنجزه، وحَمْدٍ أحرزه، وأجرٍ استدامه بدمٍ أجراه، وبِرٍّ أعنق إليه بعنق براه. وسيَّر ملك الفرنج وأخاه، وهنفري وصاحب جُبَيْل ومقدَّم الداوية، وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق، ليودعوا السُّجون، وتستبدل حركاتهم السكون، وتفرَّقتِ العساكر بما حَوَتْ أيديهم من السَّبْي، وسبق بهم إلى البلاد الناس، ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجد من الدَّاوية والاسبتارية، فامتثل الأمر في إزهاقهم، وضَرْبِ أعناقهم، فما قَتَلَ إلا من عُرض عليه الإِسلام فأبى أن يُسْلم، وما أسلم إلا آحادٌ حَسُنَ إسلامُهم، وتأكَّد بالدِّين غَرَامهم.

قال العماد: وما زلت أبحثُ عن سبب نَذْر السُّلْطان إراقة دم الإِبرنس، حتى حدَّثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شَدَّاد بن تميم بن المُعِزّ بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جَدُّه صاحبَ إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريبٍ من هذا الزَّمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدَّثه أنه السلطان لما عاد إلى دمشق من حَرَّان، بعد المرضة التي صار بها كُلُّ قلبِ حَرَّان، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سَقَمه لا يفارق الأنين، فقلتُ له ما معناه:

قد أيقظك الله، وما يعيذك من هذا السُّوء سواه، فانذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ما لله من المُفْتَرض، وأنك لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداءِ الله مجتهداً، وأنَّك إذا نصرك الله في المعترك، وظفرت بالقومص وابرنس الكَرَك، تتقرَّب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتمُّ وجود النَّصْر إلا بعدَمهما. فأعطاه يده على هذا النَّذْر، ونجَّاه الله ببركة هذا العُذْر من الذُّعْر، وخلَّصه إخلاصُه في مرضاة الله، فَأَبَلَّ من مرضته، واستقلَّ بنهضته، واستقبل السَّنة القابلة بسُنَّة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدِّمات الجهاد ونتائجها ما جرى، وخيَّم السلطان في جموع الإسلام بعَشْترا، وركب يوماً في عسكره، وعزم على نَشْرِ القساطل، وطَيِّ المراحل، ودخول السَّاحل، والقذف بالحقِّ على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له: ليكن نَذْرُك على ذُكْرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شُكْرك، ولا تُخْطر غير قَمْع أهل الكُفْر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، ونعشك من تلك السَّقطة، إلا ليوفر حظَّك من هذه الغِبْطة. فتوكَّلَ على الله عازماً، وجازَ الأُرْدُن حازماً، وأرعبَ جَأْشَ الكُفْر وكسَرَ جيوشه، ثلَّ عُروشه، ووقع في الشَّرَك إبرنسُ الكَرَك، فوفَى بضرب عنقه نَذْرَه. وأما القومص، فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حِذْره، ولما وصل إلى طرابلُسَ أخافه في منامه القَدَرُ، وَفَجَأَه في صَفْوه الكَدَرُ، وتسلَّمه مالكٌ إلى سَقَر.

فصل

[معركة حطين برواية ابن شداد وغيره]

هذا الذي تقدَّم من وَصْفِ كسرة حِطِّين، هو عين ما ذكره عماد الدين، رحمه الله في كتابيه «الفتح» و«البرق» اختصرتُه منهما وهو مطوَّل فيهما، وقد وقفتُ على كلامٍ لغيره في ذلك، فأحببتُ إيراده على وجهه لما فيه من شَرْح ما تقدَّم وتقويته، وربما اشتمل على زياداتٍ من فوائد تتعلَّق بذلك لم يتعرَّض لها، أو مخالفة لبعض ما ذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شَدَّاد: لما كان المحرَّم سنة ثلاثٍ وثمانين عَزَمَ السُّلْطان على قصر الكَرَك، فَسَيَّر إلى حلب من يستحضر العسكر، وَبَرَّز من دمشق في منتصف المحرَّم، فسار حتى نزل بأرض الكَرَك، منتظراً لاجتماع العساكر المِصْرية والشَّامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشنِّ الغارة على ما في طريقهم من البلاد السَّاحلية، ففعلوا ذلك، وأقام ـ رحمه الله ـ بأرض الكرك، حتى وصل الحاجُّ الشامي إلى الشَّام، وأمنوا غائلة العدو.

ووصل قَفْل مصر، ومعه بنت الملك المُظَفَّر وما كان له بالدِّيار المِصْرية، وتأَخَّرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصَّى لابن أخيه لاون بالمُلْك، وكان الملك المظفَّر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمره بالدُّخول إلى بلاد العدو، وإخماد نائرته. فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف ابن زريق، وانتقل إلى دار طُمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدوُّ أن هذا الجانب ليس بمهمل.

وعاد السُّلْطان، فوصل إلى السَّواد، ونزل بعَشْتَرا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل ومظفر الدين وجميع العساكر، وكان تقدَّم إلى الملك المُظَفَّر بمصالحة الجانب الحلبي مع الفرنج ليتفرَّغ البال مع العدو في جانبٍ واحد، فصالحهم، وتوجَّه إلى حماة يطلب خدمة السُّلْطان للغَزَاة، فسارتِ العساكر الشَّرْقية في خدمته، وهم عسكر المَوْصل مقدَّمهم مسعود بن الزَّعْفَراني، وعسكر مارِدِين إلى أن أتوا عَشْتَرا، فلقيهم السلطان وأكرمهم.

ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تَلٍّ يُعْرَف بتل تسيل، ورتَّبهم، واندفع قاصداً إلى بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمَع لا سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخُطَباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإِجابة.

وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفُّورية بأرض عكا، فقصد نحوهم للمصافِّ معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصُّنَّبْرَة، ورحل من هناك، ونزل على غربي طبرية على سَطْح الجبل لتعبئة الحرب، منتظراً أنَّ الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه، فلم يتحرَّكوا من منزلتهم، فنزل جريدةً على طبرية، وترك الأطلاب[(١)] على حالها قُبالة وجه العدو، ونازل طبرية، وزحف عليها فهجمها، وأخذها في ساعةٍ من نهار، وامتدَّت الأيدي إليها بالنهب والأسر، والحريق والقَتْل، واحتمت القلعة وحدها. فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدَّفْع عنها، فأخبرتِ الطلائعُ الإِسلامية الأمراءَ بحركة الفرنج، فسيَّروا إلى السلطان مَنْ عَرَّفه

(١) الأطلاب: جمع طُلْب ـ بضم أوله ـ وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير. ويقول ابن إياس إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي، ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٦).

ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولحق العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصافّ شاكين في السِّلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قريةٍ تسمَّى اللُّوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظَّلام.

وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة ما لم يُحْكَ عمَّن تقدَّم، وبات كلٌّ فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كلِّ ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كلٌّ من الفريقين مقامه، وعلمت كلُّ طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومةَ النفس، وتحقَّق المسلمون أن مِنْ ورائهم الأُرْدُن، ومن بين أيديهم بلادُ القوم، ولا ينجيهم إلا الله.

وكان الله قد قدَّر نصره للمسلمين فيسَّره، وأجراه على وَفْق ما قدَّره، فحملت الأطلاب[١] الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحةَ الرَّجل الواحد، فألقى الله الرُّعب في قلوب الكافرين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وكان القومص ذكي القوم وألمعيَّهم، فرأى أمارات الخِذْلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعةٌ من المسلمين، فنجا وحده، وأمِنَ الإسلام كيده، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكُفْر والطُّغيان من كلِّ جانب، وانهزمت منهم طائفة، فتبعها أبطال المسلمين، فلم يَنْجُ منها واحد، واعتصمت الطائفة الأُخرى بتل حطين ـ وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شُعيب عليه السَّلام ـ فضايقهم المسلمون على التَّلِّ، وأشعلوا حولهم النِّيران، وقتلهم العَطَشُ، وضاق بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأُسر مُقَدَّموهم، وقُتِلَ الباقون وأُسروا، وكان الواحد منهم العظيم يخلد إلى الأسْرِ خوفاً على نَفْسه، ولقد حكى لي من أثق بقوله إنه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنُبُ خيمةٍ وفيه نيف وثلاثون أسيراً، يجرُّهم وحده لخِذْلان وَقَعَ عليهم.

وأما القومص الذي هرب، فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله بها.

وأما مقدَّمو الاسبتارية والدَّاوية، فإن السلطان اختار قَتْلَهم، فقتلوا عن بكْرَةِ أبيهم.

---

(١) انظر الحاشية السابقة.

وأما البرنز أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظَفِرَ به قتله، وذلك أنه كان عَبَرَ به بالشَّوبك قَفْلٌ من الديار المصرية في حالة الصُّلْح، فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصُّلْح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمَّن الاستخفاف بالنبي ﷺ، وقال: قولوا لمحمدكم يخلِّصكم. وبلغ ذلك السلطان، فحمله الدِّين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دِهْليز الخيمة، فإنها لم تكن نُصبت، والنَّاس يتقرَّبون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدَّمين، ونُصبت الخيمة، وجلس فرحاً مسروراً، شاكراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه، والبرنز أرناط، وناول الملك شربة من جُلَّاب بثلج، فشرب منها ـ وكان على أشد حال من العطش ـ ثم ناول بعضها البرنز أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك، أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ما سقيته ـ وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب مِنْ مال مَنْ أسره، أَمِنَ، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق ـ ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً، ثم عاد واستحضرهم، ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدِّهْليز، واستحضر البرنز أرناط، وأوقفه على ما قال، وقال له: ها أنا أنتصر لمحمدٍ ﷺ، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، ثم سَلَّ النَّمجاة[١]، وضربه بها، فَحَلَّ كتفه، وتمَّمَ عليه من حضر، وعجَّل الله بروحه إلى النَّار، فأُخذ ورمي على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أُخرج على تلك الصُّورة لم يشك في أنه يثنِّي به، فاستحضره، وطيَّبَ قلبه، وقال: لم تَجْرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حدَّه، فجرى ما جرى.

وبات النَّاس تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور، ترتفعُ أصواتُهم بالحمد لله والشُّكْرِ له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصُّبْح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكر محمد بن القادسي[٢] في «تاريخه» أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الوقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي[٣]،

---

(١) النمجاه: بالفارسية: نيمجه. من: نيم بمعنى نصف وجه وهي علامة تصغير، فمعناها الحرفي: النصيف، وهي في الفارسية اسم لنوع من السيوف ولبندقية قصيرة، واستعملها العرب بمعنى السيف فقط (تأصيل الدخيل ص١٩١).

(٢) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن قدامة بن مقدام بن نصر الجماعيلي

يقول فيه: كتبتُ هذا الكتاب من عَسْقلان يوم الثلاثاء، ثالث عشر جُمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، وفيه:

ولو حمدنا الله عزّ وجلّ طول أعمارنا ما وفينا بعُشْر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنَّا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء النَّاس من المَوْصِل وديار بكر وإِرْبل، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنتُ أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كَبِرْتُ، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم، وقاتلوا لله تعالى لا من أجلي. فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكُفَّار، فعرض جُنْدَه ورَتَّبهم، وجعل تقي الدين في الميمنة، ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الأُقْحوانة، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكَفْر سَبْت، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكُفَّار ـ وكان عسكر الكفار على صَفُّورية ـ فلم يبرزوا، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدَّم فُرْسانه وحُماته ورُماتُه والنَّقَّابون، فدخلوا حتى الحِصْن، فلما تمكَّن النقب منه انهال من غيرِ وَقُود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا في يوم الجمعة، فشرعوا في نَقْب القلعة، فلما كان وقتُ الصَّلاة، جاء الخَبَرُ أن الكُفَّار قد توجَّهوا إلينا، فارتحل صلاحُ الدِّين على صفوفه، فلقيهم، ثم لم يزالوا يتقدَّمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قَلْبُ المسلمين خلفهم، فتراموا ساعةً، وباتَ كلٌّ فريقٍ على مصافِّهم، ، ثم أصبحوا، فسار الكُفَّار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يُلِحُّون عليهم بالرَّمي، فاقتلع المسلمون منهم فوارس، وقتلوا خَيَّالة ورجَّالة، فانحاز المشركون إلى تل حطين، فنزلوا عنده، ونصبوا الخيام، وأقام النَّاس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبَّتِ الرِّياح، فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لا يلوون على شيءٍ، ولم يفلت منهم

المقدسي، ثم الدمشقي الصالحي، موفق الدين، أبو محمد الفقيه الحنبلي، ولد سنة ٥٤١هـ، وتوفي سنة ٦٢٠هـ، من تصانيفه: «الاستبصار في نسب الأنصار»، «البرهان في مسألة القرآن»، «التبيين في أنساب القرشيين»، «ذم الوسواس»، «تحريم النظر في كتب أهل الكلام»، «ذم التأويل»، «روضة في الأصول»، «عمدة الأحكام» في الفروع، «غريب الحديث»، «فضائل الصحابة»، «قنعة الأريب في الغريب»، «كافي في الفروع»، «كتاب الاعتقاد»، «كتاب التوابين»، «كتاب الرقة»، «كتاب القدر»، «كتاب المتحابين»، «مختصر العلل للجلال»، «مسألة العلو»، «المغني شرح مختصر الخرقي» في الفروع، «مقدمة في الفرائض»، «المقنع في الفروع»، «منهاج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين» (كشف الظنون ٥/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠).

إلا نحوٌ من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً، وقيل: ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً. وكان الذي أسر الملك دِرْباس الكُرْدي، وغلام الأمير إبراهيم المِهْراني أسر الإبرنس، وقَتَلَ صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلةً من طريق مصر.

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضَرَبَ أعناق الأسرى الذين كانوا في العَسْكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم.

قال: وورد كتابٌ آخر فيه: هذه الفُتوح التي ما سُمِعَ بها قَطُّ، وهذا ذِكْرُ بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحدٌ يصف ذلك، لأن الأمر أكبر من ذلك، الذي يبشّر به المسلمون، أنَّ مدينة طبرية فُتِحَتْ بالسيف، وأُخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الفرنج جميعهم، والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبيِّ ﷺ، وقُتِلَ من الإِفرنج ثلاثون ألفاً. وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارسٍ وراجل، وأُسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الإِسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحدٌ يصف ذلك، وما سَلِمَ من عسكر الفرنج سوى قومص إطرابلس مع أربعةِ نَفَر، وهو مجروحٌ ثلاث جراحات. وأُخذ جميع أُمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعةً واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأة وخمسةُ أولاد؛ ثلاث بنين وابنتان بثمانين ديناراً، وأُخذ صليب الصَّلبوت فَعُلِّق على قنطارية منكساً، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يُرَى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجىء من يشتريها من كثرة السَّبْي والغنائم.

قال: وفي كتابٍ آخر: وكان الفرنجُ خمسةً وأربعين ألفاً، فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك.

قلتُ: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعلٍ، فباعه بها، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يُذْكر ذلك، ويقال: بلغ من هَوَان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع واحدٌ منهم بنعلٍ، ولله الحمد.

وما أحسن ما قال أبو الحسن بن الذَّرَوي من قصيدة(١): [الطويل]

شَرَحْتَ صلاحَ الدِّين بالسُّمر والظُّبى ... من المَجْدِ معنًى كان من قَبْلُ يَغْمُضُ
وما كاد جَيْشُ الرُّوْمِ يُبْرِمُ كَيْدَهُ ... إلى أَنْ سَرَتْ منكَ المَهَابةُ تَنْقُضُ

(١) توفي ابن الذري سنة ٥٧٧هـ، ولعل هذا الشعر قيل في غير هذه المناسبة.

حَمَيْتَ ثُغُورَ المُسْلمين فأَصْبَحَتْ ثغوراً بأمواه الحديد تَمَضْمَضُ
أَسَرْتَ ملوكَ الكُفْرِ حتى تَرَكْتَهُ وما فيه عِرْقٌ عن قُوى النفس يَنْبِضُ

وكان القاضي الفاضل غائباً عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كَتَبَ إلى السُّلْطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدِّين القَيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كلِّ مُسْلم، وأنه قد أسبغ عليه النِّعْمتين: الباطنة والظَّاهرة، وأورثه المُلْكين: مُلْك الدُّنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخِدْمة، والرؤوس إلى الآن لم تُرْفَع من سُجُودها، والدُّموع لم تُمْسَحْ من خُدودها، وكلما فكَّر المملوك أنَّ البِيَعَ تعودُ وهي مساجد، والمكان الذي كان يقالُ فيه: إن الله ثالثُ ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه واحد، جَدَّد لله شُكْراً، تارةً يفيض من لسانه، وتارةً يفيض من جَفْنه، وجزى يوسفَ خيراً عن إخراجه من سجنه، والمماليك ينتظرون أمر المولى، فكلٌّ من أراد أن يدخل الحمام بدمشق، قد عوَّل على دخول حَمَّام طبرية: [البسيط]

تلك المكارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ[1] وذلك الفَتْحُ لا عَمَّان واليَمَنِ
وذلك السَّيْفُ لا سَيْفُ ابنِ ذي يَزَنِ

وللألسنة بَعْدُ في هذا الفتح سَبْحٌ طويل، وقَوْلٌ جليل.

وللعماد رحمه الله قصائدُ يذكر فيها وقعةَ حِطِّين، لم يذكر منها شيئاً هنا، بل ذكر بعضَها عند ذكر فتح نابُلُس، وبعضها عند ذكر فَتْح القُدْس، فنقلتُ منها إلى هذا المكان ما يتعلَّق به، والباقي يُذْكَرُ في مكانه، قال: [البسيط]

يا يومَ حِطِّين والأبطالُ عابِسَةٌ وبالعَجَاجَةِ وَجْهُ الشَّمْسِ قد عَبَسا
رأيتُ فيه عظيمَ الكُفْرِ مُحْتَقراً مُعَفَّراً خَدُّهُ والأَنْفُ قد تَعَسا
يا طُهْرَ سَيْفٍ بَرَى رأسَ البرنس فقد أصابَ أَعْظَمَ مَنْ بالشِّرْكِ قد نَجُسَا
وغاصَ إذْ طار ذاكَ الرَّأْسُ في دَمِه كأنَّهُ ضِفْدَعٌ في الماءِ قد غَطَسا
ما زالَ يَعْطُسُ مَزْكُوماً بغَدْرَتِهِ والقَتْلُ تَسْمِيتُ مَنْ بالغَدْرِ قد عَطَسا
عرَّى ظُباه من الأَغْمادِ مُهْرَقَةً دماً من الشِّرْكِ رَدَّاها به وكَسَا

---

(١) هذا الشطر مأخوذ من البيت: [البسيط]

هذي المفاخر لا قعبان من لبن شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا

والبيت لأبي الصلت الثقفي والد أمية بن أبي الصلت في الشعر والشعراء ص٤٦٩، والعقد الفريد ٢/ ٢٣، ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص٥٢، وللنابغة الجعدي في ديوانه ص١١٢، وللثقفي في شرح المفصل ٨/ ١٠٤.

مَنْ سَيْفُه في دِماءِ القَوْم مُنْغَمِسٌ من كلِّ من لم يَزَلْ في الكُفرِ مُنْغَمِسا
أَفْنَاهُمْ قتلُهمْ والأَسْرُ فانتكسوا وبَيْتُ كُفرِهُمْ مِنْ خُبْثِهِمْ كُنِسَا

وقال أيضاً يخاطِبُ صلاحَ الدين رحمه الله: [البسيط]

سَحَبْتَ على الأُرْدُنِّ رُدْناً من القَنَا رُدَيْنِيَّةً مُلْداً وخَطِّيَّةً مُلْسا
حَطَطْتَ على حِطِّين قَدْرَ مُلُوكِهِمْ ولم تُبْقِ من أجناس كُفرِهُمُ جِنْسا
وَنِعْمَ مجالُ الخَيْلِ حِطِّينُ لم تكنْ مَعَارِكُها لِلْجُرْدِ ضِرْساً ولا دَهْسا[١]
غَدَاةَ أُسودُ الحَرْبِ تَعْتَقِلُ القنا أساودُ تَبْغي مِنْ نُحورِ العِدَى نَهْسَا[٢]
أَتَوْا شُكُسَ الأخلاق خُشْناً فليَّنت حُدودُ الرِّقاقِ الخُشْنِ أخلاقَها الشُّكْسا
طَرَدْتَهُمْ في المُلْتَقى وعَكَسْتَهُمْ مُجيداً بِحُكْمِ العَزْمِ طَرْدَك والعَكْسَا
فكيف مَكَسْتَ المشركين رُؤوسَهُمْ ودَأْبُكَ في الإِحْسانِ أن تُطْلِقَ المَكْسا
كَسَرْتَهُمْ إذْ صحَّ عَزْمُك فيهمُ ونكَّسْتَهُمْ إذْ صار سَهْمُهُمُ نَكْسا
بواقعةٍ رُجَّتْ بها الأرضُ تَحْتَهُمْ دماراً كما بُسَّت جِبالُهُمُ بَسَّا[٣]
بطونُ ذِئابِ الأَرْضِ صارَتْ قُبورَهُمْ ولم تَرْضَ أَرْضٌ أن تكونَ لهم رَمْسا[٤]
وطارَتْ على نار المواضي فَرَاشُهُمْ ضلالاً فَزَادَتْ من خُمودِهُمُ قَبْسا
وقد خَشَعَتْ أصواتُ أبطالها فما يعي السَّمْعُ إلا من صليل الظُّبَى هَمْسا
تُقادُ بِدَأْماءِ الدِّماء ملوكُهُمْ أُسارى كَسُفْنِ اليَمِّ نُطَّتْ بها القَلْسا[٥]
سبايا، بلادُ اللَّهِ مملوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بَخْساً وقد عُرِضَتْ نَخْسا
يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها لِكَثْرَتِها كم كَثْرَةٍ تُوجِبُ الوَكْسا[٦]
شكا يَبَساً رأسُ البِرِنْس الذي به تَنَدَّى حسامٌ حاسمٌ ذلك اليُبْسا
حسا دَمَه ماضي الغِرار لِغَدْرِهِ وما كانَ لولا غَدْرُه دَمُهُ يُحْسَى[٧]
فلله ما أَهْدَى يداً فَتَكَتْ بِهِ وأَطْهَرَ سَيْفاً مُعْدِماً رِجْسَهُ النَّجْسا

---

(١) الضرس: الأرض الخشنة، والدهس: المكان السهل اللين.

(٢) النهس: القبض على اللحم ونتره.

(٣) بست جبالهم بسًا: أي فتت ونسفت، فصارت كالدقيق. ومنه قول الله تعالى: ﴿**إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً**﴾ [الواقعة: ٥].

(٤) الرمس: القبر.

(٥) الدأماء: البحر. ونطّت: أي شدّت. والقلس: حبل غليظ من حبال السفن.

(٦) الوكس: اتضاع الثمن في البيع.

(٧) الغرار: حد السيف.

نَسَفْتَ بِهِ رَأْسَ البرنس بِضَرْبَةٍ فأشبهَ راسي رَأْسِهِ العِهْنَ والبُرْسا[١]
تبوَّغ في أَوْداجه دَمُ بَغْيِهِ فَصالَ عليه السَّيْفُ يَلْحَسُهُ لَحْسا[٢]
بَعَثْتَ أمامَ أُمةِ النَّارِ نحوها إمامَهُم أَزناطَها ذلك الجِبْسا[٣]
ولله نَصُّ النَّصْرِ جاءَ لِنَصْلِهِ فلا قَوْنَساً أبقى لِرَأْسٍ ولا قَنْسا[٤]
حكى عُنُقُ الدَّاويِّ صَلَّ بِضَرْبَةٍ طريرُ الشَّبا عُوداً بِمِضْرَابِهِ حُسَّا[٥]
أيوم وغًى يَدْعُوه أم يوم نائلٍ وأنتَ وَهَبْتَ الغانمينَ به الخُمسا
وقد طابَ ريَّانا على طَبَرِيَّةٍ فيا طيبَها رِياً ويا حُسْنَها مَرْسى[٦]

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[٧] من قصيدةٍ سيأتي بعضُها في مدح صلاح الدِّين رحمه الله: [الكامل]

جاشَتْ جيوشُ الشِّرْكِ يَوْمَ لَقِيتَهُمْ يتدامرون على مُتُونِ الضُّمَّرِ[٨]
أَوْرَدْتَ أَطْرَافَ الرِّماحِ صُدُورَهُمْ فَوَلَغْنَ في عَلَقِ النَّجيعِ الأَحْمَرِ[٩]
فهناك لم يُرَ غَيْرُ نَجْمٍ مُقْبِلٍ في إثْرِ عِفْرِيتٍ رجيمٍ مُدْبِرِ
فَمَنِ الذي من جَيْشِهِمْ لم يُخْتَرَمْ وَمَنِ الذي مِنْ جَمْعِهِمْ لم يُؤْسَرِ
حتى لقد بِيعَتْ عَقَائِلُ أُرْهِقَتْ بالسَّبْي بالثَّمَنِ الأَخَسِّ الأَحْقَرِ
سَقَتِ المماليكُ الكِرَامُ مُلُوكَهُمْ كأساً به سَقَتِ اللَّئيمِ الهَنْفَري
وَعَجَمْتَ عُودَ صَلِيبِهِمْ فَكَسَرْتَهُ وسِواكَ أَلْفاه صَلِيبَ المَكْسَرِ

---

(١) العهن: الصوف، والبرس، بكسر الباء وضمها: القطن.
(٢) تبوغ به الدم: هاج به، وذلك حين تظهر حمرته في البدن.
(٣) الجبس: الجبان الضعيف اللئيم.
(٤) القونس: أعلى البيضة من الحديد. والقنس: الأصل.
(٥) طرير الشبا: أي طرف السيف وحدّه، وقد حدِّد، أي أصبح في غاية الرهافة. وحسًّا: من الحس: وهو القتل الذريع المستأصل.
(٦) انظر بعض أبيات القصيدة في معجم الأدباء ١٩/ ٢٤ ـ ٢٧.
(٧) هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري، الأسدي، شهاب الدين الدمشقي الحنفي، ولد في بانياس سنة ٥٣٠هـ، وتوفي سنة ٦١٥هـ. له ديوان شعره مشهور، وديوان آخر في الدوبيت (كشف الظنون ٥/ ٨١٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٩، معجم البلدان ٣/ ٣١٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤ ـ ٢٦، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٤، وفيه توفي سنة ٦٢٧هـ).
(٨) يتدامرون: أي يهلكون. دمر القوم دماراً: هلكوا.
(٩) النجيع: الدم.

أَغْلَى الأَدَاهِمَ مَنْ أَسَرْتَ وأَرْخِصَتْ بِيْضُ الصَّوارِمِ من نِهابِ العَسْكَرِ [1]
وَجَعَلْتَ شَرْقَ الأَرْضِ يَحْسُدُ غَرْبَها بِكَ فهو داعٍ دَعْوَةَ المُسْتَنْصِرِ
لا يَعْدَمَنْكَ المُسْلِمون فكم يدٍ أَوْلَيْتَهُمْ مَعروفُها لم يُنْكَرِ
أَمَّنْتَ سِرْبَهُمُ وَصُنْتَ حريمَهُمْ ودَرَأْتَ عنهم قاصِماتِ الأَظْهُرِ
ما إنْ رآك اللَّهُ إلا آمِراً فيهم بمعروفٍ ومُنْكِرَ مُنْكَرِ
متواضعاً لله جَلَّ جلالُه وبِكَ اضْمَحَلَّتْ سَطْوَةُ المُتَكَبِّرِ
لم تَخْلُ سَمْعاً من هناءٍ مُهَنِّئٍ للمُسْلمين ومِنْ سَمَاعِ مُبَشِّرِ
واسْتَعْظَمَ الأخبارَ عنك معاشِرٌ فاسْتَصْغَروا ما اسْتَعْظَموا بالمَخْبَرِ
مَضَتِ الملوكُ ولم تَنَلْ عُشْرَ الذي أُوتِيتَهُ من مَنْجَحٍ أو مَفْخَرِ

وقال أبو الحسن علي بن السَّاعاتي [2] في فَتْح طبرية: [الوافر]

جَلَتْ عَزَماتُك الفَتْحَ المُبِينا فقد قَرَّتْ عُيونُ المُؤمنينا
رَدَدْتَ أَخِيذَةَ الإِسلام لما غدا صَرْفُ القضاءِ بها ضَمِينا [3]
وهانَ بك الصَّليبُ وكان قِدْماً يَعُزُّ على العواليَ أن يَهُونا
يُقاتِلُ كلُّ ذي مُلْكٍ رياءً وأنت تُقاتِلُ الأعداءَ دِينا
غَدَتْ في وَجْنَةِ الأيام خالاً وفي جِيدِ العُلا عِقْداً ثمينا
فيالله كم سَرَّتْ قلوباً ويالله كم أَبْكَتْ عُيونا
وما طبريةٌ إلا هَدِيٌّ تَرَفَّعُ عن أَكُفِّ اللَّامسينا
حَصَانُ الذَّيْلِ لم تُقْذَفْ بسوءٍ وَسَلْ عنها اللَّياليَ والسِّنينا
فَضَضْتَ خِتامَها قَسْراً ومَنْ ذا يَصُدُّ اللَّيْثَ أن يَلِجَ العَرينا
لقد أنكحتَها صُمَّ العوالي فكان نِتاجُها الحَرْبَ الزَّبُونا
منالٌ بَذَّ أَهْلَ الأَرْضِ طُرًّا سِوَاكَ ومَعْقِلٌ أعيا القُرونا
قَسَتْ حتى رَأَتْ كُفْؤاً فلانَتْ وغايةُ كُلِّ قاسٍ أن يَلينا
قَضَيْتَ فَريضَةَ الإِسلامِ منها وَصَدَّقْتَ الأمانيَ والظُّنونا

---

(١) الأداهم: جمع أدهم وهو القيد.
(٢) هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، بهاء الدين، أبو الحسن الدمشقي، ثم المصري المعروف بابن الساعاتي، الأديب الشاعر ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.
(٣) الأخيذة: ما اغتصب من شيء فأخذ، ومنه قيل للأسير: أخيذ، والأخيذة: المرأة المسبية.

تَهُزُّ معاطِفَ القُدْسِ ابتهاجاً ... وتُرْضي عنك مكَّة والحَجُونا
فلو أنَّ الجمادَ يطيقُ نُطْقاً ... لَنَادَتْكَ ادْخُلُوها آمنينا
جَعَلْتَ صباحَ أهليها ظَلاماً ... وأَبْدَلْتَ الزَّئيرَ بها أَنينا
تَخال حُماةَ حَوْزَتِها نساءً ... بِمَوْضُونِ الحديدِ مُقَنَّعينا
لِبيضِك في جَماجِمِهِمْ غِناءٌ ... لذيذٌ علَّم الطَّيْرَ الحنِينا
تميلُ إلى المُثَقَّفَةِ العَوَالي ... فهل أَمْسَتْ رِماحاً أم غُصُونا
يكاد النَّقْعُ يُذْهِلُها فلولا ... بُرُوقُ القاضِباتِ لما هُدِينا
فكم حازَتْ قُدودُ قَنَاك منها ... قُدوداً كالقَنا لوناً ولينا
وغِيداً كالجآذر آنساتٍ ... كغيد نَدَاك أبكاراً وعُونا[١]
ولما باكَرَتْها منك نُعْمَى ... بَنانٍ تُفْضِجُ الغَيْثَ الهَتُونا[٢]
أعدتَ بها اللَّيالي وهي بِيضٌ ... وقد كانت بها الأيامُ جونا[٣]
فليس بعادم مرعًى خَصِيباً ... أخو سَغَبٍ ولا ماءً مَعِينا
فلا عَدِمَ الشَّامُ وساكنوه ... ظُبَى تَشْفي بها الدَّاء الدَّفينا
سُهادُ جُفُونِها في كلِّ فَتْحٍ ... سُهادٌ يَمْنَحُ الغُمض الجُفُونا
فأَلْمِمْ بالسَّواحِلِ فهي صورٌ ... إليك وأَلْحِقِ الهامَ المُتُونا
فَقَلْبُ القُدْسِ مسرورٌ ولولا ... سُطاك لكان مكتئباً حزينا
أَدَرْتَ على الفرنج وقد تلاقَتْ ... جُموعُهُمُ عليك رحًى طَحُونا
ففي بَيْسانَ ذاقوا منك بُؤْساً ... وفي صَفَدٍ أَتَوْك مُصَفَّدينا
لقد جاءتْهُمُ الأحداثُ جَمْعاً ... كأنَّ صروفَها كانَتْ كمينا
وخانَهُمُ الزَّمان ولا مَلامٌ ... فلستَ بِمُبْغِضٍ زمناً خَؤُونا
لقد جَرَّدْتَ عَزْماً ناصِرِيًّا ... يُحَدِّثُ عن سناه طورُسينا
فكنت كيوسف الصِّدِّيق حقاً ... له هَوتِ الكواكبُ ساجدينا
لقد أَتْعَبْتَ مَنْ طَلَبَ المعالي ... وحاول أن يسوس المسلمينا
وإن تكُ آخراً وخلاك ذَمٌّ ... فإنَّ محمداً في الآخِرِينا

---

(١) الجآذر: جمع الجؤذر: وهو ولد البقرة الوحشية. والآنسات: جمع آنسة: وهي الطيبة النفس التي تحب قربك وحديثك. والعون: جمع عوان: وهي الثيب.
(٢) تفضج: أي تسكب. والهتون الهطول.
(٣) الجون: الأسود.

قال ابنُ أبي طي: حدّثني والدي حميد النَّجّار، قال: كنت بالمَوْصِل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرتُ الشيخ عمر المَلّاء[١]، فدخل إليه رجلٌ فقال: أيها الشيخ، رأيت البارحةَ في النوم كأني بأرضٍ غريبة لا أعرفها، وكأنَّها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلاً بيده سيف، وهو يَقْتُلُ الخنازير، والناس ينظرون إليه. فقلتُ لرجلٍ: هذا عيسى ابن مريم، هذا المهدي؟ قال: لا. فقلتُ: مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف. ما زادني على ذلك. قال: فتعجَّبَتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النَّصارى رجلٌ يقال له يوسف. وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة، فَحَدَس بعضُ الجماعة عليه، قال: وأُنسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتُها، وكان يوسفُ الملكَ النَّاصر، رحمه الله.

قال: وحدثتني ظِئْرٌ[٢] لي من نساء الحلبيين كانت تداخل أُخت السُّلْطان الملك النَّاصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسُّلْطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى.

فَـصْــلٌ

في فَتح عَكّا وغيرِها[٣]

وهي بالألف الممدودة، ويدلُّ على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكّاوي، وقد وجدتُ ذلك في شِعْرٍ قديم، ومنهم من يقول عَكَّه بالهاء، ومثل ذلك حِصْن عِرْقَه، وبعضهم يقول عِرْقا بالألف، ونهر ثَورا، وبعضهم يقول نهر ثوره، بالهاء.

قال القاضي ابن شدَّاد: ثم رحل السُّلْطان طالباً عَكّا، وكان نزولُه عليها يوم الأربعاء سَلْخ ربيع الآخر، وقاتلها بُكْرة الخميس مستهل جُمادى الأُولى، فأخذها، واستنفذ مَنْ كان فيها من الأسارى، وكانوا زُهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على ما فيها من الأموال والذَّخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنَّة التُّجَّار، وتفرَّقت العساكر في بلاد السَّاحل يأخذون الحُصُون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابُلُس وحيفا وقَيْسارِيَّة وصَفُّورية والنَّاصرة، وكان ذلك لخلوِّ الرِّجال بالقَتْلِ والأسر.

---

(١) الشيخ عمر الملّا: تقدّمت ترجمته في الجزأين الأول والثاني.
(٢) الظئر، بالكسر: العاطفة على ولد غيرها، المرضعة له في الناس وغيرهم.
(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/١٤٩ ـ ١٥٠: ذكر فتح مدينة عكا.

قال العماد: ورحل السلطان ظُهْر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيِّبُ قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشيَّةً، وأعادها بأزهار بنوده وأنوار جنوده روضةً موشية. ثم أصبح سائراً إلى عَكّا سارًّا سِرَّه، وباراً بأهلِ الدِّين بِرَّه، وكان أمير المدينة النبوية ـ صلوات الله على ساكنها ـ في موكبه، فكأنَّ رسولَ الله ﷺ سيَّر للفقير إلى نُصرته من يُثْرَى به من يَثْرِبه، وهذا الأمير عز الدين أبو فَلِيتة القاسم بن المهنَّا الحُسَيْني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شَيْبَةٍ تقد كالسِّراج، وما برح مع السُّلْطان مأثورَ المآثر، ميمونَ الصُّحْبة، مأمونَ المحبة، مباركَ الطَّلْعة، مشاركاً في الوَقْعة، فما تمَّ فتحٌ في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مَطْلعٌ من النَّصْر إلا بنوره، فرأيتُه في ذلك اليوم للسلطان مسايراً، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحتْ أعلامُ عكا، وكأَنَّ بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنةٌ من الخوف تتشكَّى، وكأن عَذَبات النِّيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وَعْرِها وسهلها. ولما أشرفنا عليها مستظهرين، أيقنَّا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها. وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثَّبات على المدافعة، وخَفَقانُ ألويتها يُشْعِرُ بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزَّاهقة. ووقفنا نتأمَّل طلولَها، ونؤمِّلُ حصولها، وخيَّم السلطان بقربها وراء التَّلِّ، وانبثَّتْ عساكره في الوَعْث[1] والسَّهْل. وبتنا تلك الليلة وقد هَزَّتنا الأطراب. ونقول: متى يجتمع الصباح والأصحاب، فما هَجَدْنا ولا غِراراً، ولا وجدنا من الفَرَح قراراً، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحضُّ جُنْدَه، ويقدَحُ معهم في اقتباس الآراء زَنْدَه، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رِفْدَه، ومنَّا من يواصله بالدُّعاء، ومنا من يشافهه بالهناء. وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه، ووقف كالأسد في عِرِّيسه[2]، ووقفنا بإزاء البلد صفوفاً، وأَطْلَلْنا على أطلالِهِ وقوفاً، فخرج أهلُ البلد يطلبون الأمان، ويبذُلُون الإذعان، فآمنهم وخيَّرهم بين المُقَام والانتقال، وَوَهَبَ لهم عِصْمة الأَنْفس والأموال، وكان في ظنِّهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذُرِّيَّتهم ونساءهم، وأمهلهم أياماً حتى ينتقل من يختارالنُّقْلَة، فاغتنموا تلك المُهْلَة، وفتح الباب للخاصَّة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعةٌ من ذوي الخَصَاصة، فإن القوم ما صدَّقوا من الخَوْفِ المُزْعج، والفَرَق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويَسْلَمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون. فلما دخل الجُنْدُ، رَكَزَ كلٌّ

(١) الوعث: الطريق العسر سلوكه.
(٢) العرِّيس: الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد.

على دارِ رُمْحه، وأسام فيها سَرْحَه، فحصلوا على دورٍ أخلاها أربابها، وأموالٍ خلَّاها أصحابها، وكنا لأجل الأمان نَهابُها، فطاب لأولئك نِهابُها. وجعل السُّلْطان للفقيه عيسى الهَكَّاري كل ما كان للدَّاوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غِلالٍ ومَتَاع، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك مماليك الملك الأفضل وأصحابُه، وولاتُه ونوَّابُه، نبشوا المحارز، وفتَّشوا المراكز، واستباحوا الأَهراء[1]، واجتاحوا الأشياء. وكان السلطان قد فوَّض عَكًّا وضياعها، ومعاقلها وقلاعها، إلى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جُمْلة ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دارٍ باسمي، فباعوا منها متاعاً بسبعمائة دينار، وأخلوها مما كان فيها من آلاتٍ وأدخار، وقلَّدوني المِنَّة في تحصيل تلك الدار، فإنها كانت من أنفس العَقَار، وسلَّموها إلى غلامِ صديقٍ لي ليصونَها، ويقوم بحفظها والذَّبِّ عنها والدِّفاع دونها.

فذكر أَنَّ الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوِّها بما قيمته سبعون ديناراً، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقاراً.

قال: وإنما وصفتُ هذا لِيُعْلَمَ ما غنموه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرَّف الملك المظفر تقي الدين في دار السُّكَّر، فأفنى قُنودَها[2]، واستوعب موجودَها، ونقل قُدورها وأنقاضها، وحوى جواهِرَها وأعراضَها.

وقال في كتاب «الفَتْح»: وخلَّى سكانُ البلد دورهم، ومخزونهم ومذخورهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذَها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذُخرت تلك الحواصل، وحُصِّلت تلك الذخائر، وجُمِعَ لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عُدَّةً ليوم الشَّدائد، وعُمْدَةً لنُجح المقاصد. فَرَتَعَتْ في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الأطماع، وطال لمستحليها ومستجليها الإِمتاع بذلك المتاع.

قال في «البرق»: وقُرِئ على السُّلْطان ليلةً من كتاب «الفتح» ونحن بالقُدْس - نعني هذا المكان - وذلك سنة ثمانٍ وثمانين، فقال السُّلْطان: هذه رفيعة[3] على

(١) الأهراء: جمع هُرْي، وهي الأماكن التي تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارئ الاقتصادية وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة (مصطلحات صبح الأعشى ص٥٢).

(٢) القنود: جمع القند، وهو عسل قصب السكر إذا جمد، معرب عن كند.

(٣) الرفيعة: القصة يبلغها الرجل، ويرفعها على العامل، وتسميها العامة: عريضة أو استدعاء أو عرض حال.

ثلاثةٍ، اثنان منهم في جوار الرَّحْمة، والآخر باقٍ في مَقَرِّ العِصْمة. يعني بالاثنين الفقيه عيسى وتقي الدِّين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولَعَمْري هو كما ذكره، لكن الأفضل ما حصل له ولخواصّه، بل لذوي اختصاصه واستخلاصه. وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جُمادى الأُولى، فجئنا إلى كنيستها العُظْمى، فأزحنا عنها البُؤسى بالنُّعمى، وحضر الأَجَلُّ الفاضل فرتَّب بها المِنْبر والقِبْلة، وهي أَوَّلُ جمعة أقيمت بالسَّاحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النَّجيب السُّهْرَوَرْدِي[1]، وولاه السُّلْطان مناصب الشَّريعة بعَكَّا، تولَّى الخطابة والقضاء والحِسْبة والوَقْف.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد بعد فتح عَكَّا يصف كسرة حطين: صبَّح الخادِمُ طبرية، فاقتضَّ عُذْرَتَها بالسَّيف، وهجم عليها هجوم الطَّيف، وتفرَّق أهلها بين الأَسْر والقَتْل، وعاجلهم الأمر فلم يقدروا على الخداع والخَتْل، وجاء الملك ومن معه من كُفَّاره، ولم يشعر أن ليل الكُفْر قد آن وقتُ إسفاره، فأضْرَمَ الخادمُ عليهم ناراً ذات شَرَار، أذكرت بما أعدَّ الله لهم في دارِ القَرَار، فترجَّل هو ومن معه عن صهواتِ الجياد، وتسنَّموا هضبةً رجاء أن تنجيهم من حَرِّ السُّيُوف الحِداد، ونصبوا للملك خيمةً حمراء، وضعوا على الشِّرْك عمادها، وتولَّت الرجال حِفْظَ أطنابها فكانوا أوتادها، فأُخذ الملك أسيراً ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وأُسِرَ الإبرنس ـ لعنه الله ـ فحصد بَذْره، وقتله الخادم بيده ووفَّى بذلك نَذْره، وأُسر جماعةٌ من مقدَّمي دَوْلته، وكُبراء ضلالته، وكان القَتْلى تزيد على أربعين ألفاً، ولم يبق أحدٌ من الدَّاوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذِّئب والنَّسْر، وتداول فيه القَتْل والأسر. أصدر الخادم هذه الخدْمة من ثَغْر عَكَّا، والإسلامُ قد اتَّسع مجاله، وتصرَّف أنصارُه ورجالُه، والكُفْرُ قد ثبتت أوجاله ودَنَتْ آجالُه.

قال العماد: ومن جُملة البشائر بكسرة حطِّين: ولما أُحيط بالقوم آوى ملكهم إلى جبلٍ يَعْصِمُهُ من العَوْم، فأسمَعَهُ السيف لا عاصم اليوم، واستولى الخِذْلان عليهم بأَسْرِهم، وبَرُدَتْ أيدي المؤمنين بِحَرِّ قتلهم وأَسرهم، ولم يبق لهم باقية،

---

(١) هو عبد اللطيف بن أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه السهروردي، جمال الدين، ولد سنة ٥٣٤هـ، وتفقه على أبيه، ووفد على الناصر صلاح الدين فولّاه قضاء كل بلد افتتحه من السواحل وغيرها، توفي بإربل سنة ٦١٠هـ. (التكملة للمنذري ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣١٢، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٦).

وغصَّت بقتلاهم في الدُّنيا والآخرة أرضُ الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يَطَأُ من يصل إلى مخيمنا إلا على رممهم البالية، وأُسر الملك وأخوه، وبارونيَّته ومقدَّموه، ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولا بُدَّ أن ندركه فهو مطلوب. وقد كنا نذرنا ضَرْبَ رقبة الإبرنس صاحب الكَرَك الغَدَّار، كافر الكُفَّار، ونشيدة النَّار. فلما رأيناه ضربنا عُنُقَه سريعاً، وسرنا إلى عكَّا وهي بيضةُ مُلْكهم، وواسطة سِلْكهم، ومركزُ دائرة كُفرهم، ومجمع جمع بَرِّهم وبَحْرهم، فتسلَّمناها بالأمان، والصخرة المقدَّسة الآن، بنا تصرخ وتستغيث، وعبادُ الله الصَّالحون قد وَصَلَتْ إليهم بوعد الله الصَّادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخَّر، والهِمَمُ بعد هذا الفتح السَّني على ذلك تتوفَّر، والحمد لله الذي تتمّ الصَّالحات بحمده ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

فَصْلٌ

في فَتْح نابُلُس
وجُمْلة من البلاد السَّاحلية بعد فتح عكا وطبريَّة(١)
وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: أقام السلطان أياماً بباب عَكَّا بعد فتح عكا، على التَّلِّ مخيماً، وعلى فَتْح سائر بلاد السَّاحل مُصَمِّماً. وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره، وفتح في طريقه حصن مَجْدَل يابا، ومدينة يافا عَنْوَةً، فقصده من عسكرنا القُصَّاد، ووفد إليه الوُفَّاد، وأمره السُّلْطان أن يقيم في ذلك الجانب جامعاً للكتائب، ليجتمع به الواصلون من مصر، الآملون معه النَّصر.

قال: وتوجَّه عِدَّة من الأمراء والعسكرية إلى النَّاصرة وقَيْسارية والبلاد المجاورة لعَكَّا وطبرية، ومضى كلُّ فريقٍ في صَوْب، وآبوا بالغنيمة والسَّبْي خَيْرَ أَوْب.

قال: فأما الفُولَة، فهي قلعة للدَّاوية حصينة، وفيها ذخائرهم، فلما خرج الدَّاوية منها وقُتلوا، لم يبق فيها إلا أتباع وغِلْمان، فسلَّموها وجميعَ ما يجاورها كدَبُّورِيَة وجِينِين وزِرْعين والطُّور.

---

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥٠ ـ ١٥١: ذكر فتح مجدل يابا، وذكر فتح عدة حصون. وذكر فتح يافا.

وزاد في كتاب «الفتح»: واللَّجُون وبَيْسان والقَيْمون، وجميع ما لعَكَّا وطبرية من الولايات، والزِّيب ومَعْلَيَا والبعنة وإسكندرونة ومَنْوات.

قال: وتوجَّه مظفر الدين كُوكُبُري إلى النَّاصرة، فاستباحها، وصَفِرَتْ صَفُّورِيَة من سُكَّانها، وتوجه بدر الدين دَلْدُرُم وغرس الدين قليج وجماعةٌ من الأمراء إلى قَيْسارِيَّة فافتتحوها بالسَّيْف، وتسلمت بعدها حيفا وأَرْسُوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكُسُوف والخُسوف، وحيفا بين عَكَّا وقَيْسارِيَّة على البحر.

قال: وأما نابُلُس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين، وفي سِلْك الرَّعِيَّة مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كلَّ عام منهم قراراً، ولا يغيِّرون لهم شَرْعاً ولا شعاراً، فلما عرفوا كسرتهم، وأنهم لا يرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين، فتفرَّقوا، وكبسهم أهلُ الضياع في الدُّور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذَّخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السُّلْطان ابنُ أُخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، مليءٌ بفَضْله وإفضاله، فأقطعه السُّلْطان نابُلُس وأعمالها، وضياعها ونواحيها وقلاعها، فتوجَّه إليها بعسكره، فأوَّل ما أناخ على سَبَسْطِيَة، وبها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقسَّاء كنيسةً منذ فارقه الإسلام، وهو متعبَّدُهم المُعَظَّم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلُّوه بالفِضَّة والنُّضار، وعيَّنوا له مواسم الزُّوَّار، وقَوَمَتُه من الرَّهابين فيه مقيمة، ولا يُؤْذَن في الزِّيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى ما فيه، وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلِّين محرابه. ثم سار إلى نابُلُس ففتحها بالأمان، واستمال من سُكَّانها من صرف عليه الجِزْية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان، وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورِفْده.

قال العماد: وأنشدتُه يوم فتح القُدْس قصيدةً، أوَّلها: [البسيط]

استوحش القَلْبُ مُذْ غِبْتُمْ فما أَنِسا ... وأَظْلَمَ اليومُ مذ بِنْتُمْ فما شَمَسا
ما طِبْتُ نَفْساً ولا استحسنْتُ بعدَكُمُ ... شيئاً نفيساً ولا استعذَبْتُ لي نَفَسا
قَلْبي وصبري وغَمْضي والشَّبابُ وما ... أَلِفْتُمُ من نشاطي كلُّه خُلِسا
وكيف يُصْبِحُ أو يُمْسي مُحِبّكُمُ ... وشَوْقُكُمْ يتولَّاه صَبَاحَ مسا
عادت معاهِدُكُمْ بالجزع دارسةً ... وإن مَعْهَدَكُمْ في القَلْب ما دَرَسا
وكنتُ أَحْدِسُ منكم كُلَّ داهيةٍ ... وما دهانا من الهِجْران ما حُدِسا
لما هدت نارُ شوقي ضيفَ طيفكمُ ... قَرَيْتُه بالكَرَى إذْ زار مُقْتَبِسا

ورمتُ تَأْنيسه حتى وَهَبْتُ له ... إنسانَ عينيَ أَفْدِيهِ فما أَنِسا
أنا الخيالُ نُحولاً فالخيالُ إذا ... ما زارني كيف يَلْقَى مَنْ بِهِ التَبَسا
لَهْفي على زَمَنٍ قَضَّيْتُهُ طَرَباً ... إذ لم أكن من صُروفِ الدَّهْر مُحْتَرِسا
عسى يعودُ شبابي ناضراً ومتى ... أرجو نَضَارَةَ عُودٍ للشَّباب عسى
وشادنٍ يَفْرِسُ الآسادَ ناظِرُهُ ... فَدَيْتُه شادناً للأُسْدِ مُفْتَرِسا
في العِطْفِ لينٌ وفي أخلاقِهِ شَوَس ... يا لينَ عِطْفِيه جَنِّبْ خُلْقه الشَّوَسَا(١)

ومنها في المديح:

إن بان لَبْسٌ مضينا لاجئين إلى الـ ... ـفَتَى الحسام ابن لاجينَ بنابُلُسا(٢)
يميتُ أعداءه بأساً ونائلُه ... يُحْيي رجاءَ الذي مِنْ نُجْحه أَيسا
ممزِّق المازق المنسوج عِثْيَرُه ... وقد محا اليوم ليل النَّقْع فانطمسا(٣)
لا زلتَ مستوياً فَوْق الحِصانِ وفي ... حِضْنِ الحفاظِ ومن عاداك مُنْتكِسا

وسيأتي منها أيضاً أبيات عند فتح القدس في مدح السُّلْطان صلاح الدين، رحمه الله.

ومن كتابٍ عن السُّلْطان إلى سيف الإسلام أخيه: كاتبنا أخانا العادل أن يدخل بالعَسْكر المِصْري من ذلك الجانب، فلما بُشِّر بكسر الفرنج، وفَتْح عكّا وطبرية كان قد وصل إلى السَّواد، فجاز العريش وزار الدَّاروم، وأجفلت قُدَّامه البلاد، ووصل إلى يافا، ففتحها عَنْوَةً، ثم حصر مجدل يابا، فطلبت منه الأمان.

وقد اشتمل الفَتْحُ على البلاد المعيَّنة، وهي: طبرية، عكا، الزِّيب، مَعْلَيَا، إسكندرونة، تِبْنِين، هُونين، النَّاصرة، الطُّور، صَفُّوريَة، الفُولة، جِينين، زِرْعِين، دَبُّورِيَة، عَفْرَبَلا، بَيْسان، سَبَسْطِيَة، نابُلُس، اللَّجُون، أريحا، سِنْجِل، البيرة، يافا، أَرْسُوف، قَيْسارِيَّة، حيفا، وصَرْفَنْد، صَيْدا، بيروت، قَلْعة أبي الحسن، جُبيل، مجدل يابا، جبل الجليل، مجد حباب، الدَّاروم، غزَّة، عَسْقَلان، تل الصَّافية، التل الأحمر، الأُطْرُون، بيت جبريل، جبل الخليل، بيت لَحْم، لُدّ، الرَّمْلة، قَرَتَيَّا، القُدْس، صُوبا، هُرْمُز، سَلْع، عِفْرى، الشَّقيف.

قال: ولم نذكر ما تخلَّلها من القُرَى والضِّياع، والأبراج الحصينة

---

(١) الشوس، محركة: الكبر.
(٢) اللَّبس: اختلاط الأمر.
(٣) العثير: التراب.

الجارية مجرى الحصون والقلاع، ولكلٌ واحدةٍ من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع، وأماكن ومواضع، قد جاس المسلمون خلالها، واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: ومما أنشأته من شرح الفتوح، وكتبتُ به إلى الديوان، وبدأت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نُصْرَتِهِ لهذا الدِّين الحنيف من قَبْلُ ومن بَعْد، وجعل بعد عُسْرٍ يُسراً، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً، وهوَّن الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً، وخُوطب الدين بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: ٣٧] فالأولى في عَصْرِ النبي ﷺ والصَّحابة، والأُخرى هذه التي عَتَقَ فيها من رِقِّ الكآبة، فهو قد أصبح حُرّاً رَيَّانَ الكبد الحَرَّى، والزَّمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكُفْرُ قد رَدَّ ما كان عنده من المُسْتعار. فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثَوْبُه بعد أن كان جذيذاً[١] حَبْلُه، مبيضّاً نَصْرُه، مُخْضَرّاً نَصْلُه، مُتَّسِعاً فَضْلُه، مجتمعاً شَمْلُه.

والخادمُ يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنَّصر الكريم ما يَشْرَحُ صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافَّة المسلمين، ويورد البُشْرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثَّالث والعشرين من ربيعِ الآخر إلى يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حُسوماً[٢]، سخَّرها الله على الكفار ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيت البلاد على عُروشِها خالية، ورأيتَها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكُفْر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنجُ، فكُسِرُوا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة، وأَخَذَ الله أعداءه بأيدي أوليائه أَخْذَ القُرَى وهي ظالمة. وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فُتحت عَكّا بالأمان، ورُفِعَتْ بها أعلامُ الإيمان، وهي أُمُّ البلاد، وأُخت إرم ذات العِماد. وقد أصدر هذه المطالعة وصليبُ الصَّلبوت مأسور، وقَلْبُ ملك الكُفْر الأسيرِ بجيشه المكسورِ مكسورٌ، والحديد الكافر الذي كان في يد الكُفْر يَضْرِبُ وجه الإسلام، قد صار حديداً مُسْلماً يُعَوِّقُ خُطُوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكلٌّ من المَعْمُودِيَّة عُمْدتُه والدَّيْرُ داره، قد

(١) الجذيذ: المقطوع، والجذ: القطع.

(٢) الأيام الحسوم: الدائمة في الشر خاصة، والحسوم: الشؤم. وأيام حسوم: تقطع الخير أو تمنعه، وقيل: المتوالية في الشر.

أحاطت به يد القبضة، وغَلِقَ رَهْنُه[١] فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفِضَّة، وطبرية قد رُفعت أعلامُ الإسلام عليها، وَنَكَصَتْ من عكا مِلَّةُ الكُفْر على عَقبيها، وعُمِّرت إلى أن شَهِدَتْ يوم الإسلام وهو خَيْرُ يوميها. وقد صارت البِيَعُ مساجدَ يَعْمُرُها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقفَ لخطباء المنابر، واهتزَّت أرضُها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجَّت لموقف الكافر. فأما القَتْلى والأسْرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً، وأما فرسان الدَّاوية والاسبتار فقد أمضى حُكْمَ الله فيهم، وقَطَعَ بهم سوق نار الجحيم، ورَحَلَ الرَّاحلُ منهم إلى الشَّقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافرَ الكُفَّار، ونشيدة النَّار، مَنْ يَدُه في الإسلام كما كانت يَدُ الكليم.

والبلاد والمعاقل التي فُتِحت: طبريَّة، عَكَّا، النَّاصرة، صَفُّورِيَة، قَيْسارِيَّة، نابُلُس، حَيْفا، معْلَيَا، الفُولة، الطُّور، الشَّقيف، وقلاع بين هذه كثيرة. والملك المُظَفَّر تقي الدين ـ ظَفَّره الله ـ مضايق لصور، وحِصْن تِبْنين، والأخ العادل سيف الدين ـ نصره الله ـ قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر، وينزل في طريقه على غَزَّة وعَسْقلان، ويجهِّز مراكب الأسطول المنصورة إلى عَكَّا، وما يتأخر النهوضُ إلى القدس، فهذا هو أوانُ فتحه، ولقد دام عليه ليلُ الضَّلال، وقد آن أن يُسْفِرَ فيه الهُدَى عن صُبْحه.

فَصْلٌ

في فَتْح تِبْنين وصَيْدا وبيروت وجُبيل وغيرها[٢]، ومجيء المركيس إلى صور[٣]

قال العماد: أرسل السُّلْطانُ إلى تِبْنِين ابنَ أخيه تقي الدين، فضايقها، وكتب إلى السُّلْطان أن يأتيه بنفسه، فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد حادي عشر جُمادى الأُولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسةَ أيام لينزلوا بأموالهم، فأُمهلوا، وبذلوا رهائن من مُقَدَّميهم، ووفوا بما بذلوا،

(١) غلق الرهن، كفَرِحَ: استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥١ ـ ١٥٢: ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت.
(٣) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥٢ ـ ١٥٣: ذكر خروج المركيش (بالشين المعجمة) إلى صور.

وتقرَّبوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فَسُرَّ بهم السلطان وسَرَّبهم[١]، وأَقَرَّهم وقرَّبهم، وكساهم وحباهم، وآتاهم بعد رَدِّهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كلِّ بلدٍ يفتحه، ومُلْكٍ يربحه، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودها، ويُعيد بعد عدمها وجودها، فَخَلَص تلك السنة من الأسر أكثرُ من عشرين ألف أسير، ووقَعَ في أُسْره من الكُفَّار مائة ألف، ولما خلَّوا القلعة، وأخلوا البُقْعة سيَّرهم ومعهم من العسكرِ المنصور، من أوصلهم إلى صور، وتسلَّمها يوم الأحد الثَّامن عشر من جُمادى الأُولى، وكان شَرَطَ عليهم تسليم العُدد والدَّوابِّ والخزائن.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: فتحها السلطان عَنْوَةً، وكان بها رجالٌ أبطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناةٍ شديدة، ونصره الله عليهم، وأَسَرَ من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلَّمها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون.

قال العماد: سَنَحَتْ له صيدا فتصدَّى لِصَيْدِها، وكانت هِمَّتُه في قيدها، وبادرها إشفاقاً من مكر العُدَاة وكيدها. ووصلنا في يومين إلى صيدا، إلى مَنْهَلِ فَتْحِها صادِين[٢]، وعن حِمى الحقِّ دونها لأهل الباطل صَادِّين، ولما نزلنا من الوَعْر إلى السَّهْل، سَهُلَ ما تَوَعَّر، وصفا من الأمر ما ظُنَّ أنه تكدَّر، فَصَرَفْنا الأعِنَّة إلى صَرْفَنْد، وهي مدينةٌ لطيفة على السَّاحل، موروردة المناهل، ذات بساتين وأشجار، ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخَيَّمْنا على صَيْدَا، وقد جاءت رُسُلُ صاحبها بمفاتيحها، وقد طلعت الرَّاية الصَّفْراء على أسوارها، وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بدل العصيان لله الطَّاعة. ثم سار في يومه على سَمْتِ بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان، فأمَّنهم، وتسلَّمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جُمادى الأُولى.

ومرض العماد، فأملى كتاب صُلْح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشِّفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القُدْس كما سيأتي.

قال: وسُلِّمت بيروت بحضوري، فكان من سبب إبلالي سروري بفتحها وحُبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج، وامتلأ بهم إلى صور النَّهج، وعاد الإِسلام الغريبُ فيها إلى وطنه، وتوطَّن الدين بها في مأمنه، وسكن في مسكنه.

وأما جُبيل، فإن صاحبها أوك كان في جُمْلة من نُقِلَ إلى دمشق مع الملك

---

(١) سرَّبهم: أي أرسلهم سرباً سرباً.
(٢) الصدى: العطش.

الأسير، فضاق ذَرْعاً بسجنه الذي تعجَّل له فيه عذابُ السَّعير، فتحدَّث مع الصَّفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسرِّه، وقال: ما لكم في أسري فائدة، ولا غنيمة على فَتْح جُبيل زائدة، وأنا أُسلِّمها بشرط سلامتي، فخذوها ولا تقعدوني، فقد قامت قيامَتي. فأنهى الصَّفِيُّ حالَه، واستصوب ما قاله، فأمر بإحضاره في قيده، والاحتراز من كيده، فَوُصِلَ به ونحن على بيروت، فسلَّم جُبيل وسَلِمَ، وَرَبِحَ نجاته وغَنِمَ، ومضى إليها من تولَّاها، وانسلَّ منها صاحبها وسلاها، وتَبِعَها فَتْحُ بيروت وتلاها، فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالسَّاحل في سِلْكٍ من الفتوح مُسِّق، وأمرٍ من الاستقامة متَّفِق. وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل مسلمين مساكين، لمساكنة الفرنج مُستَسْلمين، فذاقوا العِزَّة بعد الذِّلَّة، وفاقوا الكَثْرة بعد القِلَّة، وصدقت البشائر، وصَدَحَتِ المنابر، وطهر عَيْبُ البِيَع، وشُهِرَ جَمْعُ الجُمَع، وقُرئ القرآن، واستشاط الشيطان، وخَرِسَتِ النَّواقيس، وبَطَلَتِ النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعَرَفوا نفوسهم. وكان كلُّ من استأمن من الكُفَّار يمضي إلى صور محميَّ الذِّمار، فصارت صور عُشَّ غِشِّهم، وَوَكْرَ مَكْرهم، وملجأ طريدهم، ومنجى شريدهم، وهي التي فَرَّ القومص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حَسْرتهم. ولما عرف القومص قُرْبَ السُّلْطان منها أخلاها وخلَّاها، وآوى إلى طرابلس وثواها، فما مُتِّعَ بما ملك، وكان كما قيل[1]: [مجزوء الرمل]

راح يَبْغي نَجْوَةً مِنْ هَلاكٍ فَهَلَكْ

وتعوَّضت صور عن القومص بالمركيس[2]، كما يتعوَّض عن الشَّيطان بإبليس، فأدرك ذَماء[3] الكُفْر بعدما أشفى، وأيقظ رُوعَ الرَّوْعِ بعدما أَغْفى، وضبط صور بمن فيها من مهزومي الفرنج ومنفيِّها.

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكُفْر وأغوى شياطينه، وأَضْرَى سراحينه[4]، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وهو الطَّاغية الدَّاهية، الذي خُلِقَتْ له

(١) البيت لأم تأبط شراً أو لأم السليك بن السلكة في شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي ٢/ ١٩١، ولامرأة في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٩١٤، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص٦٢٩. وقال الخطيب التبريزي في شرح ديوان الحماسة ٢/ ١٩١: قال أبو العلاء: هذا الوزن لم يذكره الخليل، ولا سعيد بن مسعدة، وذكره الزجّاج وجعله سابقاً للرمل، وقد يحتمل أن يكون مشطوراً للمديد.

(٢) في «الكامل»: المركيش، بالشين المعجمة.

(٣) الذماء: بقية الروح في المذبوح.

(٤) السرحان: الذئب.

ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى السَّاحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى ميناء عَكَّا، وهو بفتحها جاهل، وعَمَّن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا، ثم تعجَّب، وقال: ما نرى أحداً من أهلها يلتقينا! ورأى زِيَّ النَّاس غير الزِيِّ الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تَنَدُّمه وتأخُّر تقدُّمه، وسأل عن الحال فأُخبر بها، ففكَّر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنَّه لو خرج إليه مركبٌ لأخذه، ولو وقف له قاصدٌ لوقذه[1]، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فَقْدِ سكينته، فسأل عن متولِّي البلد، وقال: خذوا لي منه أماناً حتى أدخل، وأرفع ما معي من المَتَاع وأنقل. فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخطِّ يده، ولا أنزل إلا بعهده إلى بلده. وهو ينتظر هُبوب الرِّيح الموافقة، فما زال يردِّدُ الرسل، ويدبِّر الحِيَلَ حتى وافقته الرِّيح فأقلع، وأُفلت من الشَّرَك بعدما وقع، وصار في صور، فَزَمَّ الأمور، وجَرَّأ الكُفْرَ بعد خَوَره، وبَصَّر الشَّيطان بعد عماه وعَوَره، وأرسل رُسُلَه إلى الجزائر وذوي الجرائز، يستعدي ويستدعي، ويستودع مِلَّة الصَّليب عُبَّاده ويسترعي، ويستثير ويستزير، ويستنفر ويستنصر. وثبت في صور ونَبَتَ، وجمع إليه من الفرنج من تَشَتَّتَ، وما فُتح بلدٌ بالأمان إلا سار أهله في حِفْظ السلطان حتى يصيروا بصور، ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهلُ البلاد المفتوحة، بالقلوب المقفلة المغلقة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتَعَلَّلتْ وكانت مُعْتَلَّة، وتعقَّدت وكانت مُنْحَلَّة، ولم يحتفل بها فأَخَّر فَتْحَها، فاستجدت رمقاً بالمهلة، وتصعَّبت بعد مقادتها السَّهْلة، وألهى عن طلبها طلبُ ما هو أشرف، وهو البيت المقدَّس، فإن فتحه من كلِّ فَتْحِ أنفس، والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخَنْدَق ويُحْكِمُه، ويَعْقِدُ المَوْثِقَ ويُبْرِمُه، ويجمعُ المتفرِّق ويَنْظِمُه.

فصــل

في فَتْحِ عَسْقلان وغَزَّة والدَّاروم وغيرها[2]

قال العماد: لما فرغ السُّلْطان من فتح بيروت وجُبيل ثنى عنانه عائداً على صَيْدا وصَرْفَنْد، وجاء إلى صور ناظراً إليها، وعابراً عليها غير مكترثٍ بأمرها، ولا متحدِّثٍ في حصرها، ودلَّته الفِرَاسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب،

(١) الوقذ: شدة الضرب.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥٣ ـ ١٥٤: ذكر فتح عسقلان وما يجاورها.

وليس بالسأحل بلد منها أحصن، فعطف الأَعِنَّة إلى ما هو منها أهون. وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدَّم الداوية في قيودهما، وشرط معهما، واستوثق منهما أن يطلقهما من الأسر والبَلِيَّة، متى تمكّن بإعانتهما من البلاد البقِيَّة، وعَبَرَ والعيون صورٌ إلى صور، وما شكَّ المركيس أنه بها محسور محصور، فلما أرخى من وَثَاقه، واتَّسع ضيقُ خِناقه، حَلَّق في مطار أوطاره، وحرَّك لغُواته أوتار أوتاره. واجتمع السلطان بأخيه العادل، واتفقا على طَيِّ المراحل، ونَشْر القَسَاطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلَّد من بها على الحصار، وتربَّصوا وتصبَّروا، فنصب السلطان عليها مجانيق، ورماهم بها، وجَسَرَ النُّقَّاب، فَحَسَرَ النِّقاب، وباشر الباشورة، فَرَفَع الحِجاب، واشتدَّ القتال، واحتدَّ المصال. وراسلهم عند ذلك الملكُ المأسور، وقال: قد بان عُذْرُكم حين نُقِبَ السُّور. وجرت حالات، وتكرَّرت حوالات، وتردَّدَتْ رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا ما به أشير، واحفظوا رأسي فهو رأسُ مالكم، ولا تُخْطِروا غيري ببالكم، فإني إذا تخلَّصتُ خلَّصْتُ، وإذا اسْتُنْقِذْتُ استَنْقَذْتُ. وخرج مقدَّمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجاً سُلِك، وسلَّموا عَسْقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جُمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم. وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكُبَراء حسام الدين إبراهيم بن حسين المِهْرَاني، وهو أول أميرِ افتتح بالشهادة، واختتم بالسَّعادة.

وكان السُّلْطان قد أخذ في طريقه إليها الرَّمْلة، وتبنين وبيت لحم والخليل، وأقام بها حتى تسلَّم حصون الدَّاوية: غزة والنطرون وبيت جبريل. وكان قد استصحب معه مقدَّم الدَّاوية، شَرَط معه أنه متى سَلَّم معاقلهم أطلقه، فسلَّم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ مَوْثِقَه، كذا قال العماد في كتاب «الفتح».

وقال في كتاب «البرق»: وما بَرِحَ السُّلْطان مقيماً بظاهر عسقلان حتى تسلَّم المعاقل المجاورة لها، والبلاد

فذكر الدَّاروم، وغَزَّةَ، والرَّمْلة، وتبنين، وبيت لحم، ومشهد الخليل عليه السلام، وُلدّ، وبيت جبريل، والنّطرون.

قال ابنُ شَدَّاد: ولما فرغ بالُ السُّلْطان من هذا الجانب ـ يعني ناحية بيروت ـ رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور، بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرَّق في السَّاحل، وذهب كلُّ إنسانٍ يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب، وكان قد اجتمع في صور ـ يَسَّر الله فتحها ـ

كلُّ فرنجي بقي في السَّاحل، فرأى قصد عَسْقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلَّم في طريقه مواضع كثيرة كالرَّمْلة ويُبْنى والدَّاروم، فأقام عليها المنجنيقات، وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلَّمها سَلْخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلَّم أصحابه غَزَّة وبيت جبريل والنطرون بعد قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدوَّ ملكها في السَّابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابنُ القادسي[1] نسخةَ كتابٍ كتبه السُّلْطان إلى بعض أهله، وفيه: انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس وعَسْقلان، ففتحنا قلاعه كلَّها، وحصونَه جميعها، ومعاقلَه بجملتها، ومُدُنَه بأسرها: حيفا، وقَيْسارِية، وأَرْسُوف، ويافا، والرَّمْلة، ولُدّ، وتل الصَّافية، وبيت جبريل، والدَّيْر، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المَعْقِل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرَّفيع، وفيهم من القوة والعُدَة والعَدَد ما تتقاصر الآمال عن نَيْل مثلها، فافتتحناها سِلْماً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزولنا عليها، ونُصِبَتْ أعلامُ التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعُمِرَتْ بالمسلمين، وَخَلَتْ من مشركيها وكُفَّارها، وكَبَّر المؤذِّنون في أقطارها، ولم يبق في السَّاحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القُدْس وصور، والعَزْمُ مصمِّم على قَصْد القدس، فالله يُسَهِّلُه ويُعَجِّلُه، فإذا يسَّر الله تعالى فَتْحَ القُدْس مِلْنا إلى صور، والسَّلام.

وفي كتابٍ آخر تقدَّم ذِكْرُ بعضه قال: وقد تفرَّق العسكر قومٌ إلى القدس، وابن زين الدِّين وتقي الدين نازلان على صُور، وفُتِحَتْ هُونين بالسيف، وتِبْنين بالسيف، وإسكندرونة بالسَّيف.

وفي كتابٍ آخر: ونزلوا على صور، وكاتَبَهم ملكُ بيت المقدس يطلبُ الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم. فقال له المنجِّمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عينٌ واحدة منك. فقال: قد رضيتُ بأن أعمى وآخذ البلد.

قال: ولم يمنعه من ذلك إلا فَتْحُ صور، وما هي شيء يقف عليه. وقد خُطِبَ لأمير المؤمنين النَّاصر لدين الله على ثلاثين منبراً من بلاد الفرنج.

---

(١) ابن القادسي: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

قال العماد: وفَوَّض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدِّمَشْقي المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السُّلْطان من مصر ولدُه الملك العزيز عثمان، واجتمع به على عَسْقلان، فقرَّت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده. وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة، فوافت كالفُتْخ الكواسر(١)، بالفُلْك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج تزاحم أفواجاً، تدبُّ على البحر عقاربها، وتَخُبُّ كقطع الليل سحائِبُها، والحاجب لؤلؤ مقدَّمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطَّريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

فَتْحُ البيتِ المقدَّس(٢) شَرَّفه الله تعالى

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما تسلَّم السلطانُ عَسْقلان والأماكن التي هي محيطة بالقُدْس، شمَّر عن ساق الجِدِّ والاجتهاد في قَصْده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرِّقة في السَّاحل بعد قضاء لُبانتها من النَّهْب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوِّضاً أمره إلى الله، منتهزاً فُرْصة فتح باب الخير الذي حُثَّ على انتهازه إذا فُتح بقوله عليه السَّلام: «من فُتِحَ له بابُ خَيْرٍ فلينتهزه، فإنه لا يُعْلَم متى يُغْلَقُ دونه»(٣)، وكان نزوله عليه ـ قَدَّس الله روحه ـ يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغَرْبي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيَّالة والرَّجَّالة، ولقد تحازر أهل الخِبْرة عِدَّةَ من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النِّساء والصبيان. ثم انتقل رحمه الله لمصلحةٍ رآها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزَّحْف والقتال وكثرة الرُّماة، حتى أخذ النَّقْب في السُّور مما يلي وادي جهنَّم في قُرْنة

(١) كالفتخ الكواسر: أي كالأسود الكواسر، يقال: أسد أفتخ: عريض الكف، والفتخ: عرض مخالب الأسد ولين مفاصله.

(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥٤ ـ ١٥٩: ذكر فتح البيت المقدس. وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ٤٣١٣٤، وأحمد بن حنبل في الزهد ٣٩٤، والهيثمي في موارد الظمآن ٣٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٢٩، وأخرجه القرطبي في تفسيره ٥/ ٣٨٣، بلفظ: «من فتح عليه باب من الخير فلينفذه».

شمالية. ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نُصْرة الحقِّ على الباطل، وكان الله قد ألقى في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّبْي والقَتْل والأَسْر، وما جرى على حُصُونهم من الاستيلاء والأَخْذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسَّيف الذي قُتِلَ به إخوانهم يُقْتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرَّت القاعدة بالمراسلة بين الطَّائفتين. وكان تسلُّمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج، المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتِّفاق العجيب، كيف يسَّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيِّهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسَلَّم، وهذه علامةُ قَبُول هذه الطَّاعة من الله تعالى.

قلتُ: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلافٌ كثير، ذكرناه في مواضع غير هذا، والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العِلْم خَلْقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق[1] والحرف؛ وذلك أن النَّاس لما بلغهم ما مَنَّ الله به على يده من فُتوح الساحل، شاع قصدُه للقدس، فقصده العلماء من مِصْر والشَّام، بحيث لم يتخلَّف معروفٌ عن الحضور، وارتفعت الأصواتُ بالضَّجيج والدُّعاء، والتهليل والتكبير، وخُطبَ فيه، وصُلِّيت فيه الجمعة يوم فَتْحه، وحُطَّ الصَّليب الذي كان على قُبَّة الصَّخْرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نَصْرَ عزيزٍ مقتدر. وكان قاعدة الصُّلْح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلِّ رجلٍ عشرة دنانير، وعن كلّ امرأةٍ خمسة دنانير، وعن كل صغيرٍ ذكر أو أنثى ديناراً واحداً.

قلتُ: كذا قال، وسيأتي في كتاب العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: إن الجمعة صُلِّيت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كتاب العماد التصريح بأنَّ يوم الفتح ضاق عن ذلك، فَصُلِّيت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سَلِمَ بنفسه وإلا أُخذ أسيراً، وفرَّج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خَلْقاً عظيماً زُهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرِّقها على الأمراء والعلماء، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه، وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه ـ رحمه الله ـ رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

(١) أرباب الخرق: أي الصوفية، والخرقة التي يلبسونها هي إحدى رموزهم.

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً، وكان رحيلُه عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثٍ وثمانين كما سيأتي.

فَـصْـل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فَتْح بيت المقدسة مختصرٌ مُجْمَل، وقد بسطه العمادُ، فقال: رحل السُّلْطان من عَسْقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنَّصْر مُصاحباً، ولذيل العِزِّ ساحباً. والإسلام يخطُبُ من القُدْس عروساً، ويَبْذُل لها في المَهْرِ نفوساً، ويحمل إليها نُعْمى ليحمل عنها بُوسَىٰ، ويهدي بِشْراً لِيُذْهِبَ عُبوساً، ويسمع صرخة الصَّخْرة المستدعية المُسْتعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها وتلبية ندائها، وإطلاع زُهر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكَنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجَذْب قِياد فَتْحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكَفّ كَفِّ الكُفْر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى النَّاس.

وطار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من به رُعْباً وطاشت، وخَفَقَتْ أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشَتْ، وتمنَّتِ الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدَّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التَّسَلُّط سِيَّان، والبطرك[1] الأعظم وهو الشَّاني العظيمُ الشَّان، والذين أغفلتهم حياطةُ حِطِّين من الفُرْسان الدَّاوية والاسبتارية والبارونية، من ذوي الكُفْر والشَّنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حَمِيَّتُهم، وأبت الضَّيْمَ أبيَّتهم، وحارت غيرتهم، وغارت خيرتهم، وتبلَّدوا، وتلدَّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوَّبوا وصعَّدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنِّيران، وخَمَدَتْ نارُ بَطَر البطرك، وضاقت بالقوم منازِلُهم، فكأن كلَّ دارٍ منها شَرَكٌ للمُشْرِك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسَّمت أفكار الكُفَّار، وأَيِسَ الفرنج من الفَرَج، وأجمعوا على بذل المُهَج، وقالوا: هاهنا نطْرح الرؤوس، ونسْبك النُّفوس، ونسفك الدِّماء، ونهلك الدَّهْماء، ونصبر على اقتراح القُروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شُحّاً

(١) البطرك: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٥/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤: هو لقب على القائم بأمور دين النصارى، وكراسي البطاركة عندهم أربعة: كرسي برومية، وهو مقر البابا، وكرسي بأنطاكية، وكرسي بالقدس، وكرسي بالإسكندرية.

بمحل الرُّوح، فهذه قُمامتنا[١]، فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتُنا، وتصيح هامتنا، وتصحُّ نَدَامتنا، وتسيح علّامتنا، وتَسُحُّ غمامتنا، وبها غَرَامنا، وعليها غَرَامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلَّينا عنها لزمت لآمَتُنا، ووجبت ملامَتُنا، ففيها المصلب والمطلب، والمَذْبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمَرْقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموَّه والمُذْهَب، والمطلع والمقطع، والمربى والمربع، والمُرَخَّم والمخرَّم، والمُحَلَّل والمُحَرَّم، والصُّور والأشكال، والأنظار والأمثال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح، وفيها صُوَر الحوارِيِّين في حِوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرَّهابين في صوامعهم، والأقِسَّاء في مجامعهم، والسَّحَرَة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السَّيِّدة والسَّيِّد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلِّم، والمهد والصَّبي المتكلِّم، وصورة الكبش والحمار، والجنَّة والنَّار، والنواقيس والنواميس.

قالوا: وفيها صُلِبَ المسيح، وقُرِّب الذَّبيح، وتجسَّد اللاهوت، وتألَّه النَّاسوت، واستقام التركيب، وقام الصَّليب، ونزل النُّور، وزال الدَّيْجور، وازدوجت الطبيعة بالأُقْنُوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبَّدهم من هذه الضلالات ما ضَلُّوا فيه بالشُّبَه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، وما لنا ألا نقاتل! وكيف لا ننازع ولا ننازل! ولأيِّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، ونَدَعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا!

وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات السَّتائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينُهم، وسَرَحَتْ سراحينُهُمْ، وَطَغَتْ طواغيتهم، وأُصليت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضَّتهم قسوسُهُم، وحرَّضتهم رؤوسهم، وحَرَّكتهم نفوسُهم، وجاءتهم بجوى السُّوء جواسيسُهم.

ونصبوا على كلِّ نِيقٍ[٢] منجنيقاً، وحَفَرُوا في الخنْدَق حَفْراً عميقاً، وشادوا

(١) القمامة: هي كنيسة القيامة في بيت المقدس.
(٢) النيق: أعلى موضع في الجبل.

في كل جانبٍ رُكْناً وثيقاً، وفرَّقوا على كل بُرْجٍ فريقاً، وجعلوا إلى كل طارقٍ بالرَّدى للرَّدِّ طريقاً، وأعادوا كل نَهجٍ واسعٍ بما وعَّروه وعوَّروه به مضيقاً، وتحمَّل كلٌّ منهم ما لم يكن له من قَبْلُ مطيقاً، وخرج جماعةٌ منهم على سبيل اليَزَك[1]، فأدلجوا ليلاً، واعترضوا عِدَّة من أصحابنا غارَّةً، على طريق السَّلامة مارَّةً، وكان قد شذَّ من المقدمة المنصورة أميرٌ تقدَّم، وما تحرَّز ولا تحزَّم، وما ظن أن قُدَّامه من له جرأة الإقدام، ومن يعتقد أنَّ ربَحَ كُفْره خسارةُ الإسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضعٍ يُعرف بالقبيبات، فاستُشْهد رحمه الله.

ولما بلغ السُّلْطانَ خَبَرُه ساءه وغَمَّه.

ثم أقبل بإقبال سلطانه وأبطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغِلْمانه، وكرام أمرائه وعِظَام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى، وطريقه الأدنى، وفريقه الأسْنَى، ويذكُرُ ما يفتح الله عليه بِحُسْنِ فَتْحه من الحُسْنىٰ، وقال: إنْ أُسعدنا من الله على إخراجِ أعدائه من بيته المقدَّس فما أَسْعَدَنا، وأي يدٍ له عندنا إذا أَيَّدَنا، وإنه مكث في أيدي الكُفْر إحدى وتسعين سنة لم يتقبَّلِ اللَّهُ فيه من عابدٍ حسنة، ودامت هِمَمُ الملوكِ دونه متوسِّنة[2]، وخَلَتِ القرون عنه متخلِّية، وخَلَتِ الفرنج به متولِّية، فما ادَّخر الله فضيلة فَتْحِهِ إلا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقَبول القُلوب.

وكيف لا يهتمُّ بفتح البيت المقدَّس والمسجد الأقصى، المؤسَّس على التَّقوى، وهو مقامُ الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومَزَارُ أبدال الأرض وملائكة السَّماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المَعْشَرِ الْمَعْشَر، وفيه الصَّخرة التي صِينَتْ جِدَّة أبهاجها من الإنهاج[3] ومنها مِنْهاج المِعْراج، ولها القُبَّة الشَّمَّاء التي هي على رأسها كالتَّاج، وفيه وَمَضَ البارق ومَضَىٰ البُرَاق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السِّراج المُنير فيه الآفاق.

---

(١) اليزك: معناها الطلائع. وقد استعملها القلقشندي في صبح الأعشى ١٠/ ١١٠: وتحريض الجند على تخير واقتفاء جيادها وبذل الجهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم. ويورد الدكتور أحمد السعيد سليمان لفظاً مغولياً نعتقد أنه الأقرب إلى المعنى المراد في عبارة القلقشندي أعلاه فيقول: يا ساق: في المغولية معناها القانون وفي التركية معناها المنع، ومنها اليسقي واليسقجي وهو القواس الذي يحرس القناصل والسفراء ويحميهم (انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٦٥، وتأصيل الدخيل ص٢٠).

(٢) متوسنة: أي نائمة.

(٣) الإنهاج: البلى، ومنه: نهج الثوب: أي بلي وخلق.

ومن أبوابه باب الرَّحْمَة، الذي يستوجب داخله إلى الجنَّة بالدخول الخُلُود، وفيه كرسي سليمان ومحراب داود، وفيه عين سُلْوان، التي تُمثِّل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أوَّلُ القِبْلتين، وثاني البَنِيَّتَيْن، وثالث الحَرَمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النَّبوي أنها تُشَدُّ إليها الرِّحال(١)، وتعقد الرجاءَ بها الرِّجال. ولعل الله يعيده بنا إلى أَحْسَنِ صورة، كما شرَّفه بذكره مع أشرف خَلْقِه في أوَّل سورة، فقال عَزَّ من قائل ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وله فضائلُ ومناقب لا تُحصىٰ، ومنه كان الإسراء، ولأَرْضه فُتِحَتِ السَّماء، وعنه تُؤْثَر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشُّهداء، وكرامات الكُرَماء، وعلامات العُلَماء، وفيه مَبَارك المَبَارّ، ومسارحُ المسارّ، وصخرتها الطُّولى القِبْلة الأُولى، ومنها تعالت القدم النَّبوية، وتوالت البركةُ العُلْوية، وعندها صَلَّى نبينا ﷺ بالنبيين، وصَحِبَ الرُّوح الأمين، وصَعِدَ منها إلى أعلى عِلِّيِّين، وفيه محراب مريم عليها السَّلام، الذي قال الله فيه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولنهاره التعبُّد، ولليله المحيا، وهو الذي أسَّسه داود، وأوصى ببنائه سُلَيمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه ﴿سُبْحَانَ﴾ [الإسراء: ١]، وهو الذي افتتحه الفاروق، وافتتحت به سورة من الفُرْقان.

فما أجلَّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه، وقد أظهر طُوله وطَوْله بقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وكم فيه من الآيات التي أراها الله نَبِيَّه، وجعل مسموعنا من فضائله مروية، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه، ما وثَّق على استعادة آلائه مواثيقَه وآلاه، وأقسم لا يبرح حتى يبرَّ قَسَمُه، ويُرْفع بأعلاه عَلَمُه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النَّبوية قَدَمُه، ويصغي إلى صرخة الصَّخْرة، وسار واثقاً بكمال النُّصْرة.

(١) يشير إلى قول رسول الله ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى». وقد روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في مسجد مكة باب ١، ٦، والصوم باب ٦٧، والصيد باب ٢٦، ومسلم في الحج حديث ٤١٥، ٥١١، ٥١٢، وأبو داود في المناسك باب ٩٤، والترمذي في الصلاة باب ١٢٦، والنسائي في المساجد باب ١٠، والدارمي في الصلاة باب ١٣٢، في الترجمة، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٧٨، ٥٠١، ٣/ ٧، ٣٤، ٤٥، ٥١، ٥٣، ٦٤، ٧١، ٧٧، ٧٨، ٩٣، ٦/ ٧، ٣٩٨.

فــصــل

في نـزول السُّـلْـطـان على البيت المقدَّس وحَصْره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السُّلْطان على غربي القُدْس يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في القُدْس حينئذٍ من الفرنج ستُّون ألف مقاتل من فارسٍ وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسِّهام، واستوقفوا للحِمَام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئين، ودون القمامة تقوم القيامة، وبحب سلامتها تُقْلَىٰ السَّلامة.

وأقام السُّلْطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسِّم على حصاره أهل الجَلَد، وأبصر في شماليه أرضاً رضيها للحصار، متَّسعة لمجال الأسماع والأبصار، ممكنةً للدنُوِّ من النقب إن صار من حَيِّز الأنصار. فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات قد نُصِبَتْ بلا نَصَب، فدام القتالُ والنِّزال، وفرسانهم في كلِّ يوم يباشرون دون الباشورة، أمام جموعهم المحصورة المحسورة المحشورة، ويبرزون ويُبارزون، ويطاعنون ويحاجزون، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم يَنْهَلون ويُنْهِلون، كما قال الله تعالى فيهم ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وممن استُشْهد مبارزاً، ولم يشهد بينه وبين الجَنَّة حاجزاً الأمير عز الدين عيسى بن فلك[(١)]، كان أبوه صاحب قلعة جَعْبر، فإنه حاز بشهادته في المحشر المفْخر، وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكَوْثَر، وكان في كلِّ يوم يَفْرِسُ فوارس، ويَلْقَى بِبِشْر وَجْهه وجوه المَنُون العَوَابس، فاغتمَّ المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المُهَج بعد تلاف مُهْجَته، فركبوا أكتاف الرَّهَج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه، وبدَّدوا جمعهم وفرَّقوه، والتصقوا بالسُّور فنقبوه، وعَلَّقوه وحشوه وأحرقوه، وصدَّقوا وعد الله في القتال، لأعدائه فَصَدَقوه، ولما عضَّتهم الحرب، وقع السُّور واتَّسع النَّقْب، فَصَعُبَ عليهم الهَيِّن وهان لنا الصَّعْب، عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة، وقالوا: ما لنا إلا الاستئمان، فقد أخذ لنا بخطِّه الخِذْلان والحِرْمان. وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السُّلْطان

---

(١) عيسى بن فلك: كذا بالأصل، وهو تحريف. وصاحب قلعة جعبر هو شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب. فيكون المذكور عيسى بن مالك. انظر الجزء الثاني أول حوادث سنة ٥٦٤هـ.

إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال: ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين من إحدى وتسعين سنة، فإنَّهم استباحوا القتل، ولم يتركوا طَرْفاً يستزير سِنَة، فأنا أُفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبياً. فبرز ابن بارزان ليأمن من السُّلْطان بمَوْثِقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنَّع السُّلْطان، وتسامى في سَوْمه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نُديم لكم الهَوَان، وغداً نملككم قَسْراً، ونوسعكم قَتْلاً وأَسْراً، ونسفك من الرِّجال الدِّماء، ونسلِّط على الذُّرِّيَّة والنِّساء السِّباء. وأبى في تأمينهم إلا الإباء، فتعرَّضوا للتضرُّع، وخَوَّفوا عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سُلْطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنَّا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صُلْح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنَّا نستقتلُ فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعَدَم، ونلقي أنفسنا على النَّار، ولا نُلقي بأيدينا إلى التَّهْلُكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنَّا نحرق الدُّور، ونخرب القُبَّة، ونترك عليكم في سبينا السُّبَّة، ونقلع الصَّخْرة، ونوجدكم عليها الحسرة، وقُبَّة الصَّخْرة نرميها وعين سُلْوان نعميها، والمصانع نَخْسِفُها، والمطالع نَكْسِفُها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنيٍّ وفقير، وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشتِّ شملهم، وأما الأموال، فإنا نَعْطِبُها ولا نُعْطيها، وأما الذَّراري فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبيٌّ، ولا يُقبَل لكم سعي، ولا يسلم عمر ولا عمارة، ولا نُضار، ولا نَضَارة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأيُّ فائدةٍ لكم في هذا الشُّحِّ، وكل خُسْرٍ لكم في هذا الرِّبْح، ورُبَّ خيبةٍ جاءت من رجاء النُّجْح، ولا يصلح السوء سوى الصُّلْح. فشاور السُّلْطان، أصحابه، فقيل له: الصَّواب أن نحسبهم أُسارانا، فنبيعهم نفوسهم، ونعمِّم بصَغَار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم.

واستقرَّ بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعةٍ تُكمِّل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلَّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سَلَّمه، ضُرِبَ عليه الرِّق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو عن كلِّ رجل عشرة دنانير، وعن كلِّ امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغيرة أو صغير ديناران، الذكر والأنثى في ذلك سِيَّان، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدَّما الدَّاوية والاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم يَنْكُلْ عن الوفاء، فمن سَلَّم خرج من بيته

آمناً، ولم يعد إليه ساكناً، وسلَّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردُّوه بالرغم رَدَّ الغَضْب لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجالٍ ونساء وصبيان، فأُغلقت دونهم الأبواب، وَرُتِّبَ لعرضهم واستخراجِ ما يلزمهم النُّوَّاب، ووُكِّلَ بكلِّ بابٍ أمير ومقدَّمٌ كبير، يحصر الخارجين، ويحصي الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يَقُمْ بما عليه قعد في الحَبْس وعَدِمَ الفَرَج، ولو حُفِظَ ذلك المال حَقَّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأَوْفَر حَظِّه، لكنَّما تَمَّ التفريط، وعَمَّ التخليط، فكلُّ من رشا مِشى، وتنكَّبَ الأُمناء نَهْجَ الرُّشد بالرُّشا، فمنهم من أُدلي من السور بالحبال، ومنهم من حُمل مخفياً في الرِّحال، ومنهم من غُيِّرت لبسته فخرج مخفياً في زِيِّ الجُنْد، ومنهم من وقعت فيه شفاعةٌ مطاعة، لم تقابل بالرَّدِّ، والثقات الأكابر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذَّخائر، وادَّعى مُظَفَّر الدين كُوكُبوري أن منهم جماعة من أرمن الرُّها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادَّعى بالعُدَّة الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القُدْس لأجل متعبَّده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقوَّم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصَّتهم ببهجة سماحه الابتهاج، وما فينا إلا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعًى خصيب.

وكان السُّلْطان قد رتَّب عدة دواوين، في كلِّ ديوانٍ منها عِدَّة من النُّواب المِصْريين، وفيهم من الشَّاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء، انطلق مع الطُّلقاء، بعد عرض خطه على مَنْ بالباب من الأُمناء والوكلاء، فَذَكَرَ لي من لا أشكُّ في مقاله أنه كان يحضر في الديوان، ويطَّلع على حاله، فربما كتبوا خطاً لمن نَقْدُه في كيسهم، وتَلَبَّس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أُمناءه، وخانوه على ما حصل لكلٍّ من الغِنى والنفع وما أضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رِقِّ إسار، ينتظر به، انقضاء المُدَّة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

وكانت بالقُدْس ملكة رومية متعبِّدة مترهِّبة، في عبادة الصليب متصلِّبة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّبة، وفي التمسُّك بِمِلَّتها متصعِّبة متعصِّبة، أنفاسها متصاعدة للحُزْن، وعبراتها متحدِّرة تَحَدُّر القطراتِ من المُزْن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلِّ ما لها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من

مصوغات صُلْبانها الذَّهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فَرْحَىٰ، وإن كانت من شجنها قَرْحَىٰ.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة الملك أماري، وكانت مقيمة في جوار القُدْس مع مالها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلُس موكلاً به ليوم وَعْدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها.

وكذلك خرجت الإبرنساسة أم هنفري، وهي ابنة فيليب وزوجة الإبرنس الذي سُفِك دمُه يوم حطين، وهي صاحبة الكَرَك والشَّوْبك، وهي بنوَّابها محوطة، وبرأسها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعِدت أنها إن سمحت بحِصْنها سمح لها بابنها، ثم أُعفيت وأُطلقت وعُصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقرَّ برؤيته عينيها، وسار معها من الأُمراء والأمناء من يتسلَّم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلِّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستوعدت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلَّم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلَّم المسلمون البلد يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرَّايات النَّاصرية على شُرُفاتها، وأُغلقت أبوابها لحفظ ناسها، في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقتُ الفريضة، وتعذَّر أداؤها. وللجمعة مقدِّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير والخنا، مملوءاً بما أحدثوا من البنا، مسكوناً ممن كَفَر وغَوَىٰ، وضَلَّ وظلم وجَنَى، مغموراً بالنَّجاسات التي حَرُمَ علينا في تطهيره منا[1] الونىٰ، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتمِّ الأنجح الأنجع، وهو حِفْظُهم وضبطهم إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم.

واتفق فَتْحُ بيت المقدَّس في يومٍ كان في مثل ليلته منه المِعْراج، وتمَّ بما

(١) منا: كذا بالأصل، ولعلها: منها.

وَضَحَ من مِنْهاج النَّصْر الابتهاجُ، وجلس السُّلْطان بالمخيَّم ظاهر القُدْس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوِّفة والعُلَماء، وهو جالسٌ على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهُهُ بنور البِشْر سافر، وأمله بعزِّ النُّجْح ظافر، وبابُه مفتوح، ورِفْدُه ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مُقْبل، وبساطه مُقَبَّل، ومحياه يلوح، وريَّاه يفوح، قد جَلَتْ له حالة الظَّفَر، وكأنَّ دَسْتَه[١] به هالةُ القمر، والقُرَّاء جلوسٌ يقرؤون ويُرْشِدُون، والشُّعراء وقوف يُنْشِدون ويَنْشدون، والأعلامُ تبرز لتنشر، والأقلام تُزْبر لتبشِّر، والعيون من فَرْط المَسَرَّة تدمع، والقلوب للفرح بالنُّصْرة تخشع، والألسنةُ بالابتهال إلى الله تَضْرَع، وبُشِّر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، وهُنِّئ الحجرُ الأسود بالصَّخْرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحلِّ الإسراء، ومقرُّ سَيِّد المُرْسلين وخاتم النبيين بمقَرِّ الرُّسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المُصْطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بِنَيَّتِهِ مستمتعين. وتسامع النَّاس بهذا النَّصْر الكريم، والفَتْح العظيم، فوفدوا للزِّيارة من كلِّ فجٍّ عميق، وسلكوا إليه في كلِّ طريق، وأحرموا من البيت المقدَّس إلى البيت العتيق، وتنزَّهوا من زهر كراماته في الرَّوْض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجَّه إلى دمشق والسُّلْطان على بيروت، للألم الذي أَلَمَّ به، فلما سمع بنزول السُّلْطان على القُدْس أَبَلَّ من مرضه، وتوجَّه إليه، فوصل يوم السَّبْت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صُبْحاً عند طلوع الصُّبْح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرِّبوا بها ويشرِّقوا، وهو يقول: لهذه القوس بارٍ، ولهذه المأدبةِ قارٍ[٢].

قال: فكتبتُ في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة فمنها الكتاب إلى الدِّيوان العزيز ببغداد أفتتحه بهذه الآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصَّالحين وَعْدَ الاستخلاف، وقهر بأهل التَّوحيد أهلَ الشِّرْك والخلاف، وخَصَّ سُلْطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكَّن دينه

(١) الدَّسْت: بفتح الدال المهملة المشددة، وسكون السين المهملة: المراد به المقام الحاكمي، والدست في الأصل: صدر المجلس ودست الوزارة: منصبها (صبح الأعشى ٧/ ١٤٥).

(٢) قارٍ، من القِرى: وهي الضيافة.

المُرْتَضَى، وبَدَّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى والنَّصْر الأهنىٰ للعصر الإمامي النَّبوي النَّاصري على يد الخادم؛ أخلصِ أوليائه، وأخصِّ مَنِ اعتزازُه باعتزائه إليه وانتمائه. وهذا الفتح العظيم والنُّجْح الكريم قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرةِ تمنِّيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنِّيه، وتقاصرت عنه طوال الهمَم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاكُ الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القُدُس إلى القُدْس، وأعاذه من الرِّجْس، وحقَّق من فَتْحه ما كان في النَّفْس، وبدَّل وحشة الكُفْر فيه من الإسلام بالأُنس، وجعل عِزَّ يومه ماحياً ذُلَّ الأمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجُهَّال والضُّلال من البطرك والقَسّ، وعبدة الصَّليب ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضَّالين جنودَه المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظَّالمين، والحمد لله رَبِّ العالمين، فكأنَّ الله شَرَّفَ هذه الأُمَّة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضَّلكم، وحقَّق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العَوَان، وجعل ملائكته المسوَّمة له من أعزِّ الأنصار وأظهر الأعوان، وأخرج يوم الجمعة من بيته المُقَدَّس أهلَ الأحد، وقمع من كان يقول: إن الله ثالثُ ثلاثة بمن يقول هو الله أحد. وأعان الله بإنزال الملائكة والرُّوح، وأتى بهذا النَّصْر الممنوح، الذي هو فَتْحُ الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصفُ البليغ نَظْماً ونثْراً، وعُبِدَ الله في البيت المقدس سِرّاً وجهراً، ومُلِكَتْ بلاد الأُرْدُنِّ وفِلَسْطين غوراً ونجداً، وبراً وبحراً، ومُلئت إسلاماً، وكان قد ملئت كُفْراً، وتقاضى الخادم دَيْنَ الدِّين، الذي غَلِقَ رَهْنَه[1] دهراً، والحمد لله شكراً، حمداً يُجَدِّد للإسلام كلَّ يوم نصراً، ويزيدُ وجوه أهله بِبُشْرى فتوحه بِشْراً، وأبىٰ الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وأنه لا بُدَّ من تطهير الأرض المقدس بِرِجْس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، ولما أيسوا من النَّجاة، وفتح أبوابها المُرْتَجة[2] من أسبابها المرتجاة، خوَّفوا بقتل الأسارى المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميعَ ما في البلد من مالٍ وبناء بهدم وإحراق وإتلاف، وعُرِفَ أنَّ جهلهم يحملهم على كل نُكْرٍ شنيع، وأنَّهم تدعوهم فظاظتهم إلى كُلِّ ضُرٍّ فظيع،

---

(١) غلق الرهن، كفَرِحَ: استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.

(٢) الأبواب المرتجة: المغلقة. ورتج الباب: أغلقه، والرتاج المغلاق، وهو ما يغلق به الباب، وكذلك المرتاج.

وبذلوا إطلاق الأسرى، وشرطوا حمل مال الفدا، وما زالوا يبتهلون ويضَّرَّعون، ويَذِلُّون ويخشعون، حتى استقرَّ الأمر أنهم يُفادون، وأجيبت الصخرة المُقَدَّسة عند استصراخها، وبركت البركة النَّاهضة إليها في مناخها، وغُسِلَت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفُديت بنواظر أهل الإيمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالأيمان، وذَكَّرَتْ في يوم خلاصها من رجب بليلة المِعْراج، وتجلَّى إظلامها بإنارة سنا السِّراج، وأُعيدت الكنائس مدارس، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسومُ الكُفْرِ عافيةً دوارس، وزالت ضجرة الصَّخْرة، ونعَّشها الله من العَثْرة، وَبُدِّل بالأُنْس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، فالحمد لله على هذه النُّصْرة، والمِنَّة له على هذه المَبَرَّة.

وقد تسلَّمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حَدِّ الدَّاروم إلى حَدِّ طرابُلُس، وكل ما كان جارياً في مملكة ملك القدس ونابُلُس، ولم يبق إلا صور، فإنها قد تأخَّر انتزاعها، وتقدَّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضَرِيَتْ بآمالها أطماعُها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة.

ومن كتب أُخَر: فُتِحَ بيتُ الله المقدَّس الذي عَجَزَ الملوك عن تمنيه فكيف تسنِّيه! وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فَمَنَّ الله علينا بتذليل صَعْبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وَعْره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بإسفار فَجْره. وقد كانت الصَّخْرة مُسْتَصْرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوَّخة، فأُجيبت دعوتها، وأُصينت حظوتها، وتناثرت على حَجَرها يواقيتُ الشِّفاه، وقوبلت قِبْلتها بِقُبَل الأفواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والدَّاني، وزال رين العائن وقَرَّت عَيْنُ الرَّاني.

هذا فتحٌ عظيمٌ قدره، جسيم فَخْره، فاضلٌ عصره، كاملٌ نصره، غَيْرُ منسيٍّ إلى يوم الحشر ذِكْرُه، وقد اقْتُضَّ بنا بِكْرُه، واقْتُضي بسيفنا وِتْرُه، وزَهَرَ زَهْرُه، وظَهَرَ قهره، وهلك الكافر وكُفْرُه، وجاء من نِعَمِ الله ما لَزِمَ على الأبد شُكْرُه.

أبينا إلا إحراقهم بنيران الصَّوارم، وإغراقهم في أمواه الطُّلَىٰ والجماجم، وتسلَّمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المِعْراج، وحَنَّت الصَّخرة حنين جذع المعجزة الأُولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السِّراج الوَهَّاج، والحمد لله على سلوك ما وَضَحَ من المِنْهاج، ونضوب ما كان نبع من الأُجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاجِّ، وصدق الحاج.

مبشرة بما فَضَّل الله به عصرنا، وعجَّل به نَصْرنا، ونَظَمَ به سِلْكنا، وطرَّز به

مُلْكنا، وهو فتحُ بيتِ الله المقدَّس الذي غَلِقَ رَهْنُه(١) دهراً، واغْتُصبت من الإسلام قَهْراً، وارتدَّ كُفْراً، وامتدَّت به الأيام عُمراً فعمراً، وتقاصرت الهِمَمُ عن استفتاحه، وأَصْلَدَ زَنْد(٢) الملوك فيه فَعَجَزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرَّغم على التماس الكُفْر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه، فلا جَرَم أعدَّه الله لأيامنا، وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا إظهاراً لفضيلة هذه الأيام، وإيثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الإسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النُّصْرة، ومكنَّا من قلبها وإن كان من الحَجَر المسرَّة.

وتسلَّمنا القدس يوم الجمعة السَّابع والعشرين من رجب، وقضينا من حَقِّ هذا البيت ما وَجَب، وجاء القُدُس إلى القُدْس، وزال الرِّجْسُ وذَهَبَ، وتولَّى فيه الإسلام وتولى عنه الكُفْر، وعَظُمَ الأجر وفَخُمَ الفَخْر، وطاب النَّشْر وزاد البِشْر، ومُحي الرِّجْس وثَبَتَ الطُّهْرُ، وهلك المشرك، وذَلَّ البطرك، وأُقصي من المسجد الأقصى السَّاجد إلى الشَّمس، وتجلَّى الحَقُّ بنوره الكاشف لِلَّبْس.

عاد بيت الله المقدَّس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبارته، وتهلَّل وجه السَّعْد بنضارته، وخصَّنا القَدَرُ في إتمام أمره بخطابه وإشارته، وزادت الوجوه بِشْراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الإسلام المسجد الأقصى، ومَلَّكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سناه من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنَّا لهم بالقَهْر مالكون، وفي سبيل القَتْلِ والأَسْرِ والسَّبْي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، حتى يسلِّموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عَصَيْتُمْ، ورضيتم بما فيه هلاكهم وأَبَيْتُمْ، فَرَوَّعوا بقتل أُسارى المسلمين وهم ألوف، وعرفنا أنهم لا يقصِّرون عن شَرٍّ، فإن جهلهم معروف. فتضرَّعوا وتشفَّعوا وتعفَّروا في تراب الذُّلِّ ووقعوا، وتقرَّر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم، وسلَّموا القُدْس، فأعدناه إلى القُدُس، وطهرناه من الرِّجْس، وأجبنا دَعْوة الصَّخْرة، وغسلنا عنها وضَرَ الكُفْر بعبرات العبرة.

فُتِحَ بيتُ الله المقدس، الذي غَلِقَ رَهْنُه، وطال في يد الكُفْر أَسْرُه وسِجْنُه واستهلَّ بغُرِّ أيامنا مُزْنُه، وأنار يُمْنُه، وعاد بإحساننا حُسْنُه، وزال بنا خَوْفُه وزاد

(١) تقدم شرحه قبل قليل.
(٢) أصْلَد وصلُد صلوداً وصلادةً: صَلُبَ، والصلد: الشديد والصلب الأملس. والزَّنْد: العود الأعلى التي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة. وزَنَدَ النار زَنْداً: قدحها، ويقال: زند نار الحرب: أثارها.

أَمْنُه، وبقي قريب مائة سنة في يد الكفرِ مسجوناً، وبرِجْس الشِّرْك مشحوناً، حتى أعاد الله بنا رَوْنَقَه، وأذهب قَلَقَه، وأعدم فَرَقَهُ.

وهذا فَتْحٌ لم يكن منذ عَصْرِ الصَّحابة رضي الله عنهم له نظير، وأُفُقُ الدِّين به منيفٌ منير، وشَرَفُ أيامنا به كبير، وهو إمام فتوحنا المُدَّخرة لنا، وما لها بتأييد الله تأخير.

فُتِحَ البيتُ المقدَّس الذي لم يخطر تَمَنِّيه بخاطر الملوك، وتوعَّر على عزائمهم نَهْجُ طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقُها، وجنت على الإسلام فيه حوادثُ اللَّيالي وطوارقُها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرَّفَنا طِيبَ عَرْفِهِ فاستطبناه، وذخَر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أَنْزَلَتِ الأسواء بالأسوار، وغارَتِ الصُّخور للصَّخْرة المباركة فجدَّت في إنقاذها من الإسار، وهَتَمَتْ ثنايا الأبراج، وأَعْضَلَ بها في العلاج داءُ الأعلاج، فعاينوا الحِمام، وشاهدوا الموتَ الزُّؤام.

أقامت المنجنيقات على حَصَانته جَدَّ الرَّجْم، وواقعت ثنايا شُرُفاته بالهَتْم، وتطايرت الصخور من نُصْرة الصَّخْرة المباركة، وحَجَرَتْ على حُكْم السُّور بِسَفَهِ الأحجار المتداركة، وحسرت النُّقوبُ عن عروسِ البلد نُقُبَ الأسوارَ، وانكشفت للعيون انكشافَ الأسرار.

نَهَضَتْ لإصراخ الصَّخْرة المقدَّسة الصُّخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنَّها الصُّقور، ما أَسَرَّ البيت الحرام بفِكاك أخيه من الأسر، وإجراء ماء الإسلام فيه لغَسْل أوضار الكُفْر، وإنقاذ الصَّخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدُّ قَسْوة، وإلحافها من البهاء والرَّوْنق والعِزِّ الإسلامي كُسْوة، ولقد غُسِلَتْ من أَدْران الكُفْر وأدناسه، وطُهِّرَتْ من أرجاس أنجاسه، بمياه العيون التي بها قَذِيَتْ، وصُقِلَتْ بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الكفر صَدِيَتْ، وأعيد إليها ذِكْرُ الله تعالى بعد طول الغُرْبة، وتذَّكرت بِصُحْبَةِ الأولياء ما سَلَفَ لها في عهد الصَّحابة رضي الله عنهم من حُسْنِ الصُّحبة، ودنا المسجد الأقصى فأُقصي منه السَّاجد للشمس، وسكن العلماءُ والفقهاء في مواطن البطرك والقَسِّ، وأُبدل النَّاقوس بالأذان، بل الكُفْر بالإيمان، وصَلَّى محرابُ الإسلام[١] في المحراب الذي أسلم، وقد سنَّى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنُّجح الأفخم.

---

(١) محراب الإسلام: المحراب: الشديد الحرب، الشجاع، يشير بذلك إلى السلطان صلاح الدين.

وقد نُدِبَ فلان في الرّسالة القُدْسية، والبشارة العُرْسية، التي تَمَّ بها مأتم الكفر وعُرْس الإسلام، وعاد بها المسجدُ الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام، وتجلَّت عروس الصخرة لعيون النّاظرين، وفاضَتْ عليها مياه أحداق الأولياء، فَرَحَضَتْ(١) عنها أوضار الكافرين، وكان الإسلام منه غريباً فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطُّن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مَأْمنه، وفاض العُرْف من منبعه، وأنار التَّوحيد من مَطْلَعِه، وعلا سَنَا السُّنَّة، وحلا جَنَى الجَنَّة، وخلصت مواضع المُخْلصين من أولياء الأُمة، وخرج البطاركة والقِسِّيسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائسُ مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الإيمان باشرة، ووجوه أهل الصَّليب عوابس، ومحت أيامنُ هذه الأيام تلك الليالي الدَّوامس، وقد أقيمت الجُمَع والجماعات، ونُظِّفَتْ بل طُهِّرت تلك السَّاحات، وصَلَّى في محرابه المِحْرَب، ودَرَّس فيه الخلافَ والمَذْهب، فالحمد لله الذي تسنَّى بفضله هذا المطلب، وتيسَّر بتأييده الأمر الأصْعب.

فصل

[في كتب السلطان إلى القاضي الفاضل يبشره بالفتح]

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخراً بدمشق لعارضٍ مَنَّ الله بشفائه، فمن جملة ما كتب السُّلْطان إليه: أما الفتح فمن جُمْلة بركات هِمَّته، وآثار جذبات عزمته، فإنَّ الله تعالى سهَّل ما سجَّل أهلُ الدَّهْر بأنه صَعْب، وأَهَبَّ نسيمَ النَّصْر إبَّان يقال ليس له مَهَبّ، وخَصَّنا بهذا الشَّرف، وألحقنا في هذه الفضيلة بصالحي السَّلَف، وقد بُدِّل الكُفْرُ بالإيمان، والنَّاقوس بالأذان. وجلس العلماءُ والفقهاء في مجالس الرُّهْبان، وفُتِحَتْ بهذا الفَتْح من بيت الله المقدَّس أبوابُ الجِنَان، وتزاحَمَ الخارجون من البلد من الفرنج والنَّصارى في دخول أبواب النِّيران، وصَلَّى محارب الدِّين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكُفْر من الحجاب، وغُسِلَتِ الصَّخْرة المباركة من أوضارها بماء العيون، الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقُبِّلَتْ بالشِّفاه وبوشرت بالأفواه، وطَهُرَتْ بِأهل العِلْم والحِلْم من أدناس أهل الجهل والسِّفَاه.

والحمد لله ثم الحمد لله، وما كان يعوزنا ويَعُوزُهُ إلا حُضُور المجلس السَّامي

(١) رحض الثوب رحضاً: غَسَله.

أسماه الله، فما لهذا الأمر رُواء إلا بِرُوائه، ولا للأُنْس لقاء إلا بأُنس لقائه، وكاد يُصَحِّف الفَتْحُ لولا صالح دعائه، وحُسْن آلائه.

والحمد لله الذي خصَّنا بهذه الخاصِّية، وفَضَّلنا بالنُّصْرة القُدْسية، وذخر لنا هذا البِرَّ الذي عَجَزَ بل قَصَّر عنه ملوكُ البَرِيَّة.

والحمد لله على هذه النِّعْمة السَّنِيَّة، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خُصوص الرَّيِّ به وعُمومه، ويا حظَّ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما آنق رَوْضَه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أنَّ هِمَّته العالية تحدُوه، وأن دينه إلى إجابة دَعْوته تدعوه، ونسأل الله تعالى أن يكمِّل صحته، ويُنْعِشَ قوته، ويقوِّيَ نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتَدْبيره.

ومن كُتُب أُخَر: نصرنا الله بملائكته المسوَّمين، وأوليائه المؤمنين. واستخلصنا بتأْييده البلاد وانتزعناها، واقتضضنا بالبِيض الذكور من الحَرْب العَوَان أبكَارَ الفُتُوح وافترعناها، وهذه موهبة مُذْهَبَة، ومَنْقَبَةٌ لا تبلغ إلى وَصْفها بلاغة موجزة ولا مُسْهَبَة، ونوبة ما للإسلام بعدها نبوة، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حُلْوة، وبُشْرى تجلو الوجوه بِبِشْرها، وتضوِّع مَهَابَّ المحابِّ بِنَشْرها، ويُغْرِقُ أهلَ الشَّرْق والغَرْب سِجالُ غَرْبها، وتَقَرُّ عين المؤمنين في البُعْد والقُرْب بأنوار قُرْبها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وُصِفَتْ، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] عُرِفَتْ، وظَهَرَتِ الصَّخرة المقدَّسة وطُهِّرَت، وَزُهِيَتْ أيامُن هذه الأيام وزَهَرَتْ، وقُمِعَتْ الطَّائفة الطاغية من أهل التَّثْليث بأهل التوحيد وقُهِرَت، واستبشر المحراب والمنبر بخطبته وإمامه، وافتخر الزَّمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملَّكنا البلاد السَّاحلية وتسلَّمناها حِصْناً حصناً، ونقضنا من الكُفر رُكْناً ركناً، وأجلينا الكُفَّار منها فاجتلينا بها من الحسنى حُسْناً.

فتحٌ شرَّف الله به هذه الأُمة، وجلا به الغُمَّة، وكَشَفَ المُلِمَّة، بل شَرَّفنا بفخره، وأعدَّنا لذُخْره، وخَصَّنا بفضيلته في عَصْره، وأجرى لنا ما كان قد أبطأَ من عادة نَصْرِهِ، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كُفْره، وقامت بَوَاتِرُنا بِوَتْرِهِ[1]، وغرَّق البلاد السَّاحلية من دم الكُفرِ ببحره، وأصرخت الصَّخْرة، وحفَّت بها النُّصْرة، وزالت عنها المَضَرَّة، وعادت إليها المَبَرَّة، ونُعِشَتْ منها العَثْرة، وفاضت

(١) البواتر: جمع باتر، وهو السيف. والوتر: القتل.

لها من عين المؤمنين العَبْرة، وزُفَّت عروسها البكر محصنة لم تُقْتَضّ منها العُذْرة، وحالت العُرَّة[١] ولاحتِ الغُرَّة، وظهرت من صدف قُبَّتها الدُّرَّة، وصُوفحت آثارُ القَدَم النَّبوية بالأيمان، وجُدِّدَت بعهدها صفقة الإيمان، وبَطَلَ النَّاقوسُ بحقِّ الأذان، وفُتِحَتْ أبواب الجنان لأهلها، وأُخرج منها أهل النيران، والحمد لله على هذا الإحسان حمداً مستمرّاً على مَرِّ الزَّمان.

ومن كتابٍ إلى سيف الإسلام باليمن: فُتِحَ بيتُ الله المقدَّس الذي غَلِقَ نيفاً وتسعين سنةً مع الكُفْرِ رَهْنُه، وطال في أسره سِجْنُه، واستحكم وَهْنُه، وقوي نُكْرُه، وضَعُفَ رُكْنه، وزاد حزنه، وزال حُسْنه، وأجدبت من الهُدَى أرضُه، وأخلف مُزْنه، وواصله خَوْفُه وفارقه أَمْنُه، واشتغل خاطِرُ الإسلام بسببه وساء ظَنُّه، وذُكِرَ فيه الواحدُ الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، ورُبِّع فيه التثليث فعزَّ صليبه وصُلبه، وأُفرد عنه التوحيد فكاد يهي مَتْنُه، وَدَرَجَ الملوك المتقدِّمون على تمنِّي استنقاذه، فأبىٰ الشَّيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الإلهي أن معاده في الآخرة إلى معاذِه، وطنَّتْ أوطانُه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدُّروس، وجُلِيَتِ الصَّخرةُ المقدَّسة جَلْوة العَرُوس، وزارها شهرُ رمضان مضيفاً لها، نهارُ صومها بالتسبيح، وليلُ فِطْرها بالتَّراويح.

ومن كُتُبٍ أُخَر: البيتُ المقدَّس صار مقدَّساً، وأصبح للإسلام مُعَرَّساً، ورجع أهلُ التَّقْوَىٰ إليه فقد كان بها مُؤَسَّساً، وخَرِسَ الجَرَس، وذَهَبَ الدَّنس، وبطل النَّاقوس، وخرج القُسوس، وزال الأذى بالأذان، وصُوفحت الصَّخْرة المقدَّسة بأيمان أهل الإيمان، وما صلَّت في محراب البيت المقدَّس التقاة، حتى صلَّت في محاريب رقاب الكُفْرِ المَشْرَفِيَّات، وما تمَّ الرِّضى بفتح المسجد الأقصى حتى أُقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وما تَبَوَّأ المسلم المُصَلِّي فيه مثواه من الجَنَّة حتى تبوأ الكافر المُصْلَىٰ بالنَّار مثواه.

صُوفح موضِعُ القَدَم المباركة ليلةَ المِعْراج بالأيدي، وقال لأولياء الله أهلِ الإخلاص: أهلاً بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التَّعَدِّي، وعاد المسجد الأقصى للمصلِّين المُقَرَّبين جَنَّة ومناراً، بعد أن كان لِلْمُقْصَيْن المُضَلِّين ناراً وداراً، وتسلَّم مِحْرَبُ الإسلام[٢] مِحْرَابه، وأصبحت لألَافه لما ألفى أصحابه، وترنَّح

---

(١) حالت: زالت. والعرّة: من المعرّة: المساءة والمكروه.

(٢) محرب الإسلام: المحرب والمحراب: الشديد الحرب، الشجاع، ومحرب الإسلام هو السلطان صلاح الدين.

المنبر لِتَرَنُّمِ الخطيب، وانجبر الدِّين بانكسار صُلْب عابد الصَّليب السَّليب.

خلا بالُه من أمر القُدْس بإعادته إلى قُدُسه، وإخلائه من رِجْزِ الشِّرْك ورِجْسه، وإجلاء داوِيِّه واسبتاره وبطركه وقَسِّه، وتعويضه من وحشة الضَّلالة من الهدى بأُنسه، ورَدِّ الإسلام الغريب إلى بيته المقدَّس، ونَفْي الكافر منه كاسِفَ البال راغمَ المَعْطِس، ونصب المنبر بالمسجد الأقصى لإقامة الخطبة الإمامية، ورَفْع ما رُفِعَ قَدْرُهِ من الأعلام العَبَّاسية، والإفراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشِّرْك، وكَشْفِ أستار الكَفَرَة التي حَجَبَتْ بالهَتْك والفَتْك، وإقامة الجُمَع فيه والجماعات، وإدامة أوراد العبادات به ووظائف الطَّاعات، وغسل الصَّخْرة المقدَّسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بإفاضة ثَوْبِ ثَوَابِ المُحْسِن، وتنزيه تلك الجَنَّة من دَنَسِ أهل النَّار، وإعلاء ما كان دَرَس من معالم الأبرار ومطالع الأنوار.

وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قَمَرُ الهُدَى به من سِراره، وذَهَبَتْ ظُلَمُ الضَّلالة بأنواره، وعادت الأرضُ المقدَّسة إلى ما كانت موصوفه به من التقديس، وأُمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السُّرىٰ ومناخ التَّعْريس، وقد أُقصي عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المُصْطَفُون الأقربون والملائكة المقرَّبون، وخَرِسَ النَّاقوس بِزَجَلِ[1] المسبِّحين، وخرج المفسدون بدخول المُصْلحين، وقال المحراب لأهله: مرحباً وأهلاً، وشَمِلَ جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شَمْلاً، ورُفِعَتِ الأعلام العَبَّاسِيَّة على منبره، فأخذت من بِرِّه أوفىٰ نصيب، وتَلَتْ بألسنة عَذَبها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] وغُسِلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دَنَسِ المُشْركين. وبَعُدَ أهل الأحد من قُرْبها بقُرْب المُوَحِّدين، فذكر بها ما كاد يُنْسىٰ من عَهْد المِعْراج النَّبوي، وأقامت بدلائلها براهين الإعجاز المحمَّدي.

عاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بُنْيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبَطَلَ بنصِّ النَّصر قياس قَسِّيسه، وفُتِحَ باب الرَّحمة لأهلها، ودخلت فيه الصَّخْرَةُ لفَضْلها، وباشرت الحياة بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء، آثارَ القدم النَّبوية بتجديد عهودها، وشُهِدَ مقامُ المِعْراج وموطئ بُرَاقه، ورُؤِي نُورُ الإسلام ومَطْلِعُ إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للرَّاكع والسَّاجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد.

---

(١) الزَّجَلُ، محركة: اللعب، والجلبة، والتطريب، ورفع الصوت.

ومن كتابِ فاضلي إلى بغداد[١]: تقلَّص ظِلُّ الكافر المبسوط، وصَدَق الله أهل دينه، فلما وقع الشَّرْط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأُنوف أهل الشِّرْك راغمة، وأدلجت السيوفُ والآجال نائمة، واستردَّ المسلمون تُراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظةً بما لم يصدِّقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً.

ومنه في وصف نَقْب السُّور: فأُخلي السُّورُ من السَّيَّارة، والحرب من النَّظَّارة، وأمكن النَّقَّاب أن يُسْفِر للحرب النِّقابَ، وأن يعيد الحَجَرَ إلى سيرته من التُّراب، فتقدَّم إلى الصَّخْر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعْوَله، وحَلَّ عُقَدَه بضربه الأخرق الدَّالِّ على لطافةِ أَنْمُلِه، وأسمع الصَّخرة الشَّريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت تَرِقُّ لمقتله، وتبرَّأ بعضُ الحجارة من بعض، وأَخَذَ الخرابُ عليها مَوْثِقاً فلن يَبْرَحَ الأَرْض.

وثم استقرَّت على الأعلى أقدامُهم، وخَفَقَتْ على الأقصى أعلامُهم، وتلاقت على الصَّخْرة قُبَلُهُم، وشُفيت بها وإن كانت صخرةً كما يُشْفَىٰ بالماءِ غُلَلهم، وملك الإسلام خُطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلى أن صارت روضةَ جِنان، لا جَرَم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهلَ الحقِّ وأَسْخَطَهم. وأوعز الخادمُ بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه وِرْدَه المورود. وأُقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادتِ السمواتُ للسَّجُوم[٢] يَتَفَطَّرْنَ، والكواكبُ منها للطَّرَبِ يَنْتَثِرْن، ورُفِعَتْ إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طريقُها مسدودة، وطَهُرَتْ قبورُ الأنبياء وكانت بالنَّجاسات مكدودة، وأُقيمت الخَمْس وكان التَّثْليث يُقْعِدها، وَجَهَرَتِ الأَلْسُن بالله أكبر وكان سحر الكُفْر يَعْقِدُها، وجُهِرَ باسم أمير المؤمنين في وطنه الأَشْرف من المِنْبَر، فَرُحِّبَ به ترحيبَ مَنْ بُرَّ وخَفَقَ علماه في جِفَافَيْهِ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه. وكان الخادمُ لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظْمى، ولا يُقاسي تلك البُؤسىٰ إلا رجاءَ هذه النُّعْمى، ولا يُحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمةُ مجموعةً فتكون كلمةُ الله هي العليا،

---

(١) انظر النص الكامل لكتاب القاضي الفاضل في وفيات الأعيان لابن خلكان ٧/ ١٧٩ ـ ١٨٦، وصبح الأعشى ٦/ ٤٩٠ ـ ٥٠٢. وقال ابن خلكان في الوفيات؛ وإذ قد ذكرنا فتوح القدس. . . يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الإمام المستضيء بأمر الله. . . ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها، وتركت الباقي لأنها طويلة، وهي. . .).

(٢) السَّجوم: يقال: عين سَجومٌ: غزيرة الدمع. وسَجَم الدمع والمطر سجوماً وسجاماً وتسجاماً: سال قليلاً أو كثيراً. وسجمت العين الدمع سجماً: أسالته.

وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعَرَض الأدنى من الدُّنيا، وكانت الألسن ربما سَلَقته، فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غَلَتْ عليه مراجِلُها، فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلبَ خطِيراً خاطَرَ، ومن رام صفقةً رابحةً جاسَرَ، ومن سما لأن يُجلِّي غمرةً غامَرَ.

ووصف فيه يوم حِطِّين فقال: وكان اليومُ مشهوداً، وكانت الملائكةُ له شهوداً، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً، وأُسِرَ الملك وبيده أوثقُ وثائقه، وآكدُ وُصَلِهِ بالدِّين وعلائقِه، وهو صليب الصَّلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دُهِمُوا قَطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهمائهم يحرِّضهم؛ يبسط لهم باعَهُ، وكان مَدُّ اليدين في هذه الدَّفعة وَدَاعَه، لا جَرَمَ أنه يتهافتُ على ناره فَرَاشُهم، ويجتمع في ظِلِّ ظلامه خِشَاشُهُمْ، ويقاتلون تحت ذلك الصَّليب أَصْلَبَ قتالٍ وأصدَقَه، ويرونَهُ ميثاقاً يبنون عليه أشدَّ عُقَدٍ وأوثَقَه، ويعدُّونه سوراً تحفر حوافر الخيل خَنْدَقَه، ولم يُفْلَت منهم معروفٌ إلا القومص، وكان ـ لعنه الله ـ مليّاً يوم الظَّفر بالقتال، ومليّاً يوم الخِذْلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يَلْحَقَه مِنْسَرُ الرُّمْح وجَنَاح السَّيْف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لمَوْعِدِه، وكان لِعَدَّتهم فذلك، وانتقل من ملكِ الموت إلى مالك. وبعد الكسرة مَرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرَّاية السوداءِ صِبْغاً البيضاءِ صُنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها[1].

فصل

[قصائد مدح بها السلطان عند فتح البيت المقدس]

قال العماد: ومن قصائدي التي هنَّأتُ بها السُّلْطان بفتح القُدْس وهو مخيِّم عليه: [الطويل]

أَطِيبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكم نَفْسا ... وَتَعْتَاضُ من ذِكْرَاكُمُ وَحْشَتي أُنسا
وأسأَلُ عنكُمْ عافياتٍ دَوَارِسٍ ... غَدَتْ بلسان الحالِ ناطقةً خُرْسا

(١) قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٧/ ١٨٦، بعد أن ذكر الرسالة الفاضلية: هذا آخر الرسالة الفاضلية، وكان في عزمي اختصارها والاقتصار على محاسنها، فلما شرعت فيها قلت في نفسي: عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها منها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحّت على هذه الصورة حسب الإمكان.

مَعَاهِدُكُمْ ما بالُها كَعُهُودِكُمْ ... وقد كَرَّرَتْ مِنْ دَرْسِ آثارها دَرْسا
وقد كان في حَدْسي لكم كلُّ طارقٍ ... وما جِئْتُمْ من هَجْرِكُمْ خالفَ الحَدْسا
أرىٰ حَدَثانَ الدَّهرِ يُنسىٰ حديثُه ... وأمَّا حديثُ الغَدْرِ منكم فلا يُنْسىٰ
تَزُولُ الجِبالُ الرَّاسياتُ وثابتٌ ... رَسِيسُ غَرَامٍ في فؤادي لكمْ أَرْسىٰ
حَسِبْتُ حبيبي قاسيَ القَلْبِ وَحْدَه ... وقَلْبُ الذي يهوىٰ بِحَمْلِ الهَوىٰ أقسىٰ
أمالكُمُ يا مالكي الرِّقِّ رِقَّةٌ ... يَطِيبُ بها مملوككمْ منكُمُ نَفْسا
وإنَّ سروري كنتُ أَسْمَعُ حِسَّه ... فمذ سِرْتُ عنكمْ ما سَمِعْتُ له حِسَّا
وإنَّ نهاري صارَ ليلاً لبُعْدِكُمْ ... فما أَبْصَرَتْ عيني صباحاً ولا شَمْسا
بكيتُ على مستودعاتِ قلوبِكُمْ ... كما قد بَكَتٍ قِدْماً على صَخْرِها الخَنْسَا
فلا تَحْبِسُوا عَنِّي الجميلَ فإنَّني ... جَعَلْتُ علىٰ حُبِّي لكم مُهْجَتِي حُبْسا(١)
رأيتُ صلاحَ الدين أَشْرَفَ من غدا ... وأشرف من أضحىٰ وَأَكْرَمَ من أَمْسىٰ
وقيل لنا في الأرضِ سبعةُ أَبْحُرٍ ... ولسنا نَرَىٰ إلا أنامِلَهُ الخَمْسا
سَجِيَّتُه الحُسْنى وَشِيمَتُه الرِّضا ... وَبَطْشَتُه الكُبْرَىٰ وعزمته القَعْسا
فلا عَدِمَتْ أيامُنا منه مَشْرِقاً ... يُنير بما يُولي ليالِيَنَا الدُّمْسَا
جنودُك أملاكُ السَّماءِ وَظَنُّهُمْ ... عُدَاتُك جِنَّ الأَرْضِ في الفَتْكِ لا الإنسا
فلا يستحقُّ القُدْسَ غَيْرُك في الوَرَىٰ ... فأنتَ الذي مِنْ دونهم فَتَحَ القُدْسا
ومن قَبْلِ فَتْحِ القُدْسِ كنتَ مقدَّساً ... فلا عَدِمَتْ أخلاقُك الطُّهْرَ والقُدْسا
وَطَهَّرْتَهُ من رِجْسِهِمْ بدمائهم ... فأذهبتَ بالرِّجْسِ الذي ذَهَبَ الرِّجْسا
نَزَعْتَ لباسَ الكُفرِ عن قُدْسِ أَرْضِها ... وأَلْبَسْتَهَا الدِّين الذي كَشَفَ اللُّبْسا
وعادَتْ ببيتِ الله أحكامُ دينه ... فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قَسَّا
وقد شاعَ في الآفاقِ عنك بِشارةٌ ... بأَنَّ أَذَانَ القُدْسِ قد بَطَّلَ النَّقْسا
جَرَىٰ بالذي تهوىٰ القضاءُ وظَاهَرَتْ ... ملائكةُ الرَّحمنِ أجنادَك الحُمْسا(٢)
وكم لبني أيوبَ عَبْدٌ كَعَنْتَرٍ ... فإن ذُكِروا بالبَأْس لا يذكروا عَبْسا
وقد طاب رَيَّانا على طَبَرِيَّةٍ ... فيا طِيْبَهَا مغنًى ويا حُسْنها مَرْسَىٰ
وَعكَّا وما عكَّا فقد كانَ فَتْحُها ... لإجلائهمْ عن مُدْنِ ساحلهمْ كَنْسا
وصيدا وبيروت وتِبْنِين كلُّها ... بسيفك أَلفىٰ أَنْفُه الرَّغْمَ والتَّعْسا

---

(١) الحُبْس: بضم الحاء المهملة، وتسكين الباء: يقع على كل شيء وقفه صاحبه تقرباً لله تعالى.
(٢) الحمس: جمع أحمس، وهو الشجاع، والمتشدد على نفسه في الدين.

ويـافـا وأَرْسُـوف وتـبـنـى وغَـزَّةٌ تَخِذْتَ بها بين الطُّلى والظُّبَىٰ عُرْسا
وفي عَسْقَلانَ الكُفْرُ ذَلَّ بملككمْ فَمَنْظَرُهُ بل أَمْرُهُ ارْبَدَّ وارْجَسَّا
وصارَ بصورٍ عُصْبَةٌ يَرْقُبونَكُمْ فلا تُبْطِئوا عنها وحُسُوهمُ حَسَّا
توكَّل على الله الذي لك أَصْبَحَتْ كلاءَتُهُ دِرْعاً وعِصْمَتُهُ تُرْسا
ودَمِّرْ على الباقين واجْتَثَّ أَصْلَهُمْ فإنَّك قد صَيَّرْتَ دينارهم فَلْسا
ولا يَنْسَ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبُكَ مُرْوِياً بماءِ الطُّلىٰ من صادياتِ الظُّبَى الخَمْسا[1]
وإن بلادَ الشَّرْق مظلمةٌ فَخُذْ خُرَاسان والنَّهْرين والتُّرْك والفُرْسا
وبعد الفرنج الكُرْجَ فاقْصِدْ بلادَهُمْ بِعَزْمِكَ واملأ من دمائهمُ الرَّسَّا[2]
أقامتْ بغاب السَّاحلين أُسودُكمْ وقد طَرَدَتْ عنه ذئابَهُمُ الطُّلْسا

وهي طويلة، وقد تقدَّم بعضها في ذكر كسرة حِطِّين.

وللعماد أيضاً من جُمْلة القصيدة التي مَدَحَ بها حسامَ الدين بن لاجين، وقد تقدَّم بعضُها: [البسيط]

قُلْ للمليك صلاح الدِّين أَكْرَم مَنْ يمشي على الأرضِ أو[من]يَرْكَبُ الفَرَسا
من بَعْدِ فَتْحِكَ بيت القُدْس ليس سوى صُورٍ فإن فُتِحَتْ فاقصدْ طرابُلُسا
أَثِرْ على يوم أَنْطَرسوسَ ذا لَجَبٍ وابعثْ إلى ليل أنطاكيةَ العَسسا
وأَخْلِ ساحِلَ هذا الشَّام أَجْمَعَهُ من العُدَاة ومَنْ في دينه وَكَسا
ولا تَدَعْ مِنْهُمُ نَفْساً ولا نَفَساً فإنَّهم يأخذون النَّفْسَ والنَّفَسا
نزلتَ بالقُدْسِ فاسْتَفْتَحْتَهُ ومتى تَقْصِدْ طرابُلُساً فانزلْ على قَدَسا

ومن قصيدةٍ أخرى له نفَّذها إلى الخليفة النَّاصر: [البسيط]

أَبْشِرْ بِفَتْحٍ أميرَ المؤمنين أتى وَصِيتُهُ في جميع الأرضِ جَوَّابُ
ما كانَ يَخْطُرُ في بالٍ تصوُّره واسْتُصْعِبَ الفَتْحُ لما أُغْلِقَ البابُ
وخامَ عنه الملوكُ الأقدمون وقد مَضَتْ على النَّاسِ من بلواه أَحْقابُ

---

(١) الغرب: حدة السيف. والطلى: الندى.

(٢) الكُرْج: بضم الكاف وسكون الراء: جيل من الناس نصارى، من بني إيران بن أشوذ بن سام، وإلى إيران هذا تنسب مملكة إيران التي كان بها ملوك الفرس، كانوا يسكنون في القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملكٌ ولغةٌ (معجم البلدان ٤/ ٤٤٦).
والرَّس: البئر.

وجـاء عَـصْـرُك والأيـامُ مُـقْـبِـلَـةٌ فـكـان فـيـه لِـفَـيْـضِ الـكُـفْـرِ إنـضـابُ
نَـصْـرٌ أعـادَ صـلاحُ الـدِّيـن رَوْنَـقَـه إيـجـازُه بـبـلـيـغ الـقَـوْلِ إسْـهَـابُ
قَرْعُ الظُّبَى بالظُّبى في الحَرْبِ يُطْرِبُهُ لا قَـيْـنَـةٌ صَـنَـعٌ بـالـلَّـحْـنِ مِـطْـرَابُ
أحيا الـهُـدَىٰ وأماتَ الشِّرْكَ صارِمُهُ لقد تـجلَّى الـهُـدَىٰ والشِّرْكُ منجابُ
بِفَتْحِهِ القُدْسَ للإسلام قد فُتِحَتْ فـي قَـمْـعِ طـاغـيـةِ الإشْـراكِ أبـوابُ
ففـي مـوافـقـةِ البيتِ الـمُـقَـدَّس لـلـ ـبـيـتِ الـحَـرَامِ لـنـا تِـيـهٌ وإعْـجَـابُ
والـصَّـخْـرَةُ الـحَـجَـرُ الـمَـلْـثُـوم جـانـبـه كـلاهـمـا لاعـتـمـارِ الـخَـلْـقِ مِـحْـرَابُ
نفىٰ من القُدْسِ صُلْباناً كما نُفِيَتْ مـن بـيـتِ مـكَّـة أَزْلامٌ وأنـصـابُ

وكَثُرَ مدح الفُضَلاءِ للسُّلْطان عند فتح القُدْس، وقد ذكر العمادُ من ذلك جُملةً في أواخر كتاب «البرق»، فرأيتُ تقديم ما اخترته منها هنا، وزدتُ عليه ما لم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفَضْل عبد المنعم بن عمر بن حسَّان الأَنْدلُسي الجِلْياني[1]، منها: [البسيط]

أبا الـمُـظَـفَّـر أنت الـمُـجْـتَـبَىٰ لـهـدى أُخـرىٰ الـزَّمـان عـلـى خُـبْـرٍ بِـخُـبْـرَتِـهِ
فـلـو رآك وقـد حُـزْتَ الـعُـلا عـمـرٌ فـي قُـلَّـة الـتَّـلِّ قَـضَّـى كُـنْـه عِـبْـرَتِـهِ
ولـو رآك وأهـلُ الـقُـدْس فـي وَلَـهٍ أبـو عـبـيـدة فَـدَّىٰ مـن مَـسَـرَّتـه
غـداةَ جـزُّوا الـنَّـواصـي فـي قُـمـامـتـه وأعـولـوا بـالـتَّـبـاكـي حَـوْلَ صَـخْـرَتِـهِ
دارتْ بك المِلَّة الحُسْنَى فنحن على عَـهْـدِ الـصَّـحـابـةِ فـي استـمـرارِ مِـرَّتـه

---

(١) هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني، حكيم الزمان، أبو الفضل الجلياني، الأندلسي، من أهل جليانة، وهي حصن من أعمال وادي آش بالأندلس، انتقل إلى دمشق وأقام فيها، وكان السلطان يجله ويحترمه، وله فيه مدائح كثيرة أشهرها «المدبجات» والتي تسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر»، ولد سنة ٥٣١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٣هـ، وقيل: سنة ٦٠٢هـ، من تصانيفه: «أدب السلوك»، «تحرير النظر»، «تحفة الجوهرية»، قصيدة في فتوحات صلاح الدين الأيوبي، «جامع أنماط السائل في العروض والخطب والرسائل»، «ديوان الحكم وميدان الكلم»، «ديوان الغزل والتشبيب»، «ديوان المبشرات والقدسيات»، «ديوان المديح»، «سر البلاغة وصنايع البديع في فصل الخطاب»، «مذبحة رهان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على ممر الزمان»، «مشارع الأشواق»، في التصوف، «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر من خصائص الملك الناصر» (كشف الظنون ٥/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠، نفح الطيب ٣/ ٣٥٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٦/ ١٠٠، معجم البلدان ٢/ ١٥٧، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٠ ـ ٦٣٥، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، الوافي بالوفيات ٢/ ٤٠٧).

وأنت كاسْمِك صدِّيقٌ وصاحِبُهُ الـ ـمَـلْـكُ الـمُـظَـفَّـرُ سام في مَـبَـرَّتـه
وفـي الـسُّـلالـة عـثـمـانٌ يـؤيِّـدُه عُـلا عـلـيٍّ عـلـى إيـثـار نُـصْـرَتِـهِ
وكـم لـديك ذوي قُـرْبَى رقَـوا شَـرَفـاً وكـم بـعـيـدٍ رأىٰ الـزُّلـفى بِـهـجْـرَتِـهِ
يُـشَـبَّـه الـقُـبْـجُ ما بـيـن الـبُـزَاة لَـقَـى مَـلْـكَ الـفِـرَنْـج أخيـذاً بيـن عِـتْـرَتِـهِ[1]
أَما رأيـتَ مـعـالـي يـوسـفٍ نُـسِـقَـتْ حتى رَمَتْ كُـلَّ ذي مُـلْـك بِحَـسْـرَتِـهِ
أضحىٰ لِنَشْرِ الهُدَىٰ في فَتْحِ مَنْهَجِهِ وبـاتَ يـطـوي الـعِـدَىٰ في سَـدِّ ثُـغْـرَتِـهِ
واسْـتَـقْـبَـحَ الـرِّجْـس مـمـنـواً بِـمَـشْـهَـدِهِ فـاسـتـفـتَـح الـقُـدْس مـحـشـواً بِزُمْـرَتِـهِ
لـكـنَّ بـأس صـلاح الـدِّيـن أَذْهَـلَـهُـمْ بـوقـعـةِ الـتَّـلِّ واسـتَـشْـرى بـسَـوْرَتِـهِ
تعيا الـجـوارِحُ والـفُـرْسـانُ وهـو عـلى بَـذْءِ الـنَّـشـاط عَـشِـيّـاً مِـثْـلَ بُـكْـرَتِـهِ
يا فـاتِـحَ الـمَـسْـجِـدِ الأقصى على بُـهَـم وقانِصَ الجيشِ لا يُحْصَىٰ بِقَفْزَتِهِ[2]
أَبْشِرْ بِمُلْكٍ كَظْهَرِ الشَّمْس مُطَّلَعٌ عـلـى الـبـسـيـطـةِ فـتَّـاح بـنـشـرتِـهِ
حتى يـكـونَ لـهـذا الـدِّيـن مـلـحـمـةٌ تـحـكـي الـنُّـبـوةَ فـي أيـام فَـتْـرَتِـهِ

قال: ونفَّذَ من مصر نجمُ الدِّين يوسف بن الحسين ابن المجاور الوزير العزيزي[3] قصيدةً، وعرضتها على السُّلْطان بالقُدْس، وفيها ذكر الإنكلتير وفتح يافا، وذكر الهُدْنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضاً: [الكامل]

الـوَقْـتُ أَضْـيَـقُ مِـنْ سـمـاع قـصـيـدةٍ مَـوْسُـومـةٍ بـصـفـاتِ أَغْـيَـدَ أَهْـيَـفِ
الـجِـدُّ فـي هـذا الـزَّمـانَ مُـبـيَّـنٌ والـهَـزْلُ فـيـه مـع الـغَـوَايـة مُـخْـتَـفِ
بـالـنَّـاصـرِ الـمَـهْـدِي والـهـادي إلـى سُبُـلِ الـجـهـادِ أبـي الـمُـظَـفَّـرِ يُـوسُـفِ
الـمـسـتـعـيـنِ بِـرَبِّـهِ والـواثـقِ الـ ـمنصـورِ والـمـسـتـظـهـر الـبَـرِّ الـوَفِـي
شُـدَّتْ قُـوَىٰ أركـان مِـلَّـةِ أحـمـدٍ وَتَـجَـمَّـلَـتْ بـجـهـادِهِ فـي الـمَـوْقِـفِ
مـلِـكٌ إذا أَمَّ الـمـلـوكُ جَـنَـابَـهُ لاذوا بـأكـرمِ مـن يُـؤَمُّ وأَشْـرَفِ

(١) القبج: الحجل. والأخيذ: الأسير.
(٢) البهم: جمع بهمة، بالضم: الشجاع، وقيل: الفارس الذي لا يُدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه، وتأتي أيضاً بمعنى الجيش.
(٣) نجم الدين يوسف بن الحسين ابن المجاور الوزير العزيزي ولد سنة ٥٤٩هـ، وكان قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، وقد أنس به العزيز بن صلاح الدين، حتى أنه استوزره في نيابته عن أبيه بمصر، ثم لما مات صلاح الدين فوّض العزيز إليه جميع أمور دولته. توفي بالقاهرة سنة ٦٠٠هـ (التكملة للمنذري ٢/ ٣٠ ـ ٣١).

وإذا أَتَـوْا أَسْـرَىٰ إلـى أبـوابـه وَقَـفُـوا بـأعـظـم مـن يَـصُولُ وأَرْأَفِ
مـولـى غـدا لـلـدِّيـن أكـرمَ والـدٍ حَـدِبٍ عـلـى أبـنـائـه مُـتَـرَفْـرِفِ
عَـزَلَ الـفـرنـجـة ثـم وَلَّـى جَـيْـشَـهُ أَعْـظِـمْ بـه مـن صَـارِفٍ ومُـصَـرِّفِ
قـد أَنْصَفَ التَّوْحِيدَ من تثليثهم وأقامَ في الإنـجيل حَدَّ الـمُصْحَفِ
مُـغْـرًى بـتـجـريـح الـرِّجـال لأنَّـه يَـرْوِي أحـاديـثَ الـعَـوَالِـي الـرُّعَّـفِ
مَـلِـكٌ لـه فـي الـحَـرْب بَـحْـرُ تَـفَـقُّـهٍ ولـه غَـدَاةَ الـسِّـلْـم زُهْـدُ تَـصَـوُّفِ
وعـلـيـه أُنْـزِلَ فـي الـجـهـاد مُـفَـصَّـلٌ فـلـذاك يـقـرؤه بـسـبـعـةِ أَحْـرُفِ
عَـزْمٌ وحِـلْـمٌ أنـسـيـا مـا كـان مـن عَـزْمِ ابـن مِـرْداسٍ وحِـلْـمِ الأَحْـنَـفِ
يـا أيـهـا الـمـلـكُ الـذي لـطـبـاعِـهِ وسـيـوفِـهِ خُـلُـقـا رِضًـى وتَـعَـسُّـفِ
لله يــوم عَــرْوبَــة إذ أَعْــرَبَــتْ سـاعـاتُـهُ عـن نَـصْـرِك الـمـتـعـرِّفِ
سَـنَّـتْ سيوفُكَ في الرؤوس ختانةً ذَهَـبَـتْ بـمـهـجـة كـلِّ عِـلْـجٍ أَقْـلَـفِ
آفـاتـهـم وافَـتْ بـأَخْـذِك مـنـهُـمُ يـافـا فـكـم مـن حَـسْـرَةٍ وتَـأَسُّـفِ
أَوَمـا رأى الأعـلاجُ حـيـن دَعَـوْتَـهَـا بلسانِ سَيْفٍ في الكريهةِ مُلْجِفِ
لـم تَـسْـتَـطِـعْ عصيانَ أَمْرك بل أَتَتْ مُـنْـقَـادَةً طَـوْعـاً ولـم تَـتَـخَـلَّـفِ
فـاسْـتَـدْعِ جـارَتَـهـا وثَـنِّ بـأُخـتـهـا وكـذاك حـتـى الأربـعـيـن وَنَـيِّـفِ
مـا لـلـسَّـواحـل غَـيْـرُ بَـحْـرك حـافِـظٌ بِـشَـبَـا سِـنـانٍ أو بـصَـفْـحَـةِ مُـرْهَـفِ
هـذا الـطِّـرازُ الأَخْـضَـرُ اسْـتَـفْـتَـحْـتَـهُ فَـزَهَـا بـثـوبٍ مـن عُـلاك مُـسَـجَّـفِ
أَحْـيَـيْـتَ ديـنَ مـحـمـدٍ وأَقَـمْـتَـهُ وسَـتَـرْتَـهُ مِـنْ بَـعْـدِ طُـولِ تَـكَـشُّـفِ
وَضَـبَـطْـتْ ديـوانَ الـجـهـادِ بـعـامـلٍ مـن عـامـلٍ وَبِـمُـشْـرِفٍ مـن مَـشْـرِفي
وبِـجِـهْـبِـذِ الـعَـزْمِ الـذي لا يَـنْـثَـنـي وبـنـاظـرِ الـرأي الـذي لـم يَـطْـرِفِ
فَـخُـذِ الـخَـرَاجَ مـن الـبـسـيـطةِ كـلِّـهـا واسْـتَـأْدِ فَـرْضَـي جِـزْيَـةٍ ومـوظَّـفِ
واقْـبِـضْ عـلـى الـدُّنْـيـا بـكـفِّ زهـادةٍ وابْـسُـط لـرحـمـتـهـا جَـنَـاحَ تَـعَـطُّـفِ
جـاءت جـنـودُ الله تَـطْـلُـبُ ثَـأْرَهَـا وَصُـدُورُهـا بـك عـن قـلـيـلٍ تَـشْـتَـفِـي
فـانْـهَـض بـهـا وتَـقَـاضَ حَـقَّـك مـوقـنـاً أنَّ الإلـه بـمـا تُـؤَمِّـلُـه حَـفِـي
هـم فِـتْـيَـةُ الأتـراك كـلُّ مُـجَـفْـجَـفٍ يَغْشَىٰ الكريهةَ فَوْقَ كُلِّ مُجَفْجَفِ
قَـوْمٌ يـخـوضـون الـحِـمَـامَ شـجـاعـةً لا يَـنْـظُـرون إلـيـه مـن طَـرْفٍ خَـفِـي
إنْ صـبَّـحـوا الأعـداءَ فـي أَوْطـانِـهِـمْ تـركـوا ديـارَهُـمُ كَـقَـاعٍ صَـفْـصَـفِ
أنـتَ اصْـطَـفَـيْـتَـهُـمُ لِـنُـصْـرَةِ ديـنـنـا لله دَرُّ الـمُـصْـطَـفَـىٰ والـمُـصْـطَـفِـي

قلتُ: وذكرتُ بقوله: «هذا الطِّراز الأخضر استفتحته» حكايةً حسنة لائقة بالحال حدَّثني بها شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السَّخاوي(١)، قال: قرأتُ بخطِّ شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال: رأى إنسان كأنَّ شخصاً ذا جَهَامةٍ واقفٌ على حائطٍ بجامع دمشق يسمى النَّسْر، وهو يقول: [الكامل]

مَلَكَ الصَّياصي الصواصي ناصرٌ ... للدِّين بعد إياسه أن يُنْصَرا(٢)
وَسَيَفْتَحُ البيتَ المُقَدَّس بعدما ... يُطْوَىٰ الطِّرازُ له ويَقْتُلُ قَيْصَرا

قلتُ: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين. وقرأتُ بخطِّ بعض أصحابنا، قال: وجدتُ على حاشية كتابٍ يروى عن خطيبٍ كان بالرَّقَّة أنه رأى من ينشده هذا الشِّعْر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر البيتين وهذا قَبْل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مَوْلد صلاح الدين بسنة. والمعنى بالطِّراز بلاد السَّاحل المصطفَّة على بلاد البحر من الدَّاروم وغَزَّة وعَسْقلان وعكا وصيدا وبيروت وجُبيل وغير ذلك، ولم يَبْق من الطِّراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانُه؛ فتح هذا الطراز أولاً، ثم فُتِحَ البيت المقدَّس، وكنَّىٰ بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده، لأنه كان من رؤوس الكُفْر وملوكهم وغُلاتهم في معاداة الإسلام، والله أعلم.

قال العماد: وكان فَخْرُ الكُتَّاب أبو علي الحسن بن علي الجُوَيْني(٣) المقيم بمصر من أهل بغداد ينفِّذ إليَّ قصائده لأعرضها، فرأيتُ أن أثبت له هذه القصيدة في الفَتْح، وهي مشتملة على ذِكْرِ ملوك الإسلام وإهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرَّد له سُلْطاننا. فذكر منها: [البسيط]

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أَعْوَانُ ... مَنْ شَكَّ فيهم فهذا الفَتْحُ بُرْهَانُ
متى رأى النَّاس ما نحكيه في زَمَنٍ ... وقد مَضَتْ قَبْلُ أزمان وأَزْمانُ

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب بن غطاس الهمداني، علم الدين، أبو الحسن السخاوي، المصري المقري الشافعي، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

(٢) الصياصي: جمع صيصية، وهي الحصن، وفي القرآن الكريم: **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾** [الأحزاب: ٢٦].

(٣) توفي بمصر سنة ٥٨٦هـ. وكان شاعراً أديباً، وكاتباً مجوداً. («خريدة القصر» قسم شعراء العراق المجلد الثالث ٢/ ٥٨ ـ ٦٣، معجم الأدباء ٩/ ٤٣ ـ ٤٦، وفيات الأعيان ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

هـذي الـفُـتـوحُ فـتـوحُ الأنـبـيـاءِ ومـا ... لـهـا سـوى الـشُّـكْـرِ بـالأفـعـال أثـمـانُ
أَضْحَتْ ملوكُ الفرنجِ الصِّيد في يده ... صَيْداً ومـا ضَـعُـفـوا يـومـاً ومـا هـانُـوا
كـم مِنْ فُـحـولِ مـلـوكٍ غُـودِروا وهُـمُ ... خَـوْفَ الـفـرنـجـةِ وِلْـدانٌ ونِـسْـوانُ
اسـتـصـرَخَـتْ بِـمَـلِـكْـشَـاهِ طَـرَابُـلُـسٌ ... فـخـام عـنـهـا وصُـمَّـت مـنـه آذانُ(١)
هـذا وكـم مـلـكٍ مـن بـعـده نَـظَـرَ الـ ... ـإسلامَ يُطْوَىٰ ويُحوى وهو سَكْرَانُ
تـسـعـون عـامـاً بـلادُ الله تَـصْـرَخُ والـ ... ـإسـلامُ نُـصَّـارُه صُـمٌّ وعُـمْـيـانُ
فـالآن لـبَّىٰ صـلاحُ الـدِّيـن دَعْـوَتَـهُـمْ ... بـأمـرِ مَـنْ هـو لـلـمِـغْـوَانِ مِـغْـوَانُ
لـلـنَّـاصـر ادُّخِـرَتْ هـذي الـفُـتُـوحُ ومـا ... سَـمَـتْ لـهـا هِـمَـمُ الأمـلاك مُـذْ كـانُـوا
حَبَاه ذو الـعَـرْشِ بـالـنَّـصْـر الـعزيز فـقـا ... ل الـنَّـاس داودُ هـذا أم سُـلَـيـمـانُ
في نصف شَهْرٍ غدا للشِّرْك مُصْطَلِماً ... فَـطُـهِّـرَتْ مـنـه أقـطـارٌ وبُـلْـدَانُ
فـأيـن مَـسْـلَـمَـةٌ عـنـهـا وإخـوتُـهُ ... بـل أيـن والِـدُهُـمْ بـل أيـن مَـرْوَانُ
وَعَـدِّ عـمـا سـواه فـالـفـرنـجـةُ لـم ... يَـبُـذَّهُـمْ مـن مـلـوكِ الأرْضِ إنـسـانُ
لـو أنَّ ذا الـفَـتْـحَ في عَـصْـرِ الـنَّـبِـيِّ لـقـد ... تَـنَـزَّلَـتْ فـيـه آيـاتٌ وقُـرْآنُ
يـا قُـبْـحَ أَوْجُـه عُـبَّـادِ الـصَّـلـيـبِ وقـد ... غـدا يُـبَـرْقِـعُـهَـا شُـؤْم وخِـذْلانُ
خَـزَنْـتَ عـنـد إلـه الـعَـرْشِ سـائـر مـا ... مَـلَـكْـتَـهُ ومـلـوكُ الأرْضِ خُـزَّانُ
فـالله يُـبْـقِـيـك لـلإسـلام تَـحْـرُسُـهُ ... مـن أن يُـضَـامَ ويُـلْـفَـىٰ وهـو حَـيْـرانُ
وهـذه سَـنَـةٌ أَكْـرِمْ بـهـا سـنـةً ... فـالـكُـفْـر في سِنَـةٍ والـنَّـصْـرُ يَـقْـظـانُ
يـا جـامـعـاً كِـلْـمَـةَ الإيـمـانِ قـامـعَ مَـنْ ... مـعـبـودُه دونَ رَبِّ الـعَـرْشِ صُـلْـبـانُ
إذا طَـوَى الله ديـوانَ الـعـبـادِ فـمـا ... يُـطْـوَىٰ لأَجْـرِ صـلاحِ الـدِّيـن ديـوانُ

ولـلـشَّـريف الـنَّـسَّـابة الـمِـصْري محمد بن أسعد بن علي بن مَعْمَر الحُسَيْني المعروف بالجَوَّاني(٢)، نقيب الأشراف بالديار المصرية من قصيدةٍ: [الكامل]

أتُـرى مَـنَـامـاً مـا بـعـيـنـي أُبـصِـر ... الـقُـدْسُ يُـفْـتَـحُ والـفـرنـجـةُ تُـكْـسَـرُ
وقُـمـامـةٌ قُـمَّـت مـن الـرِّجْـس الـذي ... بِـزَوَالِـهِ وزوالـهـا يـتـطـهَّـرُ

---

(١) خام عنها: أي نكص وجبن.

(٢) ولد بمصر سنة ٥٢٥هـ. وولي نقابة الأشراف فيها، وتوفي بمصر سنة ٥٨٨هـ، له من المصنفات: «طبقات الطالبيين»، «تاج الأنساب»، (انظر كشف الظنون ١/ ٢٦٨، ٢/ ١١٠٤، «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١١٧ ـ ١١٩، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٢، لسان الميزان ٥/ ٧٤ ـ ٧٦).

وَمَلِيكُهُمْ في القَيْدِ مصفودٌ ولم ... يُرَ قَبْلَ ذاك لهم مليكٌ يُؤْسَرُ
قد جاء نَصْرُ الله والفَتْحُ الذي ... وُعِدَ الرَّسُولُ فسبِّحوا واسْتَغْفِرُوا
فُتِحَ الشَّآم وطُهِّرَ القُدْسُ الذي ... هو في القيامة للأنام المَحْشَرُ
من كان هذا فتحه لمحمَّد ... ماذا يُقالُ له وماذا يُذْكَرُ
يا يوسف الصِّدِّيق أنت لِفَتْحِهَا ... فاروقُها عُمرُ الإمامُ الأَطْهَرُ
ولأَنْتَ عثمان الشَّريعَةِ بعدَه ... ولأَنْتَ في نَصْر النُّبُوَّة حَيْدَرُ
ملكٌ غدا الإسلامُ من عَجَبٍ به ... يختالُ والدُّنيا به تَتَبَخْتَرُ
نَثْرٌ ونَظْمٌ طَعْنُهُ وضِرَابُهُ ... فالرُّمْحُ يَنْظِمُ والمهنَّد يَنْثُرُ
حيث الرِّقابُ خواضِعٌ حيث العيو ... نُ خواشعٌ حيث الجباه تُعَفَّرُ
غاراتُهُ جُمَعٌ فإن خَطَبَتْ له ... فيها السُّيوفُ فكلُّ هام مِنْبَرُ
إذ لا ترى إلا طُلَى بسنابكٍ ... تُحْذَىٰ نعالاً أو دماءً تُهْدَرُ
وصوافناً تختار أن تَطَأَ الثَّرَىٰ ... فَيَصُدُّها عنه طُلَى وسَنَوَّرُ[1]
تمشي على جُثَثِ العِدَىٰ عُرْجاً ولا ... عَرَجٌ بها لكنَّها تتَعَثَّرُ

وقال أبو الحسين بن جُبير الأَنْدَلُسي[2]: [المتقارب]

أَطَلَّتْ على أُفْقِكَ الزَّاهِرِ ... سُعُودٌ من الفَلَكِ الدَّائِرِ
فَأَبْشِرْ فإن رِقابَ العِدَىٰ ... تُمَدُّ إلى سَيْفِكَ الباتِرِ
وعما قريبٍ يَحُلُّ الرَّدَى ... بكُنْدِهِمُ النَّاكِثِ الغادِرِ
وخِضْبُ الورى يوم تسقي الثُّرى ... سحائِبُ من دَمِها الهامِرِ
وكم لك من فَتْكَةٍ فيهُمُ ... حَكَتْ فَتْكَةَ الأَسَدِ الخادِرِ
كَسَرْتَ صَلِيبَهُمُ عَنْوَةً ... فللَّه دَرُّكَ من كاسِرِ
وغَيَّرت آثارَهُمْ كُلَّها ... فليس لها الدَّهْرَ من جابِرِ
وأَمْضَيْتَ جِدَّك في غَزْوِهِمْ ... فَتَعْساً لِجَدِّهِمُ العاثِرِ
وأَدْبَرَ مُلْكُهُمُ بالشَّام ... وولَّى كأمْسِهِمُ الدَّابِرِ
جنودُك بالرُّعْبِ منصورةٌ ... فَنَاجِزْ متى شِئْتَ أو صابِرِ

(١) السنوَّر: جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع.
(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني. البلنسي الشاطبي الأندلسي المالكي، صاحب الرحلة المشهورة، ولد سنة ٥٤٠هـ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ. تقدّمت ترجمته الوافية في هذا الجزء.

فكلُّهُمُ غَرِقٌ هالك ... بتيَّار عَسكَرِكَ الذَّاخرِ
ثَأرْتَ لدين الهُدَى في العِدَىٰ ... فآثرك الله مِنْ ثائِرِ
وَقُمْتَ بِنَصْرِ إلهِ الوَرَىٰ ... فَسَمَّاك بالملك النَّاصِرِ
وجاهَدْتَ مجتهداً صابراً ... فللَّه أَجْرُكَ من صابِرِ
تبيت الملوكُ على فُرْشِهِمْ ... وتَرْفُلُ في الزَّرَدِ السَّابِرِي
وتُؤْثِرُ جاهِدَ عَيْشِ الجهادِ ... على طِيْبِ عَيْشِهِمُ النَّاضرِ
وتَسْهَرُ ليلَكَ في حَقِّ مَنْ ... سَيُرْضِيكَ في جَفْنِك السَّاهرِ
فَتَحْتَ المقدَّس من أرضه ... فعادَتْ إلى وَصْفِها الطَّاهِرِ
وجِئْتَ إلى قُدْسه المُرْتَضَىٰ ... فخلَّصْتَهُ من يَدِ الكافرِ
وأَعْلَيْتَ فيه مَنَارَ الهُدَىٰ ... وأَحْيَيْتَ من رَسْمِهِ الدَّاثرِ
لكم ذَخَرَ الله هذي الفتوح ... من الزَّمَنِ الأَوَّلِ الغابرِ
وَخَصَّك من بعد فاروقه ... بها لاصطناعك في الآخِرِ
محبَّتُكُم أُلْقِيَتْ في النُّفوس ... بذكرٍ لكم في الوَرَىٰ طائرِ
فكم لهمُ عند ذكر الملوك ... لمثلك من مَثَلٍ سائرِ

وباقي القصيدة تقدَّم في أخبار سنة أربع وسبعين.

وقال أبو الحسن عليُّ بن محمد السَّاعاتي(١): [الطويل]

أعِيّاً وقد عاينتمُ الآيةَ العُظْمى ... لأيةِ حالٍ تذخروا النَّثْرَ والنَّظْما
وقد ساغَ فَتْحُ القُدْسِ في كلِّ منطقٍ ... وشاعَ إلى أن أَسْمَعَ الأَسَلَ الصُّمَّا
حَبا مكَّةَ الحُسْنى وَثَنَّى بيثربٍ ... وأَطْرَبَ ذيَّاك الضَّريحَ وما ضمَّا
فَلَيْتَ فَتَى الخَطَّاب شاهَدَ فَتْحَها ... فَيَشْهَدَ أَنَّ السَّيْفَ من يوسفٍ أَصْمَى
وما كان إلا الداءُ أعيا دواؤه ... وغَيْرُ الحُسام العَضْبِ لا يُحْسِنُ الحَسْما
وأصبح ثَغْرُ الدِّين جَذْلانَ باسماً ... وألسنةُ الأغماد تُوسِعُه لَثْما
سَلُو السَّاحل المخشي عن سَطَوَاته ... فما كان إلا ساحلاً صادَفَ اليَمَّا

وله من قصيدةٍ أُخرى في السُّلطان: [الكامل]

عَصَفَتْ به ريحُ الخُطوب زعازعاً ... فلقينَ طَوْداً لا تخفُّ أَناتُهُ

(١) هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، بهاء الدين، أبو الحسن الدمشقي، ثم المصري المعروف بابن الساعاتي، الأديب الشاعر، توفي بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

هو منقذُ البيتِ المقدَّس بعدما ... طالَتْ فما وَجَدَ الشِّفاءَ شُكاتُهُ
بيتٌ تأسَّس بالسُّكون وإنما ... عند الزِّحافِ تَحرَّكَتْ سكناتُهُ
أمشتِّتَ الأعداء وهي جحافلٌ ... عن شَمْلِ دينٍ جُمِّعَتْ أشتاتُهُ
أُوتيتَ عَزْماً في الحروبِ مسدَّداً ... لا زَيْغُه يُخْشَى ولا هَفَواتُهُ
أحسنتَ بالبيتِ العتيقِ ويَثْرِبٍ ... ولك الفِعَالُ كثيرةٌ حَسَناتُهُ
هذي سيوفُك مُخرِماتٌ دونَهُ ... لبكائِهِنَّ تبسَّمَتْ حُجُرَاتُهُ

وله من قصيدةٍ أُخرى: [الطويل]

هو الفاتحُ البيت المقدس بعدما ... تحامته سادات الدُّنا ومَسودُها
فضيلةُ فَتْحٍ كان ثاني خليفةٍ ... من القوم مُبْديها وأنت مُعِيدُها

وله من قصيدةٍ في بعض أقارب السُّلْطان: [الطويل]

ألستَ مِنَ القَوْمِ الأُلى بسيوفهم ... ثنوا صَخْرَةَ البيتِ المقدَّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدةٍ مدح بها الملك الأفضل: [الكامل]

والقُدْسُ أَعْضَلَ داؤه مَنْ قَبْلَكُمْ ... فَوَفَيتُمُ بشفاءِ ذاك المُعْضِلِ
دَرَجَ الملوكُ على تمنِّي فَتْحِهِ ... زمناً وغُلَّتهم به لم تُبْلَلِ
وأتى زمانكمُ فأمكن آخراً ... ما قد تعذَّر في الزَّمانِ الأَوَّلِ
ما كان قَطُّ ولا يكون كَفَتْحِكُمْ ... للقُدْس في الماضي ولا المُسْتَقْبَلِ
أَوْجَدْتُمُ منه الذي عَدِمَ الوَرَى ... وَفَعَلْتُمُ في الفَتحِ ما لم يُفْعَلِ
أيدي الملوكِ تقاصَرَت عن مَفْخَرٍ ... طُلْتُمْ به فَبُلُوا بِعَضِّ الأَنْمُلِ
أَحْيَيْتُمُ شَرعَ الكِرَامِ ولم يَزَلْ ... نَصْرُ المحق بكم وقَهر المُبْطِلِ

وله من قصيدة في مدح الملك المؤيَّد: [البسيط]

وكم لبني صلاحِ الدِّين فينا ... على الإسلام من حَقٍّ تأكَّدْ
وإنَّ لهم على الأملاكِ طُرّاً ... بِفَتْحِ القُدْس فَضْلاً ليس يُجْحَدْ

وله من أُخرى في مدح الملك الظَّاهر غازي: [البسيط]

هُمُ الملوكُ ذوو بَأْس ومَكْرُمَةٍ ... إن سالموا أُمنوا أو حاربوا خِيفُوا
أغناهمُ القُدْسُ عن قَوْلِ الوَرَى فُتِحَتْ ... عَكَّا وصَيْدا وبيروت وأَرْسُوفُ
جَيْشُ الفرنجِ إذا لاقى سوابقَهُمْ ... كأَنَّه جَبَلٌ بالرِّيح مَنْسُوفُ

وقرأتُ على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السَّخاوي[١] رحمه الله من جُمْلة قصيدةٍ مَدَحَ بها بعضَ ولد السُّلْطان، أظنُّه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين، رحمهما الله: [الكامل]

مـلـكٌ بـه وأبـيـه يَـفْـتَـخِـرُ الـعُـلا ... ويَـفُـوقُ فَـخْـرُهُـمـا الـسُّـهـا والـفَـرْقَـدا
مـا يـوسـفٌ مـمَّـن يُـقـاسُ بـحـاتـمٍ ... أنَّـى وقـد وَهَـبَ الـحُـصُـونَ وأَصْـفَـدا
أو أن يـقـال كـأنَّـه يـوم الـوَغَـى ... والـرَّوْعِ كـالأَسَـدِ الـهَـصُـورِ إذا عـدا
أو مـن يُـشَـبَّـه جُـودُه بـغـمـامـةٍ ... أو مـن يُـقـالُ لِـمِـثْـلِـهِ غَـمْـرُ الـرِّدا
بـل مـالـك الـدُّنـيـا ومـالـئ رَحْـبـهـا ... خَـيْـلاً ورَجْـلاً نـاصـراً ديـنَ الـهُـدَى
ومـخـلِّـص البيتِ الـمـقـدَّس بـعـدما ... رُفِـعَ الـصَّـلـيـب عـلـى ذُرَاه ومُـجِّـدَا
ومـن الـمـلـوكِ الـصِّـيـد تـلـقـاهـم إذا ... رُفِـعَ الـسُّـرَادِقُ راكـعـيـنَ وسُـجَّـدا
وبـه أتـى الـبـيـتَ الـحَـرَامَ وفـودُه ... مـن كـل فـجٍّ آمـنـيـنَ الـمُـرَّدا
مِنْ بَـعْـدِ مـا دَرَسَـتْ مـعـالـمُ سُـبْـلِـهِ ... دَهْـراً وعَـزَّ لـخـوفـهـا أن يُـقْـصـدا

فَـصْـلٌ

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شَرَّفه الله تعالى في رابع شعبان ثـامـن يوم الفَـتْـح

وقد وَهِمَ محمد بن القادسي[٢] في «تاريخه» فيما قرأتُه بخطِّه، فإنه قال: فَتَحَ صلاحُ الدِّين بيتَ المقدس، وخَطَبَ على المِنْبر فيه بنفسه، وصلَّى فيه، ولبس خِلْعَةً سوداء.

ولم يكن السُّلْطان هو الذي باشر الخُطبة على ما سنذكره، وقد تقدَّم أن يوم الفَتْح وإن كان يوم الجمعة إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه.

قال العماد: لما تسلَّم السُّلْطانُ القُدْس أمر بإظهار المحراب، وكان الدَّاوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغَلَّة هُرْياً[٣]، وقيل: كانوا اتخذوه مستراحاً عُدْواناً

(١) تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) محمد بن القادسي: تقدّمت ترجمته.
(٣) الهري: هو المكان التي تخزن به الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارئ الاقتصادية وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة (مصطلحات صبح الأعشى ص٥٢).

وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القِبْلة داراً وسيعة، وكنيسةً رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكَشْفِ النِّقاب عن عروس المحراب، وهَدْم ما قُدَّامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العَرْصة المتَّسعة.

ونُصِبَ المنبر، وأُظْهِرَ المحراب المطهَّر، ونُقِضَ ما أحدثوه بين السَّواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبُسط الرَّفيعة عِوَضَ الحُصُر والبَوَاري، وعُلِّقَتِ القناديل، وتُلِيَ التَّنْزيل، وحُقَّ الحق وبطلت الأباطيل، وتولَّى الفرقان وعُزِلَ الإنجيل، وَصُفَّتِ السجادات، وصَفَت العبادات، وأُقيمت الصَّلوات، وأُديمت الدَّعوات، وتَجَلَّتِ البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغَيَابات، وانثابت الهدايات، وتُلِيَت الآيات، وأُعليت الرَّايات.

ونَطَقَ الأَذان وخَرِسَ النَّاقوس، وحَضَرَ المؤذِّنون وغاب القُسوس، وزال العبوس والبوس، وطابتِ الأنفاس والنُّفوس، وأقبلتِ السُّعود وأدبرت النُّحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى مَوْطنه، وطُلِبَ الفَضْلُ من مَعْدِنِهِ، وورد القُرَّاء وقُرِئَ الأوراد، واجتمع الزُّهَّاد والعُبَّاد، والأبدال والأوتاد، وعُبِدَ الواحد، ووحَّد العابد، وتوافد الرَّاكع والسَّاجد، والخاشع والواجد، والزَّاهي والزَّاهد، والحاكم والشَّاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد والسَّاهد، والزَّائر والوافد.

وصَدَحَ المنبر، وصَدَعَ المُذَكِّر، وانبعث المعشر، وذُكِرَ البعث والمحشر، وأملى الحُفَّاظ، وأبكى الوعَّاظ، وتذاكر العُلَماء، وتناظر الفقهاء، وتحدَّثت الرُّواة، وروى المحدِّثون وتحنَّف الهُدَاة، وهدى المتحنِّفون، وأخلص الدَّاعون، ودعا المُخْلصون، وأَخَذَ بالعزيمة المترخِّصون، ولَخَّصَ المُفَسِّرون، وفَسَّر الملخِّصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخُطَباء، وَكَثُرَ المترشِّحون للخطابة، المتوشِّحون بالإصابة، المعروفون بالفَصَاحة، الموصوفون بالحَصَافة، فما فيهم إلا من خطب الرُّتْبة، ورتَّبَ الخُطْبة، وأنشأ معنًى شائقاً، ووشَّى لفظاً رائقاً، وسوَّى كلاماً بالموضع لائقاً، وروَّى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عَرَضَ علي خُطْبته، وطلبَ مني نصبته، وتمنَّى أن ترجَّحَ فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيَّته فيها أُمنيَّته، وكلُّهم طال إلى الالتهاء بها عُنُقُه، وسال من الالتهاب عليها عَرَقُهُ. وما منهم إلا من يتأهَّب ويترقَّب، ويتوسَّل ويتقرَّب، وفيهم من يتعرَّض ويتضرَّع، ويتشوَّف ويتشفَّع، وكلٌّ قد لبس وقاره ووقَّر لباسه، وضَرَبَ في أخماسه أسداسَه، ورفع لهذه الرِّياسة راسه، والسُّلْطان لا يعين ولا يبين، ولا يخصُّ ولا ينص، ومنهم من يقول: ليتني خطبتُ في الجمعة الأُولى، وفُزْتُ باليد الطُّولى، وإذا ظفرتُ بطالع سَعْدي، فما أبالي بمن خَطَبَ بعدي.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح النَّاس يسألون في تعيين الخطيبِ السُّلْطان، وامتلأ الجامعُ، واحتفلت المجامع، وتوجَّسَتِ الأبصار والمسامع، وفاضَتْ لِرِّقة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الرَّوائع، وغُصَّتْ بالسابقين إليها المواضع، وتوسَّمتِ العيون، وتقسَّمت الظُّنون، وقال النَّاس: هذا يومٌ كريم، وفَضْلٌ عميم، ومَوْسم عظيمٌ، هذا يوم تُجاب فيه الدَّعوات، وتُصَبُّ البركات، وتسال العَبَرات، وتُقَال العَثَرَات، ويتيقَّظ الغافلون، ويتَّعظ العاملون. وطوبى لمن عاش، حتى حَضَرَ هذا اليوم الذي فيه انتعش الإِسلام وارتاش، وما أفضل هذه الطَّائفة الحاضرة، والعُصْبة الطَّاهرة، والأُمة الظاهرة، وما أكرم هذه النُّصْرة النَّاصِرِيَّة، والأسرة الإِماميَّة والدَّوْلة العَبَّاسية، والمملكة الأيوبية، والدَّوْلة الصَّلاحية، وهل في بلد الإِسلام أشرفُ من هذه الجماعة، التي شَرَّفها الله بالتوفيق لهذه الطَّاعة.

وتكلَّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المَنْصِب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدَّثوا بالتَّصريح والتَّعريض. والأعلام تُعْلَى، والمِنْبر يُكْسى ويُجْلى، والأصواتُ ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تَزْدَحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضَّجيج ما في عرفات للحجيج، حتى حان الزَّوال، وزال الاعتدال، وحَيْعل الدَّاعي[(١)]، وأعجل السَّاعي، نصب السُّلْطان الخطيب بنصِّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القُرَشي[(٢)] بأن يرقى ذلك المَرْقَى، وترك جباه الباقين بتقديمه عَرْقَى، فأَعَرْتُهُ من عندي أُهبةً سوداء من تشريف الخلافة، حتى يكمل له شرف الإِفاضة والإِضافة، فَرَقِيَ العُود، ولقي السُّعود، واهتزَّت أعطاف المنبر، واعتزَّت أطرافُ المعشر.

وخَطَبَ وأنصتوا، ونَطَقَ وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأَوْجَزَ وأسهب، ووعظ في خُطْبتيه، وخطب بموعظتيه، وأبان عن فَضْلِ البيت المقدَّس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه، وإخراج قسِّيسه، ودعا للخليفة والسُّلْطان، وختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] ونزل وصَلَّى في المحراب، وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من أُمِّ الكتاب، فأَمَّ بتلك الأُمَّة، وتَمَّ نزولُ الرَّحْمة، وكَمَلَ وصولُ النِّعْمة.

(١) حيعل الداعي: أي قال: حي على الصلاة.

(٢) هو قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، توفي سنة ٥٩٨هـ (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٨هـ).

ولما قُضيت الصَّلاةُ انتشر النَّاس، واشتهر الإِيناس، وانعقد الإِجماع واطَّرَد القياس، وكان قد نُصِبَ للوعظ تجاه القِبْلَة سرير، ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا[1]، فذكَّر من خاف ومن رجا، ومن سَعِدَ ومن شقي، ومن هلك ومَنْ نجا، وخوَّف بذي الحِجَّة ذوي الحِجا، وجلا بنور عِظَاتِهِ من ظُلَم الشُّبَهات ما دجا، وأتى بكل عِظَةٍ للرَّاقدين موقظة، وللظَّالمين محفظة، ولأولياء الله مرقِّقة، ولأعداء الله مغلظة.

وَضَجَّ المتباكون، وعجَّ المتشاكون، ورقَّتِ القلوب، وخفَّت الكُروب، وتصاعدت النعرات، وتحدَّرَتِ العبرات، وتاب المذنبون، وأناب المتحوِّبون، وصاح التَّوَّابون، وناح الأَوَّابون، وجرت حالات جلَّت، وجلوات حلَّت، ودعوات عَلَتْ، وضِراعات قُبِلَتْ، وفُرَصٌ من الولاية الإِلهية انْتُهِزَتْ، وحِصَصٌ من العناية الرَّبَّانية أُحْرِزَتْ.

وصلَّى السّلْطانُ في قُبَّة الصَّخْرة، والصُّفوف على سَعَة الصحْنِ بها مُتَّصلة، والأُمة إلى الله بدوام نَصْرِهِ مبتهلة، والوجوه الموجَّهة إلى القِبْلة عليه مُقْبِلَة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدَّعوات له مسموعة. ثم رُتِّبَ في المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرَّت نصبته.

قلتُ: هذه ألفاظ العماد في هذا الفَصْل من كتاب «الفَتْح»، وذكره في كتاب «البرق» بعبارةٍ أُخرى تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ما تقدَّم أيضاً بغير تلك العبارة فائدة، فإنها معانٍ جليلة كلما كررت حَلَتْ.

فصل

[تنظيف المسجد الأقصى من الأدناس]

قال العماد في كتاب «البرق»: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفَتْح تقدَّم السُّلْطان في المسجد الأقصى ببسط العِرَاص، وإخلائها لأهل الإِخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكَنْسِ ما في أرجائها من الأَرْجاس. وقد كان سبق أمره من مبدأ الأمر، بهدم ما هناك من أبنية الكُفْر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوَضْع الكريم، فقد كان الدَّاوية بَنَوْا غربيَّه داراً وأدخلوه فيها، وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للأعلال، وجانباً هُرْياً للغِلال، فأمر في العاجل بكَشْفِ

(١) هو علي بن إبراهيم بن نجا، زين الدين الواعظ، أبو الحسن، المعروف بابن نجيّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة ٥٩٩هـ، بمصر، (الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ).

قناعه، ورَفْع الوضيع من أوضاعه، ونَقْلِ ما وقع من أنقاضه، ونقض ما اعتور ذلك الجَوْهر النَّفيس من أعراضه، حتى طَهُرَ موضعُ المنبرِ والمحراب، واستظهر بإزالة ما قُدَّامه من الحجاب، واجتمع الخَلْقُ في ذلك الأُسبوع على تفريق ذلك الهَدْم المجموع، وتعاونوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشُّوه وفرشوه، وكان قد أمر باتِّخاذ منبر في تلك الأيام، فنجَّزوه وركبوه.

ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العِلَل مُزَاحة، والهِمَمَ مُرَاحة، والخواطر إلى وِرْدها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكلٌّ منهم قد سبق بخِطْبة الخُطْبة، وأمَّل الفوز بفضيلة تلك الرُّتْبة، وأعدَّ لذلك المقام مقالاً، ونَشِطَ بشِقْشَقَةِ فصاحته من قَرَم حصافته عِقالاً، حتى إذا حَيْعل الدَّاعي، وتعين الفَرْضُ على السَّاعي، حضر السُّلْطان للصَّلاة قُبَّة الصَّخرة، باديةً على أساريره أسرار سروره بالأَسِرَّة، وامتلأت تلك العراص والصحون، واستعبرت للفرح بما يسَّره الله العيونُ، وآن لدين الله أن تُقْضى له الدُّيون وتُفَكَّ الرُّهون، وَوَجِلَتِ القلوب، وخَشَعَتِ الأصوات، وحَسُنَتِ الظُّنون، وعين السُّلْطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القُرَشي الزَّكي بن الزكي للصَّلاة والخطبة، وفَرْع تلك الرُّتْبة، فصعِدَ وسَعِدَ، وحَمِدَ وأحمد، وأدَّت المعاني الشَّريفَة ألفاظُه، ونبَّه الأقاصي والأداني إيقاظُه، وجلا المسامع، وجلت المَدَامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوَجْه المَشْروع، والمَنْهَج المتبوع، والشَّرْطِ الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما اقتضَّ به أبكار الاستعارات بأبدع البراعات، وأبرع العبارات، وصدَحَ بالصِّدْق، ونَطَقَ بالحَقِّ، وفاز بالسَّبْق، وحاز الفضيلة على فُضَلاء الغَرْب والشَّرْق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قُس في عكاظه من قياس ألفاظه! وأين سَحْبان من سجعاته! وابن نُبَاته من نباته! ولو عاشا لافتقرا إلى فِقَرِه، واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسُلْطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بِسَمْتِ دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهلَ السَّماء والأرض، وسُرَّ السلطان بنصبه ورَفْعِهِ، وامتلأ صدرُه حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعَّة أنوار الخُطْبة، في سواد الأُهبة، وعَظُمَتْ أخطار المهابة في خواطر المحبَّة، وكَرُمَت سرائرُ الزُّلْفى إلى الله والقُرْبة.

ثم رتَّب السُّلْطان بعده خطيباً تستمرُّ إقامته للجُمَع والجماعات، وتستقرُّ ملازمته لأداء الصَّلوات.

ولما قضيت الصَّلاة تلك الجمعة، نُصب سريرٌ للوعظ أبقى تلك الأُمة

المجتمعة، وتقدَّم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السَّرير، وينفع بعظاته الصَّغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقَّق ورَقَّق، وأشهد وأشهق، وحَلَبَ بعباراته الحُلْوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشَّر البَشَر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقُدْس وطهارته، والدِّين وجسارته، والكُفْر وخسارته، والقدر وإعانته، والظَّفر وإبانته، والصَّخْرة وإصراخها، والرَّوعة وإفراخها، والنَّار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرَّحمة وبابها من باب الرحمة، والجَنَّة وجناها لهذه الزحمة، وما أعده الله لهذه الطَّائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصَفَ ببلاغته ما لا يبلغ إليه نُطْقُ الألسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله، والخير ودلائله، والنُّجْح ووسائله، والشَّرْع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السُّلْطان وفواضله، والبحر وساحله، والدِّين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً، وسَوْماً رابحاً.

فصل

في إيراد ما خَطَبَ به القاضي محيي الدين، رحمه الله

قال العماد: وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدِّين أربع خُطَب. في أربع جُمَع، كلها من إنشائه، وأَوْدعها سِرَّ بلاغة عُنيت بإفشائه، وذكرت الخُطْبة الأولى، ويد الفصاحة فيها طُولى، افتتاحها بهذه الآيات ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

والخطبة هي(١): الحمد لله مُعِزِّ الإسلام بنصره، وَمُذِلِّ الشِّرْك بقهره، ومُصَرِّفِ الأمور بأمره، ومديمِ النِّعَمِ بشكره، ومستدرجِ الكافرين بمكره، الذي قدَّر

(١) انظر الخطبة بتمامها في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص١٣٠ ـ ١٣٨.

الأيام دُولاً بعَدْلِهِ، وجَعَلَ العاقبة للمتقين بفَضْله، وأفاء على عباده من ظِلّه، وأظهر دينه على الدِّين كلِّه، القاهر فوق عباده فلا يُمانع، والظَّاهر على خليقته فلا يُنازع، والآمر بما يشاءُ فلا يُرَاجع، والحاكم بما يريدُ فلا يُدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونَصْرِهِ لأنصاره، وتَطْهيره بيته المقدَّس من أدناس الشِّرْك وأوضاره، حَمْدَ من استشعر الحمد باطنُ سِرِّه وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصَّمد الذي ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣، ٤] شهادَةَ من طَهَّرَ بالتوحيد قَلْبَهُ، وأرْضى به رَبَّه.

وأشهدُ أنَّ محمداً ﷺ عَبْدُه ورسولُه، رافع الشَّكِّ، وداحض الشِّرْك، وراحض الإفك، الذي أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعُرِجَ به منه إلى السموات العُلا إلى سِدْرة المنتهى. عندها جَنَّةُ المأوى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧].

صلى الله عليه، وعلى خليفته أبي بكر الصدِّيق السَّابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخَطَّاب أول من رَفَعَ عن هذا البيت شعار الصُّلْبان، وعلى أمير المؤمنين عُثمان ذي النُّورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشِّرْك ومكسِّر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان.

أيها النَّاس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القُصْوى، والدَّرجة العُلْيا، لما يسَّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالة، من الأمة الضَّالَّة، وردِّها إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشْركين قريباً من مائة عام، وتطهيرِ هذا البيت الذي أَذِنَ الله أن يُرْفَعَ وأن يُذْكَرَ فيه اسمه(١)، وإماطةِ الشِّرْك عن طُرُقه بعد أنِ امتدَّ عليها رُواقه، واستقرَّ فيها رسمه، ورَفْعِ قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتَّقْوى فإنه أُسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السَّلام، وقِبْلتكم التي كنتم تُصلُّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومَفَرُّ الرُّسل، ومهبط الوحي، ومنزل تَنَزُّلِ الأمر والنَّهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدَّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه

---

(١) هو من قوله تعالى: **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾** [النور: ٣٦].

رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه؛ عيسى الذي شرَّفه الله برسالته، وكرَّمه بنبوَّته، ولم يزحزحه عن رُتْبة عبوديَّته، فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢] وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٦، ٧٢].

وهو أولُ القِبْلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحَرَمين، لا تُشَدُّ الرِّحالُ بعد المسجدين إلا إليه[١]، ولا تُعْقَدُ الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكَّان بلاده، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ، ولا يباريكم في شَرَفها مُبَارِع، فطوبى لكم من جيشٍ ظَهَرَتْ على أيديكم المعجزات النَّبوية، والوقعات البَدْرية، والعزمات الصدِّيقية، والفتوح العُمَرِيَّة، والجيوش العُثْمانية، والفتكات العَلَوية، جدَّدتُمْ للإسلام أيامَ القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية فجازاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضلَ الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم في مقارعة الأعداء، وتقبَّلَ منكم ما تقربتم به إليه من مُهْرَاقِ الدِّماء، وأثابكم الجَنَّة فهي دار السُّعَداء، فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النِّعْمة حَقَّ قَدْرها، وقوموا لله تعالى بواجبِ شُكْرها، فله النِّعْمة عليكم بتخصيصكم بهذه النِّعْمة، وترشيحكم لهذه الخِدْمة، فهذا هو الفَتْحُ الذي فُتِحَتْ له أبوابُ السَّماء، وتبلَّجت بأنواره وجوه الظَّلماء، وابتهج به الملائكةُ المقرَّبون، وقَرَّ به عَيْناً الأنبياءُ والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعْمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدَّس في آخر الزَّمان، والجُنْد الذي تقوم بسيوفهم بعد فَتْرَةٍ من النُّبُوَّة أعلامُ الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء[٢]، أكثر من التهاني به بين أهل الغَبْراء[٣]، أليس هو البيتُ الذي ذكره الله في كتابه، ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ

(١) يشير إلى قول رسول الله ﷺ: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى»، وقد روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة. أخرجه البخاري في مسجد مكة باب ١، ٦، والصوم باب ٦٧، والصيد باب ٢٦، ومسلم في الحج حديث ٤١٥، ٥١١، ٥١٢، وأبو داود في المناسك باب ٩٤، والترمذي في الصلاة باب ١٢٦، والنسائي في المساجد باب ١٠، والدارمي في الصلاة باب ١٣٢، في الترجمة، وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٧٨، ٥٠١، ٣/ ٧، ٣٤، ٤٥، ٥١، ٥٣، ٦٤، ٧١، ٧٧، ٧٨، ٩٣، ٦/ ٧، ٣٩٨.

(٢) أهل الخضراء: أي أهل السماء.

(٣) أهل الغبراء: أي أهل الأرض.

لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] أليس هو البيت الذي عظَّمته الملوك، وأثنت عليه الرُّسلُ، وتُلِيَتْ فيه الكتبُ الأربعة المنزَّلة من إلهكم عَزَّ وجلَّ؟ أليس هو البيتُ الذي أمسك الله عَزَّ وجلَّ الشمس على يوشع لأجله أن تَغْرُب، وباعد بين خطواتها لِيتيسَّرَ فتحهُ ويَقْرُب؟ أليس هو البيتُ الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يُجِبْه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبةً للعِصْيان؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل، وقد فضَّلهم على العالمين، ووفَّقكم لما خُذِلَ فيه من كان قبلكم من الأُمم الماضين، وجَمَعَ لأجله كلمتكم وكانت شَتَّى، وأغناكم بما أمضته «كان» و«قد» عن «سوف» و«حتَّى». فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم ـ بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم ـ جُنْدَه، وشكركم الملائكةُ المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيبِ التوحيد، ونَشْرِ التقديس والتَّحميد، وما أَمَطْتُمْ عن طُرُقهم فيه من أذى الشِّرْك والتَّثْليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاكُ السَّموات، وتصلِّي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النِّعْمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسَّك بها سَلِمَ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتِّباع الهوى، وموافقة الرَّدى، ورجوع القَهْقَرَى، والنكول عن العِدَى، وخذوا في انتهاز الفُرْصة، وإزالة ما بقي من الغُصَّة، وجاهدوا في الله حَقَّ جهاده، وبيعوا عبادَ الله أنفسَكم في رضاه إذ جعلكم من عباده، وإياكم أن يستزلَّكمُ الشيطان، وأن يتداخلكم الطُّغْيان، فيخيِّل لكم أن هذا النَّصْرَ بسيوفكم الحِداد، وبخيولكم الجِياد، وبِجِلادكم في مواطن الجِلاد، لا والله، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

واحذروا عبادَ الله ـ بعد أن شَرَّفكم بهذا الفَتْح الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا الفتح المُبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين ـ أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، و﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله يَنْصُرْكُمْ، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يَزِدْكُمْ ويشكركم، جُدُّوا في حَسْمِ الدَّاء، وقَطْعِ شَأْفة الأعداء، وتطهيرِ بقيَّةِ الأرض التي أغضبتِ اللَّهَ

ورسولَهُ، واقطعوا فروع الكُفرِ واجْتَثُّوا أُصولَه، فقد نادت الأيام بالثَّارات الإسلامية، والمِلَّة المحمدية.

الله أكبر، فَتَحَ الله ونَصَرَ، غَلَبَ الله وقَهَرَ، أَذَلَّ الله من كَفَر.

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فُرْصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمَّة فأخرجوا لها هِمَمكم وَبَرِّزُوها، وسيِّروا إليها سرايا عزماتكم وجَهِّزُوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوِّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قُبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] أعاننا الله وإياكم على اتِّباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا مَعْشَرَ المسلمين بنصرٍ من عنده ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وتمام الخُطْبة الثَّانية قريب مما جَرَتْ به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللهم، وأدم سُلْطان عبدك، الخاضع لهيبتك، الشَّاكرِ لنعمتك، المُعْترفِ بموهبتك، سيفكِ القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدَافع، والذابِّ عن حَرَمك الممانع، السَّيِّد الأجل، الملكِ النَّاصر، جامعِ كلمة الإيمان، وقامعِ عَبَدَة الصُّلْبان، صلاحِ الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهِّرِ البيتِ المقدَّس، أبي المُظَفَّر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عُمَّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسنْ عن الدِّين الحنيفيِّ جزاءه، واشكر عن المِلَّة المحمدية عَزْمه ومضاءه.

اللهم أبقِ للإسلام مُهْجته، ووقِّ للإيمان حَوْزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم كما فتحت على يدِهِ البيتَ المقدَّس بعد أن ظُنَّت الظُّنون، وابْتُلي المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكه صياصي الكَفَرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مَزَّقها، ولا جماعة إلا فَرَّقها، ولا طائفة بعد طائفةٍ إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمدٍ ﷺ سَعْيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونَهْيه، اللهم وأَصْلحْ به أوساطَ البلاد وأطرافَها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهم ذَلِّلْ به مَعَاطِسَ الكُفَّار، وأَرْغِمْ به أُنوفَ الفُجَّار، وانشر ذوائب مُلْكه على الأمصار، وابْثُثْ سرايا جنوده في سُبُل الأقطار.

اللهم ثَبِّتِ المُلْكَ فيه وفي عَقِبِه إلى يوم الدِّين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عَضُدَه ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحَسَنة التي تبقى على الأيام، وتتخلَّد على مَرِّ الشُّهور والأعوام، فارْزُقْه المُلْكَ الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المتَّقين، وأجب دُعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ثم ما جَرَتْ به العادة.

فصل

في المِنْبر

قال العماد: لما فتحنا القُدْس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حُسْنه وتتميمه، ووَضْع منبرٍ رسمي في أوَّل يوم قضى به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حَسَنٍ رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطانُ المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فَتْحِهِ بنيِّفٍ وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حَسَنة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطْلب، فَحُمِلَ وعُمِلَ على ما أمر به وامتثل، فجاء كالرَّوْض النضير، والوَشْي الحبير، عديم النَّظير.

وكان من حديث إحداثه، ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في رُوعه، من النُّور الفائض من يَنْبُوع ضلوعه، أَنَّ البيت المقدس بعده سيُفتح، وأَنَّ صدورَ المُسْلمين الحَرِجة لأجله ستُشْرح، وهو من أولياء الله المُلْهَمين، وعباده المُحَدَّثين المُكْرَمين، وكانَ بحلب نجَّارٌ يعرف بالأخترينى من ضيعة تُعْرف بأخترين، لم يُلْفَ له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدَّس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النَّعْت المُهَنْدم والنَّحت المهندس. فجمع الصُّنَّاع، وأحسن الإبداع، وأتمَّه في سنين، واستحقَّ بحُسْنِ إحسانه التَّحْسين، والنَّاس يقولون: هذا أمرٌ مستحيل، وحكم ما له دليل، وذِكْرٌ جميل، وأَجْرٌ جزيل لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإنَّ الفرنج مستولون مستعلون، ويكثرون على الأيام ولا يقلُّون، أَمَا ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكُفْرِ الإيمان! وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أَصْعَبَ وأتعب وَقْمَ[1] القَوْم. ويقول من له قوَّة اليقين، وعَرَف أَنَّ الله كافِلٌ بنصره الدِّين: اصبروا، فَلِسِرِّ هذه الأمة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ [هود: ٣٨].

(١) الوَقْم، بفتح الواو وسكون القاف: القهر والغلبة.

ولم يَزَلْ لنور الدين في قلبه من الدِّين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العُبَّاد، وأعبد الزُّهَّاد، ومن الأولياء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وقد نَظَرَ بنور الفِرَاسة أن الفتحَ قريب، وأنَّ الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جِدّاً، وتمدُّه بحياء الحياة الرَّبَّانية مدّاً، قد طهَّره الله من العَيْب، وأطلعه على سِرِّ الغيب، ونزَّهه من الرَّيب لنقاء الجيب، وشَمِلَتِ الإسلامَ بعده بركته، وخُتِمَتْ بافتتاح مُلْكِ صلاح الدين مملكتُهُ، وهو الذي رَبَّاه ولَبَّاه، وأحبَّه وحباه، وهو الذي سنَّ الفَتْح، وسنَّى النُّجح.

واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنْصَب، فَنُصِبَ ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذٍ النَّجَّار عمل المحراب على الرَّقْم، وشابه المحرابُ المنبرَ في الرَّسْم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدْسي الإحسان.

ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله، وصَحَّ به في محراب الأقصى اجتماعُ شَمْلِهِ، وظهر سِرُّ الكرامة في فوز الإسلام بالسَّلامة، وتناصرتِ الألسن بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنُّصْرة والنِّعْمة.

وقال العماد في موضع آخر من كتاب «البرق»: وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمهُ الله في عهده عَرَفَ بنور فِرَاسته فَتْحَ البيت المقدَّس من بعده، فأَمَرَ في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِبَ النَّجَّارون والصُّنَّاع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتَّزْيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفاً، وكان لترديد النَّظر فيه على الأيام أُلوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صِوان الحِفْظ مقروباً، حتى أمر السُّلْطان في هذا الوقت بالوفاء بالنَّذْر النُّوري، ونَقْلِ المنبر إلى موضعه القُدْسي، فَعُرِفَتْ بذلك كراماتُ نور الدين، التي أشرق نورُها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قلتُ: وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنَّه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدِّين، وليس بالبعيد من مثل ذلك. وكان رحمه الله قد بَدَتْ له مخايل ذلك بما تسنَّى له من فَتْح البلاد الشَّامية والمِصْرية وقَهْرِ العدوِّ بين يديه مراراً، وكان فَتْحُ القُدْس في هِمَّتَه من أول مُلْكه، فإن لم يكن حَصَلَ له مباشرة فقد حصل له تسبُّباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بَنَوْا على ما أَسَّسه لهم من المُلْك والتَّدْبير، وهم أمراؤه وأتباعه، وأجناده وأشياعه.

ثم يُحتمل أن يكون ـ رحمه الله ـ وَقَفَ على ما ذكره أبو الحكم بن بَرَّجان الأندلسي[١] في «تفسيره»، فإنه أخبر عن فَتْح القُدْس في السنة التي فُتِحَ فيها وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيتُ أنا ذلك في كتابه، ذكر في تفسير أول سورة الرُّوم أَنَّ البيتَ المقدَّس استولت عليه الرُّوم عام سَبْعٍ وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة. فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وَقَفَ عليه أن يمتدَّ عمره إليه، فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه، تقرُّباً إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه.

وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في «تفسيره» من عجائب ما اتَّفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلَّم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد[٢] في تفسيره الأول، فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الرُّوم إخبارٌ عن فتح البيت المقدس، وأنه يُنْزَعُ من أيدي النَّصارى سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعضُ الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السُّورة. قال: فأخذت السورة، وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف، وإنما أخذه ـ فيما زعم ـ من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] فبنى الأمرَ على التَّاريخ كما يفعل المنجِّمون، ثم ذكر أنَّهم يُغْلَبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير.

قال: وهذه نَجَامة وافقت إصابة إن صحَّ أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، وليس ذلك بمأخوذٍ من الحروف، ولا هو من قبيل الكرامات أيضاً، فإن الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب لمَّا أدار الحساب على القراءة الأخرى الشَّاذَّة التي هي بفتح الغين من ﴿**غَلَبَتِ الرُّوم**﴾ ويوضح ذلك أنه قال في سورة القدر: لو عُلِمَ الوقت الذي أنزل فيه القرآن لَعُلِمَ الوقت الذي يُرْفَعُ فيه.

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي، أبو الحكم الإشبيلي المالكي، المعروف بابن برجان، توفي بمراكش سنة ٥٣٦هـ. من تصانيفه: «الإرشاد في تفسير القرآن»، «شرح أسماء الله الحسنى»، «كتاب الإرشاد». (كشف الظنون ٥/ ٥٧٠، فوات الوفيات ٢/ ٣٢٣، الوافي بالوفيات ١٨/ ٤٢٨، لسان الميزان ٤/ ١٣ ـ ١٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) هو علم الدين السخاوي، تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

فصل

[الصخرة المقدسة وإزالة ما بني عليها]

قال العماد: وأما الصَّخرة المقدَّسة فإنَّ الفرنج كانوا بَنَوْا عليها كنيسة، وأعادوا رسومها القديمة دريسة، وستروها بالأبنية، وعوَّجوا أوضاعها بزعم التَّسْوية، وكسوها صُوَراً هي أشنعُ من التَّعْرية، وملؤوها بتصاريف التَّصاوير، ونَبَّتوا في ترخيمها أشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المُتَبرِّكة ولا للعيون المُدْرِكة مَلْمَساً ولا مطمحاً، وقد زَيَّنوها بالصُّور والتماثيل، وعيَّنوا بها مواضعَ الرُّهْبان ومحطَّ الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القَدَم قُبَّة صغيرة مُذْهبة، بأعمدة الرُّخام مُنَصَّبة، وقالوا: مَحَلُّ قدم المسيح، وهو مقام التَّقْديس والتَّسْبيح. وكان فيها صور الأنعام مُنَبَّتةً في الرُّخام، والصَّخْرة المقصودة المَزُورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المَعْمورة مغمورة.

فأمر السُّلْطان بكَشْفِ نِقَابها، ورَفْع حجابها، وحَسْرِ لثامها، وقَشْرِ رُخامها، وَرَحْضِ وضَرِها، ونَقْضِ أبنيتها، ونَقْلِ حجرها، وإبرازِها للزَّائرين، وإظهارها للنَّاظرين، فبانت من الشَّيْن، وبانَتْ للعين، وحُبِيَتْ بالقُبَل، وفُدِيَتْ بالمُقَل، فعادت كما كانت في الزَّمن القديم، وشَهِدَتْ حين شُوهدت بِحَسَبِها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفَتْح إلا قطعة من تحتها، وقد أساء الكُفْر في نَحْتِها، وظهرت الآن أحسنَ ظُهور، وسَفَرَتْ أيمن سُفُور، وأشرقتِ القناديل من فَوْقها نوراً على نور، وعُمِلَتْ عليها حظيرةٌ من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كلِّ يوم في مزيد.

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصَّخْرة قِطَعاً، وحملوا منها إلى قُسْطنطينية، ونقلوا منها إلى صِقِلِّية، وقيل: باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكسباً. ولما طُهِّرَتْ ظَهَرَتْ مواضِعُها، وقُطِّعَتِ القلوبُ لما بانت مقاطعُها، فهي الآن مُبَرَّزَةٌ للعيون بحزِّها، باقية على الأيام بعِزِّها، مصونةٌ للإسلام في خِدْرها وحِرْزها.

وقال في «البرق»، ولما ظهرت الصَّخْرة وجدناها وقد أبقت لها النَّوائب حزوزاً، وأودعَتْ ضميرها من شرِّ أهل الكفر سراً مرموزاً، فإنَّ الفرنج نقلوا إلى بلادهم قِطَعاً، وأبدعوا فيها بِدَعاً، حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمرُ بها أن يكون حجرها مُنْتَهباً، فغطَّاها بعضُ ملوكهم إشفاقاً عليها، لئلا تمتدَّ يدُ ضَيْمٍ

إليها، فأبقت حزوزها في القلب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات، وتولاها بعد ذل الفقيه ضياء الدين عيسى، فصانها بشبابيك من حديد، وثبّت أركانها بكلِّ تسديد.

وقال في «الفتح»: ورتّب السُّلْطان في قُبّة الصَّخْرة إماماً حسناً، ووقف عليه داراً وأرضاً وبُسْتاناً، وحُمَلَ إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظّمات، لا تزال بين أيدي الزّائرين على كراسيِّها مرفوعة، وعلى أسرَّتها موضوعة، ورتّب لهذه القُبّة خاصّة وللبيت المقدّس عامةً قَوَمَةً من العارفين العاكفين، القائمين بالعبادة الواقفين، فما أبهج ليلها وقد حَضَرَتِ الجموع، وزَهَرَتِ الشموع[1]، وبان الخشوعُ، ودان الخضوع، ودرَّت من المتقين الدُّموع، واقْشَعَرَّت من العارفين الضُّلوع. فهناك كلُّ وليّ يعبد ربَّه ويؤمِّل بِرَّه، وكلُّ أشعثَ أغبر لا يؤْبه له، لو أقسم على الله لأَبَرَّه[2] وهناك كل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحقِّ ويسومه، وهناك كل من يَخْتِمُ القرآن وَيُرَتِّله، ويَطْرُدُ الشَّيْطان وَيُبْطِلُه، ومن عَرَفَتْهُ لمعرفته الأسحار، ومن أَلِفته لتهجُّدِهِ الأورادُ والأذكار، وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زُوَّارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوبُ إليها أسرارها.

قال: وتنافس ملوكُ بني أيوب فيما يؤثرونه فيها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم وُدَّ القلوب وشُكْرَ الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلَّى وبيَّن، وحَلَّى وزيَّن، وأتى العادل أبو بكر، بكل صُنْع بِكْر، وتقي الدين عمر، بكلِّ ما عَمَّ وغَمَر. ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوماً في قُبَّة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصَّدقة والرِّفْد مال، فانتهز فُرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك السَّاحات والعِرَاص، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهَّرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صَبّاً حتى تعطَّرت، وكذلك طَهَّرَ حيطانها، وغَسَلَ جُدْرانها، ثم أتى بمجامر الطِّيب فتبخَّرَتْ وتضوَّعت، ثم فَرَّق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نورٍ جلي، وكَرَمٍ ملي،

---

(١) زهرت الشموع: أي أضاءت.

(٢) هو من قول رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه»، أخرجه مسلم في البر حديث ١٣٨، والجنة حديث ٤٨، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٢٦٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١٥٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٩٢٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٥/ ٢٢٥.

وبسط بها الصَّنيعة، وفرش فيها البُسُطَ الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القُدْس وحَفرِ خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه.

وأما الملك العزيز عثمان، فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقُدْس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعُدَداً واقية، وكان من جملة ما شُرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعُدَّتَهُمْ، فتوفَّر بذلك عُدَد البلد، واستغنى به عما يصل من المَدَد.

قال: وأما محراب داود عليه السَّلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حِصْنٍ عند باب المدينة منيع، وموضعٍ عالٍ رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتَّب السلطانُ له إماماً ومؤذنينَ وقُوَّاماً، وهو مثابة الصَّالحين، ومزار الغادين والرَّائحين، فأحياه وجدَّده، ونهج لقاصديه جَدَده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصَوْن المشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيهما الأنام. وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون، وأجناده على بابها مخيِّمون. وفاوض السلطانَ جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشَّافعية، ورِباطاً للصُّلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حَنَّة عند باب أسباط، وعيَّن دار البطرك، وهو بقرب كنيسة قُمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطَّائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطَّوائف، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف.

فصل

[خروج الفرنج من بيت المقدس]

قال في «البرق»: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما ذخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الأثمان، وكان خروجها شبيهاً بالمجَّان، لا سيما ما تعذَّر لثقله نَقْلُه وصَعُبَ حَمْلُه، وكان كما قال الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨] فباعوا ما تهيأ على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغُلبوا على ما في الدُّور من الماعون والمذخور. وأما الصناديق والأخشاب والرُّخام وما يجري مجراها مما توفَّرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة.

وكانت قُمامة وهي كنيستهم العُظْمى، ومتعبَّدهم الذي يجتمعون به الدين والدُّنيا، مفروشة بالبسط الرفاع، مكسوةً بالسُّتور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السَّلام، مُحَلًّى بصفائح الفِضَّة والعَيْن، ومصوغات الذَّهب واللُّجَين، مصفح بالنُّضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسُّلْطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم، فما بال هذا المال وهو بألوفٍ يحملونه في أثقالهم! فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل، وينسبون إلينا لما حرَّمْناه التحليل، ويقولون: إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الأيمان. وكانت المهلة أنه من عَجَزَ بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة، ضُرِبَ عليه الرِّقُّ بحكم الشريطة ووفق الشَّريعة. فتولاهم النُّوَّاب بعد خروجنا من القُدْس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرَّقهم السلطان، وتناهت بهم البُلْدان، وحَصَلَ لي منهم سبايا نِسْوان وصِبْيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضَّمان، وأدَّى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفاً، واعتقد أنَّه لم يبق فقير، وبقي بعد أدائه على ما ذكرناه كثير.

وأما النَّصارى السَّاكنون بالقُدْس، فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يُزْعجوا، ويُؤْمَنوا ولا يخرجوا، فأُقِرُّوا بوساطة الفقيه[1]، وأُقِرَّ من قسوس النصارى أربعة قُوَّام لقُمامة، وأعفاهم ولم يُكلِّفهم الغَرَامة، وأقام بمدينة القُدْس وأعمالها منهم ألوف، فشمَّروا وعمروا وعرَّشوا وغَرَسوا، فلهم منها مجان وقطوف. وكانت لأمراء الفرنج ومقدَّميهم مجاورةً للصخرة، وعند باب الرَّحمة مقبرة وقباب مُعَمَّرة، فعفَّينا آثارها، وَرَحَضْنَا أَوْضَارها.

وقال في «الفتح»: وأمر السُّلْطانُ بإغلاق كنيسة قُمامة، وحَرَّم على النَّصارى زيارتها ولا إلمامة، وتفاوض النَّاس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نَهْج مزارها، وقالوا: إذا هُدِمت، ونُبِشت المَقْبَرَة وعُفِّيت، وحُرِثت أرضُها، ودُمِّر طولُها وعَرْضُها، انقطعت عنها أمداد الزُّوَّار، وانحسمت عن

---

(١) الفقيه: هو عيسى بن محمد الهكاري، ضياء الدين، توفي سنة ٥٨٥هـ، وهو من أعيان أمراء عسكر صلاح الدين، ومن قدماء الأسدية، وكان فقيهاً جندياً شجاعاً كريماً ذا عصبية ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له اقطاعاً، وتقدم عند صلاح الدين (الكامل في التاريخ ١٠/ ١٩٠).

قَصْدِها موادُّ أطماع أهل النَّار، ومهما استمرَّت العمارة، استمرَّت الزِّيارة. وقال أكثر الناس: لا فائدة في هَدْمها وهَدِّها، فإنَّ متعبَّدهم موضعُ الصَّليب والقبر لا ما يُشَاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قَصْدُ أجناس النصرانية ولو نُسِفَتْ أرضُها في السَّماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صَدْر الإِسلام أقرَّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البُنْيان.

قال: وأقام السُّلْطان على القُدْس حتى تسلَّم ما بقربها من حُصُون، واستباح كلَّ ما للكفر بها من مَصُون، ثم عَمَدَ إلى ما جمعه ففرَّقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عَذْلَه على بَذْلِهِ، واستكثروا ما فضَّه بفضله، فقال: كيف أمنع الحقَّ مستحقيه، وهذا الذي أُنفقه هو الذي أُبقيه، وإذا قَبِلَهُ المستحقُّ فالمِنَّة له عليَّ فيه، فإنه يخلِّصني من الأمانة، ويطلقني من وَثَاقها، فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها. وقيل له: لو ذَخَرْتَ هذا المال للمآل. فقال: أملي قوي من الله الكافل بنُجْح الآمال. وجَمَعَ الأسراء المُطْلَقين، وكانوا ألوفاً من المسلمين، فكساهم وأساهم[1] وواساهم، وأذهب أساهم[2]، فانطلق كلٌّ منهم إلى وَطَنه ووطره، ناجياً من ضَرِّه وضَرَرِهِ.

وقال في «البرق»: وسمعتُ الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السُّلْطان في أياديه، يقول: إني توليت استيفاء قطيعة القُدْس، فأنفذتُ له ليلةَ سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بُكْرَة وقال: نريد اليوم ما نخرجه في الإِنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس باقٍ. فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، فَفَرَّقَتْها على رجال الرجاء يَدُ النَّوال.

فصل

[قصائد قدسيات للحكيم الجلياني وغيره]

قال العماد: وللحكيم أبي الفَضْل[3] قصائِدُ قُدْسيَّات طوال، كثيرة الفوائد.

قلتُ: قد وقفت على بعضها.

---

(١) أسا بينهما أسْواً وأساً: أصلح، وأسا الجرح والشيء: أصلحه، وأسا المرض والمريض: داواه وعالجه. وأسا فلاناً: أزال أساه. والآسي: الجراح والطبيب.

(٢) أذهب أساهم: أي حزنهم.

(٣) الحكيم أبو الفضل: هو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الوادي آشي الغساني، حكيم الزمان، أبو الفضل الجلياني الأندلسي. تقدّمت ترجمته.

وقدَّمَ قبل ذلك أن قال: لم أزل من أوَّل ما ولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنَّه مُؤَيَّد بعنايةٍ من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمسٍ وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت، منها في التباشير: [البسيط]

لَتَظْفَرَنَّ بما لم يَحْوِهِ مَلِكٌ ... أبا المُظَفَّر حظاً خَطَّهُ الأَزَلُ
دليلُ ذلك آراءٌ لك اقْتَرَنَتْ ... بالحَزْمِ والعَزْمِ لم يُخْصَصْ بها الأُوَلُ

وفيها:

قد سادَ إسكندرٌ أهلَ الزَّمان معاً ... في سِنِّ عِشرين وامتدَّتْ له الحِيَلُ
وافى الثَّلاثينَ والأقطارُ أَجْمَعُها ... طَوْعاً له وملوكُ الأَرْضِ والمِلَلُ

قال: ومدحته سنة سبعٍ وستين عند قُفوله من غَزَاة غَزَّة بقصيدة، منها: [البسيط]

أبا المظفَّر فاهنأ حظ مُنْتَخَبٍ ... أُخْرى الزَّمان لدينٍ كاد يَنْبَتِرُ
زَهِدْتَ فيما سبى الأملاك منكدراً ... عِلْماً بِمِلْكٍ نعيم ما له كَدَرُ
وطِبْتَ نَفساً عن الدُّنيا وزُخْرُفِها ... وجئتَ تَقْدُمُ حيثُ الهَوْلُ والخَطَرُ

قال: ومدحته سنةَ ثمانٍ وستين بقصيدةٍ تنيف أيضاً على مائة بيت، منها في التَّباشير: [الطويل]

أرى الرَّاية الصَّفراء يرمي اصطفاقُها ... بني أصْفَرٍ بالرَّاعِفاتِ اللَّهاذِمِ
فتسبي فِلَسْطيناً وتجبي جزائراً ... وتَمْلِكُ من يونانَ أَرْضَ الأَسَاحِمِ
وتَعْنُو لها الأملاكُ شَرْقاً ومَغْرِباً ... بذا حكمت حُذَّاق أهلِ الملاحِمِ

قال: وبعثتُ إليه في غُزَّة سنة اثنتين وثمانين وهو على حِمْصَ بقصيدةٍ هنأته فيها بالعافية، منها: [الطويل]

فيا مَلِكاً لم يَبْقَ للدِّين غَيْرُهُ ... وَهَتْ عُمُدُ الإسلام فاشْدُدْ لها دَعْما
فَشُؤْمُ فريقِ الشِّرْك في الشَّام طائرٌ ... فَقُصَّ جَنَاحَيْهِ بأقصى القُوى قَصْما
خُصِصْتَ بتمكينٍ فَعُمَّ العِدَى ردًى ... فإنهُمُ يأجوج أفرغ بها رَدْما
إذا صَفِرَتْ من آل الأصفر ساحةُ الـ ... ـمقدَّس ضاهت فَتْحَ أُمِّ القُرَى قِدْما
فذا المسجد الأقصى وهِمَّتُك العُلَى ... وعَزْمَتُك القُصْوى وَرَمْيَتُك الأَصْمَى
فما هو إلا أن تَهُمَّ وقد أَتَتْ ... فتوحٌ كما فاضَ الخِضَمُّ الذي طَمَّا
وإنْ أنتَ لم تُرْدِ الفرنجَ بوقعةٍ ... فمن ذا الذي يقوى لِبُنْيانها هَدْما
وما كلُّ حينٍ تُمكِنُ المَرْءَ فُرْصَةٌ ... ولا كلُّ حالٍ أَمْكَنَتْ تقتضي غُنْما

وليس كفتح القُدْسِ مُنيَةُ قادرٍ وما آنَ يُلْقَاها سوى يوسفٍ حَزْما

قال: وأنشأتُ قصيدةً أُخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه، منها: [البسيط]

الله أكبر أَرْضُ القُدْسِ قد صَفِرَتْ من آل الأصفر إذ حينٌ به حانوا

أسباطُ يوسف من مِصْرٍ أَتَوْا ولهم من غيرِ تيهٍ بها سَلْوى وأمنانُ

لهم فِلَسْطِين إنْ يُخرج عُداتَهُم عنها وإلا عَدَتْ بيضٌ وخِرْصانُ

حتى بنيت رِتاجَ القُدْسِ مُنْفَرِجاً ويَصْعَدَ الصَّخْرَةَ الغَراء عثمان

واستقبل النَّاصرُ المِحْرَابَ يَعْبُدُ مَنْ قد تَمَّ من وَعْدِهِ فَتحٌ وإمكانُ

وجاز بعضُ بنيه البَحْرَ تُجْفِلُ مِنْ غاراتِهِ الرُّومُ والصِّقْلاب واللَّانُ

حتى يوحِّد أهلُ الشِّرْك قاطبةً ويَرهَبَ القَوْلَ بالثَّالوثِ رُهْبانُ

ولابنِ أيوبَ في الإفرنجِ مَلْحَمَةٌ دَلَّتْ عليها أساطيرٌ وحُسْبانُ

وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ كأنَّه مَلَكٌ في الخَلْقِ حَنَّانُ

ثم قال: وأما القصيدة الفتحية النَّاصرية، فأوَّلها: [البسيط]

في باطِنِ الغَيْب ما لا تُدْرِكِ الفِكَرُ فذو البَصِيرَةِ في الأحداثِ يَعْتَبِرُ

ما لي أرى مَلِكَ الإفرنجِ في قَفَصٍ أينَ القواضبُ والعَسَّالة السُّمُرُ

والاسبتار إلى الدَّاوية التأموا كأنَّهُم سُدُّ يأجوج إذا اشتجروا

والنَّفْسُ مولَعَةٌ عُجْباً بسيرتها وفي المقادير ما تُسْلَى به السِّيَرُ

يا وقعةَ التَّلِّ ما أَبْقَيْتِ من عَجَبٍ جحافل لم يفت مِنْ جَمْعِها بَشَرُ

ويا ضُحَى السَّبْتِ ما للقوم قد سَبَتُوا تهوَّدوا أَمْ بكأسِ الطَّعْن قد سُكِرُوا

ويا ضَرِيحَ شُعَيبٍ ما لهم جَثَمُوا كَمَدْيَنٍ أم لَقُوا رَجْفاً بما كَفَرُوا

حَطُّوا بحطِّينَ مُلَّاكاً فيا عَجَباً في ساعةٍ زَالَ ذاك المُلْكُ والقَدَرُ

أهوى إليهم صلاحُ الدين مُفْتَرِساً وهو الغَضَنْفَرُ أعدى ظُفْرَهُ الظَّفَرُ

أملى عليهم فصاروا وَسْطَ كِفَّتِهِ كَسِرْبِ طَيْرٍ حَوَاها القانصُ الذَّكَرُ

وأنجز الله للسُّلْطان مَوْعِدَه وَنَذْرَه في كَفُورٍ دِينُهُ البَطَرُ

وعاينَ الملك الإبرنس في دمه فمات حَيًّا وحَيًّا وهْو يَعْتَذِرُ

رأى مليكاً ملوكُ الأَرْضِ تَتْبَعُهُ والنَّجْمُ يَخْدُمُهُ والشَّمْسُ والقَمَرُ

إذا بدا تُبْهِرُ الأعيانَ هَيْبَتُهُ ويختفي وهو في الأَذْهان مُشْتَهَرُ

تقدَّم الجيلَ في أُخْرَى الزَّمانِ به على صدور عُلاً من قَبْلِنا صَدَرُوا

أمـا رأيـتـم فُـتُـوحَ الـقـادسـيـة فـي ... أكـنـاف لـوبـيـة تُـجْـلَـى وذا عُـمَـرُ
والـحقُّ يُـغْـرِسُ الـطُّـغْـيـان مُـنْـتَـحِـبٌ ... والـكُـفْـرُ يُـطْـمَـسُ والإيـمـان مَـزْدَهِـرُ
هـذا الـمـلـيكُ الـذي بُـشْرى الـنـبيِّ بـه ... فـي فِـتْـنَـةِ الـبَـغْـي لـلإسـلامِ يَـنْـتَـصِـرُ
أنسى مـلاحِـمَ ذي الـقَـرْنَـيْـنِ واعـتـرفَـتْ ... لـه الـرُّواةُ بـمـا لـم يـنـمـه أَثَـرُ
أُعِـيـنَ إسـكـنـدرٌ بـالـخـضـر وهـو لـه ... عَـوْنٌ من الله يـسـتـغـنـي بـه الـخَـضِـرُ
وَصُـنْـعُ ذي الـعَـرْشِ إبـداعٌ بـلا سـبـبٍ ... فـلا تَـقُـلْ كـيـف هـذا الـحـادثُ الـخَـطِـرُ
بـيـنـا سـبـايـاه تُـجْـلَـى فـي دمـشـق إذا ... مـلـكُ الـفـرنـج مـع الأتـراك مُـحْـتَـجَـرُ
إزاءه زُعـمـاء الـسَّـاحـلـيـن مـعـاً ... مُـصَـفَّـديـن بـحَـبْـلِ الـقَـهْـرِ قـد أُسِـرُوا
يـتـلـوهـم صـلـبـوتٌ سـيـق مـنـتـكـسـاً ... وحَـوْلَـه كـل قِـسِّـيـسٍ لـه زُبُـرُ
ونـحـن فـي ذا إذا طـيـرٌ صـحـيـفَـتُـهُ ... بـفـتـح عـكـا الـتـي سُـدَّت بـهـا الـثُّـغَـرُ
تَـغْـزُو أسـاطـيـلُـنـا مـنـهـا صِـقِـلِّـيـةً ... فَـيُـذْعَـرُ الـرُّومُ والـصَّـقْـلابُ والـخَـزَرُ
مـن ذا يـقـولُ لـعـل الـقُـدْسَ مـنـفـتـحٌ ... إلـيـك بـل سـفـر يـعـقـوبٍ لـه الـسَّـفَـرُ
أبـو الـمُـظَـفَّـر يـنـويـهـا فَـخُـذْ سُـفُـنـاً ... مـن بـاب عَـكَّـا إلـى طـرطـوس تَـنْـتَـشِـرُ
يـسـبـي فـرنـجـة مـن أقـطـارهـا ولـه ... مـع الـمـجـوس حـروبٌ قَـدْحُـهـا سُـعُـر
وبـعـض أبـنـائـه بـالـقُـدْس مُـنْـتَـدبٌ ... وبَـعْـضُـهُـمْ رومـةُ الـكـبـرى لـه وَطَـرُ
بـرايـةٍ تَـخْـرِقُ الأَرْض الـكـبـيـرةَ فـي ... جَـمْـعٍ تـقـول لـه الأجـسـامُ لا وَزَرُ
قـالـوا أطـلـتَ مـديـحـاً فـيـه قـلـتُ كـمـا ... بـدأتُ فـالـصَّـبُّ لـلـمـحـبـوبِ مُـدَّكِـرُ

وأما القصائد القدسيات التي له، فمنها الثّائية، وقد تقدَّم ذكرها، ومنها القدسية الكُبْرى، عددها مائة واثنان وخمسون بيتاً، أولها: [الطويل]

تـصـاريـفُ دَهْـرٍ أعـربـت لـمـن اهـتـدى ... وبـسـطـةُ أمـرٍ أغـربـت مـن تـمـرَّدا
لِـسُـرْعـة فَـتْـحِ الـقُـدْس سِـرٌّ مُـغَـيَّـبٌ ... وفـي صِـرْعـة الإفـرنـج مُـعْـتَـبَـرٌ بـدا
أَتَـوْا بـحـبـالٍ أُبـرمـت لإسـارنـا ... فَـسُـقْـنـاهُـمُ فـيـهـا قَـطِـيـنـاً مُـحَـدَّدا(١)
وسـامـوا تِـجَـاراً تـشـتـريـنـاً غـوالـيـاً ... فَـبِـعْـنَـاهُـمُ بـالـرُّخْـصِ جَـهْـراً عـلـى الـنِّـدا
وَجَـرُّوا جـيـوشـاً كـالـسُّـيـول عـلـى الـصُّـوَى ... فـآضَـتْ غُـثـاءً فـي الـبِـطَـاحِ مـمـددا
وقـالـوا مـلـوكُ الأَرْضِ طـوعُ قـيـادنـا ... إذا الـكُـلُّ مـنـهـم فـي الـقُـيـودِ مُـعَـبَّـدا
وقـد أَقْـطَـعَ الـكُـنْـدُ الـعـراقَ مُـوَقِّـعـاً ... فـأُودع سِـجْـنـاً وَسْـطِ جِـلِّـق مُـوصَـدا

(١) القطين: الخدم والأتباع والمماليك، والمحدد: المخزول المحروم.

وَأَقْسَمَ أن يَسْقي بِدِجْلَةَ خَيْلَهُ فما وَرَدَ الأُرْدُنَّ إلا مُصَفَّدا
فكم واثقٍ خجلانَ قهقه خَصْمُهُ وكم سابقٍ عجلانَ قُهْقِرَ مُقْعَدا
أتى الكُنْدُ من أسبان يحمي قُمامةً فكان تقضّى مُلْكه قَبْلُ يُبْتَدا
فما عقد الرَّاياتِ إلا مُحلَّلاً ولا حلَّل الرَّاياتِ إلا معقِّدا
ووقعةِ يوم التل إذ قُبضَتْ به جبابرة الإفرنج حَيْرَى وشُرَّدا
عليهم من البَلْوى سُرَادِقُ ذِلَّةٍ ومن ذَلَّ ماتَتْ نَفْسُهُ فتقيَّدا
ترى المِنْسَرَ الدَّيويّ يُلقي سلاحَهُ وينساقُ ما بينَ السَّبايا مُلَهَّدا
يُباعون أسراباً شرائحَ أَحْبُلٍ كشَكَّةِ عصفورٍ من الرِّيش جُرِّدا
فَتَلْقَى نصارى جِلِّقٍ في مآتم يُسِرُّونها إلا شجًى وتَنَهُّدا
ألم تَرَ للسُّلطانِ صُدِّق نَذْرُهُ دَم الغادرِ الإبرنسِ فاقتيدَ أَرْبَدَا
وباشَرَهُ بالقَتْلِ وَسْطَ خِبائِهِ وعايَنَهُ الكُنْدُ المليكُ فأُرْعِدا
وضاقَتْ بنَفْسِ القُومِصِ الأرضُ مَهْرَباً فأدركه الموتُ المفاجئ مُكْمَدا
وما طَرَقَ الأسماعَ من عَهْدِ آدَم كملحمةِ التَّلِّ التي تَلَّتِ العِدَى
أَتَوْا وادياً ما زالَ يَنْفي خبائثاً ويُصْفِي بعقبى الدَّارِ طائفةَ الهُدَى
به جَثَمَتْ أصحاب لَيْكَة وهي في ذُراه وذا فيه شُعَيْبٌ تأيَّدا
أرى اللَّهُ فيه معجزَ النَّصْرِ مُخْلَصاً لأمرِ صلاح الدِّينِ في النَّاسِ مُخْلَدا
وأعدى جنودَ الرُّعْبَ تَرْدَى عُداتُه وسَلَّمَ جَمْعَ المسلمين مُجَنَّدا
ومن عجبٍ خمسون ألفَ مُقاتلٍ سَبَتْهُمْ جيوشٌ ليس فيها من ارتدَّا

وللرَّشيد بن بَدْر النَّابُلُسي(١): [البسيط]:

هذا الذي كانت الآمالُ تَنْتَظِرُ فَلْيُوفِ لله أقوامٌ بما نَذَروا
بمثل هذا الفَتْح لا والله ما حُكِيَتْ في سالفِ الدَّهْرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
حَيْنٌ به حانَ هُلْكُ المشركين فيا لله طيبُ العشايا منه والبُكَرُ
الآن قَرَّت جُنُوبٌ في مضاجعها ونام مَنْ لم يَزَلْ حِلْفاً له السَّهَرُ
يا بَهجةَ القُدْس إن أضحى به عَلَمُ الـ ـلإسلام من بَعْدِ طَيٍّ وهو مُنْتَشِرُ
يا نورَ مَسْجِدِهِ الأقصى وقد رُفِعَتْ بعد الصَّليب به الآياتُ والسُّوَرُ

---

(١) الرشيد بن بدر النابلسي: هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، المعروف بمدلويه، كان شاعراً محسناً، توفي سنة ٦١٩هـ (وفيات الأعيان ٥/ ٢٦٦).

شتَّانَ ما بين ناقوسٍ يُدانُ به ... وبين ذي مَنْطِقٍ يُصْغِي له الحَجَرُ
اللَّهُ أكبر صوتٌ تَقْشَعِرُّ له ... شُمُّ الذُّرى وتكادُ الأرضُ تنفطِرُ
يا مالكَ الأرضِ مَهِّدْها فما أحدٌ ... سِواكَ من قائمٍ للمَهْدِ يُنْتَظَرُ
ما اخْضَرَّ هذا الطِّرازُ السَّاحليُّ تُرَى ... إلا لِتَعْلُو به أعلامُك الصُّفُرُ
أضحى بنو الأَصْفَرِ الأنكاس مَوْعِظَةً ... فيها لأعدائك الآياتُ والنُّذُرُ
صاروا حديثاً وكانوا قَبْلُ حادثةً ... على الوَرَى يتَّقيها البَدْو والحَضَرُ
سَلَبْتَهُمْ دولةَ الدُّنيا وعيشتَها ... حتى لقد ضَجِرَتْ من وَفْدِهم سَقَرُ
هذا الذي سَلَبَ الإفرنج دَوْلَتَهُمْ ... ومُلْكَهُمْ يا ملوكَ الأرض فاعْتَبِروا
مراكزُ ما اخْتَطَاها الخَوْفُ مُذْ مئةٍ ... عاماً ولا رِيعَ أَهْلُوها ولا ذُعِرُوا
ولم أُصَرِّحْ بأسماء البلادِ فقد ... اسْهَبْتُ والقائل المِنْطيقُ يَخْتَصِرُ
يُغْنِيك مُجْمَلُ قَوْلي عن مُفَصَّلِهِ ... في لفظة البَحْرِ معنًى تحته الدُّرَرُ

وهي طويلة، وله من قصيدةٍ أخرى: [الكامل]

ألمم بدار النَّاصر الملك الذي ... في كَفِّه للجود سَبْعَةُ أَبْحُرِ
فإذا مَرَرْتَ بِمُلْكِهِ وفتوحه ... فاسْخَرْ بما يُرْوى عن الإسكَنْدَرِ
وإذا بَصُرْتَ بِجَأْشِهِ وجيوشِهِ ... فاحْثُ التُّرابَ على ذُؤابة سَنْجَرِ[1]
كُسِرَتْ على كسرى لعدلك دولةٌ ... قَصَرَتْ مهابتُها تطاولَ قَيْصَرِ

وللشِّهاب فتيان الشَّاغوري[2] من قصيدة: [الكامل]

أَهْدَىٰ صلاحُ الدِّين للإسلام إذ ... أَرْدَىٰ قَبِيلَ الكُفْرِ ما لم يُكْفَرِ

---

(١) سنجر: هو سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، أبو الحارث، آخر السلاطين السلاجقة، توفي سنة ٥٥٢هـ (انظر: الكامل في التاريخ ٩/ ٤١٥ ـ ٤١٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

(٢) هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الشاغوري، الأسدي شهاب الدين الدمشقي الحنفي، ولد سنة ٥٣٠هـ، وعاش طفولته وشبابه في حي الشاغور جنوبي دمشق، فنسب إليه، تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق، وهو أخو عز الدين فرُّوخشاه ابن أبي السلطان صلاح الدين لأمه، وكان يعلم أولاده الخط، ثم كانت له في آخر حياته حلقة في الجامع الأموي بدمشق يقرئ فيها النحو، توفي سنة ٦١٥هـ، له ديوان شعره مشهور، وديوان آخر في الدوبيت (كشف الظنون ٥/ ٨١٦، «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٩، معجم البلدان ٣/ ٣١٠، وفيات الأعيان ٤/ ٢٤ ـ ٢٦، سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤، وفي النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٤ ذكر وفاته في سنة ٦٢٧هـ).

رَبُّ الـمـلاحـم لـم يُـؤرِّخ مِـثْـلَـهـا   الـعُـلَـمـاءُ قِـدْمـاً فـي قـديـم الأَعْـصُـرِ
خُـلِعَـتْ عـليـه خِـلْـعَـةُ الـمُـلْـك الـتي   زِيـدت بـهـاءً بـالـطِّـراز الأَخْـضَـرِ
رايـاتُـه صُـفْـراً يَـرِدْنَ وتـنـثـنـي   حُـمْـراً تَـمُـجُّ نـجـيـعَ آل الأَصْـفَـرِ
لِـمَ لَـمْ تَـدِنْ شـوسُ الـمـلـوكِ لـه وقـد   مـلـك الـسَّـواحـل فـي ثـلاثـة أَشْـهُـرِ
واسْـتَـنْـقَـذَ الـبـيـتَ الـمُـطَـهَّـر عَـنْـوَةً   مـن كـلِّ ذي نَـجِـسٍ بـكـلِّ مُـطَـهَّـرِ
وَأَرَيْـتَـهُـمْ لَـمَّـا الـتقـى الـجـمـعـان بـالـ   ـبـيـت الـمـقـدَّس هَـوْلَ يـوم الـمـحـشـرِ
وردَدْتَ ديـنَ الـلَّـهِ بـعـد قـطـوبـه   بـالـمـسـجـد الأقـصـى بـوجـهٍ مُـسْـفِـرِ
وَأَعَـدْتَ مـا أبـداه قـبـلـك فـاتـحـاً   عـمـرو فـأنـت شـريـكـه فـي الـمَـتْـجَـرِ
حـتـى جـمـعـت لـمـعـشـر الإسـلام بـيـ   ـن الـصـخـرة الـعُـظْـمَـىٰ وبـيـن الـمِـشْـعَـرِ
فَـلِـصَـخْـرَةِ الـبـيـتِ الـمُـقَـدَّس كُـفْـؤهـا   الـحَـجَـرُ الـمُـفَـضَّـلُ عـنـد أَفْـضَـلِ مَـعْـشَـرِ
فـكـأنَّـه إنـسـانُ عـيـنٍ صـورة   يـلـقـاك أسـوَدُهُ بـمـعـنـى أنـور

فصل

في حصار صور[1]، وفتح هُونين[2] وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السُّلْطان ما زال مقيماً بظاهر القُدْس، يحقِّق الآمال ويفرِّق الأموال، حتى وَرَدَتْ كُتُبُ سيف الدين علي بن أحمد المَشْطُوب، وكان نائب السُّلْطان لصيدا وبيروت، وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرِّض السُّلْطان على حصار صور، فرحل السُّلْطانُ عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صَوْبَ عكَّا، وسبقه إليها الأفضل وتقي الدِّين، وودَّع السُّلْطان ولده العزيز وردَّه إلى مِصْر، فكان آخر عهده به. واستصحب السُّلْطانُ أخاه العادل، فوصلا إلى عكَّا مستهل رمضان، فأصلح من شأنها ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان، وخَيَّم بإزاء السُّور بعيداً منه على النَّهر، ومعظم البلد في البحر، وهي مدينةٌ حصينة متوسِّطة في البحر كأنَّها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حَفَر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره، وأحكم في التَّغمير تدبيره، واستظهر بتكثير العَدَد والعُدَد، واغتنم اشتغال السُّلْطان بفتح القدس، فأقام

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٥٩ ـ ١٦١: ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها، وذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر.
(٢) انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ١٦١ ـ ١٦٢: ذكر فتح هونين.

السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً، حتى تلاحقت الأمداد، وكَثُرَت العُدَد وآلات الجهاد، ورتِّبت المنجنيقات، ثم حَوَّل السُّلْطان مضارِبَهُ إلى تلٍّ قريب من السُّور يشرف منه، ثم حاصرهم، وقَبَّل كُلاً من الملوك بجانبٍ يكفيه، منهم الأفضل والعادل وتقي الدين، فحاصروهم وضايقوهم. ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظَّاهر غازي ولد السُّلْطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السُّلْطانُ به، واستدعى الأسطول المِصْري، وكان بعكًا، فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكبُ وحراريق، وفيها رُماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء أسطول السُّلْطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون، وقاتلوهم بَرّاً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر، وأهنأ وِرْدٍ وصَدَر، إذ ملك الفرنج خمسةً من شواني المسلمين، وأسروا مقدَّميها ورئيسها عبد السَّلام المَغْرِبي، ومتوليه بدران الفارس، وألقى جماعةٌ أنفسهم في البحر، فمن ناجٍ وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بإزاء ميناء صور إلى السَّحَر، ثم غلبهم النَّوْم، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد وجموا، وأتاهم من الأمر ما لم يعلموا، ونفَّذ السُّلْطانُ إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لِقلَّتها أن يستوليَ عليها عَبَدةُ الطَّاغوت، فنجا منها شيني رئيس جُبَيل، والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء، وخرجوا إلى البر على وجوههم.

ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت، فخرجت يوماً وقت العصر مستعدَّة للقتال، فالتقاهم المسلمون، فكانت الدَّائرة على الكافرين، وأُسر مقدَّم كبير لهم، وظُنَّ أنه المركيس، فسلَّمه السُّلْطان إلى ولده الظَّاهر ليحفظه، فضرب عُنُقَه، وكان الليل قد دخل، فلما أصبحوا تبيَّن لهم أن المركيس بَعْدُ في الحياة، فطال حصاره حتى ضَجِرَ كثير من أُمراء المسلمين، لأنهم رَأَوْا ما لم يألفوه من تَعَسُّر الفتح عليهم، فأشاروا على السلطان بالرَّحيل لئلا تفنى الرجال، وتَقِلَّ الأموال، وكان البردُ قد اشتدَّ عليهم، وكان رأي السلطان والأتقياء من الأُمراء كالفقيه عيسى، وحُسام الدين طُمان، وعِز الدين جُرْديك النُّوري الثبات إلى الفَتْح لئلا يضيع ما تقدَّم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان: قد هدمنا السُّور، وقاربنا الأمور، فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا ولا تعجلوا. فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها، فلم يصدقوا القتال، وتعلَّلوا بأنَّ الرِّجال جرحى، والعلوفات قد قلَّت، فلم يَسَعِ لهم، السُّلْطانِ بعد ذلك إلا الرَّحيلُ، فأمر بنقل الأثقال، فَحُمِلَ بعضها إلى صيدا وبيروت، وأحرق الباقي لئلا ينالَهُ العدوُّ، ورحل في آخر شوَّال، وهو أول يوم من

كانون الأول، وسار تقيُّ الدين إلى دمشق على طريق هُونين، واستصحب معه عساكر الشَّرْق وديار بكر والمَوْصِل والجزيرة وسِنْجار ومارِدِين، ورحل السُّلْطان إلى عَكَّا، فوصلها في ثلاثِ مراحل، لأنه سلك طريق النَّاقورة، وهي طريق ضيقة مُطِلَّة على البحر، بها يُضْرَبُ المثلُ، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الأثقال والأحمال في أُسبوع. وكان عَيَّن يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثَّقَل. وخَيَّم السُّلْطان عند التَّلِّ، وسار العادل إلى مصر، والظَّاهر إلى حلب، وبدر الدين دُلْدُرُم اليارُوقي إلى بلاده.

قال: وفي مُدَّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استُشْهد في عَفْرَبَلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدوِّ من جُمْلة أعمال طبرية والغَوْر حِصْنا صَفَدَ وكوكب، وكان في صفد حمرة الدَّاوِيَّة، وفي كوكب جمرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فَتْحِهما إلى المُطَاولة، فوكَّل بصفد جماعة يُعْرفون بالنَّاصرية مقدَّمهم مسعود الصَّلْتي، ووكَّل بكوكب هذا الأمير سيف الدين محموداً، فأقام في حِصْن عَفْرَبَلا، وهو قريبٌ من حصن كوكب، ونغَّص على المقيمين فيه المطعم والمَشْرَب، وضيَّق عليهم المَذْهَب، إلى أن دخل الشِّتاءُ، فاختلَّت الحراسة، واعتلَّت السِّياسة، فلما كانت ليلة آخر شوَّال، وكانت ليلة باردة ماطرة، حرس أصحابُ سيف الدين حتى ضَجِروا، فغلبهم النُّعاس، فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استُشْهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب. وكان هذا الأمير محمود ذا دينٍ متين، ومكان من النُسُك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجِّداً، وقد جعل منزله مَسْجِداً، فجمع بين التهجُّد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتمَّ السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى ما به، وتقدَّم إلى صارم الدين قايماز النَّجْمي أن يُرابط كوكب في خمسمائة فارس، ففعل، ولم يَزَل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هُونين والسُّلْطان محاصر صور، وكان لما فتح تِبْنين، قد امتنعت عليه هُونين، فوكَّل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السُّلْطان وهو على صور، فنفَّذ الأمير بدر الدين دُلْدُرُم ففتحها، وخرج الفرنجُ منها سالمين آمنين. وكان قد بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن، وشقيف أرنون، وأقام السُّلْطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رَعِيَّته، ثم دخلها وسكن بالقَلْعة، وسكن الأفضل بُرْجَ الدَّاوية، وولى عكا عز الدين جُرْدِيك، ووقف دار الاسبتار نصفين: نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصُّوفية، ووقف دار الأسقف بيمارستاناً،

ووقف على كُلٍّ من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلَّم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النَّجيب[١]، وهو في ذلك مصيب.

فَصْلٌ

في ورود رُسل التَّهاني من الآفاق، وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رُسُل الآفاق من الرُّوم وخُرَاسان والعراق، وكلهم يهنِّي السُّلْطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدَرَهُ عليه من نُجْح الوسيلة، وهو فَتْحُ القُدْس الذي دَرَج على حسرته القرون الأُولى، وتقاصَرَتْ عنه أيديهم المتطاولة، وتمكَّنت منه يَدُه الطُّولى، فما منهم إلا من يعترفُ بيُمْنه، ويغترف من يَمِّه، ويُقِرُّ بحكم التَّنزيل له وينزل على حُكمه، ويخطب صداقته، ويتقرَّب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشَّقاء والشِّقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الرَّي، ورسوله المستولي على ممالك هَمَذان وأَذَرْبيجان وأرَّان، فما من يومٍ يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويَتَّصل به سول.

وذكر العماد في «البرق» أنه وصل إلى السُّلْطان وهو بعكًا رسول أتابَك مظفر الدين قزل أرسلان، وهو عثمان بن أتابك إيلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان.

ثم ذكر من خِرْقه[٢] في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كلُّه لا يكون في بحر سُلْطاننا جدولاً، كان السلطان مُذْهَبَ المَذْهَب، ظاهر المَحْفِل والمَوْكِب، قد خَصَّه الله بالصَّدر الأَرْحَب، والنَّصْر الأغلب، عَزْمُهُ إلى الجهاد مصروف، وخُلُقه بالمعروف معروف، وهمُّه بالسَّماح مشغوف، ما يفتحه بالسَّيْف في البلاد، يهبه لمن يَضْرِبُ معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دُنْياه، فلا جَرَم خَتَم الله بالحُسْنَىٰ عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السَّالفة أمضى منه عَزْماً، وأجدى فَضْلاً، وأعمَّ جدوى، وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جَلَداً على الجِلاد، فإنه باشر بنفسه

---

(١) هو عبد اللطيف بن أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه السهروردي، جمال الدين، المتوفى سنة ٦١٠هـ. تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

(٢) من خرقه: أي من سخائه. والخرق: الكريم المتخرق في الكرم.

الحَرْب، ومارس الصَّعْب، وقذف بالحقِّ حين حَقَّقه على الباطل فأزهَقَهُ، ولا حَدَّ ولا عدَّ لما في سبيل الله من نفائس النُّفوس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يَجِفَّ لِورْدِهِ لِبْدٌ[١]، ولم ينضب من وِرْدِهِ عِدٌّ[٢]، ولم يقرَّ له جَنْب، بل لقي في فَصْلَي القَيْظ والقَرِّ، مَضَّ الحَرِّ وعَضَّ البَرد، بحُرِّ وجهه[٣] الكريم، وقضى حَقَّ الدِّين موفياً بصدق غَرامه حقَّ الغريم، وكل ما تمَّ من النَّصْر يوم حِطِّين، وفتح القدس وتسلُّم بلاد السَّاحل إنما تسنَّى بِشَهْرِ سَيْفِهِ في فصل الصَّيْف وشهوره، واستظهاره بظهور الإسلام وشَدِّ ظُهُوره.

وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وَصْفِ أسيافه: [الخفيف]

ماضياتٌ على الدَّوام دوامي ... هي في النَّصْرِ نَجْدَةُ الإسلامِ
في يمين السُّلْطان إن جَرَّدَتْها ... أشبهتها صواعقٌ في غَمَامِ
تَنْثُرُ الهامَ كالحروفِ فما أَشْـ ... ـبَهَ هذي السُّيوف بالأقلامِ
في محاريب حَرْبه البِيضُ صَلَّت ... وركوع الظُّبى سجودُ الهامِ

وذكر من كلامه في التوسُّطِ بين الأصدقاء: ما أدخل بينكم إلا كدخول المرود في الأجفان يَرُدُّ إليها ما ذهب منها من النُّور والغَمْض، أو كالنسيم بين الأغصان يَعْطِفُ بعضَها على بعض.

قال العماد: ووصل أخي تاجُ الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالةٍ في العَتْبِ على أحداثٍ ثَقُلَتْ، وأحاديث نُقِلَتْ ووشاياتٍ أثَّرت، وسِعَايات في السُّلْطان شَعَّثَتْ، وذلك في شَوَّال، ونحن على حصار صور، وسببُ ذلك أنه لما تَمَّ الفتح الأكبر، وخَصَّ وعَمَّ النُّجح الأظهر، وقُطِعَ دابرُ المُشْركين، وَحَطَّ إقبالُ المسلمين أوزارَ أدبار الكفر بحطِّين، أمرني السُّلْطان بإنشاءِ كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البُشْرى به إلى العراق: فقلت هذا فتحٌ كريم، ومنحٌ من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون مبشِّر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرَّحْمة والرَّأفة إلا من هو عندنا أجل وأجلى. وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأَدَاء الرَّسائل، فلا يُرفع العظيم إلا بالعظيم الرَّفيع، فإنَّ الشَّريف يتَّضع شرفه بمقارنة الوضيع. فقال: هذه نُصْرَةٌ مبتكرة، وموهبةٌ مبشِّرة، بدرت وندرت، فنحن نعجِّل بها بشيراً، ونؤخر للإجلال كما ذكرت سفيراً.

---

(١) لم يجف لورده لبْدٌ: أي كثير التردد، يقال: فلان لا يجف لبده، إذا لم يزل يتردد.

(٢) العدّ: الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها، مثل ماء العين.

(٣) حرّ الوجه: ما بدا منه.

وكان في الخِدْمة شابٌ بغدادي من الأجناد، قد هاجر للاسترفاد، وتوجَّه بعد وصوله، ونَبُه بعد خُموله، فسأل في البشرة إلى بغداد، وزعم أنه يداوم إليها الإغذاذ، وشَفَعَ له جماعةٌ من الأكابر، حتى حظي بأشرف البشائر. فقلتُ: هذا لا يحصَلُ له وَقْع، ولا يصل إليه نَفْع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطيرِ خطير، وفي هذه النُّصْرة الكبرى كبير.

ثم سار المندوب، وشَغَلَتْ عن إرسال سواه الفتوحُ والحروب، ولما فتح البيت المقدَّس أُرسل ببشارته نَجَّاب، ونُفِّذ بها كتاب، ووصل البشير الجُنْدي فَحَقَروه وما وَقَرُوه، فإنَّه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين، وحبوه بما يليق من الرقة والعين، ونُقِمَ على السُّلْطان إرسالُ مثله، وتسمَّح المندوب بكلامٍ أُخذ عليه وبَدَرَتْ منه أحاديثُ نُسبت إليه. وقال في سُكْره، وحالة نكره، ما نُعْرِض عن ذكره، فخيَّل ومَوَّه، وتنكَّر وتكرَّه، وظَنَّ أن لكلامه أصلاً، ولقَطْعِهِ منا وَصْلاً، وأُنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعُلِمت جهالاته، وَتُجُنِّيَ على السلطان بإرساله، وطُرِّق إلى هُداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الأعداءُ حينئذٍ إلى السِّعاية طريقاً، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولفَّقوا أباطيل، وقالوا: هذا يزعم أنه يقلب الدَّوْلة، ويغلب الصَّوْلة، وأنه يُنْعَتُ بالملك النَّاصر نَعْتَ الإمام النَّاصر، ويُدِلُّ بما لَهُ من القوَّة والعساكر.

فأشفق الديوان العزيز على السُّلْطان من هذه، وبرز الأمر المطاع بإرسال أخي وإنفاذه، وقالوا: هذا تاجُ الدين أخو العماد، يكْفُلُ لنا في كَشْفِ سرِّ الأمر بالمُراد، فإن أخاه هناك مُطَّلع على الأسرار، وهو منتظم في سِلْك الأولياء الأبرار. وعوَّل عليه الديوان في السِّفَارة، ورُدَّ معه جواب البشارة، وكُتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العَتْب، ومكدِّرات موارد القُرْب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدَّتها للعواطف الإمامية لينة.

فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوبُ نادباً عادياً، جاحداً للنِّعْمة شاكياً، وقال: أخو العماد قد وصل بكلِّ عَتْبٍ وغَضَبٍ ولَفْظٍ فَظٍّ، ومعه الملامات المؤلمات. فقلت له: اسكت واصمت. وقلتُ للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الدِّيوان، فإن إظهار سِرِّ العَتْبِ لك من غاية الإحسان. فقال: نِعْمَ ما قلتَ.

ولما قَرُبَ أخي أصبحتُ لقدومه أنتخي، فأمر السلطان الأُمراء على مراتبهم باستقباله، وتقدَّم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقَّاه الملوك الحاضرون: العادل والمظفَّر والأفضل والظَّاهر. ثم ركب وتلقَّاه بنفسه، وخصَّه من تقريبه بأُنسِهِ، ولم

يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارعَ الكُفَّار، ثم نزل وأنزله بالقُرْب، ثم حضر عنده، وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدّى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التَّذْكِرَة، وقد جَمَعَتِ المَعْرِفَة والنَّكِرَة، فقرأْتُها عليه، وكانت في الكُتُب غِلْظة، عُدَّت من الكاتب غَلْطة، وخِيلَتْ سَقْطه، وجَلَبَتْ سُخْطَه، وقال: إنَّ الإمام أَجَلُّ أن يأمر بهذه الألفاظ الفِظاظ، والأسجاع الغِلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرقَّ منها لَفْظاً وأرفق، وأوفى منها فَضْلاً وأوفق، ومعاذَ الله أن يُحْبَطَ عملي، أو يُهْبَطَ أملي.

وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عَرَض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارِقَ الاستسعاف. وقال: أما ما تمحَّله الأعداء، وعدا به المتمحِّلُون، فما عُرِفَ مني إلا الاعتراف بالعارفة. وذَكَرَ السُّلْطَانُ أياديه السَّالفة في الفتوحات، وإقامة الدَّعْوة العَبَّاسية بمصر واليمن، وإزالة الأدعياء، وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدَّس.

قال: وأما النَّعْتُ الذي أُنكِر، وَنُبِّه على موضع الخطأ فيه وذُكِر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل ما يشرِّفني به أمير المؤمنين من السِّمَة، فإنَّه اسْمي الذي هو أسمىٰ وأَشْرَف، وأرفعُ وأعرف، وما عزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقَطْع دابر المنافقين والمشركين.

ثم ندب مع أخي مَنْ سار في خدمته لزيارة القدس، ثم وَدَّعه وأَوْدَعه من شفاهه كل ما في النَّفْس، وظهرت بعد ذلك بالقَبُول آثارُ الرِّضى، ومضى ما مضى، وكان جماعةٌ من الملوك والأمراء كالعادل ومُظَفَّر الدين قد نخُوه لما قيل في حَقِّه، وأرادوا أن يُغْضِبُوه فما غضب، بل غاض غيظه ونَضَب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولَفْظٍ مُصيب.

قلت: ووقفتُ على كتابِ كتبه الصَّاحب قِوَام الدين بن زيادة من الدِّيوان العزيز ببغداد إلى السُّلْطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذٍ أستاذ الدَّار العزيزة يقول فيه: لولا مكان صلاح الدين من الخِدْمة، والشُّحُ به، والمنافسةُ فيه لما جُوهر بالعتاب، ولا رُفع دونه هذا الحجاب، بل كان يُتْرَك معه الأمرُ على اختلاله، ويُدْمَلُ الجُرْحُ على اعتلاله، وقد ذكرتُ الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه، واستغرب وقوعها من كماله لِيُزْعِيهَا سَمْعَه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها والإجابة عنها، غير عائج على الجدل، ولا مُؤْتَمٌ بالمِرَاء المذمومَيْن عَقْلاً وشرعاً، بل يحملُ قولي هذا قولي هذا على سبيل

المماحضة والانتصاح، وصِدْق النِّيَّة في رأب الثَّأَىٰ[١] والإصلاح، فإنَّ إيجارَ الدَّواء المُقِرِّ لا يُتَّهم فيه الطبيبُ المجتلب للعافية.

ثم ذكر من تلك الأمور: أن من انتفى من العراق بسببٍ من الأسباب لجأ إلى صلاح الدين، فوجد عنده الإقبال عليه، وكان الأدبُ يوجب إبعاد من أبعده عنه، وتقريب من قَرَّبه إليه.

ثم قال: وإنَّ مما أضحك ثَغْرَ الاستعبار، ما انتهى عن العوام وأشباه الأنعام وطَغَام الشَّام من الخَوْض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاق كلِّ قَوْلٍ كاذب، ومنها ما جرى من سَيْفِ الإسلام بالحجاز من إزعاج الحُجَّاج، وإرهاج تلك الفِجاج، والإقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السِّيرة القاسطة، وإحياء بدع القَرَامطة، ما نفر منه كلُّ طَبْع، ومَجَّه كل سَمْع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عِنان أخيه فيما يقرِّض سوابقه وأواخيه، ومنها ما قضى الناس منه العَجَب، وفُورِق فيه الحَزْمُ والأدب، وهو ما أوجب التَّلَقُّب باللَّقب الذي استأثر به أميرُ المؤمنين.

ثم قال: وقد ساوق زمان الدَّوْلة العَبَّاسية ـ ثَبَّتَها الله ـ خوارج دَوَّخوا البلاد وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الدِّيار، وأخافوا المسالك، واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشِّقاق أشقَّ المهالك، فما انتهى أحدُهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللَّقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام: الذي يصلح للمولى على العبد حَرَام. ومنها مكاتبة كلِّ طرف يتاخم أعمال الدِّيوان من مواطن التركمان والأكراد، ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع أسماعهم، بما يعود باستزلال أقدامهم، وفَلِّ عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعيَّةٌ للعراق، وَخَولٌ للديوان، يرثون الطَّاعة خالفاً عن سالف.

ثم قال في آخر الكتاب: وهذا كلُّه لا أقوله إنكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المُؤْمنين، فإنه ـ أدام الله علوَّه ـ رجلُ وَقْته، ونسيج وَحْدِه، والمُرْبي على من سَلَفَ من صنائع الدَّوْلة على من يأتي بعده، وهو الوليُّ المخلص الذي عهد فوفى، واسْتُكْفي فكفىٰ، وطب فشفى، فكيف يجوزُ له بسعادته أن يهجِّن مساعيه الغُرّ المُحَجَّلة، ويخرج من مكانته المكرَّمة، المُبَجَّلة، وتبطل حقوقه الثابتة المُسَجَّلة.

ثم قال: فقد علم كلُّ من نَظَر في التَّواريخ والآثار، ونَصَحَتْه بصيرتُه في

---

(١) رأى الثأى: أي أصلح الفساد. والثأى: الإفساد.

التَّبصُّر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم ما زال يَرْفَعُ الأقدارَ الخاملة، فينزون عليه بَطَراً، فيغَارُ الله له منتصِراً، ويعقبه عليهم إظفاراً وظفراً، كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سَلْجوق، ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصدوه فَنَبَتْ، وأي نارٍ أوقدوها فما خَبَتْ.

ثم قال في آخره: اللهم، هل بَلَّغْتُ؟ وللرأي الصَّلاحي علوه، إن شاء الله تعالى.

وذكر ابنُ القادسي[1]: أن الجُنْدي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يُعرف بالرَّشيد ابن البُوشَنْجي. قال: وكان صبيّاً، كثير الإدبار، مشمِّراً في دروب بغداد، ثم توجَّه إلى الشَّام هارباً من الفَقْر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكُتِبَ إلى صلاح الدين بالإنكار عليه، وقيل له: ما كان في أصحابك أَمْيَزَ من هذا تُرْسِله إلى الدِّيوان! فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقُبِلَ عُذْرُه. وأما ابن البُوْشَنْجي، فإنه حين وصوله إلى الشَّام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر ذلك عليه، فلما مضى الأسبوع جاءته نُشَّابة ذَبَحَتْهُ.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاثٍ وثمانين

[مقتل ابن المقدم]

ففيها قُتِلَ الأمير شمس الدين بن المقدَّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها.

قال العماد: وكان السُّلْطان لما فَرَغَ من فتح القُدْس ودنا موسمُ الحَجِّ، قال الموفقون: نُحْرِمُ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فَتْحِ البيت المقدَّس في هذا العام، فالحجُّ والجهاد رُكْنا الإسلام. فاجتمع جمعٌ جمٌّ من أهل ديار بكر والجزيرة والشَّام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدَّم، شيخ أمراء الإسلام الكرام، فودَّعه السلطانُ على كُرْهٍ من مفارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته. فقال ما معناه: إن العمر قد فرغ، والأمد قد بلغ، والشَّيبُ قد أنذر، والفرضُ قد أعذَر، فأغتنمُ فرصة الإمكان قبل أن يتعذَّر. فمضى والسَّعادة تقوده، والشَّهادةُ تروده، حتى وصل إلى عَرَفات، وما

(١) ابن القادسي: تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.

عرف الآفات، وشاع وصوله، وراع قَبُوله، وضُرِبَتْ طُبوله، وسالت سيولُه، وجالت خيوله، وضُرِبت خيامه، وخَفَقَتْ أعلامُه، فلما أصبحوا نقَّرت على العادة نقَّاراتُه، ونَعَرَتْ بوقاتُهُ، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه، فأوقع به وبأصحابه، وأبلاهم بجراحه ونهابه، وجرى حُكْمُ الله الذي كان ضَرْبُ الطَّبْلِ أوكدَ أسبابه، وقُتِلَ جماعةٌ من حاجِّ الشَّام، وجُرِحوا، وهُتِكَتْ أستارُهُم وافْتُضِحوا. ونقل أميرُ الحاج طاشْتِكين[1] شمسَ الدِّين بنَ المُقَدَّم إلى خيمته وهو مجروح، وفيه رُوح، وحمله معه إلى مِنَى، فقضى ودُفِنَ بالمَعْلَىٰ، وتَمَّ ذلك بقضاء الله وقَدَره، في تقلُّب حوادث الدَّهر وغِيَرِهِ، وارتاع أميرُ الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقِبِ الله وأَحَلَّ حَرَمَهُ، وكيف عدا على الحاجِّ العائذ بالله وسَفَكَ دمه، فكتب محاضراً على ما اقترحَهُ؛ بعُذْره فيما اجترحه، وألزم أعيان الحاجِّ من سائر البلاد، بوضع خُطُوطهم على ما عيَّنه من المُرَاد، فكتبوا مُكرهين غيرَ مُشتهين. وكان عذره أنه أنكر عليه ضَرْبَ الطَّبْلِ فأبى. فلما انتهت تلك الحالة إلى الخليفة أنكرها إنكاراً شديداً، ونسبها إلى طَيْشِ طاشْتِكِين، ولم يجد له رأياً سديداً، فلا جَرَم، اتضع عنده قَدْرُه، واتضح له وِزْرُه، ووهى أمره، وذخرها له حتى نَكَبَهُ بها بعد سنين وَحَبَسَه وأطال سِجْنَه، ثم عفا عنه بعد مُدَّة مديدة، وشِدَّة شديدة، وولاه حَرْبَ بلاد خوزستان وخَرَاجها، وولَّىٰ إمارة الحاجِّ غيره. ولما وصل إلى السلطان خَبَرُ استشهادِ ابن المقدَّم وجماعته، لامه على تَرْك الحزم وإضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجَنَّة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عِزَّ الدين إبراهيم في بلاده مقامه، وأَقَرَّ عليه إنعامه.

وقال محمد بن القادسي في «تاريخه»، ونقلته من خَطِّه: أراد أميرُ الحاج بالشَّام، وهو ابنُ المُقَدَّم، أن يرفع علماً على الجَبَل بالموقف، فمنعه أمير الحاج طاشْتِكِين، وجَرَتْ بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة بين حاجِّ العراق وحاجِّ الشَّام، ونهب البعض للبعض، وجَرَتْ جراحات، فَجُرِحَ ابنُ المقدَّم، ولم تُغَيَّر العادةُ في ذلك، ومات ابنُ المقدَّم بمِنىٰ في اليوم الثَّاني، ووصلت النَّجابة من مكة، فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدَّم، وقد شهد الشهود بذلك من الحُجَّاج، فقرىء ذلك بجامع القَصْر الشريف.

---

(١) هو طاشتكين بن عبد الله المقتفوي، أمير الحاج، ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستاً وعشرين سنة، توفي سنة ٦٠٢هـ (انظر «الكامل في التاريخ» ١٠/ ٣٢١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٦٠٢هـ).

[وفاة سبط ابن التعاويذي]

قال: وفي ثاني شوَّال من هذه السنة توفي أبو الفَتْح محمد بن عُبيد الله بن عبد الله، سِبْط ابن التَّعاويذي(١) الشَّاعر، وكان كاتباً بديوان المُقَاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء، وأَضَرَّ في آخر عمره، ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة.

[وفاة ابن المني]

قال: وفي خامس رمضان توفي الفقيه الحَنْبَلي أبو الفَتْح نَصْر بن فِتْيان بن مَطَر، المعروف بابنِ المَنِّي(٢)، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة إحدى وخمسمائةٍ، وتفقَّه عليه جماعةٌ من أئمة الحنابلة كالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور، وأخيه إبراهيم، والشيخ الموفَّق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدَامة، ومحمد بن خَلَف بن راجح، والنَّاصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهَّاب، وعبد الرَّزَّاق ابن الشيخ عبد القادر الجِيلي، وغيرهم.

[نجز الجزء الثالث من كتاب الروضتين
ويليه الجزء الرابع
ويبدأ بحوادث سنة ٥٨٤هـ]

(١) في كشف الظنون ٦/ ١٠١: محمد بن عبد الله أبو الفتح الكاتب البغدادي المعروف بسبط ابن التعاويذي الشاعر المتوفى سنة ٥٨٤هـ، له: «الحجبة والحجاب»، «ديوان شعره». وقد ذكر سنة وفاته ٥٨٤هـ: معجم الأدباء ١٨/ ٢٣٥ ـ ٢٤٩، التكملة للمنذري ١/ ١٠٣ ـ ١٠٤، وفيات الأعيان ٤/ ٤٦٦ ـ ٤٧٣، سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، العبر للذهبي ٤/ ٢٥٣، الوافي بالوفيات ٤/ ١١ ـ ١٦، نكت الهميان ص٢٥٩ ـ ٢٦٣، شذرات الذهب ٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.
أما من ذكر سنة وفاته ٥٨٣هـ بالإضافة إلى أبي شامة ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٩، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٢) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٣٧ ـ ١٣٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩١ النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

فهرس المحتويات